

الإمام محمد أبو زهرة

خاتمة النبيين  
صلى الله عليه وسلم

المجلد الأول

ملزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربي



الإمام محمد أبو زهرة

خاتمة النبيين  
صلى الله عليه وسلم

المجلد الأول

ملزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربي





## الجزء الأول

نشأته - شبابه - بعثته  
مصابرته المشركين - اتصاله بالقبائل  
هجرته « صلى الله عليه وسلم »



# بسم الله الرحمن الرحيم

## محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، إذ أكمل الدين ، وأتم الرسالة الالهية ، بارسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فأكمل الهداية ، وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة ، وبين الجادة ، ورفع راية الاسلام القوى العزيز ، المكين ، وحمل الحواريون من أصحابه ما حملهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التي حملوها ، فكانوا منارا مقتبسا من نوره ، فرضى عنهم ، ورحم الانسانية بما اقتبسوا من معاني الرسالة المحمدية •

### يا رسول الله :

ان الله خلقك بشرا سويا ، ولكنك فوق سائر البشر ، وأثارك التي حملتها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالنا • فمن خواطرننا ومننازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا • ونحكم على أحوالهم ، وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ، وفي مطالع أفاقنا ، فعندئذ نحاول وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله في علو لا نصل اليه ، وفي سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونتخيله ، فأئني لأمثالنا أن يكتب في شأنك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال ، ويعلو على مدارك الخيال •

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تسامينا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها •

### يا رسول الله :

قد كتبنا في أئمة أعلام ، قد قبسوا من نورك قبسة أو قبسات ، أدركنا نورهم ، ووقفنا الله تعالى الى ما نحسب أننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كنا ندرك ما به شرفوا ، وما به أصابوا ، واهتدوا •

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف أبصارنا الضوء المنير ، فأنى ندرك ، وأنى نرى ، وقد صرنا كذى رمد غمره ضوء الشمس ، أما ما هو أعلى ، فأصابتنا الحيرة ، ولا هادى لنا يخرجنا منها ، الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر اذ قال سبحانه : « قل ان الهدى هدى الله » فليس لنا الا أن نلجأ اليه ضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك الطاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل اليه ، فان التقريب يحل عند العجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر معذور ، والله عفو غفور .

### يا رسول الله :

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحي عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية واحدة من نواحي العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمتهم ، فتسهل معرفته ، ولكنك يا رسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه عظمتك تعددت ، حتى يعجز المحصى عن الاحصاء ، والمستقرى عن الاستقراء ، واذا نفدت الطاقة أقر مطمئنا بعجزه ، ومؤمننا بأن وجودك فى هذا الوجود معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشرا ، فلسنت لها ، ولست ملكا من الملائكة فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك ربك ، وحفظك ورباك على عينه ، حتى كنت وحيدا بين الغلمان ، بما كلاك الله به وحماك ، وصبيا فريدا بين الصبيان ، وكنت الشباب الأمين عن رجس الجاهلية بين الشباب ، فكل شئ فى حياتك الأولى كان من الخوارق التى علت عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثر تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا أثر شرف رفيع ، وأن كان محققا ، ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة بشخصك وكونك ووجودك ، فيك البشرية ، وفيك المعجزة الالهية « الله أعلم حيث يجعل رسالتك » .

### يا رسول الله يا خير البشر

كنت ذا الخلق القوى ، والسياسى الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم الرفيق ، والمربي لأمتك بالشورى ، والوحي ينزل اليك ، وكنت الرءوف بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواء السلام فى مرحلة النبى ، وعزة القوى ، أنشأت جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرا صالحا ، وأخذ ينمو فى بيتك الطاهرة ، مختفيا فى خلايا الايمان ، حتى أخرج شطأه ، فظهر متعرضا لمقاومة الحدثان . قويا فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوى على سنوّه ، وصار

قوة الحق فى الأرض ، وكنت كما قال الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزراع أخرج شطاها فأنزله ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » وكل ذلك بتوجيه ربك ، والهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتك الدارس ، وقد كان كل شيء فيك قويا عظيما ، كما قال فيك ربك « واثق لعل خلق عظيم » \*

اللهم ربى ، ولا خالق سواك ، ولا اله غيرك ، وليس كمثلك شيء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمدا من البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، وإذا كان وجوده وما أحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليفة الى يوم الدين \*

### ربى العظيم :

لقد تطاولت فاعتزمت أن أكتب فى سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأغفرلى يارب ذلك التطاول ، انك أنت الغفور الرحيم ، وأمدنى بعونك وتوفيقك فى هذا المقام الذى يعلو عن طاقتى ، وتعجز فيه قدرتى ان لم يكن منك العون \*

رب لا تخزنى ، فانه لا قدرة لى الا بتوفيقك ، ولك الفضل ، والمن ، « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » \*

وانى قد اتجهت الى القصد فى القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأو ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهى فوق قدرة عاجز مثلى ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

**أولها** - ذكر حياة النبى صلى الله عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشرا رسولا ، وأودى هو وحواريوه فى الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان \*

**والثانى** - فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وإزالة المحازقات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة فى طريقها من غير عوج ، وفى طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يدعثره

الايذاء ، وان هذا القسم ينتهى بصلح الحديبية ، حيث يؤس الشراك من ان ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة فى كل مسار .

**والقسم الثالث من بعد الحديبية،**وفيه تجرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض ، فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الذى يؤس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكتب النبى ورسله ، وبالسرايا يبيثها ، وبالخروج الى الروم الذين قتلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وإزالة الفتنة، وهذا القسم ينتهى برحلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا .

اللهم انفعنا بهديه ، واهدنا سبيله ، انك تهدي من تشاء ، وانك على كل شىء قدير .

محمد أبو زهرة

## تمهيد

### الاضطراب الفكرى :

١ — فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، كان العالم الانسانى يموج بالشر ، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانسان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحق هو القوة ، والقوة هى الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب . وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل ، وتزييف الحق ، والعبث بالميراث الانسانى للنبیین من بعد ابراهيم موسى وعيسى ، وشوهت المفاصد ، تعاليم موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطرة ، وزكوه ، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة . فالكنييون تحكموا فى اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم .

واليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام فضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوى يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم وتسربلوا سربال العداوة لبنى الانسان جميعا ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقلية ، والمزايا الدينية ما ليس فيهم وينكرونه فى غيرهم ، حتى زعموا انهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العرب الذين نكبوا بمعاشرتهم « ما علينا فى الأميين سبيل » ، فهم يأخذون منهم بالحق والباطل ولا يعطونه شيئا لأنه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره .

٢ — وكان الأقربون والأبعدون ، والقاصون والمدانون فى اضطراب فكرى ، وعجز العقل البشرى عن أن يحل مشاكل هذا الوجود . فتاه العقل فى معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لا يستطيع أن يفسر سر الظواهر ، فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء ولا يمكن أن يعرف ما يحركها ، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ، والمنشئ مما أنشأ ، ولكنه وقد غمر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عمى عن الأصل ، وشغل بالفرع ، فتاه فى هذه السماء ، وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره .

ومع ظهور الأديان السماوية ، واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل وتفاديه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها ، وهو يجهل باعثها ، ولا يعرف منشئها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشأ المكون .

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايمان بمن أنشأه ، وان الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشئ مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهي تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه تدعو الى دراسة الكون ، وتعرف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ، ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون فى الماضى ، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر ، وانما يهمننا الماضى الذى كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الوجود .

٣ — تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدى وما ينفع فى السلوك الانسانى ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدى ، ولا رشد يرشد .

**أخذ يدرس نظام التعامل الانسانى ، ومقياس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ، وخطأ السلوك واستقامته ليعرف ما هو فاسد وما هو صالح .**

ودعا الى ذلك ، واختلف هو وتلاميذه ، فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة والفضائل ، كلها ترجع الى هذه العناصر ، وقد اختار ذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة ، فما هو نافع ، ولو نفعا شخصيا خيرا ، وما لا نفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين .

وهكذا كانت المتاهات العقلية فى ادراك أسس التعامل الانسانى ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقل لم يستطع أن يصل الى قانون التعامل المستقيم ، كما لم يصل الى ادراك سر الوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة .

وفى وسط ذلك الديجور ظهرت السوفسطائية التى تشكك فى حقائق الوجود ، فمنهم من أنكرها ، ومنهم من شك فى كل شيء ، ومنهم من قال ان



الحق فى الأشياء هو ما يعتقده كل امرئ فى ذات نفسه ، وتسمى العنيدية ،  
فليس للأشياء حقيقة ، وإنما الأمر فيها الى اعتقاد وجودها •

وهكذا كان الضلال المبين بسبب الاعتماد على العقل المجرد فى وسط  
تلك الفلسفة التى لا تهد ، بل يضل فيها الفكر ، كما يضل السارى فى ظلمات  
الليل •

### المجوسية :

٤ — ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومن وراءهم فانا  
واجدون عجبا ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانية التى سرت اليهم فلسفة  
أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى وتحل مشكلة أصل الوجود بأوهام  
توهموها ، وأساطير اكتسبوها فكانت الزرادشتية التى تفرض أن الوجود  
له الهان اله الخير واله الشر ، وأن كليهما يتنازع النفس الانسانية والكون  
وما فيه •

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف  
لدين سماوى ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ،  
وقد وجد فى بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قال  
تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير »

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعيا خطيرا يدعو الى القوة ، وانه  
لا عبرة بالضعفاء ، وانهم لا يصلحون للبقاء ، فالحق مع القوى دائما ، والباطل  
مع الضعيف دائما ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن  
يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا ايمان بالعدل ، وإنما الايمان بالقوة •

### المانوية :

٥ — ثم كان بفارس أيضا مذهب يحسب أن الوجود الانسانى كله شر  
يجب ألا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب ( مانى )  
وعقيدته تسمى المانوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع  
الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهى ذلك الانسان الذى اعتبر وجوده  
لعنة فى الأرض ، وما دام الانسان فى الانسال مستمرا ، فان اللعنة الانسانية  
مستمرة ، وكأنه يحسب أنه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ، فالخطيئة  
باقية بوجوده •

## المزدكية :

٦ — وبعد ذلك جاء المذهب المخرب ، كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الذى انتشر فى فارس ، وأساسه اباحة النساء ، فلا زواج ولا ارتباط ، بل يسافد الانسان كما يسافد الحيوان من غير أى قيد من رابطة حافظة للأنسب ، ورعاية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمى انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أى نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء .

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيوان فى البداية أو الغاية منطلق ، لا يقيد الا بقوة غير التى ترسم له حدا لا يتعداه .

والوهم الذى قام عليه ذلك المذهب أنه زعم أن المشحناء والبغضاء تتوالدان من احتياز النساء بالزواج أو نحوه ، واحتياز المال بالملكية ، وبحسب أنه اذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكية للأموال يكون الناس فى سلام دون خصام ، ويا ليتة اعتبر الانسان كالحيوان لأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القوة الغالبة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومة والمختلفة .

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المذهب فى فارس ، وضاعت الأنساب ، واعتنقه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حكم هذا الكسرى .

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل .

## البرهمة :

٧ — ولو أننا تجاوزنا فارس الى ما وراءها من أرض المشرق ، فانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجد ديانة تقوم على التفرقة الانسانية بين طبقات ، فالناس ليسوا سواء ، فى الحقوق والواجبات ، بل يقرر دين البراهمة التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى لبراهما ، الهمم الأكبر فقد انقسم الناس من حيث مهنتهم التى تتوارث ، والتى تصير المهنة عندهم أصلا نسبيا ينتقل من الأصول الى الفروع ، ومن الفروع الى فروعهم ، فقسما الى أربع طبقات :

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهى طبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامهم ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الهمم ( براهما ) ولذلك

كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الاله ، وهم فى زعمهم خلاصة الجنس البشرى ، وعقله المتفكر ، ورأسه المدبر ، لأن الرأس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم •

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب الهمم براهما • ويديه ، وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة • ومرتبته دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة •

والطبقة الثالثة : طبقة الزراعة والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتي الهمم، والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لها كبيرة ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق •

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الهمم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس (براهما) •

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيرة فى المدن ، ويسمون من ليسوا من الهندو ( ابليج ) ومعناها أنجاس ، فكل من ليس هنديا نجس ، ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين •

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنوية فقط ، بل هى نجاسة حسية فى زعمهم ، حتى أن الأجنبى لو شرب من كوب ماء حطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض •

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقى ابن طبقة الى أعلى منها ، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى •

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات ، ففضائل البرهمى أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطا لنفسه ، مقيما للعدل بادى النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهممة الى التدين •

ويجب أن يكون الجندى مهيبا شجاعا ، ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على لقاء الخطوب ، وتيسيرها •

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها ، يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التاجر بشئون التجارة ، ومعرفة الأسواق ، وماتقاضاه الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها •

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخدمة ،  
والتحجب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغى أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا  
الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات •

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه ما للهند من مقولة مقبولة فى  
العقل أو مردولة بعد بيان الطبقات ما نصه : « وكل من هؤلاء اذا ثبت على  
رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر فى عبادته غير ناس فى  
جل أعماله ، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخرى - كان  
أثما بالتعدى » •

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحا عن الوثنية فيها  
واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شعب مهما تكن درجة  
التفكير فيه تلك الطبقية المقنية ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن  
أجل هذه الطبقة كان التأخر النفسى والاجتماعى •

### هل للبرهمية أصل سماوى :

٨ — لا شك أنه لا يوجد فى دين سماوى التفرقة الطبقيّة التى يعتبرها  
البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح، ولاتزال بقاياها  
قائمة ، وأن خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ،  
وشيوع فكرة المساواة بين الناس علما ، وأن كان العمل لا يزال يتخاذل عن  
تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذى يحسبون  
أنهم يطبقونه •

ولكن يفيد كلام أبى الريحان البيرونى أن احتمال أن يكون لأصل  
البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما  
يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال •

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرسل  
وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم  
من لم نقصص عليك » ويقول سبحانه وتعالى : « وأن من أمة إلا خلا فيها  
نذير » فوجود ديانة سماوية بين الهند الذين كانت فيها ثقافة وادراك أمر  
راجع ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية •

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة

مقبولة فى العقل أو مردولة « من أن خواص الهند موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول فى هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلى ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيى المدبر المنفرد فى ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئاً من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب يا تنجل : من هذا المعبود القوى ؟ قال المجيب : هو المستعلى بأزليته ووحدانيته عن فعل لكافة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبريء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً ، إذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليه فى وقت ما أو حال .

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل : أفتصنعه بالكلام أم لا . قال المجيب : إذا كان عالماً فهو لا محالة متكلم . قال السائل : فإذا كان متكلماً لأجل علمه ، فما الفرق بينهم وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم . قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانه تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وافادتهم فى زمان ، إذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم إبراهيم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتاباً ، ومنهم من فتح الواسطة باباً ، ومنهم من أوحى اليه ، فقال بالفكر ما أفاض عليه . قال السائل : فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل ، وإن لم يجهل قط فذاته عالمة ، لم تكتب علماً لم يكن له ، كما قال فى بيذ الذى أنزل على إبراهيم : احمدا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ . قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آينته ، فالخير لا يكون الا عن شيء . . . والاسم لا يكون الا لسمى ، وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » .

هذه نقول البيرونى فى كتابه عن الكتب المقدسة الهندية ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه

عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم ، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر، فوحدانيته سبحانه وتعالى فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصلية .

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم ، وقد ذكر أن النصوص الدينية فى التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل انها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريمة .

وان برهما - لم يكن الها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا انه كان رسولا من عند الله تعالى . والعبارات التى نقلها لنا البيرونى من كتبهم صريحة فى ذلك صراحة مطلقة .

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتسورة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقادم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لابراهما وصف فيها بالاله ، لا وصف الرسول عند عامتهم .

### كتبهم :

٩ — للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيرونى ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم .

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى نظريهم ، ويقول جماهيرهم : « ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، ويقول البيرونى ان خاستهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها » ولم يبين البيرونى وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا ، ولكنهم صرفوا عن ذلك كما يقول بعض الجهلاء فاعجاز القرآن منحرفين فى دينهم ، لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لأن أراد الأول ، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضى الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من

يعصى ، فيأتى بمثلها • أو يزيد عليها ، لأن الناس ليسوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع فى زعمهم يصرفه ، ونكتفى من الإشارة الى كتبهم بهذا القدر •

## البوذية :

١٠ — بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس فى عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقات • ولذلك ظهر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام ، وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات •

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانسانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تشقى ، فإذا كانت ويلات الناس تجىء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتساع مطالبهم ، والرغبة فى المزيد منها ، فإن تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها ، والاكتفاء بالقليل ومجانبة الأهواء والشهوات ، فأنها هى التى تجعل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وإن كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء •

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ، الخط الأول منه يبدأ باجتناى الأهواء ، والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ، فإن النفس تشرق ، ويكون ادراكها سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقاد سليما ، ومن بعد الادراك يكون النطق الصادق ، ثم العمل القويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقوم على الأخلاق •

ويقرر مبادئ خلقية ، فهو يقول فى النهى عن أمور عشرة :

- ١ — لا تقتل أحدا •
- ٢ — لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك •
- ٣ — لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح •
- ٤ — لا تشرب خمر ، ولا تتناول مخدرا •
- ٥ — لا تزن ولا تأت بأى أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما •
- ٦ — لا تأكل طعاما لم ينضج •

- ٧ - لا تتخذ طيبا ، ولا تكلل رأسك بالزهر .  
 ٨ - لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء .  
 ٩ - لا تقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك وطنافس ، ولا وسائد  
 ولا حشايا رافهة .  
 ١٠ - لا تأخذ ذهبيا ولا فضة .

وان هذه المبادئ البوذية فيها عيب ، وهى ناقصة .

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشاء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم ، وكانت وهما من الأوهام ضل فيها العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل .

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهى أنها تزهد فى الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتنا ، فكأنما مباح هذه الحياة ، انما خلقت لكى ترى وتشاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان .

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ، هى نهى لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر .

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابى ، وهو تقديم النفع الانسانى والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوى فى الفضيلة ، والعنصر الثانى الامتناع عن الأيذاء وهذا هو العنصر السلبى ، وهو الأدنى ، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقى ، بل انه يمنع غيره ، فان النفع يمنع بعض الأدنى ، فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها .

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ فى تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهى كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع .

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

( أحدهما ) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحددون



عنها ، وقيّدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة ، وحرّموا غيرها ، ولا يختارون للباسهم إلا الخشن من الثياب لما راضوا أنفسهم عليه من ترك لذات الحياة لتكون الحياة تحت سيطرتهم ، ولا يخضعوا لسلطانها •

( ثانيهما ) البوذيون المدنيون ، وأولئك لم يطبقوا المنهاج الشاق ، فاختاروا لأنفسهم طريقا وسطا ليس فيه إفراط فى اللذائذ ، ولا شدة فى تركها •

أخذوا ببعض الأخلاق البوذية من تواضع وصدق وأمانة ، ونالوا بعض الملائن التى لا تعقب المأى ، ولم يندفعوا فى اجتراح الشهوات ، حتى لا يصابوا بالأم الحرمان ان لم يستطيعوا •

وخلاصة القول أنهم أخذوا من المبادئ السلبية المبادئ الخمسة الأولى ، وهى ألا يقتلوا ، ولا يسرقوا ، ولا يكذبوا ، ولا يزنوا ، وتركوا الباقيات من المهنات ، فلم يحرموها عليهم •

ولقد كان ذلك الانقسام سبيلا لأن يكثر المدنيون ، ولأن يوجد فريق لا يأخذون بشيء من هذه المبادئ ، بل يتركونها وراءهم ظهريا • وبذلك ضعف العقل وحده عن أن ينشئ دينا آمرا وناهيا •

### الكونفوشيوسية :

١١ — وان البوذية التى ولدت فى الهند كان أكثر تابعيها فى الصين لا فى الهند ، وقد انتقلت اليها وثنية ، كما كانت فى الهند ، واقترن بها ما ليس منها ، وانحرفت العقول •

ولكنها اذ انتقلت الى الصين قد احتضنها بيئة امتازت من بين البيئات بالوثنية ، والتمسك بكثير من المبادئ العملية التى تتفق مع قانون الأخلاق الى حد كبير ، ولكن لعدم اعتمادها على عقيدة قوية كانت فى قلوب شاغرة ، واذا سكنت المبادئ فى قلوب شاغرة عن الايمان جف عودها ، ولم تقو على البقاء •

كان فى الصين فيلسوف يسمى فى لغة الفرنجة كونفوشيوس ، وهى تحريف لاسمه الاصلى فى الصين وهو « كونج فوتس » وقد أخذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذى ، ولكنه أخذ بمبدأ البوذيين المدنيين ، وكان مذهبه ليس دينا يتبعه ، ولكنه اصلاح يدعو اليه •

ومع وجود المنهج العلمى فى اصلاح كونج فوتس نجد بجواره فيلسوفا كان أسن من كونج فوتس اذ أن هذا ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، أى أنه يعاصر بوذا ، والفيلسوف الآخر واسمه لوتس ، كان يكبر الأول بنحو خمسين عاما ، ومذهبه هو الاعتزال أو أن ينجو بنفسه ومن يتابعه من المفاسد .

وقد التقى الفيلسوف الشاب كونفوشيوس الذى يرى أن مبادئ الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابى ، لا الاعتزال السلبي بالشيخ لوتس الذى لا يرى الا الاعتزال السلبي ، فتحاورا .

قال الشيخ للشباب : « ان الخير ليس فى محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والاختلاط ، اذ أن الاختلاط يفسده ، بل الخير كل الخير فى الزهادة والقناعة والاعتزال ، والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهى العفو » .

قال الشاب للشيخ : « اذا كان واجب كل شخص من أحساد الأمة أن يعتزل فى كهف من الكهوف فمن الذى يبقى فى المدن يعتمرها ، وفى الأرض يفلحها ويرزعها ، وفى الصنائع يمهر فيها ، ومن الذى ينسل ويعمل ، ليبقى الكون عامرا ببنى الانسان ، واذا كان الاعتزال مقصورا على الحكماء ، والفضلاء ، فمن الذى يربى الانسان ويؤدبه ، أم يترك الناس حائرين باترين لا هادى ولا مرشد .

### عقيدة الصين القديمة :

١٢ — ومهما تكن آراء كونج فوتس من الحكمة والصواب فقد اختلط بها ما ليس سائغا ، فقد كان يعتقد بألهة ، وبأن السماء مرتبطة بالأرض فيصلح الكون اذا صلح الانسان ، ويفسد بفساده ، لقد كان كونج فوتس يعتقد ما يعتقد الصينيون القدماء .

وأساس هذا الاعتقاد أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، ( الملائكة ) وأرواح الآباء .

والسمااء التى يعبدونها لا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون الأفلاك ومداراتها ، والقوى المسيطرة التى تسيطر عليها وتسيرها فى مداراتها ، وباتصالها بالأرض والرياح والأمطار تنبت الأرض ، وكان عبادتهم للسماء لاعتقادهم أنها عالم حى يتحرك حسب نظام دقيق محكم ، وللسماء السلطان الأكبر على العالم ، اذ أن كل ما فيه من قوى مسيرة خاضع لسلطان السماء .

وظاهر كلامهم أنهم لا يفرضون للكون سمائه وأرضه قوة منشئة مغايرة  
هى المدبرة والتي تحفظ العالم ، وتحول قواه ، فهم بذلك يعدون منكريين لله  
الواحد الأحد الفرد الصمد ، وعلى ذلك يكون الأساس الذى بنيت عليه  
عقيدتهم باطلا .

وهم يعتبرون التحول والتغير فى الكون على حسب مداركهم ، وعلى  
أساس عقيدتهم السقيمة فهم يرون أن العالم قسيمان مادى وروحى وأن الروحى  
هو الذى يسير المادى ، فهم بهذا يرون أن المنشئ من ذات الكون لا من قوة  
فوقهم ، وبذلك يتقاربون من الفلسفة الأيونية .

ومع أنهم لا يؤمنون بالواحد الأحد المنفرد بذاته عن المشابهة يؤمنون  
بالقضاء والقدر ، ويرون أن السماء هى التى تقدر وتقضى ، فلا مفر من  
حكمها فى زعمهم ، ولا خلاص من سلطانها فى اعتقادهم .

ويؤمنون بأن الأحكام القدرية مرتبطة هى والأمور الكونية ، بالأخلاق  
الانسانية ، فإذا كانت الأخلاق مستقيمة استقام الكون، وإذا فسدت اضطرب ،  
فكلما كان الاعتدال والانسجام والعدالة بين الناس استقام الكون ولايضطرب .  
وما الزلازل وما خسف الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر الا من فساد  
الأخلاق ، وعدم استقامتها . وهى أمارات على ذلك ، وإذا كان السلوك غير  
القيوم يحدث الاضطراب ، فالسلوك القويم يجلب الخير ، والبركات . ويجعل  
كل ما فى الكون يجىء على ما يحبه الانسان ويرضاه .

وعلى ذلك يكون المؤثر فى الكون ثلاثة :

أولها : السماء بسلطانها ، والأرض بقبولها لحكم السماء ، والانسان  
بارادته الخلقية ، فان اختار خير الأخلاق وأفضلها واتجه إليها . فان مظاهر  
الكون تكون لخير الانسان . فالجو يمتلئ بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة  
غير الملافحة ، والغيث المحيى لموات الأرض من غير أن يخرب العمران ويصير  
غيثا ، وتكون الشمس المشرقة ، والنهار المبصر والليل الساجى .

١٣ — وبذلك نجد أن العقيدة الصينية فاسدة ، والخلق الصينى  
قوى ، والارادة الصينية قويمة ولكنها قائمة على عقائد فاسدة ، وما يقوم على  
الفاسد لابد أن ينهار ، ، انه هو قائم على شفا جرف هار ، غيرمستقر  
ولا ثابت الدعائم .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين

حكم خلقى له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والأزمان،  
فإن الصين قد وصلت الى حكم عملى حسن فى جملته يتجه الى الخير فى  
غاياته • ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من ايمان خال من الأوهام ، وعقيدة  
بعيدة عن الأخيلة غير المحققة ولا الثابتة •

إن العقيدة الصالحة هى التى توجد الأخلاق الثابتة ، وهى التى توجد  
المجتمع الفاضل الذى يريد الخير بدافع من ايمان ثابت الدعائم قوى الأركان •

١٤ — وننتهى من هذا السياق الذى انتقلت فيه من اليونان والرومان  
سائرين الى الشرق الأدنى فالشرق الأقصى — الى أن العالم كله فى الفترة التى  
كانت قبل المسيح وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يموج فى  
مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة •

وأنه فى الوقت الذى كانت الوثنية تضيق ذرعا بالوحدانية التى جاء بها  
موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه — كان الشرق الأقصى بعيدا  
عن هذه الدعوات الى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية  
الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم  
والأرواح فى الصين •

كان العالم إذن يموج بفساد الفكر ، وفساد العمل ، واضطراب الحكم ،  
وانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وسيطرة الأقوياء على الضعفاء ، وقد  
اشتد الطغيان •

### وثنية اليونان والرومان :

١٥ — وبجوار تلك كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الوثنية ، وكان  
غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون فى جاهلية عمياء ، لم  
يكن فيها هاد ولا مرشد ، كما تعيش بعض القبائل فى مجاهل أفريقية ولا  
فرق بينهم الا فى اللون ، فأولئك بيض ، وهؤلاء سود ، ولكن الفعل واحد ،  
والوحشية متقاربة ولعل البيض أغلظ أكبادا ، وأقسى قلوبا •

١٦ — ولما جاءت المسيحية جاءت اليهم بعد أن شأهت ، واعتراها  
التغيير والتبديل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت  
عن اصلاح الأخلاق ، وبث الاطمئنان فى القلوب ، والرضا فى النفوس ، فكان  
لا بد من دين يقود العقل الى ما فيه خير العباد •

وقد فقدت الأوثان قوة تأثيرها فى الجماعات ، اذ أن الفلسفة قد أيقظت العقول ، وان لم تهدها ، وحركت الأفهام ودفعتها الى التفكير ، وان لم تهدها الى الصراط السوى الذى يسلكه من يستضىء بنورها وحدها ، فكان لابد من دين بجوارها ، وخصوصا أن المدائن الرومانية لم يكن فيها التناسق الاجتماعى الذى يجعل كل انسان يرضى بما قسم له من حظ .

ان التاريخ يحكى أن توزيع الثروة فى الدولة الرومانية لم يتحقق فيه العدل الاجتماعى ، فبينما ترف فيمن أفاءت عليهم الدولة بالغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والناس لا يشقون بالام ذاتية وحرمان ذاتى بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت الآلام فى سواد الرومان ، ولولا بقايا من الصبر عندهم لانفجروا فى ثورات ماحقة لا تبقى ولا تذر .

### مزج الفلسفة بالدين :

١٧ — وفى هذا الوقت أرادوا أن يمزجوا الفلسفة بالدين أو يحلوا الفلسفة محل الدين ، اذ أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان فى التأثير فى نفوس الشعوب ، وفقدت معابد الأوثان ما كان لها من روعة ، ولقد كان يعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان قويان كلاهما فيه شدة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى بالجزاء فى يوم آخر غير يوم الشقاء الذين يعيشون فيه ، والعامل الثانى الذى أضعف هذه السلوى هو أن الآلهة التى تمثلوها فى الأوثان فى زعمهم قد فقدت قوة تأثيرها .

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ، ولكنها لم يكن لها تأثيرها ، فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون ، وليس التقاء تخاصم وتناحر ، كما كان الشأن بينهما .

جاء فى كتاب المبادئ الفلسفية « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهديب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بها الى الشعور الدينى اللجوج بفكرة فى العالم قد تقنعه ، فأوجدت نظاما دينية تتفق مع الأديان فى النظر فيما وراء المادة اتفاقا يختلف قلة » .

وهنا نجد الفلسفة اليونانية التى تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانتين اللتين كانتا بارزتين فى ذلك الابان ، وقد تخاذلت وثنية

اليونان والرومان عن أن تقف وحدها فى الميدان ، فأتى بآراء فى خلق العالم  
تقرر أن منشىء الكون الجدير بالعبادة فى نظرها يشتمل على ثلاثة أمور :

أولها — أن الكون صدر عن منشىء أزلى دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده  
الأفكار ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام •

ثانيها — أن جميع الأرواح شعب لروح واحدة ، وتتصل بالمنشىء الأول  
بواسطة العقل الذى صدر عن المنشىء صدور المعلول عن ثلثه ، فهما متلاقيان  
فى القدم ، ويصح التعبير عن المنشىء الأول بالآب وعن العقل بالابن ، وإن كان  
أحدهما ليس متخلفا عن الآخر فى الزمان •

ثالثها — أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة •

### التثليث فى الفلسفة :

١٨ — وخلاصة القول أن الشىء الأول هو مصدر كل شىء ، واليه  
معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ، ولا بعرض ،  
فليس بفكر كفكرنا ، ولا إرادة كإرادتنا ، ولا وصف له إلا أنه واجب الوجود ،  
يتصف بكل ما يليق به فيفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج  
هو الى موجود له •

وأول شىء صدر عن هذا المنشىء فى نظر صاحب تلك المدرسة وهو  
أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه متولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ،  
ولكن ليس كمن تولد عنه •

ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالث  
يصدر كل شىء ، ومنه يكون التدبير والخلق •

ويلاحظ أمران :

أولهما — أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين ، وصارا يضربان  
على نغمة واحدة هى نغمة ذلك التثليث ، وهو ما اشتملت عليه النصرانية التى  
حالت اليها المسيحية التى تزعمها من تركوا ما دعا اليه المسيح عليه  
السلام •

وبها تلتقى الفلسفة مع ذلك الدين ، وتلتقى الوثنية التى تتعدد فيها الآلهة

وتكون منهما تلفيق متناسق أو غير متناسق ، من غير نظر الى كون هذا الامتزاج مزيجا ، قد اختفت فيه ظواهر العناصر المتزجة فى مزاج واحد ، أم لم تختف .

الأمر الثانى .— أن شيخ هذه المدرسة هو أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ميلادية اعتنق الديانة المسيحية الأولى التى جاء بها أتباع المسيح عليه السلام فيما نطن ، ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين .

وجاء من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولا — ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ، وبراهمة الهند وديانتهم ، وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، وقد رفعوه الى مرتبة الاله ، والبراهمة فى كرشنة ، وقد رفعوه أيضا الى مرتبة الاله ، وقد عاد من بعد هذه الرحلة التى تزود منها بالزاد البرهمى والبوذى الى الاسكندرية التى كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذى بيناه .

١٩ — فى هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم فى القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكرى أمدا بعده ، حتى جاء القرن السادس ، وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ، وانحل الفكر انحلالا شديدا فيما يتعلق بالاعتقاد .

وانشقت النصرانية التى انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى ابن مريم على نفسها ، فكان منها الملائكية وكان منها اليعقوبية ، واشتد الخلاف بينهم ، حتى انتقل الخلاف الى عداوة فكرية ثم الى عداوة تشبه العداوة الجنسية ، وأغرى الله تعالى بينهم بالعداوة والبغضاء ، وتفرقت النفوس والأفكار ، وضعف الاعتقاد ، وانحل الايمان ، فانه كلما انتقلت العقائد الى أن تكون موضع مجادلات تضعف ، ويعرض لها الشك ، وينتهى اليقين ، وكذلك كان الأمر فى الأرض التى كانت تعتنق النصرانية فى القرن السادس ، فى البلاد التى كانت تجاور الجزيرة العربية وفى الجزيرة نفسها .

٢٠ — فالمسيحية ابان القرن السادس الميلادى قد ضعف الايمان بها ، لكثرة الجدل فيها ، ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ، واقتصرت على اتجاه معين من اتجاهاتها .

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ، وتجسس اليهود على النصارى ، واختفى المسيحيون فى أكنان من أرض الروم وفلسطين مستترين بعقائدهم ،

وكلما ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهاد ، والأذى المرير ، وتبارى فى ذلك ملوك الرومان ، وقد جعلوا عمل أمرائهم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليندوا ذلك الدين الجديد فى مهده ، ويقبروه فى حجر ولادته •

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلك الاضطهاد ، وقد جاء فى كتاب تاريخ الحضارة ما نصه « قد كتب بلين وكان واليا فى آسيا الى الامبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التى كان يعامل بها المسيحيون قال : « جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية ، وهو أنى أسألهم اذا كانوا مسيحيين ، فاذا أقرروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددا بالقتل ، فان أصروا أنفذ فيهم عقوبة الاعدام مقتنعا بأن غلظهم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقان بهما هذه العقوبة ، وقد وجهت التهم الى الكثيرين بكتب لم تذيل بأسماء من كتبوها ، فأنكر المتهمون أنهم نصارى ، وكرروا الصلاة على الأديان الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمر والبخور لتمثال أتيبت به عمدا مع تماثيل الأديان ، بل إنهم شتموا المسيح ، ويقال انه من الصعب إكراه النصرانى الحقيقى على شتم المسيح ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى وكانوا يقرون بأنهم يجتمعون فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على العبادة ، وعلى انشاد الأناشيد إكراما للمسيح ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم بل على ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى أن أعذب امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ، بيد أنى لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة •

وقد كثر الاضطهاد ، وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير فى موكبه ، ان يطيلهم بالقار ، ويشعل فيهم النار ، وتصير تلك الشعلة فى احتفاله بنفسه •

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ، وأنزل بهم العذاب وقتل فى مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق ، حتى انه اعتبر تاريخ ذلك العذاب هو ابتداء التاريخ القبطى •

٣١ — وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ، فكانت بقايا الوحدانية تظهر على لسان أريوس ، ومعه أكثر كنائس الشرق ، وأكثر الكنائس فى فلسطين ، وكثير من كنائس مصر •

ولما أراد قسطنطين أن يدخل فى النصرانية جمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وأعلن ثمانية عشرة وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ، فآخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء فى المجمع كانوا يبلغون ٢٠٤٨ أو يزيدون ، ولكنه أراد



أن تتغير المسيحية الى ما يقرب من الفلسفة والوثنية على أن يبقى اسم المسيحية ، وأن خلت من لبها ، وهى الوجدانية التى تحارب الوثنية •

ثم توالى بعد ذلك المجمع الذى مال بالمسيحية عن معناها مجامع أخرى ، وأول مجمع عام انعقد بعد ذلك كان المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١ ميلادية وفيه أضيفت الى مناصب الألوهية روح القدس لتتم عناصر الأفلاطونية الحديثة التى أشرنا إليها آنفا •

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التى قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت فى الأذهان ، فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ، واعتقد أن المسيح ليس ابنا لاله بالحقيقة ، انما البنوة مجازية ، اذ هو ابن بالنعمة والمحبة ، لا بالألوهية فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م ، ليبطل قوله ، ويكفروه كشأنهم فى كل من يجهر برأى •

توالى من بعد ذلك الخلافات المفرقة ، فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الانسان ثم فاضت عليه البنوة الالهية التى هى اللاهوت ، فيقولون ان فى المسيح صفتين اللاهوت والناسوت ، أو الانسان والاله ، والابن هو مجموع الاثنين ، وهو الأقنوم •

والآخرون يقولون انه طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معا ، فقد ولدت الانسان والاله •

وقد اعتنقت الكنيسة المصرية وحدة الطبيعة وولادة مريم لها معا •

وكان الخلاف الشديد بينهما ، وكان النزاع وكان الجدل ، وكل جدل يحل الاعتقاد ، ويضعف قوته ، ويخضع شوكته ، ولا يجعل له قوة دافعة مانعة •

وقد اشتد ذلك كله فى القرن الخامس والسادس •

وبذلك نقول مقررين أمرين :

أولهما - أن القرن السادس كانت العقائد فيه غير قارة فى النفوس ، والآراء تخلق وتعتنق ثم يتعصب لها ، وليس التعصب دليلا على قوة الاعتقاد ، بل التعصب دليل على الانحراف النفسى ، والنظر الجانبي ، وكذلك كان تعصب الملكانيين ضد اليعقوبيين ، اذ كان فى جملته ادراكا جانبيا منحرفا • العصبية هى السيطرة فيه ، وليست قوة اليقين هى السيطرة •

ثانيهما - أن النفوس فى القرن السادس كانت مهياة للعقيدة الصحيحة تعتنقها اذا ظهرت بيناتها ، وقام الاستدلال المنطقى عليه ، وخصوصا أن الأفكار المرددة كانت أوهاما ، أو أقوالا غير متميزة تمييزا عقليا ، ولم تكن قد استقرت استقرارا يجعل التعصب لها يشبه الطائفية ، كما حدث من بعد بين النصارى ، وبين اليهود .

وهكذا نرى المسيحية التى خلفت المسيحية الحقيقية التى جاء بها المسيح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جاءت الى النفوس قلقة غير مستقرة ، بل انها مضطربة غير ثابتة .

فاذا كانت أوثان الرومان قد فقدت قوة تأثيرها ، وحل فى ربوع الوثنية ديانة تأخذ من اليهودية طرفا يأخذها بأحكام التوراة الا ما خالف الأناجيل ، وتأخذ من الوثنية بأطراف ، ولا تكاد تأخذ من الدين الحقيقى شيئا - فان ذلك المزيج الجديد لم يستقر ، بل جاء مضطربا واهنا حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، فكانت النفوس مهياة لدين جديد هو الدين الحق .

## العرب

٢٢ — طفنا بتفكيرنا حول العالم من غربه القريب والبعيد ، الى شرقه الأدنى والأوسط والأقصى ، ولم نخرج على البلاد العربية ، ونحسب أنها القلب ، وأنها ذؤابة الفكر الأدبى ، فاليها تأزر الحقائق الدينية قديما وحديثا ، ومنها خرجت أصوات الأنبياء ، خرجت ابتداء من أطرافها ، ثم ختمت الرسالة الالهية فى قلبها ، ولقد هاجر ابراهيم أبو الأنبياء الى بلاد العرب وولد فيها ولده اسماعيل الذى كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومن بعده اسحاق ، والأول من جاريته هاجر ، والثانى من زوجته سارة ، وقال من بعدهما « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق » .

وقد كان من ولده قريش الذين كانوا ذؤابة العرب ، ولهم مكانة الزعامة فيهم ، كما سنبين عند الكلام عن الكعبة المكرمة ، فاليهم يارزون ، والى تلك البنية يحجون .

وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذى جاء به أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكانوا فى أصلهم موحدون لا يعبدون غير الله تعالى ، فلا يعبدون صنما ، ولا حجرا ، ولا حيوانا ، وليس فيهم ألوهية لمخلوق الا ما

كان ممن وفدوا اليهم من النصارى كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم، وقد كان يقوى توحيدهم صلتهم بابراهيم عليه السلام ، وشرفهم فى الانتساب اليه عن طريق ولده اسماعيل عليه السلام ، ولكن طراً عليهم ما حالت به أحوالهم ، وتغيرت بسببه عقائدهم وذلك لتقادم الزمن بينهم وبين اسماعيل عليه السلام ، حتى نسوا ما عرفوا •

## دخول الوثنية أرض العرب :

٢٣ — توردت عبادة الأوثان على النفس العربية ، والتفكير العربى من نواح ثلاث :

أولها - أن بقايا من الديانات القديمة كانت فيها وثنية ، وإن لم تكن سائدة فى البلاد ، فقوم نوح كان فيهم وثنية ، وقيل أنه كان عربياً ، أو خاطب العرب ، وقد قص الله خبر أوثانهم فقال تعالى : « وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيراً » •

ولا شك أن هذه الآثار من بقايا الوثنية تبقى ، وإن لم تكن سائدة مهيمنة ، وإنك لترى أن بعض المتدينين بديانات سماوية يبقى فى نفوسهم بعد اعتناقها بقايا أشربت بها نفوسهم ، وتجرى آثارها فى بعض آرائهم ، وإذا لم تصل الى أن تكون رأياً يقنع ، فإنها قد تكون تقليداً يتبع •

الثانية من جيرانهم الرومان ، فإن الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده ، فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض ، ومن الاختلاط الذى كان بين بعض العرب والرومان فى الاتجار كانت العقائد الدينية تجيء اليهم ، وخصوصاً أن دولة الرومان كانت أقوى سلطاناً من الجماعات العربية ، وأن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم ، كالغساسنة ، فإنهم كانوا تحت سلطان الرومان ، وكانت له تبعية للرومان ، ووراء هذه التبعية الاختلاط ، ووراء الاختلاط العدوى •

والناحية الثالثة ذكرها ابن اسحق صاحب السيرة فقال :

« يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيخ فى البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك الى أن كانوا يعبدون ما استحسَنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف ، ونسوا ما كانوا عليه

واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من الضلالات •

ويذكر الحافظ بن كثير فى تاريخه أن ابن هشام قال : « حدثنى أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ، قالوا له هذه أصنام نعبدها ، فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم ألا تعطون منها صنما ، فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته » •

وعمر بن لحي هذا كان سيد خزاعة ، وكانت لخزاعة سُدانة البيت الحرام ، فكان له بهذا سلطان فى التوجيه • يعظمون ما تعظمه •

وان هذا يدل على مقدار العدوى التى جاءت من الرومان ، فما كان فى الشام انما هو من أثر وثنية الرومان ، وان ذلك يؤكد أن وثنية العرب كان للعدوى أثر فيها وان كان ثمة أسباب قوتها •

ومهما تكن الأسباب فقد توافرت ، حتى دخلت الوثنية الأرض العربية ، وبين ذرية ابراهيم حاطم الأوثان الذى جعلها جذاذا •

وقد سيطرت الوثنية على أعمالهم حتى لقد ورد عن أبى رجاء العطاردى أنه قال : « كنا فى الجاهلية اذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها » •

**لم ينسوا الله فى وثنيتهم :**

٢٤ — لقد أغرم العرب بعبادة الأوثان اغراما شديدا ، حتى صارت جزءا من مداركهم وعقولهم وأصبحوا يستنصرون بالأحجار ، ويظنون أنها تجيب سؤلهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا كما قال تعالى عنهم : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » •

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنية العرب إذ أن وثنية العرب فيها إيمان بالله ، وان لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فقد كانت نظرية الحلول تسرى فيهم ، ولا يجىء فى وثنيتهم ذكر الله تعالى قط •

والمسبب الجوهرى فى هذه التفرقة أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كما تلقوه عن اسماعيل وابراهيم عليهما السلام ، فكان بقية مما وصى به ابراهيم بنيه ويعقوب، كما قال تعالى فى كتابه الكريم • ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب، « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا يموتن الا وانتم مسلمون » •

الأمر الثانى - هو احترام الكعبة والبيت الحرام ، وهو ما ورثوه عن ابراهيم عليه السلام فقد كانوا مع وثنييتهم فيهم بقايا من عهد ابراهيم من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدى البدن ، والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، ويقول ابن اسحاق فى سيرته • كانت كنانة قريش اذا اهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، ويقول تعالى لمحمد « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون »

ومن أجل أن العرب كانوا يحاولون الجمع بين ايمانهم بالله تعالى وايمانهم بالأوثان نقول ان ايمانهم بالأوثان لم يكن قويا مستغرقا ، كما آل اليه أمرها عند الرومان ، وخصوصا قبل البعث المحمدى ، كما أن ايمانهم بالله تعالى لم يكن صحيحا ، لأن الايمان بالله لا يتحقق الا اذا كان المؤمن يؤمن بوحديتيته لا يشرك فيه أحدا فى ذاته ولا فى الخلق والتكوين ، ولا فى العبادة، فلا عبادة الا لله تعالى وحده •

ولكن الذى يدل عليه الجمع بين الايمان بالله تعالى ، والايمان بالأوثان هو أن اعتقادهم فى الأوثان لم يكن قويا مكينا ، بل هو اضطراب فى الاعتقاد ، ولا استقرار فيه ، بحيث تستقر النفس وتطمئن ، وكيف يستقر عقل ، يجمع قبضة من التراب أو يقطع قطعة من الحجر يجعله معبوده ، ويعبده أطراف النهار وزلفا من الليل ، وهو مع ذلك يجزم بأنه ليس بخالق ، ولكنه مخلوق •

واذا كانت الوثنية قد ضعفت فى آخر أمرها قوة الأوثان ، فان أوثان العرب خلقت فكرتها ضعيفة يوجد ما ينازعها ، أو يجعلها قلقة غير مستقرة اذ هى فى نفسها تحمل عوامل ضعفها وردّها ، ولكنه التقليد الأعمى ، الذى سد مسالك الادراك على العقل •

### القلوب فارغة من ايمان :

٢٦ — ان الذى ذكرناه أن القلوب والعقول كانت فارغة تحتاج الى ما يملؤها ، ويسد فراغها ، ولا يتركها شاغرة فى شرق الأرض وغربها يستوى

فى ذلك قاصى الأرض ودانيتها ، فالشرق الأقصى كما يعبر رجال السياسة لم يكن فيه إيمان بشيء ، وقد كانت الأوهام هى التى تسيطر ، والأوهام وأن استمكنت فى نفوس من تسيطر عليهم غير صالحة للبقاء ، إنما الذى يصلح للبقاء مما يسيطر على النفوس هو ما يكون متفقاً مع حكم العقل ، والتفكير السليم ، والأوهام وأن قويت لا تستطيع مقاومة العقل ، ومثل الأوهام كممثل الضباب يبدده ضوء الشمس ، فكذا العقل يبدد ضباب الأوهام ، ويكشف عن المدارك غمتها .

والهنود تسيطر عليهم أوهام أشد ، وظلم اجتماعى غير صالح للبقاء ، والفرس ظهر عندهم مذاهب هدامة تهدم الانسانية ، فتجتثها من جذورها أو تهدم أخلاقها التى يتماسك بها أحادها .

والرومان وما كان تحت ظلمهم قد فقدوا الايمان ، فاستبدلوا بالوثنية النصرانية التى ابتدعوها ، ولكن لم يثبت بها إيمان الى القرن السادس .

وليس فقد الايمان كان خاصاً بالعقيدة فيما وراء الطبيعة ، بل كان مفقوداً فى القيم الانسانية الخلقية كما هو مفقود فى العبادة والالوهية ، فلم يكن ثمة خلق انسانى سليم ، بل كان كل شعب ينظر الى الآخر ، نظرة العدو ، وأصبح التفكير الخلقى مقصوراً على معاملة أبناء الوطن الواحد ، لا أبناء الانسانية عامة وعم ذلك ولم يخص ، حتى كان الفلاسفة لا يؤمنون بحق الشعوب فأفلاطون قد كان يعتبر ما عدا اليونان من الناس برابرة ، وكل من يبعد عن وطنه فرسخاً أو دونه يسترقه من يلقفه من غيره ، وقد وقع الرق على أفلاطون نفسه ، حتى افتدى ، وهكذا قد فقد الايمان بالقيم الانسانية كما فقد الايمان بالالوهية .

فكانت أماكن الايمان شاغرة من القلوب ، فلا بد من أن يكون من يملؤها ، لابد من محمد رسول الله رب العالمين ، ولابد أن يقوم فى وسط الأرض يدعو أهل الأرض فى أرض النبوة الأولى .

## أرض النبوة الأولى

٢٦ — قرأت لبعض كتاب الفرنجة كلاماً يتحدث فيه عن أورشليم وبيت المقدس يقول فيه أن أورشليم وما حولها البقعة المباركة كانت مدرسة الأنبياء ، ففى وسطها تربي الأنبياء ، وعلت أصواتهم بالرسالة ، وأنه لا مدرسة للنبوة غير هذه المدرسة ، ففيها ظهر داود وسليمان وعيسى ، وهى التى

أرادها موسى ، ودعا بنى اسرائيل لأن يدخلوها ، فقالوا « ان فيها قوما جبارين  
وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » •

وذلك القول فيه حق ، وفيه باطل ، أما الحق فهو ما ينبىء عنه من مكانة  
أورشليم التى بها المسجد الأقصى مسرى النبى ، وثالث المساجد التى تشد إليها  
الرجال ، والتى كان منها المعراج ، والقبلة الأولى للإسلام ، وهى بهذا وبغيره  
سميت فى القرآن الكريم والمصادر الدينية السماوية الأرض المقدسة •

أما الباطل فى كلام ذلك الكاتب فهو :

أولا - فى قصره النبوة على أورشليم وما حولها ، فإن القصر ليس  
بسليم ، فانه ما من أمة الا خلا فيها نذير ، و بعد أن قص الله تعالى قصص  
عدد من الأنبياء قال تعالى فى كتابه الكريم : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم  
من لم نقصص عليك » واننا لا نذهب بعيدا عن أورشليم فانه بجوارها الجزيرة  
العربية وأدلافها كان فيها الأنبياء أصحاب الرسالات التى جاءت بها كتب  
سماوية وذكرتها التوراة والقرآن ، مما سنذكره فى هذا الموضوع قريبا ان  
شاء الله تعالى •

ثانيا - لأنه فهم أن للنبوة مدرسة يتربى فيها الأنبياء وذلك باطل لأن  
النبوة رسالة من الله تعالى لخلقه ، لا تكون بمدرسة يتخرج فيها الأنبياء ،  
ولكن تكون بوحى من الله تعالى ، وتكليف منه سبحانه وتعالى ، سواء  
أكان ذلك الوحي بخطاب أوحى به اليه ، أو بكلام الله تعالى من وراء حجاب  
كما كان الشأن بالنسبة لموسى عليه السلام ، أو برسول من الملائكة ينقل عن  
الله تعالى لمن اصطفاه من خلقه نبيا أو رسولا ، فاعتبار أورشليم مدرسة  
للنبوة • كلام ليس دينيا وليس علميا ، ولا يتفق مع تاريخ الأنبياء المرسلين  
عليهم الصلاة والسلام •

٢٧ - - وإذا سأل سائل لماذا بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم  
فى الجزيرة العربية وفى الحجاز منها ؟ ولم يبعث فى أورشليم كما بعث داود  
وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام •

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان أكثر الأنبياء خصوصا أصحاب  
الرسالات كموسى وإبراهيم ونوح وإسماعيل وإسحاق لم ينشئوا بأورشليم  
كما توهم ذلك الكاتب الفرنجى الذى لم يعرف معنى الرسالة والرسول ، ولم تكن  
الجزيرة العربية خالية ، بل هى كانت منبعث الأنبياء أصحاب الرسالات من

القديس ، والذين كانوا فى اورشليم ان استثنينا عيسى عليه السلام وداود وسليمان لم يكونوا أصحاب كتب يعمل بها اقوامهم وانما كان يعمل اكثرهم بكتب نزلت على غيرهم ، واكثرهم كان يعمل على اقامة توراة موسى .

أما الرسل الذين جاءوا فى الجزيرة العربية فقد كانوا أصحاب رسالات، ينفذونها بأنفسهم ، ولم يكن عملهم مقصورا على بيان الرسالات لمن سبقوهم، ولقد بين الله وحده الرسالة الالهية التى اختلفت كتبها ، ولم يختلف معناها ، فذكرها فى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والسنى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، يجتبى اليه من يشاء » .

وأولئك هم أولو العزم من الرسل ، ولم ينشأ فى اورشليم منهم الا عيسى عليه السلام ، والآخرون كانوا تابعين من البلاد العربية ، أو مما حولها من أرض كنعان ، أو من أطراف الجزيرة كأرض سيناء .

فالبلاد العربية هى موطن الرسالات الأولى ، بها ابتدأت الرسائل الالهية ، وبها ختمت ، فلم يكن غريبا أن يبعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد ، وينبثق نوره فى الافاق من اهل المدر ، واهل الوبر فيها .

هذا اجمال نرج اليه ببعض التفصيل :

ادريس عربى :

٢٧ — ان الحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد النبوة فادريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا ، والذى تقول الأخبار ، انه كان فى البطن الثالث لآدم أبى الخليفة ، قالوا انه كان عربيا وفى أرض العرب ، وليس لدينا دليل يجعلنا نؤمن بأنه البطن الثالث لآدم ، ولذلك نطرح القول فى ذلك غير مكذبين ولا مصدقين ، ولا نحسب أنه من أساطير الأولين .

وانما الذى نتمسك به هو أنه صديق من الأنبياء الذين وصفهم الله تعالى بذلك الوصف الكريم . فقد قال تعالى : « واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » ، فهو صديق ، وهو رفيع المكانة عند الله تعالى ، لأنه سبحانه رفعه مكانا عليا .

ويغلب على الظن أنه لم تكن نشأته بأورشليم ، لأن اورشليم أنشأها يعقوب بن اسحاق عليهما الصلاة وأتم التسليم .



ولقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء أن ادريس فى سلسلة نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد جاء فيه ما نصه :

« ادريس عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه بالنبوة والصدقية ، وهو فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . »

وما دام فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعد عربيا ، ولا يعد من أورشليم ، ولا شك أن الحكم فى هذه المسألة الموقلة فى التاريخ لا يعد حكما قاطعا ، ولكنه حكم راجح ، وأكثر مسائل التاريخ الحكم فيها ظنى لا قطعى .

### نوح عربى :

٢٩ — تضاربت الروايات عن منشأ نوح عليه السلام أكان ببابل أم كان بالجزيرة العربية ، ولكن الثابت أنه من البلاد العربية ، وذكروا أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مرة ، ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البلاد العربية ، فقد قال ابن كثير فى قبره : وأما قبره عليه السلام ، فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن ساط مرسل أن قبر نوح بالمسجد الحرام ، أى بالموضع الذى بنى فيه المسجد الحرام .

ويقول ابن كثير : « وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المؤرخين من أنه ببلدة بالباق تعرف اليوم ( أى فى القرن الثامن الهجرى ) بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك » .

والحق أنا نميل الى أنه طوف بالآفاق . فإذا كان منشؤه ببابل ، فهو قد آوى الى بلاد العرب حصن الديانات الأولى ، ومنابع النبوة .

### هود نبى الله كان عربيا :

٣٠ — هود أقدم من ابراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون بالأحقاف ، وكثيرا ما يكون يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .

ويذكر ابن كثير أنه يقال ان هودا أول من تكلم بالعربية ، ويقول ابن كثير : « وزعم وهب بن منبه أن أباه ( أى أبا هود ) أول من تكلم بها ،

وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام ، ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجبرهم وغيرهم ، وأما ولد اسماعيل ، فيسمون العرب المستعربة •

وقد قالوا ان هودا كان أول نبي بعد نوح عليه السلام ، وربما يومية الى ما حكاه الله تعالى في خطابه لقومه : «واذكروا ان جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا الاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا اجئتنا لنعبد الله وهذه ، ونثر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » •

ونرى من هذا النص انه يومية الى ان هودا جاء من بعد نوح ، وأن قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ثم يوتى بالاشارة من جهة أخرى الى أن قوم نوح كانوا في أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم ، والله اعلم •

وان عادا كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، واقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشدها غرورا ، كما قال الله تعالى عنهم : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجددون ، فأسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنثيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون » •

وهكذا نرى هودا عليه السلام يجادل قومه بالحسنى أو التي هي أحسن ، وهم يجادلونه بالعنف أو الطغيان حتى أهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية •

### صالح عريى :

٣١ — صالح عليه السلام هو نبي ثمود ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر بديار رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك فى الغزوة التى قد غزاها •

كان يدعوهم الى التوحيد ، وكانت بينته ناقة لا يمسوها بسوء ، والا كانوا خاسرين كما قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح وقومه : « والى ثمود اخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تاكل فى أرض الله • ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم » •

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، إذ كانوا خلفاءهم ، وكانوا أقوى وأكثر عددا كما قال تعالى : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب واصب وأبادهم ، ويروى أن المسلمين رأوا البئر التي كانت تشرب منها ، وذلك في غزوة تبوك ، فقد روى عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها وملثوا القدور ، ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة .

### ابراهيم أبو العرب المستعربة واسماعيل :

٣٣ — لقد ولد ابراهيم في أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل . وقيل ان ابراهيم ولد بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له جبل قايسون ، ولكن ابن عساكر راوى الخبر يقول « والصحيح أنه ولد ببابل » .

ولكن ابراهيم لم يستقر في بابل ، بل كان يتنقل في الأقاليم ، فارتحل الى كنعان حيث أرض فلسطين ثم ارتحل الى حران ، والجزيرة ، والشام .

وكانت عبادة الكواكب سائدة في البلاد التي نزل بها ، وكان هو يدعو الى عبادة الله تعالى الواحد القهار ، ولقد حطم الأوثان وجعلها جذاذا ، وقد حاول المشركون أن يحرقوه بالنار لما فعل بالهتهم ، فألقوه في النار ، وهو لا يعتمد الا على الله تعالى ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فاستجاب الله لدعائه ، وجعل النار بردا وسلاما عليه ، فقال سبحانه : « وقلنس يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين » أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، فهم أرادوا الأذى لابراهيم ، وأراد الله الخير له ، فكان كيدهم شرا ، وأراد احباط ما صنعوا وكانوا الأخرسين ، لأنه لم يتم لهم مأرب ، وحقق لابراهيم الغاية .

ولم يجد ابراهيم مهاجرا الا في بلاد العرب ، هاجر اليه بعد ان طوف ما طوف ، إذ أن أم ولده اسماعيل هاجرت بولدها الى مكة فرارا به ، وطمانينه عليه ، وكان معها ابراهيم ، أو هو الذي أخذها اليه .

هربت بابنها اسماعيل الى موضع مكة ، ومعها أبوه خليل الله .

وقد أصابها العطش ، فأخذت تسعى الى الماء بين الصفا والمروة حتى رأت عينا ثرة ، فمألت سقاءها وشربت هي وولدها .

ولقد شب اسماعيل عن الطوق ، وتعلم العربية ، ورزقه الله هو وأمه رزقا حسنا ، كان يأتيهما من غير حساب ، وكان خليل يزورهم الوقت بعد الآخر .

### بناء الكعبة :

٣٣ — وفى إحدى الزورات التقى الشاب بأبيه ، فصنع كل منهما ما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، على شوق بعد طول غياب ، فقال الأب لولده الشاب : يا اسماعيل ان الله تعالى أمرنى بأمر .

قال الشاب : اصنع ما أمرك به ربك .

قال الشيخ : وتعيننى عليه ؟

قال اسماعيل : وأعينك عليه .

قال الشيخ لابنه : فان الله أمرنى أن أبني هاهنا بيتا ، وأشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها .

فعندئذ رفعوا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بالحجر الأسود فوضعه ، ليكون علامة ابتداء الطواف وانتهائه فى مراته .

وهذا ما بينه الله تعالى فى قوله تعالى تعالت كلماته : « واذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وثب علينا انك انت المتواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك . ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم » .

استقر بإبراهيم المطاف بأن بنى ذلك البيت أول بيت وضع للناس ،

فشرفت البلاد العربية به ، وشرفت بإبراهيم الذى جعلها تختار بناءه بأمر  
الله تعالى .

فإبراهيم اذا كان مولودا ببابل ، وان بيته أول بيت لله تعالى بناه بالبلاد  
العربية ، فليست البلاد شريفة به وبإبنه فقط ، بل هى شريفة بأن ابنه  
أبو العربية المستعربة .

واذا كان إبراهيم أبا الأنبياء حقا وصدقًا ، فانه لم يبن بيتا بأمر الله تعالى  
الا فى البلاد العربية ، ولم يبن ذلك البيت بكنعان ولا ببابل ، ولا بغيرهما ،  
فكانت الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى حقا وصدقًا ، ولا غرابة فى أن  
يكون مبعث محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، انما تكون الغرابة ان خرج  
نبيته الطاهر من غيرها .

#### شعيب ومدين :

٣١ — جاء شعيب بعد إبراهيم وبعد لوط ، وقبل انه كان بعد يوسف  
عليهم السلام ، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط لأنه جعل من انذاره لقومه أن يصيبهم  
مثل ما أصاب قوم لوط ، فقد قال الله تعالى عنه : « ويا قوم لا يجرمكم شقاقى  
أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط  
متكم ببعيد » .

وان هذا النص القرآنى السامى يدل على أمرين :

أولهما : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط  
فقد جعل فى بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوى ماحق كان موضع  
انذار لهم .

ثانيهما : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا فى العرب ، ولذلك قال سبحانه  
وتعالى : « وما قوم لوط متكم ببعيد » فهم كانوا على مقربة منهم ، فهم كانوا  
مثلهم فى أطراف أرض العرب من ناحية الشام ، ان قد اختار لوط محلة غير  
المحلة التى كان بها عمه إبراهيم عليهم جميعا الصلاة والسلام ، فهم من  
صفوة خلق الله الذين اصطفاهم على عباده ، وكانوا رسلا مبشرين  
ومنذرين ، وتركوا رسالات خالدة ، خلدها القرآن الكريم .

ولا نترك الكلام فى شعيب من غير أن نذكر كلمتين :

أحدهما : أنه بعث لمدین ، وأهل مدين هم أهل الأيكة ، إذ كانوا يعبدون شجرة عظيمة هى الأيكة وهم أصحاب يوم الظلة ، وقد ذكر علماء تاريخ الأنبياء أن يوم الظلة يوم فيه حر شديد أصابهم ، وأسكن الله تعالى هبوب الهمراء عليهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ظل ولا ماء ، ولا دخول فى الأسراب فهربوا من محنتهم الى البرية ، فاطلقتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا أرسلها الله تعالى عليهم ترميمهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء فأنهقت الأرواح ، وخرت الأشباح .

هذا ما ذكره ابن كثير فى معنى الظلة والصيحة التى أصيب بها قوم شعيب ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الرجفة والصيحة ، فقد قال سبحانه وتعالى فى قصتهم فى سورة الأعراف « فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ ، فَأُصْبِحُوا فى دَارِهِمْ جاثمين » ، وجاء نى سورة هود أنه « أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ فَأُصْبِحُوا فى ديارهم جاثمين » .

وهى عقوبات متتالية أزهقتهم الذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم ، حتى فزوا من أملاكهم ، فجاءتهم الغمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة وكانت الرجفة التى أصابتهم .

وقد قال فى ذلك ابن كثير : جمع الله تعالى عليهم أنواعا من العقوبات وصنفا من المثالات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات . سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخدمت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

الكلمة الثانية أن أهل مدين امتازوا من بين عبدة الأوثان بأنهم جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات بعضهم مع بعض ، كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، وكانوا قطاع طريق ، يقطعون السبيل ويخيفون الحارة ، يأخذون الفائدة الزائدة ، ويدفعون الناقص ، فان استدانوا نقصوا من الدين ، فكانوا بذلك أشد فسادا ، ولذلك كان نهى نبيهم لهم عن الفساد ، فقال لهم : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فلا يفسد الجماعات الا التعامل الفاسد ، وهو مبيد جمعها ، لقد كانوا قليلا ، فكثرتهم الله ، ولكنهم أضعفوا نخوتهم ، وأماتوا عزتهم ، فانصرفوا الى الفساد .

ولقد كان أوضح ما دعاهم اليه شعيب عليه السلام هو الوفاء والمعاملة الطيبة ، والتعاون على البر والوفاء بالحقوق ، بدل التعاون على الاثم .

وكان شعيب فصيح العبارة قوى البيان والتأثير ، حتى لقد روى فى بعض الآثار أنه خطيب الأنبياء ، ومدين من بلاد العرب على أطراف الشام ، جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء فى أرض مدين ما نصه :

« كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدّة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بنى مدين ابن مديان » (١) .

### موسى كلف الرسالة فى أرض العرب

٢٣ — لقد نشأ موسى بمصر حيث ولد بها ، وتربى فى دار فرعون ، وترعرع فى هذا ، وكان فى رعاية الله ، لا فى رعاية فرعون ، ان كان يتوجس منه خيفة ، ولكن صنعه الله تعالى على عينه ، فحمّاه وأعطاه سبحانه وتعالى النبوة ، فكان كليم الله تعالى .

ولكنه لم تبلغ اليه رسالة ربه فى أرض مصر منبته ، ومرباه ، بل كلمه ربه من وراء الشجرة خارج مصر حيث البلاد العربية .

ذلك أن موسى عندما قتل من المصريين رجلا ، اعتدى على أخضر من بنى اسرائيل قوم موسى ، وحرّض على أن يقتل آخر لولا أنه أدرك أن هذه فتنة ، وقال لمن حرّضه من قومه « انك لمغوى مدين » ، ولما أخبر أن الملأ ياتمرون به ليقتلوه خرج من مصر ، واتجه تلقاء مدين وهو يحس بالحاجة الى المغوث والمعونة ، وهو يقول « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » ، وهو يقول أيضا راجيا الهداية من ربه يقول : « عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

« حتى اذا ورد ماء مدين ، وجد أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امراةين تزدودان » : أى تكفكان غنمهما أن تختلط بغنم غيرهما ، وكانتا لاتسقيان

---

(١) قصص الأنبياء ص ٢٧٥ ج ١

غنمهما الا من فضل الماء الذى يبقى بعد سقى الرجال ، وانهم كانوا بعد سقيهم يضعون صخرة على العين ، فلا تتمكن الفتاتان الا من سقى غنمهما من فضل الرجال ، فقال موسى الفقير الى رحمة الله • للفتاتين الضعيفتين فى بدنهما كما هو ضعيف النفس لفقره ، والضعيف يحنو على الضعيف « ما خطبكما » قائلا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير » فجاء موسى الى الصخرة فرفعها بعد أن صدر الرعاء وسقى لهما •

بعد ذلك قصت الفتاتان على أبيهما قصة القوى الأمين ، فاستأجره ثمانى حجج أو عشرا ، حتى انقضت المدة ، وهى عشر سنين لأنه قضى الأجلين، أى أتمها عشرا •

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما آتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى انه أنا الله رب العالمين » •

ومدين كما جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء ، هى المدينة التى اهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام •

فمدين كما ترى من بلاد العرب ، هى التى جاءت فيها الرسالة • بعد أن أقام موسى عليه السلام فيها عشر سنين ، بعد فيها عن بيئة فرعون فصفت نفسه •

وقد يقال ان النص يفيد أنه كان بجانب الطور أى فى أرض سيناء ، ونحن نقول ان ذلك حق ، ولكن بعد أن صفت نفسه من فرعون وآثاره وطغيانه ، وتربيته قومه على الذلة والخنوع ، حتى كان فى مصر الرخاء والخصب والذلة مجتمعات •

وكيف يوفق بين كون مدين ببلاد العرب على أطراف الشام • وكون موسى كلف الرسالة بجانب الطور • يجيب عن ذلك السؤال أبو الفداء فى قصص الأنبياء : « وسار بأهله » أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختلف ، فلما سار بأهله ، ومعهم ولدان وغنم قد استفادها مدة إقامته بمدين ، ومهما يكن من الأمر ، فان الله اصطفى موسى كليما له ورسولا الى فرعون ،



وشعيب استنقذه من أرض مصر ٠ مدة عشر سنين ، بعد فيها عن جو فرعون المعتم ، ليتلقى أمر ربه بتبليغ رسالته الى «فرعون الذى طغى أن رآه أستغنى» ٠

### أرض العرب مأوى الفارين بدينهم

٣٣ — كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهاد ، فاتخذوها مستقرا ومقاما فهى أرض النبيين أصحاب الرسالات العامة ، وهى أيضا مأوى الديانات التى نبتت فى غير أرض العرب عندما اضطهدوا فى ديارهم ، ونزل بهم البلاء من القطار الذين جاسوا خلال ديار بنى اسرائيل ومزقوهم كل ممزق ، وهم أولو البأس الذين بعثهم الله تعالى ، ثم من بعد ذلك الرومان الذين ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وكانوا لا يعترفون لهم بحقوق الرومان ، ولم يدخلوهم فى الجنسية الرومانية مع أنهم فى حكمهم وتحت سلطانهم ، ورعاياهم ، ولكنهم الرعايا الأدنون ، وهم من فوقهم ، ولذلك لم يجد كثيرون منهم مأوى يأوون اليه الا البلاد العربية التى كانت حصن الذين يفرون بدينهم ، ولا يجدون ملجأ الا أرض النبيين الأولين التى لم يتغلب عليها ٠

وقد وجدوا الملاذ ابتداء فى أرض اليمن فاستظلوا بظل قوم تبع ، ومع أنهم كانوا وثنيين وجدوا فى حكمهم ظلا ظليلا ، استظلوا به ، وأخذوا حريتهم فيه ، وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، ولكن اليهود لا يعتبرون اليهودية دينا فيه اصلاح البشر وصلاحه ، ولكنهم يعتبرونه جنسية ، ويقولون مقالهم المزعوم الفاسد ، نحن أبناء الله وأحباؤه ، ولذلك لم يضموا اليمنيين الذين دخلوا فى اليهودية اليهم ، ولم يضعوهم فى جماعتهم ويسمونهم السامرة ، ولقد عاشروا الأوس والخزرج فى موطنهم الأصلى باليمن ٠

ولما هاجر أولئك الوثنيون الى يثرب حيث الجناح الخصيب ، وحيث المنجع المريع ، هاجر اليهود أيضا ، الى ما حول يثرب فهاجر بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وخيبر ٠

ولم يندمجوا فى الشعب العربى ، بل اتخذوا حصونا تحويهم حينما أقاموا ، وانتجعوا الخصيب من الأرض ، فكان لهم النخيل والتمر فى يثرب ، امتلكه الذين أقاموا فيها من بنى قينقاع والنضير ، وقريظة ، وامتلك أهل خيبر مثلها ٠

وكانوا كشأنهم أكثرين يحبون أنفسهم ، ولا يتعاونون مع أهل البلاد ، فكانوا لا يتعاملون مع العرب ، وان تعاملوا معهم يبخسونهم ، وخانوهم

عهودهم ، كما قال تعالى : « ومنهم من ان تأمته بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى ، فان الله يحب المتقين » •

فالعرب الذين آوهم وانزلوهم ارضهم ، أبوا هم عليهم المعاملة الطيبة ، ونظروا اليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والامى يؤكل حقه فى زعمهم الباطل ، ومنطلقهم الأثيم ، وجانبوهم ، وتحيزوا فى حيز دونهم ، وعاشوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون •

### الفصلانية :

٣٤ — كما آوت اليهودية الى أرض الحرية أرض العسرب ، آوت النصرانية اليها عندما كانت مضطهده من الرومان ، وكان اليهود يغرونهم بهم كما روى عن محاولتهم اغراء الرومان بالسيد المسيح عليه السلام نفسه •

وقد لجأت النصرانية الى أرض نجران ، ويظهر أنهم كانوا من النصارى الذين فروا من حكم قياصرة الذين اضطهدهم ، ويظهر أنهم كانوا فى ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانة السماوية بالتثليث وادعاء الألوهية لعيسى ابن مريم ، وأمه ، والروح القدس •

فقد جاء فى كتاب الاكتفاء ما نصه : كان بنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله التامر ، وكان موضع أصل ذلك الدين بنجران ، وهى بأوسط العرب فى ذلك الزمان •

وأن استقامة أهل نجران على أصل دين المسيح عليه السلام كانت قائمة فيهم ، حتى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ذكرهم القرآن الكريم بالثناء عليهم فقال تبارك وتعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم المصالحين ، فاتأبههم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » •

## رجلا صالحا :

وقد قالوا فى أخبار نجران أنه مع مكانة عبد الله ، كان رجلا صالحا من نصارى الشام ، ويظهر من سياق الأخبار أنه كان ممن فر بدينه هاربا من أرض الرومان ، أما لاضطهادهم النصارى ، وأما لأنه رأى بعد زوال الاضطهاد أن الرومان وجهوها وجهة وثنية ، وانصرفوا بها عن التوحيد الذى هو لبها وأصلها .

وذلك الرجل اسمه « فيميون » كان رجلا زاهدا صالحا مجتهدا عاملا لا يأكل الا من كسب يده ، كان حريصا على أن يعيش مستخفيا ، لا يريد أن يعرفه الناس ، فما أن يعرف فى قرية ، حتى يخرج منها الى غيرها ، ولكن فضله كان يكشفه .

ولعل السر فى استخفائه أنه كان مضطهدا ، فأراد ألا يعرف ، وأن يذهب الى أماكن متفرقة يحتجب عقيدته الخالصة ، حتى لا يكون اضطهاد يقع به .

ولقد تبعه فى ذهابه وجيئته شاب اسمه صالح ، اتبعه اتباع المريد للشيخ فكان ينزل معه حيث نزل ، ويرحل من حيث ارتحل .

وبينما هما يسيران اختطفتهما سيارة ، واسترقهما من فيها ، وباعوهما ، وقد رأى من أتباع فيميون فى عبده المزعوم خيرا كثيرا ، إذ كان يقوم من الليل ويصلى ، غير أنه لرق الجسد ، ما كانت له حرية العبادة .

وكان أهل نجران يعبدون نخلة ، كما كان يعبد من قبل أهل مدين أيكة ، وقد أخذ ذلك الزاهد الطيب يدعو لله وحده ، ويسيطر بدينه على من استرق بدنه .

قال لهم : انما أنتم فى باطل ، أن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها الله الذى أعبدته وحده لا شريك له لأهلكها .

قال الرجل فافعل ، فانك إن فعلت دخلنا فى دينك ، وتركنا ما نحن عليه ، فقام فيميون وتطهر وصلى ، ثم دعا الله تعالى عليها ، فأرسل الله تعالى عليها ريحا فاقتلعتها فاتبعه عند ذلك الكثيرون ، وذاعت حاله ودعاؤه ، وما كان للشجرة بعد الدعاء .

وبذلك دخلت نجران فى دين ( فيميون ) فحملهم على الشريعة الحق من دين عيسى عليه السلام .

ولا شك أن هذا الخبر لا يخلو من الأساطير ، وخصوصا أن فيه بعض

الأوهام ، وقد ضربنا عن ذكرها صفحا ، واكتفينا منها بما يقبل التصديق .  
ولا يوجد ما يدل على الكذب ، أو يوهم بأنه غير معقول فى ذاته .

وانه مهما يكن فيه من مبالغات لا ينفى العقل وجودها فانه لا شك ان النصرانية دخلت نجران ، وفى أول دخولها كانت مسيحية المسيح ، لا النصرانية التى دخلها الانحراف من بعدها ، واذا كانت قد غشيتها غواشى التحريف فى أهل نجران من بعد ، فان بقية من الاستقامة النفسية كانت فيهم عندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقد كان مع أهل نجران من العرب من دخل النصرانية غيرهم كنصارى بنى تغلب الذين كانوا مع المسلمين ، واستمروا حتى عصر الراشدين ، ومع انتشار النصرانية فى أهل نجران بدعاة المسيحيين الأصليين كان ملكها باقيا على وثنيته ، وقد رأى الشعب يخرج منه الدعاة الذين يدعون الى توحيد المسيحية الأولى مخلصين ، فشدد فى ايداء هؤلاء الدعاة ونكل بهم ، وأوجد فيهم صنوفا من العذاب ابتدعها ، ولم يسبق بها .

#### أصحاب الأخدود :

٣٠ — وان أهل نجران أخلصوا فى المسيحية وقبلوا فى سبيلها العذاب الشديد ، ورضوا به عن أن يغيروا دينهم غير مطمئنين الى عقيدة سواه ، وابتلوا فى ذلك ، فأبلوا بلاء حسنا ، وصبروا .

وذلك أن ذا نواس سار اليهم ، وأراد حملهم على اليهودية ، أو أن يعودوا الى الوثنية ، فأبى أهل نجران أن يخالفوا ، وأن يرتضوا بالعذاب بدل أن يغيروا ويبدلوا فحفر لهم أخدودا ، أى شق لها فى الأرض شقا طويلا امتد ، وألقى بهم فى النار التى أثارها فى هذا الأخدود ، وحرقهم ، فما غيروا وما بدلوا ، حتى قالوا انه ألقى فيها نحو عشرين ألفا أبادهم ، وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فقال تعالى : « والسماوات ذات البروج واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يأمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شئ شهيد ، ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » وهكذا نرى أن الذين عذبوا ذلك العذاب سماهم القرآن الكريم مؤمنين ، مما يدل على سلامة اعتقادهم وحسن ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بالعزيز الحميد لا يؤمنون بشئ سواه فلا تثليث ولا شرك . واذا كان هؤلاء هم نصارى نجران ، فهو دليل

على أنه لم يصل اليهم التحريف النصرانى ، أو لم يكن قد دخل التحريف بعد الى ذلك الدين المتين .

وكأنه قد نزل بأولئك المؤمّنين الصادقين ما نزل بهم من القياصرة قبل قسطنطين أمثال ( قلديانوس ومن قبله نيرون وغيرهما ممن أذاقوا النصرانى الخسف والهوان ) .

## اختصاص الجزيرة العربية

٣٦ — ولماذا اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة ادريس ، ونوح وهود ، وصالح ، وكان لابراهيم الفضل فى انشاء البيت ، وكان شعيب قد بعث فى مدين بها ، وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها .

ثم لماذا كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأنى ، ونزل بهم سوء العذاب ولماذا وجد المسيحيون الأول فيها مأوى .

ونجيب عن هذه الأسئلة بأمر ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلادا متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنه ، أو الذين يتجنبون على الحقائق مفرضين غير منصفين ، انما هى بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة . وليس لأحد أن يدعى أن بلادا فى العصور القديمة كانت أكثر منها تحضرا ، فأوربا كانت فى غربها تعيش كالوحوش ، فالوا ندال أوسكسون وغيرهم لم تصل اليها حضارات قبل أن تصل المسيحية ، وما وصلت اليهم الا بعد أن شأهت ، وانحرفت عن أصلها ، بينما كان الشرق فى القديم مهد الحضارات ، ومهد الديانات ، ومهد الرسل واختصت الجزيرة العربية بأنها كانت أصفى الشرق ، ففيها انبعثت رسالات الله تعالى ، ومن حولها كأرض كنعان وأرض بابل ، وغيرهما مما يحوطها ، أو من يدخل فى دائرتها كاليمن والبحرين وما وراءهما .

الأمر الثانى : أن الجزيرة العربية مع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم . وان انحرفت أحيانا عقولهم معتصم حصين ، فبيداؤها ، وقراها ، وبرها ، فيها حصون لمنع الاعتداء الوحشى من الأمم التى اشتدت اغارتها فى الماضى ، فاذا كان النّبيون قد قووموا فى اقناعهم ابتداء ، فانهم اذا كانت الديانة فى

حصنين منيعين ، حصن من الأرض المانعة لكل أجنبي من أن يقتطعها ، وحصن من النفوس التي اذا آمنت قاومت واعتزت بإيمانها ، وان استقامت النفوس وقوتها هي التي بها تتميز أخلاق الأمم ، فان العقول اذا انحرفت تقوم وتستقيم ، والقلوب اذا غشيتها غاشيات الضلال في نفوس ملتوية غير مستقيمة الحق لا يصل اليها الا من رحم الله .

واعتبر بحال العرب بين دولتين قويتين من الدول التي صاقتها فانهما لم يتجاوزا في سلطانهما أطرافها ، ولم تتمكن احدهما أن تنتقل من الأطراف الى داخلها فانهما عندئذ تجدان قلوبا صلبة قواها ضوء الشمس الساطع ، وقوة الحياة فيها . والتعرض لأوباد الحيوان ليلا ونهارا .

الأمر الثالث : قوة الشكيمة وقوة الخلق العربى ، وما امتاز به العربى من جود ، وسماحة ، وحسن تأت اذا وجد القيادة الحكيمة ، فان العربى أنف الا اذا رأى القائد الحكيم الذى يقوده ، ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله الامام الحكيم عمر بن الخطاب عندما تولى امرة المؤمنين ، فقد قال رضى الله عنه « مثل العرب كمثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » .

وبذلك يلتقى في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في موطن الدعاة الى الحق في المكان الأول .

العنصر الأول : قوة في النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبر ذلك في النصارى المؤمنين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، ولما حاول تباع أن يغيروهم ووضعهم في الأخدود ، ما نال ماربيا ، ولا وصل الى مبتغى .

العنصر الثانى : صفاء نفسى وقوة مدارك ، احتفظوا بها حتى في جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق في القول ، والعمل الذى يوجهون اليه .

العنصر الثالث : الأنفة والألا يطيعوا في ذلة ، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقد جاءت بعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، فبدت هذه السجاييا ، وشقت طريق النور في وسط الظلمات .

## الله أعلم حيث يجعل رسالته

٣٧ — نعم — الله وحده هو الذى يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون الرسالة ، والذين ينزل عليهم الوحي ، ويبلغ رسالة الله تعالى الى خلقه

فاختار الله تعالى أرض العرب ، لأنها أرض الرسالات العامة التى جاء بها النبيون الذين أرسلوا مبشرين ومنذرين ، وأوتوا الكتاب الالهى بقوة •

وفيهما العبر وفيها المثلث ، وفيها الآثار التى تدعو الى الاعتبار ، وهى لا مطمع فيها لتحكم أو تسيطر ، وهى التى لم تغلب عليهم قوى الشر ، وان كانت فيهم عيوب ، فهى التى تتعلق بالعلم ، ولا تتعلق بالنفس ، وهى التى لم يجز فيها الذل الذى يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال الله تعالى حكاية عن بلقيس : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » •

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتعرسوا بظلم الملك هى التى حملت رسالة العزة الى بقاع الأرض ، واذا كانوا قد أبوا حكم الملوك فى جاهليتهم ، فقد قوضوا عروشهم بعد اسلامهم ، هم أعداء التحكم الفردى ، وهم الذين قوضوا قصورهم انتهاء ، بعد أن أشربوا حب الاسلام ، وحملوا لواءه شرقا وغربا •

وانه لو كان لنا اختيار فى أرض غير العرب ، لأعيانا الاختيار ، لأنها أرض العزة ، فلا ذلة فيها ، وأرض الحرية ، وهى أرض المشجاعة ، ولا ينقل دين العزة والاقدام ، والعمل الصالح الا الأحرار الذين يتأبون الدنيسة ، ويرضون بالذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك الا فى العرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام الا خرجوا من ديارهم يدعون الى الحق ، ويهدون اليه من غير مواناة ، ولا فرار ، ولا يأس ، ولا يتركون البأس الى الرضاء ، لأنهم تحملوا آلام الصحراء •

وترى لو تصورنا أرضا للنبوة فى غير أرض العرب ، أتكون فى أرض القياصرة حيث تطامن العامة لحكم القيصر ، وديثوا بالصغار له نفوسهم ، حتى حسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث يختلفون فى كل شئ ، وحيث لا يحكم بينهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجاثمة على الرءوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الانسانية •

واذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس هى أرض النبوة ، وكسراهم فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى اذا بعدوا عن ذل الملك ، وجدوا ذل الحاشية ، ووجدوا أنهم ينتقلون فى الذل والهوان ، وقد لانت نفوسهم ، وخنفوا وهانوا أمام الملوك ، وهل هؤلاء فى ذلتهم هم الذين

يحملون دعوة الاسلام الى العزة وهل هم فى رقهم النفسى هم الذين يدعون الى الكرامة الانسانية التى سجلها الله تعالى فى قوله تعالت كلماته : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » \*

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخوتهم ، أو ممن ألفوا الخضوع ، حتى لا يستطيعوا التفصى عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا بالهون ، انما لا يدعو الى العزة ولا الى الحرية الا الأحرار .

وهل تتصور أن تكون أرض الفراغة هى التى تدعو الى اسقاط حكم الفراغة ، وإعلان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وما انتقلوا من حكم الفراغة الا لمن هو أظنى ، وأشد بغيا ، وأكثر عتوا وفسادا ، فهم يسارعون فى الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جانب الى جانب ، لا يتململون ، ولا يضجون ولا يثورون لقهر قاهر ، أو ظلم ظالم ، بل أنهم يألفون الخضوع حتى يحسب الدارس لهم أنهم يستطيعونه ، ويستمرثونه ، ويعانون من يذلهم وينغضون رؤوسهم على من يحاول أن يبيث فيهم روح العزة والكرامة ، بل يحسب أنهم يجدون العزة عبئا لا يمكن احتماله ، وحملها لا يمكن حمله ، ووزرا يرزحون تحته .

قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم اليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، فلم يكذبوه ، وقال لهم ، اليس لكم من اله غيرى ، فقالوا أنت الاله .

لقد تضعضعت نفوسهم ، حتى ألفوا الذلة فصعبت عليهم ، وقبلوا أن يكونوا قوما بورا .

وان الذلة كانت تجرى فى دمائهم ، حتى انه اذا جاءهم من يريد لهم العزة استنكروا ما يدعو اليه ، وان صدقوه جعلوه معبودا أو كالمعبود ، وأطاعوه فى الخير والشر ، وتصوروا فيه ما ألفه آباؤهم من تقديس لقوله ، واطاعة لعمله ، يذوقون الجوع والعرى ، ويرضون ، لأنهم كانوا مع فرعون ، فلا يتصورون الطاعة ، الا لمن يشبهه .

ان موسى عليه السلام عندما بعثه الله تعالى بعثه فى غير مصر ، وفى غير أرض فرعون ، ولما دعا فرعون بدعوة الحق لم يجسد مستجيبا الا من السحرة ، وعدد من الشعب ليس بالكثير ، فما آمن من قوم فرعون الا قليل ،



وخرج ببني اسرائيل ناجيا بهم ، وأطبق البحر على فرعون ، وخرج الى سيناء ليدعو بدعاية الحق . ولكنهم لم يصلحوا لتمرسهم بما كان عليه المصريون ، حتى انهم أرادوا أن يتخذوا من عجل صنعه لأنفسهم الها ، كما كان المصريون يعبدون العجل ، وهانت نفوسهم كشأن المصريين ، حتى أن موسى عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض التي كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها ، غلبت عليهم شقوتهم ، وغلب عليهم الذل الذي أذاقهم فرعون كنؤسه .

واقراً ما حكاه القرآن الكريم عنهم ، فقد قال موسى : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدياركم فتنتقلبوا خاسرين قالوا يا موسى ، ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا فانا ندخلون ، قال رجال من الذين يخافون انعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انها ههنا قاعدون ، قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » .

كان ذلك من تأثير انلال فرعون ، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة ، حتى يتربوا على البأس والقوة ، ويجىء جيل يغالب ، ولو تركنا الشرق الأدنى الى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت فيها النخوة ، ودفعت شعبها الى الاستسلام للذل ، اذن فليس لدعوة الحق والعزة والحرية الا العرب .

## مكة المكرمة

٣٨ — اذا كانت الجزيرة العربية موطن النبوة الأولى ، وقد ثبت أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام آوى الى بلاد العرب بعد تطلّوّه بين العراق وأرض كنعان ، وبنى بيت الله تعالى ، وقد وجد فى الدعوة الى الوحدةانية فيها مستجيبا ، وأنشأ فيها بيت الله الذى قال الله تعالى فيه : « ان أول بيت وضع للناس الذى بكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمناً » .

كانت مكة المدينة الممتازة بين العرب ، وقد تضافرت أسباب كثيرة فى العرب جعلتها مناط عزتهم ، وملتقى اجتماعهم ، وجماع لغتهم ، وكان من أهم هذه الأسباب ، وأبرزها :

( ا ) أن أبا الأنبياء هو الذى ابتدأ بإنشائها ، وكانت من بعده مدينة العرب العظيمة وقطبها الذى تدور حوله قواها ، وهى سكانها أولاد ابراهيم ، هو ذور المكانة العظمى عند العرب استجابة لدعاء ابراهيم ان قال عليه السلام ، كما حكى الله سبحانه وتعالى : « ربنا انى اسكنت من ذريتى بسواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السموات ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربي لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء » .

فكانت الاستجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، أن كان العرب يفسدون اليها من كل فج عميق ، من وقت ان أنشأ ابراهيم البيت الحرام ، وصار مثابة للناس وأمناً ، وملتقى العرب أجمعين ، مع اختلاف قبائلهم ، وتباين منازلهم .

(ب) وكان سكان مكة المكرمة هم قريشا الذين كانوا أعلى العرب فكرا ان كان الطلو بالفكر ، وأشرقهم نسباً ، ان كان التفاخر بالنسب ، ولسانهم كان أقوى الألسنة أداء ، وأفصحها لفظاً ، وأشرقها أسلوباً ، ولذلك كان العرب يجتهدون فى أن تكون آثارهم الأدبية بلغة قريش ، فكان الشعراء حريصين أشد الحرص على أن يكون شعرهم بلغة قريش ، ويعتزون بأن يكون على نهج اللسان القرشى .

ولقد ذكر رواة الأدب أن من ينال قصب السبق يعلق شعره على أستار الكعبة ، كأنما يسجل بين العرب مآثره الشعرية ، ومكانته بين الناس •

( ج ) وجود البيت الحرام بها ، وهو أعلى الأسباب ، إذ أنه صار بيت العرب الدينى ، ومستقر شرفهم اليه يحجون وبه يأمنون ، كما قال تعالى : « أو لم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ، ويخطف الناس من حولهم ، أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » •

لقد كانوا لتقديسهم لمكانة البيت ، كانوا يحرمون على أنفسهم أن يقتلوا أو أن يقتتلوا داخل الحرم ، حتى أنهم مع تشديدهم فى الأخذ بالتأثر مما فرق جمعهم كانوا يحرمونه على أنفسهم فى الحرم المكى ، زاده الله تعالى تشريفا وتكريما ، وإن الرجل كان يلقى قاتل ابنه أو أخيه فلا يمسه بسوء لمكان التقديس النفسى ، بل أنهم لا يحترمون المكان فقط ، بل يحترموا أيضا الزمان الذى يكون فيه الحج الى بيت الله الحرام ، فكانوا لا يتقاتلون فى أشهر الحج ، ولا شهر العمرة ، وهو ما يسمى بالأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، إذ كانت فيه عمرة مضر ، ولذلك سمي رجب مضر •

وقد أقر الاسلام من بعد حرمة البيت ، ومنع القتال فى الأشهر الحرم الا اذا كان فيها اعتداء ، فانه يكون من ظلم النفس ألا يدافع المعتدى عليه عن نفسه •

( د ) انه كانت الصحراء العربية موضع تنازع بين القبائل ، ولم يكن فى القبائل من تقرر لها نظام ، الا مكة وإن لم تكن فيه صفة الدولة ، بيد انه كان سلطانا ناشئا من تعاونهم ، وتضافرهم ، وتلاقيهم ، فهو نظام حر ناشئ ومنفذ بين قوم أحرار ، وإن لم تكن دولة ابتداء ، فأنه يجوز اذا اتسع السلطان ، ووجدت القدرة الثابتة يصلح أن تكون فيه دولة العرب من بعد ، لأنهم يجدون فيها الرياسة المختارة من الشعب ، بمقتضى الارادة العربية التى تتلاقى فيها القبائل ، وبمقتضى الانتخاب الطبيعى فى البلاد العربية •

( هـ ) وكانت قريش بمكة المكرمة ذات اتصال تجارى بين الروم والفرس ، فكانت فيها المتاجر تغدو وتروح ذاهبة الى اليمن حاملة بضائع الروم اليها ، ومن اليمن تنفذ الى ما وراءها فى أرض الفرس ، وكانت بضائع الفرس التى ترخذ من اليمن تذهب الى الشام لتصل الى ما وراءه من الرومان •

والمسبب فى أن مكة كانت لها تلك الميزة الاقتصادية انها كانت فى وسط

البلاد العربية بين اليمن والشام ، وإن المواصلات أبان ذلك كانت عن طريق البر بالصحراء العربية ، وفوق ذلك النزوع التجارى فى أهل قريش ، احترفوا التجارة ، واتخذوها مرتزقا لهم ، اذ لم يكن فى مكة زرع يغنيهم •

وكان العرب يتخذون موسم الحج سبيلا للصفق فى الأسواق التى تعقد فى أيام الحج ، ومن هذه الأسواق عكاظ ، وغيره ، وكان هو اكبرها •

ولرغبة العرب البيانية قد اتخذ الشعراء من هذه الأسواق سوقا لترويح شعرهم فكانت الأسواق فيها الزاد المادى ، وفيها الزاد البيانى •

وقد قال الله تعالى فى روح قريش التجارية « لا يلاطف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وأمنهم من خوف » •

( و ) ويجب أن يذكر فى هذا المقام أن الوثنية سادت العرب ، فنسوا دين ابراهيم ، ودين هود وصالح وغيرهم وسرت فيهم الوثنية سريان النجاسات فى الماء الطاهر القراح ، ولعل قريشا فى مكة آخر من دخل فى الوثنية ، كما تحدث أخبار العرب ، فالوثنية سرت اليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ولكنها موجة من الموجات التى كثرت فى ذلك العصر ، وما سبقه ، حتى لقد حسب بعض الناس أنها موجة من التفكير الدينى سرت فى العرب ، ووفدت اليهم من حولهم ، وجاءت اليهم من أرض غير أرضهم •

وقد أشرنا من قبل الى أن العرب وخاصة قريشا لم يكن ايمانهم بالآوثان ايمانا متغلغلا فى النفس ، اذ أنه كان مع الاعتقاد فى الآوثان اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وبقية من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، فمناسك الحج كانوا يقومون بها على اختلاف أو انحراف ، والفاظله الموروثة كانت تردد على تحريف يقرب من وثنتهم •

وكون بقايا من ديانة ابراهيم فيهم كان يجعلها موضع الرسالة ، وإذا كانت الوثنية قد قاومت التوحيد الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما كانت كلها من أجل الاعتقاد ، بل من تسلط العصبية الجاهلية ، والمنافسة فى الشرف بين بطون قريش وافخاذها ، كما سنبين ان شاء الله تعالى عندما نتحدث فى مقاومة الشرك للوحدانية ، وذلك بمقاومة زعماء مكة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

كانت مكة جماع العرب ، فكانت بها دار الندوة التى تجمع اقبال

العرب وكبراء القبائل ، من شتى الجزيرة من اليمن جنوبا الى الغساسنة بالشمال ، فاذا أهم العرب أمر واحتاجوا الى أمر جامع لا يجدون مثابة تجمعهم الا دار الندوة فى أرض مكة المكرمة ، وكانت الرئاسة فيها لقريش ، وأقربهم كان من جدود النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان عليه الصلاة والسلام يحضر ندوة قريش فى صدر حياته ، وكان مع هدوء طبعه ، واطمئنان نفسه يلفت الأنظار ، وتتطلع اليه الأبصار .

يروى أنه كما جاء فى كتاب « زهر الآداب » حضر الندوة قيل من أقيال اليمن ، فرأى الرسول ، كلما عرض ما يراه خير اطمأن الى القول اطمئنان المؤمن ، واذا كان ما يرى فيه غير الخير أحد البصرة ، فى هودة ، من غير هوان ، فقال ذلك القيل مالى أرى هذا الغلام ينظر اليكم تارة بعينى لبؤة وتارة بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرتة الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم » .

ومكة فوق ذلك لها المكانة فى التاريخ الدينى القديم ، فقد ذكرت فى الديانات القديمة ، واليهودية والنصرانية . وقبل أن نخوض فى ذلك نتكلم فى ناحية حول حال مكة المكرمة .

### أو بناء فى مكة المكرمة وبلوغها هذه المنزلة

٣٩ — وان مكة قد صارت مطمع آمال العرب ، لما ذكرنا من معان دينية وقومية وثقافية وتجارية ، ولكن لأبد من معرفة وقت قدسيتها ، ونيلها هذه المكانة بين العرب ، وان ذلك أمر لأبد منه فى دراستنا عن النبی الذى ظهر فى هذه المدينة ، واتصالها بماضيها القريب والبعيد .

كان مكان مكة وسط البلاد العربية ، وقد ذكر ياقوت الحموى وضعها فى كتابه « معجم البلدان » فذكر أنها بقعة من الأرض تحيط بها الجبال الجرداء من كل جوانبها ، وينفذ من بين هذه الجبال المحيطة ثلاثة مسالك ، أحدها سلك بها الى طريق اليمن . ويصلها الثانى بطريق جدة حيث سيف البحر ، ويكون مرفأً جدة ، ويصلها الثالث بطريق الشام ، حيث يمر ببيثرب ، وبذلك يتضح اتصالها منذ القدم ، وان كانت الشقة بعيدة .

وقد كانت البقعة التى أنشئت فيها تلك المدينة التى تتوسط البلاد العربية . ملتقى القوافل ، ومنتجعها فى السفر ، حيث تأوى وتستريح بين جبالها حيث كانت فى الوادى حول هذه البقعة ماء العيون ، وكان بجوارها أو على قرب منها أماكن منثورة ، كان يلون بها التجار بقوافلهم .

وان ابراهيم عندما اوت الى هذه البقعة هاجر جاريته وولدها اسماعيل،  
والهمه الله تعالى بناء الكعبة ، التى كانت أول بيت للعبادة ، كما تلونا من  
قبل ، وان انشاء ذلك البيت المقدس هو الذى أدى الى تكوين المدينة ، وان هذا  
تصوير للوقائع التى حدثت ، والتى ذكرها القرآن الكريم فى محكم التنزيل .

وان فى التاريخ ما يدلنا دلالة راجحة على ابتداء بناء المدينة ، وان معرفة  
ابتداء المدن فى ذلك الماضى السحيق لا يمكن أن يكون على وجه جازم أو راجح،  
فان المدن لا توجد مساكنها فى أمثال هذه العصور البعيدة التى تنشأ  
فى الصحراء ، ولم تكن فى أرض لها حكومة ثابتة قائمة ، تنشأ وتخطط ،  
وتبنى وتهندس انما الذى يتصور أنها ابتدأت ببناء المسجد ، ثم تدرجت ، ثم  
أخذ الزمان يزيدها بناء ، والعمران يدخل إليها شيئاً فشيئاً ، وان تصورها  
على أساس التصور الذى أومأت اليه المصادر الدينية ، فانه يكون انشاؤها  
قبل ميلاد المسيح بنحو تسعة عشر قرناً .

ويستفاد من هذا أن الكعبة قد بنيت ، أو على الأقل بناها ابراهيم عليه  
السلام قبل دخول القبائل الآرية الهند ، لأنها دخلت فيما نظن قبل ميلاد المسيح  
عليه السلام بنحو خمسة عشر قرناً ، وعلى ذلك لا تكون ثمة غرابة فى أن  
يجيء ذكر مكة والكعبة ، والتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم فى كتب  
الفيدا المقدسة عند الهنود كما سنبين ان شاء الله تعالى .

ومهما يكن فان الذى بنى الكعبة ابراهيم ، والتف من بعدها حوله الأبنية ،  
سواء أكان ذلك قبل تجمع الأبنية لتكون مدينة مكة أم كان بعد التجمع ،  
وفصل القرآن الكريم ذلك فى نصوص كثيرة .

ولكن الذين يحاولون مهاجمة القرآن الكريم من ناحية التشكيك فى  
الوقائع التاريخية التى يشتمل عليها ، ينكرون أو يفكرون ، أو يثيرون الشك  
المجرد .

فيشير الريب قوله ان قصة ابراهيم واسماعيل من صنع اليهود ، قالوها  
ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة من قرى النسب ، حتى يكونوا أولاد  
عمومتهم ، ليحسنوا ابواءهم ، اذ يؤوون اليهم ذوى قرابتهم لرابطة الرحم  
بينهم ، ويسوق شاهداً لكلامه التباعد بين الوثنية العربية ، وبين دين ابراهيم  
عليه السلام الذى كان موحداً ، وكان هادم الأوثان .

وفى الحق ان ذلك الكاتب أو المؤرخ غلبت عليه شهوة التشكيك فى  
القرآن فساق كلاماً لا يبنى على أى أساس علمى من وقائع ثابتة ، لأنه كان

يجب أن يبنى الطعن على وقائع ثابتة ، أنه يحاول هدم أمر معروف مقرر ذكره التاريخ قرنا بعد قرن ، حتى جاء الى هذه العصور ، وقد تطابقت عليه الكتب السماوية حتى المحرفة منها ، فقد جاء ذكر ابراهيم واسماعيل فى التوراة ، أى كتب العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون ، وأنهم جاءوا الى بلاد العرب .

فقد جاء فى التوراة ( أى كتب العهد القديم عند المسيحيين ) .

قد جاء فى الاصحاح السادس خبر هاجر الجارية وحملها ، ونهابها بابنها فى البرية ( أى الصحراء ) « هو ذا الرب قد أسكننى عن الولادة ، ما دخل الى جارىتى لعلى أزرق منها بنين ٠٠٠ فلما رأت هاجر أنها حملت صغرت فى عينها ، فقالت ساراي لابراهيم ظلمى عليك ، وقعت جارىتى الى حضنك فلما رأت أنها حملت صغرت فى عينها ، يقضى الرب بينى وبينك ، فقال ابراهيم لساراي هو ذا جارىتك فى يدك افعلى بها ما يحسن فى عينك ، فأذلقتها ساراي ، فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية على العين التى فيها طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي ، من أين أتيت ؟ الى أين تذهبين ، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراي فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولاتك ، واخضعى تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثير أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدن وتدعيه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لضراعتك ، وأنه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن .

وجاء فى الأصحاح الحادى والعشرين « مضت وتاهت فى برية بير سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس ، لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، لا تخافى ، لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت ومألت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله تعالى مع الغلام ، فكبر ، وكان ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

٥٦ — ( ١ ) هذه نصوص صريحة فى التوراة تدل على أن اسماعيل ولد من هاجر جارية سارة ، وأنه ولد فى برية فاران وهى قد كانت حول الكعبة ، وأن هذا حجة على منكر أن يكون اسماعيل من ولد ابراهيم أو أنه جاء الى أرض الحجاز ، وأن اليهود قالوا هذا ليتقربوا الى العرب ، يحسبان أنهم اولاد عمومة .

(ب) وان على هذا التشكك أمر مثير ، من غير بينة ، ولا دليل وكأنه يشك في التوراة أيضا ، وما كانت اصحاحات التوراة مقارنة لتقريب اليهودي من العرب ، بل انها سابقة على ذلك .

وان الشك الذي اثاره تدل الامور الثابتة على مناقضة ما اثاره ، وذلك لأن الطبع اليهودي في ماضيهم وحاضرهم أنهم لا يعترفون لأحد بدين غير دينهم ، وأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون وهم بين ظهرائي العرب ما علينا في الأميين سبيل ، وأن المعروف أنهم كانوا في البلاد العربية يستعلون على العرب ويظنون أنهم الأعلون بما أوتوا من كتاب .

(ج) وفوق ذلك فان العمومة المدعاة من اليهود لا أصل لها في زعم ذلك الكاتب النحرير ، فكانت للعرب العدنانية التي تنتهي الى اسماعيل عليه السلام ، وهم الذين يسمون العرب المستعربة ، واليهود ، عندما آووا الى العرب قارين بدينهم من عنت التتار ، ومن بعدهم الرومان ، ومن اذاقوهم العذاب أبؤسا ، انما آووا الى أرض عرب قحطان ، فهل يعقل أن يتملقوا القحطانيين بادعاء النسب الى العدنانيين ، والارتباط بينهم برباط القرابة بالعمومة ونحوها ، انما المعقول الذي لم يدركه الكاتب النحرير أن يكون الادعاء عند القحطانيين ، لا عند العدنانية ، ولا يصدق كلام ذلك الا أن يكون تصرفهم مخالفا كل معقول ويأتون عكس ما يريدون ، كعقل ذلك الكاتب .

( د ) وان تاريخ العرب المحفوظ أن العرب العدنانية لهم تاريخ ثابت موصل تلقاه أهل العقول بالقبول ، وما يتلقاه العلماء بالقبول لا ينقض بمجرد الشك ، بل لا يرفض الا بدليل يناهضه ، وبينات تقاومه ، ولا يقاوم بمجرد الشك والاضاعت الحقائق ، وضلت الأفهام ، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به ، حتى يقوم الدليل على خلافه .

( هـ ) وان الزعم بأن أولاد اسماعيل وثنيون ، وابراهيم عليه السلام كان موحدا ، فكيف يلتقيان ، أو القول بأن العرب وثنيون ، والموحد لا يمكن أن يكون أباً للوثنيين ، منطق فاسد ، لأن مؤداه أن من يكون موحدا يجب أن تكون سلالته كلها من الأولاد الصليبيين الى آخر الذرية ، ولو كانوا في الطبقة المتتمة للمائة موحدين ، وذلك كلام باطل ، فانه قد ينحرف الأبناء عن وصايا الآباء ، واذا كان ذلك غريبا في الطبقة الأولى ، أو ما يكون قريبا منها ، فانه لا يكون غريبا في الطبقات البعيدة من الذرية .

وان ابراهيم عليه السلام قد طوف في الأفاق داعيا الى التوحيد محاربا للوثنية ، وترك أثره واضحا في العرب خصوصا ذريته ، فقد كانت ذريته



موحدة ، سالكة سبيل الحق فى عبادتها ، ولكن القلوب اذا تقادم العهد قد تنحرف شيئا فشيئا حتى تصل الى الوثنية ، فالوثنية عارضة على العقل العربى ، وخصوصا ذرية ابراهيم عليه السلام ، فان الوثنية لم تكن أصيلة فيهم ومع ذلك كان فى وثنيتهم بقايا من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، وما كانوا يؤمنون بأن أوثانهم لها قوة الخلق والانشاء ، كما كان عند المصريين القدماء ، وكما كان عند اليونان والرومان ، بل كانوا يقولون بأن الخلق والتكوين لله تعالى وحده ، « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، ويقولون « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وان تفكير ذلك الكاتب المستشرق فيه غرابة من حيث المنهاج العلمى المستقيم من ناحية أمرين :

أولهما : أنه من الاستهانة بأى منهاج عقلى أن يثير عالم الشك من غير أى مسوغ للريب من أمور تقتزن بالأمر الجازم المقطوع به ، فان ذلك إثارة لطريقة السوفطائيين الذين يشكون فى حقائق الأشياء شكاً مجرداً من غير أى باعث علمى ، أو من غير أى بيئة تسوغ الشك ، حتى يحارب اليقين ، ولكن هذه الأمور البديهية نسيها ذلك الباحث ان صح هذا الوصف له ، وما أنساه الا شيطان التعصب المردى الذى ينزل من علياء العلم الى منهوى المعى « وانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ثانيهما : أن من الحقائق الاجتماعية والنفسية ، أن العقائد فى الناس تتحول وتتغير ، ويجرى عليها نظام التغير ، ويستمر فى طريقه ، ما لم يكن هناك كتاب ثابت يهدى الى الحق ، ويرشد الضال فيهدى ، ويكون ميزانا يمنع الانحراف .

### مكة المكرمة موطن تقديس لأجل الكعبة المشرفة :

١٤ — وان التاريخ الانسانى العام جاء فيه ذكر مكة والكعبة ، وقد ورد اسمها فى مصادر التاريخ اليونانية واسمها فى كتاب بطليموس الاسكندرى ماكورايا (١) . وانها أقدم من ذلك ، فانها تمتد فى القدم الى تسعة عشر قرناً قبل الميلاد ، وذكره لها فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لا يومىء من قرب أو بعد ، الى أنها كانت غير موجودة قبل ذلك العصر ، وليس انشاؤها فيه اذ هو اخبار عن الموجود ، وليس بياناً لوقت الوجود .

(١) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٨٤ .

والمؤرخون بشكل عام ذكروا أنه كان فى غرب الجزيرة العربية أماكن كانت فيه مكة ، وما حولها من الصفا والمروة ، وعرفات ، والمزدلفة ، ومنى كانت بالقرب منها، فإذا كان المؤرخون يذكرون أماكن للعبادة فى غرب الجزيرة العربية فهى هذه الأرض •

وقد جاء فى كتاب تاريخ الاسلام لجواد على : « قد ذهب أوغست ميل الى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى انه معبد مشهور هو مكة (١) •  
ويستفاد من هذا امران :

أولهما : أن مكة كانت قائمة بشهادة التاريخ العام •

وثانيهما : أن الكعبة : كانت بها ، وكانت معبدا يفد اليه الحجاج من كل مكان من بلاد العرب ، يقصدها القاصى والدانى من تلك البلاد •

٤٢ — هذه شهادات المؤرخين بتقديس الكعبة فى القديم ، وبمنزلتها عند العرب ، واجتماعهم حولها مع تفرقهم منازل ، وقبائل وعصبيات أحدثت حروبا مدمرة ، ودماء مہرقة ، ومع ذلك يلتفون متحابين أو غير متحابين ، ولا آخذين بثاراتهم احتراماً للبيت ، وتقديساً لهذه البنية التى زادها الله تعالى تكريماً وتشريفاً •

## المكان والزمان

٤٣ — كانت مكة هى المكان المختار للرسالة ، وقد أشرنا الى ما كانت تمتاز به من البلاد العربية ، فأشرنا الى مكانتها الثقافية ، فهى ملتقى العرب ، ولغتهم أفصح اللغات ، وشعراؤهم يعملون على أن تسجل أشعارهم بلغة قريش ، فكانها التى تختص بوصف الفصحى واللغات الأخرى بجوارها كاللغات العامية بجوار الفصحى فى عصرنا الحاضر ، وهى ملتقاها الدينى ، قالها يحجون ، وينسلون من كل أرضها ، يلتقون فى أسواقها ونجوعها بها تروج بضائعهم ، ويروج أدبهم وفيها يتفاخرون من غير ملاحاة ويتجادلون من غير مجافاة • وفيها تحقن الدماء ، وتغمد السيوف فى أجفانها ، يلتقون على الدين ، والمحبة ، ولا يلتقون على العداوة والبغضاء ، فالأمة يطرحونها ، وأحقادهم يستديرونها ،

---

(١) جواد على ص ٤ ص ٥٠٤ •

ولا يرون أمامهم إلا النسك على قدر مداركهم وتبادل المنافع ، والقول الطيب ، ومع أن كل قبيلة لها صنمها فى الكعبة على ظاهرها ، كانوا يجتمعون فى العبادة على تقديس البيت الحرام مطرحين ما عداه .

وكانت مكة مع هذه المنزلة الثقافية والدينية والاجتماعية ملتقى القوافل التى تجيء من اليمن ومن أقصى الشرق ، والقوافل التى تجيء من أقصى غرب الجزيرة ، فيلتقى فيها المتاجر ، وتلتقى فيها العقول الناقلة للحضارات ، ولو نقلا سطحيا ، ولا يصل الى أعماق القلوب ، ولكنه يمس المدارك ، وإِنَّه فى مكة ويثرَب تلتقى البداوة ببعض الحضارة ، فيكون مزج بين رقة الحضارة ، مع خشونة البادية ، فيكون مزيج غير متميع ، وقوة نفس فى غير جفوة ، وتلتقى صفاء البداوة والحضارة الغربية منها ، فينتفى الخبث ، ويبقى اللب الكريم .

وان أكثر الرسائل الالهية التى كانت على مقربة من الرسالة المحمدية كانت فى أرض تكون على مقربة من البوادي ، أو هى فى البوادي ومثلها كالواحات فى وسط الصحراء ، لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة فى مداركها :

( ا ) اذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحي الالهى ، وفيه المدارك المتقبلة التى تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها ، وتستخرج من ماضيها ما ينير لها حاضرها ، من غير اعنات فكرى ولا اجهاد نفسى ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضها ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، اذ ليست مستكنة فى أغوار النفوس ، وخبيايا القلوب ، بل انها على سطحها ، والتغيير يعرف السطوح ، ولا يتجه الى عميق القلوب .

(ب). وان المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة ، وتقالييد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكى تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، اذ أن العلوم وما يتصل بها من فلسفات سواء أكانت حقا أم كانت باطلة تملؤها ، واذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جد لهم ، وأقل أبواب المصادمات المجادلة ، والمجادلة مع المتعصبين تضيق فيه الحقائق ، ولا يبدو جوهرها نقيا صافيا .

وان الأفكار العلمية ولو خطأ تركز فى النفس ، والتقالييد المستحكمة المسيطرة تشدد حتى تصل الى أغوارها فلا يسهل الوصول الى اقتلاعها .

وقد يقال ان أهل البادية لهم عادات وتقالييد ، كما ان أهل الحضارات لهم ذلك ، ونقول فى الجواب عن ذلك ان تقالييد البدو لا ترتكز على عناصر فكرية

تتغلغل فى الأذهان ، وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء فى بلاد الحضارات ، وما يكون فى دائرة العمل من غير تغلغل فى النفس لا يكون رাকزا ثابتا ، كالذى يكون منشؤه التفكير العميق .

( ج ) وان التجارب قد أيدت ذلك ، فان الدين الجديد يسهل دخوله فى البادية الصافية نفوس أهلها .

( د ) وان أى دين لابد له من ناس يحملونه ، ويسيرون به ، وأهل البادية الذين يكون عندهم نوع من التفكير والرقى النفسى يكونون أقوى نفسا ، وأشد جلادا ، وأكثر احتمالا ، ولقد قرر الاجتماعيون أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد فى سبيل ما يعتقدون ما دامت أوضاع الحضارة لم تصب قلوبهم بل فيهم بأس وقوة احتمال .

وان الشواهد قائمة ، فاننا نجد الأديان التى جاءت برسل أوحى اليهم من السماء كان بعثهم فى الأرض التى تكون بين الحضارة والبداءة ، وكان التابعون دائما من أهل البأس والقوة الذين عاشوا فى الصحراء ، وقاوموا لأواءها ، ولم يكونوا من أهل المدن التى أصيبت بطراوة التحضر .

واعتبر ذلك بموسى عليه السلام ، فقد أرسل الى قوم فرعون ، ولكن ما نزلت عليه الرسالة الا فى أرض مدين المتاخمة لحدود الشام ، وما وجد الذين يستجيبون له من أهل مصر ، وما كانوا هم الذين حملوا عبء التبليغ من بعده ، وحمله غيرهم .

ولقد كان بنو اسرائيل أضعف فى نفوسهم من أن يحملوا عبثها من بعده وذلك لأنهم مردوا على أخلاق المصريين ، وان لم يكونوا منهم ، فكان لابد من أن يتربوا على البأس فى البادية ، ليستطيعوا حملها ، ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ، اذ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب لهم أن يدخلوها ، وان لم يقيموا فيها : « قال فأنها مكرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

ولقد فهم بعض الكتاب أن الموحدين كانوا فى الساميين فقط ، وجاء بعض الأوروبيين ، وعلل ذلك بأن العقل السامى عقل سطحي ، لا يفهم من العقيدة الا التوحيد ، ولا يتصور المعنى الفلسفى فى التثليث ، وهذا الكلام يأتى على عقيدته بالنقض ، لأن عقيدته المسيحية جاء بها سامى . فلا بد أن يكون ما أتى به ، وما دعا اليه يتفق مع السامية التى لا تهضم فلسفة التثليث وأن يكون التثليث الذى نسب اليه لا تشتمل عليه رسالته ، ولا تدعو اليه رسالته ، وليس ما اشتملت عليه عقيدته .

على أن العقل الآرى قد اعتنق الوحداية فى أصل الديانة البرهمية .  
التي جاءت بها القبائل الآرية ، فدعوى الاقتصار فى الوحداية على العقل  
السامى يأتى على أصل التثليث بالنقض ، وينتهى بأن التثليث من أوهام  
الفلاسفة ، وليس من عقائد الرسل .

ولعل ما ذكرنا من أن القبائل الآرية التي جاءت تحمل الديانة البرهمية  
من بواى آسيا ، قرينة على أن الرسائل الالهية ، انما تنزل فى الأرض التي  
تكون بادية قريبة من المدائن ، أو تكون فى طريق القوافل ، فقد جاءت الى  
الهند التي كانت مملوءة بالأنهار والأحراش ، وفيها تحضر نوعا ما ، ولم يكن  
فيها صفاء البادية ، وبأسها ، وقوتها وسذاجتها ، وسلامة فطرتها ، ولذلك  
سرعان ما حرفت العقيدة الى الصورة التي جاءت بعد ذلك من نظام الطبقات  
الظالم .

وقد أشرنا من قبل الى أن الرسائل الالهية غير محصورة ، وأن الله تعالى  
ذكر أنه لم يقص فى القرآن أخبار كل النبيين ، فقد قال تعالت كلماته :  
« منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » .

وسيتبين عند الكلام فى البشارات التي بشرت بالنبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم أن من البشارات ما جاء فى كتاب الفيدا الذي هو أعلى مصادر  
الديانة البرهمية ، وبينما فى وضوح أنها فى أصلها ديانة توحيد ، كما جاءت  
بالمفيدة النصوص الدالة على ذلك مما يدل على أنها ديانة منزلة ابتداء ، وأن  
انحرف عنها القوامون عليها ، وشاھت الى الحال التي آلت اليها من عصور  
سابقة ولا تزال قائمة الى الآن .

ك — من هذا البيان الموجز يتبين أن البيئة الطبيعية بمكة وما حولها ،  
وما لها من مزايا امتازت بها كانت من المرشحات لأن تكون موطن النبوة  
وموطن خاتم النبيين ، فاذا كانت النبوة قد ابتدأت بإبراهيم أبى الأنبياء  
واسماعيل ابنه ، فان ختام النبوة فى العالمين كانت بها أيضا ، برجل  
من ولد اسماعيل .

فهى أصلح مكان لأن ينبعث منها الدين الجديد الخالد الى يوم القيامة  
حيث يلتقى العرب جميعا فيها ، وحيث الأمن والسلام فيها ، وحيث  
القدسية التي تملأ النفوس تنبعث من أرضها ، وحيث دار الندوة التي يتشاور  
فيها العرب أجمعون .

وكان المكان أصلح الأرض ، لأن تغرس فيه أغراس الدين الجديد وأن  
يؤتى أكله .

والعرب أصلح الجماعات لأن يحملوا عبء الدعوة اليه ، والدفاع عنه ،  
وحمايته من سطوة الملوك ، وطفيان الجبارين حول العرب ، ومن ورائهم فهم  
أهل البأس والنجدة •

ولغة قريش فى مكة أصلح اللغات لأن ينزل بها القرآن الكريم الذى  
أعجز العالمين عن أن يأتى أحد بمثله فالمكان صالح لأن يبعث رسول الله طهرا ،  
وثقافة ، وقوة بأس ، وجلاد ، ولغة ، « الله أعلم حيث يجعل رسالته » •

## الزمان :

٥٤ — اذا كان المكان الذى اختاره الله تعالى لخاتم النبوة أصلح  
مكان يدرك العقل البشرى صلاحيته ، ويعلم بالاختيار مكانته ، فان الزمان  
قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الانسانية ، ويهديها ، والقلوب قد فرغت  
وأصبح العالم فى حاجة الى هداية من السماء ، إذ قد صار الناس على شقرة  
من الرسل ، فالديانة السماوية حرفت ، وانحرف تابعوها ، وغيروا  
وبدلوا وحولوها عن غايتها ، وبعثوا عن الحق فيها •

والأوثان قد تزايلت قوتها وضعفت مكانتها . وادركت العقول موضع  
الروم فيها ، فالهة اليونان قد زالت الأوهام التى تحيطها ، والأوثان الرومانية  
تكشف للناس أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها ليس فيها سر يمنع أو يمنع ،  
يضر أو ينفع ، يشفى أو يسقم ، وعلى فرض أنها لم تذهب الأوهام حولها ، فهى  
خرافات يجب إزالتها ، وفساد فى العقول يجب إصلاحه •

وكانت الامبراطورية الرومانية تعبت برعاياها ، وتفرض عليهم طامغوتها  
وهم لا حق لهم يستطيعون به تقويمهم ، والنفوس قد ضلت وزلت ، ولكنها  
لم ترض وتطمئن ، فهى هالعة جازعة ، لأنها كانت تفرض على الشعب دينها  
وان كان لا يرتضيه ، وتفرض عليه عقائد لا يؤمن ولا يرضى بها ، كما كانت  
الحال فى الشعب المصرى الذى فرض عليه دينها ، أو عقيدتها ، كما فرض عليه  
سلطانها ، وجعلتهم عبيدا أو كالعبيد •

والرومانيون فى داخل أرضهم ، وفى الشعوب التى منيت بحكمهم كانت  
التفرقة بين الناس واضحة جلية •

كانت التفرقة أولا ، من حيث تحكم رجال السلطان فى الرعية ،  
واختصاصهم بالمال يجرى اليهم من الغنائم التى يغنمونها فى الحروب ،  
وحرمان بقية الرعية من المال والسلطان معا ، والناس لا يشقون لآلام ذاتية

فقط وان كان الحرمان فى ذاته يحدث ألما نفسيا ، ولكنهم يألمون من ذلك ، ومن رؤية النعمة فى يد غيرهم يرتعون ويلعبون ، ويعبثون ، ولا حق لأحد فى أن يعترض عليهم أو يلومهم ، أو يوجه اليهم نقدا •

والتفرقة من الناحية الثانية فى أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها فى الطبقة المحكومة ، والشريف الرومانى يعلو على كل آحاد الرعية من الضعفاء •

والرق فى أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه ، حتى انه يسوغ لأى انسان يرى شخصا من أى شعب أن يسترقه والحكم للقوى فى العلاقات الانسانية كلها ، وكأن أرض تلك الدولة أجمة يفترس قوياها ضعيفا •

والاحكام بين الناس تسير على مقتضى تلك النظم المقيتة التى تفرض التفرقة بين الناس •

والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج ، وأمة لزوجها فى بيت زوجها ولو قتلها لا عقوبة عليه •

وهكذا ترى نظاما اجتماعيا أهدرت فيه الحقوق الانسانية الأساسية التى تثبت للانسان بمقتضى أنه انسان ، وشاع الفساد • وظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس •

كان لابد من تغيير لهذه الحال ، ومن اصلاح لهذا الفساد ، لأن الله لا يحب الفساد ، والله لا يريد ظلما للعباد ، فلا بد من أن يكون من يغير هذه النظم ، وليس فى الناس من يغير ، ويبدل بالفساد صلاحا ، وبالضلالة هدى ، ولا يكون من الانسان لأن ابن الأرض ترك لأخيه الانسان فأكله أو أئله ، أو أهدر انسانيته ، لابد من رسالة السماء تكون فى أرض تصاقب الرومان ، وهم ذور بأس وقوة •

٦٤ — واذا تركنا غرب الجزيرة العربى وشمالها ، واتجهنا الى شرقها وجنوبها ، فانا نجد أرض فارس ، وما كان فيها من انحلال سياسى وظلم ، وانحلال اجتماعى ، وانحلال فى الأسرة ، وظلم فى الحكم ، نجد كسرى يعتبر الشعب كله عبيدا أو كالعبيد ، ومن حوله من رؤساء ودهاتين يسوغون ذلك للناس ، ولا يكادون يسيغونه ، وأن العقائد المختلفة التى توردت على العقل الفارسى جعلته فى متاهات فكرية يضل فيها السارى ، وتظلم النفس ، والطبقية التى سرت اليها من الهنود الذين على مقربة منها حلتها اجتماعيا وان كانت

لم تصل الى مثل ما كان عليه الهنود والأسرة كانت غير قائمة على أسس قوية وسليمة ، فقد كان الولد يتزوج أمه وأخته ، ويتزوج الرجل ابنته ، وغير ذلك مما يضعف النفس فى العلاقة الزوجية ، وينحدر به الانسان الى أحط من الحيوان ، وكان مذهب مزدك الذى جاء فى آخر الحكم الفارسى الذى حل المجتمع الفارسى ، وضاعت فيه الأنساب واستبيحت الأموال حتى وهنت الحقوق ، وضعف تثمير الأموال ، واختلط الحابل بالنابل وما كان فى المستطاع أن يغير النظام بنظام من فارس ، فان التجارب فى المذاهب السابقة من زرادشتية الى مانوية الى مزدكية ، لم تنجح فى اصلاح ، بل كانت كالأدوية التى تزيد الداء العضال استشراف فى الجسم ، فتكون هى أسبابا لتقوية الانحلال ، فالزردشتية دعت الى القوى ، فتحكم القوى فى الضعيف ، والمانوية دعت الى انهاء ابن الانسان من هذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله ، وجاء من بعد ذلك مزدك ، فنشر الفساد وانهار به المجتمع الفارسى انهيارا .

اذن لابد من هداية للسماء ، لتستقيم الأمور ، فكانت فى أرض العرب التى تجاورهم ، كان من أرض العرب الرسول الأمين ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) .

٤٧ — واذا تجاوزنا فارس وخراسان وما وراءهما ، نجد الهند والصين ، وعندئذ نجد حيرة العقول واضطرابها ، نجد مجتمعا مضطرب التفكير ، قد حرقت البرهمية ، حتى صارت وثنية بعد أن كانت ديانة موحدة ، وصار براهما الها مجسما فى أعينهم ، مع أنه فى حقيقته رسول أرسله الله تعالى ، قد جسموه ، وجعلوا بعضه يخلق منه خلق من أعلاه ، وخلق من سواعده ، وخلق من ركبتيه ، وخلق من قدمه ، وحالوا بين الخلق والحق ثم فرقهم الفرقة والطبقية ، ورضوا بالتنافر بينهم بدل التحاب والتواد ، وتقطع بينهم أمرهم ، حتى صاروا هدفا يراد ، ومقصدا يقصد .

وصارت الأوهام تسيطر عليهم ، حتى توهموا فى أحد رجال الدين عندهم أنه اله أو ابن اله ونحلوه من الصفات ما لا يكون لبشر عادى ، وذكروا أن النصارى تبعوه ، الى آخر ما قيل مما أخذهم عنهم النصارى من بعدهم .

ولما اتجهت بعض النفوس الى اصلاحهم كانوا فى حيرة من أى الأبواب تدخل فى الاصلاح ، لأن معرفة المداخل والمخارج فى باب التهذيب الدينى لا يكون الا بدين ، ولم يكن ثمة دين مرشد ، ولا نبى مبعوث يدعو الى الحكمة والى الصراط المستقيم .

فاقتصروا على ما يومئ اليه الاحساس ، فجاء بوذا واتى بعقيدة هى



الى الحرمان أقرب منها الى الاصلاح والايجاب ورفع الانسان وتكوين الارادة المتجهة الى الفضيلة الايجابية والعمل النافع المثمر ، وعمارة هذه الأرض ، واقامة المصالح على أسس خلقى مكين .

وان الحرمان لا ينتج ولا يثمر ، ولا يطبقه العامة ، وان ادعاه الخاصة ، ولذلك لم يكتب لهذا المذهب الأخذ به أخذا كاملا ، أو قريبا منه ، أو حتى ارادته الا عند بعض الآحاد الذين سموا فى الماضى والحاضر الفقراء ، وقد راضوا أنفسهم على الحرمان غير المنتج .

ولما انتقل المذهب الى الصين أثمرت فيه ثمرات غير ايجابية ، وكان كلها يتجه الى الحرمان ، وقد أراد بعض المصلحين أن يحول الشعب الى الناحية الايجابية ، ولكن ضلال الفكر ، حال بينهم وبين ادراك الحقائق ، وقد ضلوا فى تفكيرهم ضلالا بعيدا على النحو الذى ذكرناه فى صور كلامنا ، وان الاشارة فيه تغنى عن العبارة والايجاز يقوم فى ذلك مقام الاطناب .

فكانت حالهم تقتضى هاديا مرشدا لا يكون من بينهم ، ولا يكون ممن على شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، واذا كانوا قد عبدوا السماء ، فهدايتهم تجيء من خالق الأرض والسماء .

وقد يقول قائل انه بلا ريب العالم كان يحتاج الى رسالة من السماء ، والى رسالة محمد عليه السلام خاصة التى دعت الى تهذيب النفس وتقوية الجسم ، وأن يكون الانسان ربانيا نافعا ، فهل سد الفراغ فى أوروبا وآسيا فى مجاهل العالم ، ومعاله ؟ والجواب عن ذلك أن الشريعة لا تزال قائمة ثابتة وما جاء به محمد لا يزال يدعو الى الحق ، ويوجه ويهدى ، وأتباع محمد هم الذين قصروا فى العبء الذى حملوه ولم يقوموا بحق الأمانة التى ائتمنهم محمد عليه الصلاة والسلام عليها بأمر ربه ، والله بكل شئ محيط .

## البشارات

٤٨ — اذا كانت الدنيا كلها كانت تتطلع الى وجود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليصلح الناس ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، وليهدى من تبلغه الدعوة ، وهم ممن يؤمنون بالغيب ويهدون الى صراط مستقيم ، فان البشارات كانت تجيء اليهم برسول قد قدر الله زمانه ، وسيدركهم اباته ، ولم تكن البشرى من الكتب السماوية التى كانت على مقربة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى اليهودية والنصرانية ، بل كانت البشرى مما وراء ذلك مما دل

على أن هذه الكتب جاء بها رسول ، وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليه ما يدعو اليه من توحيد الله تعالى العليم العزيز ، الذى جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الايمان اليه .

وأقدم الكتب التى اشتملت على هذه البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كتب الهنود القدماء ، فان كتابهم فيدا الذى اشرنا اليه قال بعض المطلعين من المسلمين ان فى فيدا ما يدل على التبشير بوجود الرسول محمد خاتم النبيين ، واليك ما قال ذلك الكاتب ننقله مما نقله عنه الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه « معالم النور » جاء فى هذا الكتاب القيم ما نصه .

« يقول الأستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربى أحمد مكتوب بلفظه العربى فى الساما فيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها : « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهى ملوذة بالحكمة ، وقد قبست منه النور ، كما يقبس من الشمس .

ولا يخفى المؤلف وجوه الاعتراضات التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن بعضهم أنه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا ، وحاول أن يجعلها تفيد أننى وحدى تلقيت الحكمة من ربى ... قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه ، أن العبارة منسوبة الى البراهمى ، ( فانزا كانفا ) من أسرة كنفا ، ولا يصدق عليه أنه وحده مللقى الحكمة من أبيه » (١) .

ويستفاد من هذا الكلام أمران :

أولهما : أنه ورد ذكر أحمد فى كتاب الفيدا كما ورد ذكر هذا الاسم الكريم فى التوراة والانجيل .

ثانيهما : أن البراهمة الذين حرفوا تعاليم هذه الديانة ، التى كانت فى الأصل ديانة توحيد ، حاولوا أن يحرقوا الكلم عن مواضعه ، ويغيروا المعنى بتفسيرها بغير مجراها .

ولا شك أن التفسير التحريفى لهم يخالف ما يدل عليه الأصل كما قرر الأستاذ عبد الحق ، وفوق ذلك فان العبارة تفيد بنصها « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه » ويخالفه التفسير المنحرف ، فان الذى تلقاه بالنص أحمد هو الشريعة وأنه تلقاها من ربه لا من ابنه ، والفرق واضح بين الأب والرب الا اذا كانوا يجعلون الرب أباً كما قال النصرانى من بعدهم .

---

(١) معالم النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٢ .

وقد يقول قائل ان البرهمية لم يأت بها رسول نزل عليه أمر من الله ،  
وان الجواب عن ذلك أن نصوص كتبهم تفيد كما ذكر البيرونى ، أن براهما  
كان مرسلًا ولم يكن الها ، ولم يكن ابن اله ، وقد نقلنا لك ما ذكره البيرونى  
فارجع اليه .

لقد جاء فى كتب الهند كما قررنا تبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، كما جاءت بكتب فيدا ، التى اعتبرها الهند أصلا لعبادتهم ، ولقد  
ذكر الأستاذ عبد الحق أن وصف الكعبة ثابت فى كتب الآثار قافيدا ، ويسمى  
الكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافها أنها ذات ثمانية جوانب ، وأبواب  
تسعة والأستاذ عبد الحق يعبر عن الأبواب بالأبواب المؤدية الى الكعبة ، وهى  
باب ابراهيم ، وباب الوداع ، وباب الصفا ، وباب على ، وباب عباس ، وباب  
النبي ، وباب الزيارة ، وباب الحرم ، ويفسر الجوانب الثمانية ، كما فسر  
الأبواب .

فيذكر أنها جبال تكتنف البيت الحرام ، وهى جبال خليج • وقيعيان ،  
وجبل هندی ، وجبل لعل ، وجبل كدا ، وجبل أبى حديد • وجبل أبى قبيس •

ولا يلتفت الكاتب الى ما قاله البراهمة المحرفون من أن البيت هو هيكل  
الانسان وجسمه ، وذلك لأنه قول لا اعتبار له ، إذ أنه يتنافى مع وصف  
القدسية المذكورة وصفا للبيت ، ولا الى أنه بيت الملائكة ، فلا يوصف الانسان  
بأنه بيت الملائكة •

ويسترسل الكاتب فى بيان أن كتب البراهمة قد اشتملت على اشارة الى  
ما يلاقىه النبى صلى الله عليه وسلم من عداوات ، ويشير الى عدد الذين  
حاربوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى موقعة بدر وانتصاره عليه (١) •

وقد تشكك بعض النصوص فى الكاتب الهندي ، ولكن الكاتب لم يعتمد  
على أوهام توهمها ، لم يعتمد على وهمه ، أو خياله ، انما اعتمد على المنقول ،  
وفسره تفسيرًا تحمله الألفاظ ، ولا يجافى العقول ، والذين خالفوه فسروها  
تفسيرًا لا تقبلها العبارات • بل تناقضها ، وهى مخالفة للمعقول ، كتفسيرهم  
بيت الملائكة والقداسة بأنه جسم الانسان ، وكتفسير الرب بالأب ، وغير ذلك •

٤٩ — ولقد ذكر الكاتب الأستاذ عبد الحق اشارة تبشر بالنبى محمد  
صلى الله تعالى عله وسلم من كتاب زندافستا ، انه وصف فى هذا الكتاب

---

(١) كتاب مطلع النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٣

بتصريف قليل •

ببعض الأوصاف التى جاءت فى القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه رحمة للعالمين ، والله تعالى يقول فى الكتاب المبين «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وذكر أنه يدعو الى الواحد الأحد الذى ليس له كفاء ، وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا قريع ، ولا صاحب ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا مسكن ولا جسد ، ولا شكل ولا لون ولا رائحة •

ولا شك أن هذه أوصاف للذات العلية ، وهى من الوجدانية فى الذات والصفات ، ووحدة الخلق والتكوين ثابتة واضحة ، ونتيجة لهذا وحدة العبادة فلا يعبد الا الله تعالى •

ويقول الأستاذ العقاد « ويشفع ( رأى الأستاذ عبد الحق ) ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبئ عن دعوة الحق التى يجىء بها النبى الموعود ، وفيها اشارات الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف » ان أمة زرادشت حين ينبذون دينهم ، يتضعضعون ، وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون نحو كعبة ابراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان ، وطوس وبلخ ، وهى الأماكن المقدسة للزردشتين ومن حاورهم ، وان نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات (١) •

وهنا نقف وقفة قصيرة ، فان هذا الكلام يدل على أن زرادشت كان نبيا ، وان ديانته ديانة سماوية ، والا ما اشتملت على هذه البشارات ، وما كان لها عندنا اعتبار ، لولا أصلها السماوى ، وكيف يتفق هذا مع ما يقال فى كتب الفرنجة من أن زرادشت كان يدعو الى القوة ، والى معاضدة الأقوياء ، وافناء الضعفاء حتى وجدت فلسفة فى أوروبا تدعو الى افناء الضعفاء ، وألا يكون لهم مكان فى الوجود ، وذلك يتنافى كل المنافاة مع أخلاق النبوة السماوية ، وما تدعو اليه الأخلاق الانسانية الكاملة ، فان حق الحياة كانت لكل الأحياء ، والضعيف لا يموت أو يخضع بحق قانون الأخلاق وقانون السماء ، ولكن يعاون ويعيش ، حتى يبلغ أجله •

والجواب عن ذلك أن هذه النصوص موجودة فعلا فى كتب الزرادشتية ، وهى تؤدى بمنطقها الى أنها جاءت على لسان رسول فى كتاب سماوى ، فقد وقعت الحوادث ، كما ذكرت فقد تضعضع الشعب الفارسى فعلا ، وأدخل أرضه العرب فعلا ، وكان الفارسيون حملة العلم الاسلامى الذى كان رحمة

للعالمين • وذلك لا يكون الا من وحى السماء • فليس لنا الا أن نقول ان هنا رسولا ورسالة ، وكتابا ينطق بوحى الله تعالى •

أما ما ينحل الى زرادشت من أنه كان يدعو الى القوة فان كان يراد بها أن يكون المؤمن برسالته قويا فى خلقه وعقله وجسمه ، فان ذلك حق ، وهو يتفق مع مبادئ الأخلاق ، ووسائل الرسل ، وقد أثر عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » وليس فى هذا ما يمنع أن يكون نبيا مرسلا ، داعيا الى التوحيد ؟ •

وان كان يراد أنه يغلب القوة على الحق فذلك باطل ، وتقوله أوهم الأوربيين وهو جدير بساستهم ، ولا نظن الا أن فلاسفتهم الذين زعموا هذا قد حرفوا القول عن مواضعه ، كما حرفوا دعوة المسيح عليه السلام ، وادعوا له الألوهية وهو منها براء ، وما قال لهم الا ما أمر الله تعالى به •

وكذلك ما يزعمون من أنه أوجب افناء الضعفاء ، انه فيما نرى دعا أهل الايمان الى أن يدرعوا بالقوة ، وأن يعالجوا الضعف ، لا أن يفنوا الضعفاء •

وخلاصة القول فى هذا المقام أن البشارات جاءت فى هذه الكتب ، وهى صادقة فيما قالت ، وتنتج اثبات النبوة لمن وجدت فى كتبه ، وليس لنا أن نطعن فى صدق ما تنتجه ، لمجرد أوهم توهمها ناس ينكرون الوجدانية ، وادعوا على عيسى أنه إله ، أو أنه ابن الله ، فليس غريبا أن يدعوا على غيره ما دونها •

وقد يقول قائل ان القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر هؤلاء ، بل ذكر أن الانجيل فيه أن المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه أحمد ، وذكر أن التوراة فيها محمد عليه الصلاة والسلام مكتوب ، كما قال تعالى : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ، قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء ، فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يحدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » •

والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان كانوا على مقربة من دعوته ، فكان يحاجهم بما عندهم ، وكانوا

هم يعرفون هذا النبي ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به •

على أن رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين ، انما كانت قوتها تستمد من ذاتها ، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها ، والبيئات الناطقة بأنها حق ، وأنها من الله العزيز الحكيم •

### محمد في التوراة :

٥١ — جاء ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة بالإشارة الواضحة ، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من إشارات بينات وأضحات إلى رسالته عليه الصلاة والسلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين ، كما يعرفون أبناءهم ، واستفتحهم على المشركين به قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا •

وقد عني الأستاذ عبد الحق ببيان النصوص العبرية التي فيها الإشارة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت ترجمتها هي « أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم ، وسطع من جبل قارن ، وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » •

وجبل فاران انما هو بمكة ، وقد قال عبد الحق في ذلك : « ان الشواهد القديمة جميعا تنبى عن وجود فاران في مكة ، وقد قال المؤرخ جيرون ، واللاهوتى يوسبيوس ان فاران عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى المشرق من أيلة ، ولا يكتفى بالنقل العبرى وترجمته ، بل ينقل عن النص العربى المترجم ان اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز ثم يقرر أن سفر العسد من العهد القديم جاء فيه أن بنى إسرائيل ارتحلوا من برية سيناء فحلت السحابة في برية فاران ، ويستنبط من ذكر عشرة الآلاف الذين ذكروا على أنهم محمد وأصحابه عندما خرجوا في غزواتهم إلى مكة ، وإلى الشام ، فقد بلغوا هذا العدد ، وكانوا من الصحابة الأطهار ، ويسوق ما جاء في التوراة من أن موسى كلم الله تعالى بشر محمد عليه السلام بقوله : « ان نبيا مثلى سيقم الرب الهكم من اخوانكم أبناء ابراهيم » •

ويسترسل الكاتب المحقق في بيان ما جاء بالتوراة من اشارات فيذكر عبارات نبى من أبناء ابراهيم مثلى تثبت أنه محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا

لم يجرى أى نبى بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة تبين كل الأحكام غير القرآن الكريم الذى نسخ بغض الأحكام التى جاءت فى التوراة (١)

وهكذا نجد التوراة قد بشرت بالنبى ، وإشارات التبليغ قائمة فيها ، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل .

وان هذا الكلام لا يشير فقط بالنبى عليه الصلاة والسلام ، بل يبين مكان الرسالة ، ومنبعها الذى تعم منه مشارق الأرض ومغاريها ، ففاران كما جاء فى أخبار المؤرخين ، والحققين من الكتاب الأقدمين ، كان بينها وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام ، وكما جاء فى كثير من أقوال المؤرخين كانت حول مكة أو بمكة .

وقد ذكر الأحمديون الذين عنوا بترجمة معانى القرآن الكريم ، وان كنا نختلفهم فى أصل ترجمة القرآن ، كما نرى الرأى المبطل لاعتقادهم مسع ذلك نأخذ كلامهم فى التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهون لهوان غائصها الذى استخرجها ، والحكمة ضالة المؤمن يلقفها أنى وجدها .

ذكر الأستاذ المرحوم العقاد ما قاله الأحمديون ، فقال :

« ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن ( أى معانيه ) الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا فى مقدمة الترجمة ٠٠٠ قالت فيه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء ، وهى التجلى فى سيناء ، وقد حصل فى زمانه ، والتجلى من سميع ، أو جبل أشقر ، وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقيم أولاد يعقوب الذين اشتدوا بعد ذلك بأبناء أشعر ، وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران ، وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأراضى بالرياض من برية فاران ٠٠٠ وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة ، كما جاء فى وعد إبراهيم ، فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ولا وجه لأقامتهم ، حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب ، والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها ، وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب .

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥٠ .

ومن نبوءة اشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بأرض الحجاز ، وفى هذه النبوءة يقول النبى اشعيا فى الاصحاح الحادى والعشرين تبيتين بقوافل الدادانيين ، هاتوا ماء لللاقاة العطشان ، ياسكان أرض تيماء « وأونوا الهارب بخبره ، فانهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب ، فانه هكذا قال الى السير فى مدة سنة كسنة الأجير يغنى كل مجد فيدا ، ويقول المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة فيدا بهزيمة المكيين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى نزلت بهم فى وقعة بدر بعد هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير » (١) وهذا النص يشير ، وكل تبشيرات الكتب بالأخبار المستقبلية يكون بالإشارة التى لا تخفى على المتأمل ، وربما لا يفهمها من يأخذ بظواهر الألفاظ ، لا بمرامها وغاياتها ، وان التفسير بالظواهر لا يجدى ولا يؤدى معنى ، والاتجاه الى المرامى التبشيرية يجعل للألفاظ معنى قائمة بذاتها وواضحة .

ويسوق جماعة الأحمدية فى مقدمة تفسيرهم بالانجليزية ، فينقلون عن الاصحاح فى سفر اشعيا ، وهو يرفع راية للأمم من بعيد ، ويصف لهم من أقصى الأرض ، فإذا هم بالعجالة يأتون ، وليس فيهم أزع ولا عاثر ، لا ينعسون ولا ينامون ، ولا تنحل حزم حقائبهم ، ولا تنحل سيور أخذيتهم سهامهم مملوءة ، وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم ، كأنها الصوان » .

وان هذا النص يدل على الدعوة الى الحج ، وهى قد تدل على بعض قوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير » .

وجاء فى سفر اشعيا فى الاصحاح الثامن : « ولا تقولوا فتنه لكل مايقول هذا الشعب فتنه ، ولا تخافوا خوفا ولا زهوا ، قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا ، وحجر كل صدمة ، وصخرة عثرة ٠٠٠٠ » وكما وشرقا لسكان اورشليم ، فيعثر بها كثيرون ، ويسقطون فيتكسرون ، ويعلقون فيلفظون ، صدا شهادة ، اختتم الشريعة بتلاميذى ، فاصطبر للأب السائر وجهه فى بيت يعقوب » .



واننا نرى أن الإشارة بعيدة أو أن الدلالة يعسر ادراكها على وجه يقينى ، وحسبنا ما مضى من نقول ففيها ما يكفى .

### محمد فى الانجيل :

٥ — جاءت البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى الاناجيل وأوضح اشارة منها فى التوراة ، ولنضرب لذلك بعض الامثال .

(أ) جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى على لسان المسيح يخاطب بنى اسرائيل : « هوذا بينكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم . انكم لاتروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » فهو يدل على أن هناك من يأتى بعده مباركا باسم الرب ، ولم يأت بعد الا محمد عليه الصلاة والسلام .

(ب) وفى الاصحاح الحادى والعشرين من هذا الانجيل على لسان السيد المسيح ما نصه : « لذلك أقول لكم ، ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترخص ، ومن سقط هو عليه يسحقه .

(ج) وجاء فى انجيل يوحنا فى الاصحاح الأول حديث يوحنا مع الكهنة فى اللاويين ، اذ سألوه : من أنت ، فاعترف ولم ينكر ، وقال انى لست أنا المسيح ، اذن ماذا ! أنت ايليا ، فقال لا . قالوا أنت النبى ! فأجاب لا . فقالوا له من أنت لنعطى جوابا لمن أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال أنا صوت صارخ فى البرية .

ولا شك أنه كان تنبؤ عن نبى ليس هو المسيح ولا هو نبيا ، فمن يكون هو غير محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

(د) وجاء فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الذى صرح بالوهية المسيح فيما يزعمون جاء فيه على لسان المسيح ، « انه خير لكم أن أنطلق لأنى ان لم أنطلق لا يأتىكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء اليكم ييكت العالم على خطيئته ، وعلى بره ، وعلى دينونة ، فأما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون به ، وأما على بره فلأنى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا ، وأما على دينونة الله ، فلأن رئيس هذا العالم قددىن ، وأن لدى أمور كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تتحملوها الآن ، وانما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية ، وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، وبعد قليل لا تبصروننى » .

وان هذا الكلام اذا اطرحنا عبارات الآب ، والالوهية المدعاة ، يتبين انه ينبىء عن المعزى الذى يجىء بعده • وانه ينطلق ليخلى له الطريق وانه يبكت على خطيئته ، وهو انكار نبوة المسيح ، ويبكت على بر بالمسيح فى زعمهم ، لانه يبكتهم على ادعائهم الوهية المسيح لله سبحانه وتعالى المنزه عن الصاحبة والولد •

ثم انه يصرح الى انه يدعو الى الحق جميعه ، لانه اتى بالشرعية كاملة غير منقوصة خالدة لكل زمان ومكان ولكمالها كانت هى الخالدة ، فمن غير محمد يكون وان المعزى للخليقة الذى ينكر الخطايا ، وينكر غلو اهل الكتاب فى دينهم انه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد جاءت نصوص الاناجيل الحاضرة بأن المسيح يبشر بالفارقليط ، والفارقليط هو أحمد ان ذلك هو المعنى اللفظى للفارقليط (١) •

### على فترة من الرسل :

٥٢ — ان نظرت الى العالم شرقا فى اقاصه ، أو غربا فى اقاصه ، أو القريب الدانى ، أو البعيد النائى ، فانك واجد ان العالم فى حاجة الى من يهديه من ضلاله ، فالفلسفة لا تصلح الناس ، ولو استقامت على الطريقة ، لأنها ان اتقنت الخاصة لا تملأ نفوس العامة ، ولا تهديها الى سواء السبيل ، وهى ما استقامت فما اصلحت احدا •

والعقائد قد اعترها التحريف ، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ، ونسوا حظا كثيرا مما ذكروا به ، ونظروا الى الناس جميعا ، على انهم دونهم ، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ، وأن الله تعالى خالقهم كما خلق غيرهم بل زعموا انهم المختارون وأن كل الناس دونهم ، وبذلك عاثوا فى الارض فسادا ، ولما ذلوا وهم على الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار ، حقدوا على الخليقة ، وعملوا بكل الوسائل للكيد لغيرهم غير متحرجين ولا متأثرين ، بل انهم يغترون بالعداوة بين الناس ، وينشرون الفساد فى غير تحفظ ، ولا مراعاة لآى جوار فى أى مكان ، فكان لابد من نبى يأتى بدين قوى يكفكف غرورهم وينهنه من غلوائهم •

---

(١) قد كتب بعض تلاميذنا المسيحيين كتابا قيما يبين فيه بعض نصوص الاناجيل بنبوة المسيح عليه السلام ، وقد طبع •

والنصرانية انحرفت ، وخرجت عن مبادئ المسيح وغلوا فيه ،  
واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء واستكبارا فى الأرض وعتوا وفسادا  
فكان لابد من رسول بشير ونذير ، يهدى الى الحق والى صراط مستقيم •

« ياهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن  
تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل  
شئ قدير » •





الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



## محمد من أوسط قريش نسباً

٥٣ — التقى أبو سفيان بن حرب بهرقل بعد أن ظهر أمر نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاعت دعوته ، وسمع الرومان برسالته ، فسأله عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة كان من بينها السؤال عن نسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو سفيان ، وهو خصم شديد للدن قوى الخصومة عندما سئل فى ذلك ، فقال غير كاذب : « انه من أوسط قريش » أى أعلاهم لأن الأوسط هو الأعلى والأشرف . فقال هرقل هكذا يبعث الانبياء من أشراف الناس نسباً .

وأخبار القرآن عن الانبياء السابقين تثبت أنهم كانوا من أعلى الناس فى قبائلهم من حيث مكانة أسرهم ، ولنضرب لذلك مثلاً بشعيب عليه الصلاة والسلام ، فقد كان من رطب شريف ، وكان نسيباً فيهم ، ولقد قال الله تعالى فى مجادلته لقومه « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وأنا لنراك فىنا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزىز ، قال يا قومى أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراكم ظهرياً ، ان ربى بما تعملون محيط » .

وان هذا النص الكريم يدل على أن شعيباً عليه السلام كان من قبيل فيهم شرف ، وفيهم عزة ومنعة ، وبذلك كان من أوسط العشائر وأعلاها فى مدين .

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أسرة فيها سمو وعلو فى قومه ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة صفياً مهذباً ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » .

وفى الصحيح من حديث وأثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاى من بنى هاشم » .

وبذلك يتقرر أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رفيع النسب ، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فان المال لا يكون نسباً ، وقد كان عمه أبو طالب كبير

البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك فى المال قلا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع علو نسبه بين العرب كان فقيرا ، وكان يتيما ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال ، أو قوة البطش ، أو عظمة السلطان ، انما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو أحادها عن النقائص ، ويخشون العار من أن يقعوا فى رذيلة يستنكرها العسرف ، ويستهنونها ذور العقول السليمة ، وأن يكون لهم شرف نفسى ، ولم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام شرفه فى العرب بالمال ، أو السطوة ، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفسا وبيتا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « جعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » .

وانظر الى أبى سفيان الذى كان من أعلى قريش عندما سأل هرقسل أجاب بالصدق والأمانة ، وأن كان صدقه حجة عليه ، ومعطيا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ، واستعلاء بدعوته ورسالته ، ويقول أبو سفيان وهو على الشرك : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » .

٥٤ — ولماذا كان الأنبياء لا يكونون الا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد ، وأن تولدت الرفعة من غير كبرياء ، واحترام النفس من غير استعلاء . ذلك ، لأن الرسالة تحتاج الى دعوة قوية لا يرتفعها كدرة التعيب ، أو عدم الثقة ، أو نقص فى شرف النفس ، أو رميه بالذيلة ابتداء ، وأن كان هو فى ذاته كاملا .

ان النسب الذى ليس فيه رفعة ، ولم يعرف بأنه من عشيرة ذات تقاليد فاضلة ، كان أول ما يبادر به هو الرد ، لعدم شرف أسرته ، وانما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهم من أرذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوى النسب ، ويتخذون ذلك ذريعة لرد الدعوة ، وأن كانوا فى ذلك ظالمين ، وأن رد قوم نوح أبى الانسانية الثانى لبيبين هذا ، فقد قال تعالى عنه وعن قومه الذين ردوه « فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما تراك الا بشرا مثلنا ، وما تراك اتبعك الا الذين هم أرذلنا يادى الرأى ، وما ترى لكم علينا من فضل ، بل تخلفكم كاذبين » . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بيته من ربى وآتاني رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما انا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين » .



ان اعتراضهم على أن الذين اتبعوا نوحا عليه السلام هم أراذلهم  
اعتراض ظالم ، ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يأتيهم بنبي مغمسور في  
أسرته ، منكوب في أمر أمته ، مرذول ابتداء عند قومه ، فيبادرون بعدم تصديقه ،  
ويجاهرون ابتداء بمخالفته ، ويصرون ، ويأخذون حجته من حال عشيرته وما  
يالفون ، وان التأثير في الأقوام لا يكون باكره النفوس على عكس  
ما يبدو لها ، وما تبادل برده ، لأن المبادرة بادی الرأي بالرد تجعل النفس  
تبتدئ بالانحراف عن الخط المستقيم الذي تدركه العقول ، وإذا انحرفت زاوية  
التفكير بأمر منفر بادی الرأي ، فإنه يستمر في خط الانحراف ، ولا يرجع الى  
الحق ، الا بعسر ، وانه كلما استطال خط الانحراف انفرجت الزاوية ، ويصعب  
التلاقى من بعد ، ورضى الله تعالى عن على كرم الله وجهه اذ يقول : « ان  
للقلوب شهوات ، واقبالا وادبارا ، فان القلب اذا أكره عمی » ودعوات الرسل  
للهداية ودعوات الرسالة للهداية ، وليست للعماية .

٥٥ — ولا شك أنه يجب أن يكون للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم  
منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغير ما يعلمون ، وما يعتقدون ،  
ويصدع مفاجئا بما لا يريدون ، وانهم بلا ريب يجدون أنه لا يدفع ما يجيء  
على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القسوية ، وإذا لم يكن له  
منعة من قومه يقتلونه في فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحا ، ويكون لها ضوء  
في المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فإنه من بعد يكون نورا ، ولو أطفئ النور عاش  
في ظلام لا يضيء أبدا ، وانظر الى قصة قوم شعيب ، اذ أنه لم يمنعه من أن  
يقتلوه الا رهطه ، فقد قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهم مما تلونا :  
« ولولا رهطك لرجمناك » .

فلو كان الرسول في غير رهط يمنعه ، وفي غير منعة تدفع أعداءه لما ت  
دعوته في مهدها .

وما لنا نخوص في الماضي قريبا كان أو بعيدا ، ونحن بين يدي حضرة  
الرسول عليه الصلاة والسلام ، اذ أن قريشا عندما صدع بأمر ربه ، عارضته ،  
ولجت في المعارضة ، ولما لجت في المعارضة ساورتها نزعة الشر لقتله ، وما  
كان يمنعه الا أسرته ، وشرف هذه الأسرة ، ومكانتها عند العرب ، وخوفها من  
أن تبادل بالتأثر ، ودفع العار ، حتى تمكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
من أن يخرج بدعوة الحق من الفجر الذي يشق الظلام الى الصباح المشرق  
المنير ، بل الى الضحى الذي يملأ الوجود ضياء ، عندئذ قبض الله تعالى من  
يمنعه ، وقد وقفت الدعوة تناضل عن نفسها ، وترد كيد الكائدين .

٥٦ — وقد يقول قائل انهم ان لم يستطيعوا النيل من شخصه ، فقد نالوا ممن يتبعونه ، ووقفوا محاجزين دون أن تصل دعوته الى الضعفاء ، فلم يمنعهم مكانه في أسرته من أن ينالوا من صحابته ، ويعوقوا رسالته ، وقد مات فعلا بعض الضعفاء من الصحابة تحت حر العذاب .

ونقول ان هذا دليل على انه لو كان صاحب الدعوة كأولئك الضعفاء لم يوجد من يمنعه — لقتلوه ، وقالوا انه أصلها فلو قتلناه لزالنا ، فيستكلمون عليه وتموت الدعوة في مهدها ، فيجعلون بوقفها .

وانه يلاحظ أن الأذى الذي كان ينزله المشركون من قريش بالمؤمنين كان يتفاوت مقداره بمقدار قوة أسرهم ، ومكانتهم في النسب الذي كان موضع فخرهم ، فكان لأبي بكر وعثمان ، لون ما كان لآل ياسر ، وآل خباب ابن الأرت ، وكان لهؤلاء الذين لا ناصر لهم أشد ما يلقى الانسان من أخيه الانسان ، حتى كانوا كالذين عذبوا بالأخدود كما نوهنا من قبل ، وكما جاء في القرآن تعالت كلماته ، وسمت عن القيل عباراته .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناله الأذى ، وأصابه العنت من أولئك ، ولكن دون أن يفكر في قتله الا بعد أن يؤسوا من أن يقفوا الدعوة وبعد أن وجدوه يعمل على توجيه دعوته الى خارج مكة ، وقد أخذ نورها يتجه الى القبائل العربية ، فحاولوا أن يقتلوه ، ولكن قد أن له عليه الصلاة والسلام أن ينشئ دولة الايمان ، وقد تكاملت عناصر تكوينها ، ولكن في غير أرض مكة .

وهكذا اختبر الله أهل الايمان بالشدائد ، حتى هاجروا فرارا بدينهم ، لأن الشدائد تملأ القلوب صرامة ، وتعطي الارادة عزيمة ، فلا تهن ولا تضعف ، ولا تحزن ولا تئس من روح الله ، ومن أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، وهكذا يربى الرجال الذين يكونون دعائم الحق ، قال تعالت كلماته « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم المياساء والمضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، الا ان نصر الله قريب .

٥٧ — كان لابد لنبي الرحمة أن يكون في كل حياته رحيمًا ، فيربي على الرحمة بالضعفاء صغيرا ، يكون بينهم ضعيفا ليحس بالأم الضعفاء والساكين ، فليس رحيمًا من لم يذق مثل ما فيه حال الضعفاء .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه كان نسييا من أعلى نسب  
فى قومه قد كان فى المال قلا ، وأبتدا حياته يتيما ، ثم كان أجيرا فى رعى  
الغنم ، فالتقى فيه مهذبان : أحدهما - النسب الرفيع الذى يجعله لا يتجه الى  
سفساف الأمور ، بل يتجه الى معاليها ، ليتكافأ نزوعه مع شرفه ، فيتلاقيا ،  
ويتوافرا على اعلائه ، وبذلك حفظ محمد شرف النسب ، فكان الصادق الأمين،  
الذى لم يكن فيه ما ينقص نسبه ، ويضعف شرفه العظيم ، فكان النبيل حقا  
وصدقا ، وكان الكامل بين ذوى الأنساب ، والمتبع من غيرهم •

المهذب الثانى اليتيم وقلة المال ، وان هذا المهذب من شأنه أن يجعله موطأ  
الكنف للضعفاء من العبيد ، والعاملين والفقراء ، فلا يستكبر ، ولا يستعلى ،  
بل يكون قريبا منهم ، أليفا معهم من غير أن يناله ذل الفقر ، وضعف الحاجة  
واستخذاء المسكين ، فهو العالى الرفيع ، وهو الذى ينبع معين الرحمة من  
بين جنبيه ، فان الرحمة تنبع من بين الشدائد ، والرحيم هو الذى يذوق  
الشديدة من غير أن تذله ، ليرحم غيره ، ولا يعتري نفسه حقدا على من هو  
أعلى منه ، بل هو ينظر دائما الى من دونه ليعليه ، وليحميه ، ويعينه •

ان هذين التهذيبيين قد توافرا فى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
فاتجه منذ صباه الى معالى الأخلاق التى تليق بذوى الشرف والرياسة ،  
ولم يتخذ الشرف سبيلا للاستطالة على غيره •

وان يتمه وفقره ، وعمله فى ميدان الأجراء الضعفاء جعله قريبا مألوفا  
غير متعال ، يحس أنه من الضعفاء فى اخلاصهم ، ومع الأشراف فى امتناعهم  
عن الدنية فى أعمالهم ، وفى كل أحوالهم كان العطوف الأليف •

وانه يلاحظ فى استقراء أحوال الناس أن الضعفاء دائما اذا لم ترنق  
قلوبهم بحقد ، ولا حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله ، يكون فى قلوبهم  
اخلاص ، ومع الاخلاص اشراق النفوس الذى ينزع بها الى الحق ، والى  
صراط مستقيم ، ذلك لأن قلوبهم لم تصبها كدرة الهوى ، والشهوات واللذات  
التي يدفع اليها المال ، أو يسهل سبيلها ، واستغراق النفس بها ، فيكون الانسان  
قريبا من الايمان سرعان ما يدخل قلبه الايمان ، ولذلك كان أول من يجيب دعوة  
الأنبياء ويؤمن بها ، وأول من يجيب دعوة أى حق ويؤمن بها الضعفاء •  
والفقراء بهذا القيد الذى ذكرناه ، وهو ألا يدنس قلوبهم حقد ، ولا حب  
انتقام ، ولا حسد يطفى موضع الايمان فى قلوبهم •

لقد أوتى النبی علیه الصلاة والسلام الرحمة بالضعفاء ، لأنه أحس بأنه منهم ، من غیر أن یناله ما عساه یکمن فی نفوس الضعفاء من استکانة ، ورضا بالدون من السجایا المرهقة المذلة ، لأن الضعیف اذا لم یصب بالحقد أصیب بنوع من الرضا بالقلیل ، وعدم المطالبة بحقه الهضیم ، وان ذلك قد یجر الى الاستخذاء ، والنبی علیه الصلاة والسلام أوتى مزايا الفقر من إخلاص واتجاه الى الطريق المستقیم ، من غیر تدلی الضعفاء الى هوان ، أو اذلال ، لأن علو النسب منعه ، وأبعده عن ذلك ، فالتقت فیة الحسنيان ، حسنى النسب ، والإخلاص لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك تهيئة للرسالة الالهية الرافعة للانسانية .

## النسب الطاهر

٥٨ — يذكر المؤرخون للسيرة الطاهرة ، سيرة خير الأنام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، ولكن لا تعرف سلسلة النسب كاملة اليه ، بل ان التاريخ لا يحفظ الا عشرين منها ، فهو محمد ابن عبد الله ، بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، بن هاشم واسمه عمرو ، ابن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، ابن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، ابن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان \*

وهذا التعريف بنسبه الكريم ، هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ، ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان يقول : « كان النبی صلى الله تعالى عليه وسلم اذا انتهى الى عدنان أمسك ، ثم يقول كذب النسابون ، قال الله تعالى : « وقرونا بين ذلك كثيرا » \*

وان هذا الخبر المنسوب للنبي عليه الصلاة والسلام يدل على صدق تلك السلسلة الكريمة ابا عن جد الى أن ينتهى الى عدنان ، وان حفظ النبي لهؤلاء فقط يدل على أمرين \*

أولهما — الشك فيمن فوقهم ، وأنه لم يصل اليه عن طريق صحيح ، وأنه وصل الى الناس عن طريق النسابين ، وأن النسابين قد يدفعهم الفخر الى الكذب والافتراء \*

ثانيهما — أنه يدل على صدق هذا النسب ، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول الا حقا ، فهو الصادق الأمين ، ويظهر أن ذلك القدر من النسب الرفيع هو الذى كان معلوما فى حكم المتواتر ، أو المشهور عند العرب ، وغيره موضع شك ، والقول فيه رجم بالغيب ، وأخذ بالقوهم أو الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا \*

وما كان أولئك معروفين الا لأنهم أثرت عنهم مآثر ، صارت مفاخر لنرياتهم ، وان كان النبي عليه الصلاة والسلام لم يفخر قط بنسبه ، ومع ذلك هو من خيار الأقوام ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من خيار من خيار من خيار » فهو يذكر الخير فيهم ، ومكان الشرف فى أسلافه ويمتنع من أن يستعلى بهم ، والتفاخر استعلاء واستطالة بالنسب ، وقد يكون فيه شحناء ، والشحناء ليست من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم \*

٥٩ — وان الظاهر أن أولاد عدنان قد أقاموا بمكة منهم من هو فى سلسلة نسبة النبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن اسماعيل عليه السلام ، كانت اقامته قرب مكة ، وهو باني الكعبة ، ولأن النسابين ذكروا أنه كان أولئك العشرون بها ، ولأنهم كانوا معروفين فيها كإبراهيم عن كابر ، وما يعرفون الا لأقامتهم بمكة التى قام بها الأخلاف من بعدهم ، ولتقديس الكعبة ومكة ، ووفود الناس اليها من كل فج عميق .

ولقد ذكروا أن بعض ذرية عدنان أقام باليمن ، وأنسل فيها نسلا ، وذلك لأن عدنان ولد له ولدان أحدهما معد ، والثانى عك ، فتزوج هذا من الأشعريين ، وهم بنو أشعر الذين يقيمون باليمن ، فانتقل الى موطن زوجته باليمن ، ثم كان من بعض منهم من كان بعض ولده يخرج من مكة ، وينفرد بالبقاء فيها من يدخل فى سلسلة النسب ، كما رأيت فى معد ، وأخيه عك ، فهذا هاجر الى اليمن مع أسرة زوجه ، وبقي معد فيها .

وجاء معد ، فكان مثل أبيه فكان من أولاده قضاة الذى تنسب اليه هذه القبيلة ، وكان نزار هو الذى استمر بمكة ، حتى كان منه ولده من بعده من يدخلون فى نسبه عليه الصلاة والسلام .

وكان من أولاده ربيعة الذى ينسب الربيعيون ، وانمار ، وإياد ، وهذان كانا أبوين لقبيلتين ، وكان ابنه مضر الذى كان جد النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى أقام بمكة المكرمة .

وكان لمضر ولدان هما الياس ، وغيلان ، ومضر خيرهما ، هو الذى يدخل فى نسب النبى عليه الصلاة والسلام ، ويظهر أنه فى عهد الياس أخذ بنو اسماعيل يغيرون ما ورثوا من شريعة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام فأنكر عليهم ما غيروا من سنن آبائهم وسيرتهم ، ويقول فى ذلك صاحب كتاب « الاكتفاء » : بأن فضله عليهم ، ولأن جانبه لهم ، جميعهم رأيه ، ورضوا به رضاء لم يرضوه لأحد من ولد اسماعيل ، فردهم الى سنن آبائهم ، حتى رجعت سنتهم قائمة على أولها .

وجاء من بعد الياس ابنه مدركة ، واسمه عامر ، وله ابنان آخران ، لكن هذا كان المختار منهم ، وسماء مدركة لأن ابلا كانت قد نفرت منهم ، فتقاصر الولدان الآخران عن تتبعها ، ونهض عامر ، لردّها من نفارها ، وقد يعدت ، فأدرکها فردّها ، فسمى مدركة وصفا لهذا العمل ، وكان لمدركة خزيمة وهذيل فكان خزيمة المختار ليكون جدا للنبى عليه الصلاة والسلام ، كان جد لهما ، وولد لخزيمة — كنانة وأشد وأشد وأشد والهون ، وكان كنانة هو المختار ليكون النبى عليه الصلاة والسلام من صلبه .

وكان لكنانة عدة أولاد ، ولكن الذى اختار الله تعالى ، ليجسرى فى صلبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو النضر المختار من بينهم ، ويقال ان النضر هذا هو الذى جمع قريشا ، ولكن الأكثرين على أنه فهر حفيده الذى هو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

والنضر كان له أولاد كان أنجبهم فهر جد النبى عليه الصلاة والسلام .

وكان فهر هو مجمع قريش ، وكان يسمى قريشا ، وقد كان فيه حكمة ، وخلق سوى ، وقد قال فى وصيته التى قالها لولده غالب الذى أعقبه فى الزعامة وهو المختار ليكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صلبه ، فقد قال لابنه غالب عندما حضرته الوفاة .

« يا بنى ان فى الحزن قبل المصائب اطلاق النفوس ، فاذا وقعت المصيبة برد حرها ، وانما القلق فى غليانها ، فاذا أنا مت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها فى محبى الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وان قلت منفعتك ، فقليل ما فى يدك ، كان خيرا لك من كثير ما أخلق وجهك » .

ولقد كان غالب له أولاد ، وقد خلفه فى زعامة قريش لؤى ، وقد كان لؤى هذا فيه حكمة كأبيه وجده ، بدت وهو غلام حديث ، فقد جرت مناقشة بينه وبين أبيه غالب دلت على حكمة قلبهما .

قال الغلام لأبيه : يا أبت من رب معروفا قل اخلافه ، ونضر مأؤه ، ومن أخلفه أهمله ، واذا أهمل الشيء لم يذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وستره .

فقال الأب الحكيم : « انى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، واستدعى لك به الطول على قومك ، فان ظفرت بطول ، فعد به على قومك ، وكف غرب جهلهم بحلمك ، ولم شعثهم برفقك ، فانما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايستها على أوزانها أسقط الفضل ، ولم تعل به على أحد ، وللعليا فضل أبدا على السفلى .

خلف الغلام بعد أن اكتمل رجالا أبياه ، وقد ولد له أولاد ، كان كعب أعقلهم ، وأفضلهم ، وهو جد النبى ، وقد كان حكيما كأبيه وجده ، ويذكر رواية السيرة انه قال هذه الخطبة :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار وضاح ،

والسماء بناء والأرض مهاد والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثا ، لتضربوا عن  
أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظنكم ، صلوا  
أرحامكم واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمروا أموالكم ، فانها قوام  
مروءاتكم ، ولا نصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم ، وتمسكوا  
به ، فسيكون له نبأ عظيم ، وسيخرج نبي كريم » .

هذا ما يقوله كتاب السيرة فى نسبة الخطبة اليه ، وليس لنا أن نحكم  
بصدق النسبة أو تكذيبها ، ولكن نحملهم مغبة ذلك ، ان صدقا وان كذبا .

وقد كان لكعب بن لؤى أولاد خيرهم مرة جد النبى عليه الصلاة والسلام ،  
وقد كان أحد الرجال الذين تفاخر بهم قريش .

وقد جاء من بعد مرة كلاب ، وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثم جاء من بعده ولده قصى وهو خير أولاده ، وأظهرهم ، وأبينهم أثرا فى  
قريش فهو الذى جمع الله به قريشا ، وكان اسمه زيدا ، فسمى مجمعا ، لما  
جمع من أمرها ، ويسمى قصيا لتقصيه أمورها ، وان قصيا على هذا جد  
قريب ، وليس من الأجداد الذين يبعد عهدهم به عليه الصلاة والسلام . وله  
شان خاص فيما يتعلق بسدانة الكعبة ، ورياسة الندوة وغيرها ، فلا بد أن  
نخصه بكلمة .

### قصى :

٦٠ - قد ترك أبوه كلاب ولدين أحدهما قصى ، والثانى زهرة ، وكلاهما  
جد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقصى جده عليه السلام ، وهو الجد  
العصبية ، وأما زهرة فهو جده لأمه ، فهو الجد الرحمى ، وكان كلابا بهذا  
قد جمع الله تعالى له شرفين ، فهو جد النبى عليه الصلاة والسلام لأبيه ولأمه ،  
فالتقى فيه الشرفان .

وقد طوف قصى فى بلاد العرب ، فهو فى أول حياته لحق بأمه فى قضاة ،  
فأقام معها ، وقد كان فتى قويا كريما أباى الضيم والعار ، ناضل يوما  
شابا من قضاة فنضله قصى ، فغضب المنضول ، وحزت فى نفسه حرارة  
السهام ، وسبة الهزيمة ، فتنازعا فى القول ، فقال المهزوم : الا تلحق بأهلك  
فلست منا ، ويظهر أنه الى هذا الوقت ما كان يعرف أباه وشرفه ، فقد عاد  
الى أمه وشكا لها من مرارة القول الذى سمعه ، فقالت له أنت والله يا بنى  
أكرم منه نفسا والدا ، ونسبا ، وأشرف منزلا ، أنت ابن كلاب بن مرة ابن



كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى ، وقومك  
بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله ، تقد العرب الى ذلك البيت •

أجمع قصى بعد ذلك الخروج ، واللقوق ، وضاق ذرعا بالبقاء غريبا ،  
فقال له أمه لا تعجل ، حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج  
العرب ، فانى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس (١) •

انتقل قصى الى أسرة أبيه فى مكة بعد أن جاءت الأشهر الحرم ، وخرج  
حاجا ، وكان جلدا بهذا نسييا • ولم يلبث أن نال سدانة البيت الحرام ، ولم يكن  
من قبله لقريش بل كانت لخزاعة ، وكان له الأمر فى اجازة الحج للناس ، وكان  
ذلك لغير قريش ، فانتزع تلك الولاية بحيلة الداهية ، وقوة ذى البأس •

ولى بهذا قصى سدانة البيت ، وامرة مكة ، وجمع قومه من منازلهم ، واجتمعت  
فى يده بمقتضى الولاية سدانة البيت وامرة مكة والحجابة والرفادة والسقاية  
والندوة واللواء ، ومعنى الحجابة أن يملك مفاتيح البيت ، فلا يفتح الا بأمره ،  
ومعنى السقاية تولى سقاية الحج ، والرفادة كانت خرجا تخرجه قريش فى كل  
موسم من أموالها وتعطيه قصيا ، فتصنع به طعاما للحجاج فيأكله  
من لم يكن له سعة ولا زاد ، وقد سن هذه السنة الكريمة ، ودعا اليها  
قريشا ، وقال فى خطابه لهم بذلك :

« يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وان  
الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم  
طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » •

ومعنى اللواء ألا يعقد لقريش لواء الا بيد قصى هذا ، ومعنى الندوة  
دار الشورى لقريش ، ثم كانت من بعد ذلك للعرب ، فكانت تعقد فى دار قصى •

وقد أعطى كل هذه الحقوق التى نالها بهمه لابنه عبد الدار ، ليعزه بها ،  
واراد أن يرفع خسيسته وينال الشرف على بنى عمه من قريش . ولذلك قال  
له أبوه عندما أعطاه أياها : « أنا والله يا بنى لأحقنك بالقوم ، وان كانوا قد  
شرفوا عليك » •

• وكان عبد الدار هذا ولده البكر ، وله ولد آخر هو عبد مناف ، وقد شرف فى مكة بذاته ، ونيل أمره ، وقد ذهب كل مذهب ، وأبوه حتى •

وقد أراد أبوه بإعطائه عبد الدار ما أعطى أن يتعادل الأخوان فى الشرف الذى وصل اليه الأول بذاته ونبله ، وتخلف الثانى ، فأعطاه ما يعوض تخلفه •

وعبد مناف هذا هو الجد الرابع للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أعطى الله لعبد مناف أولادا أربعة هم عبد شمس جد الأمويين ، والمطلب الذى ربه عبد المطلب الذى يعد اسمه الأصل شيبه الحمد ، وقوفل ، جسد جبير ابن مطعم •

٦١ — وكان أولئك الأربعة فىهم شرف ذاتى كشراف أبيهم ونبله ، فلم يتركوا لعبد الدار وأولاده ما أعطاه جدهم قصى ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لفضلهم فى قومهم ، وقد انقسمت قريش فى تمكين بنى عبد مناف من نزع ما بأيدي أولاد عمهم ، فرأى بعضهم أنهم أولى لمكان فضلهم ، وليس امرأة مكة وزعامتها عطاء يعطى من لا يستأهله ، بل يوسد الأمر لمن هو له أهل ، ورأى آخرون أن بنى عبد الدار أولى ، لأن قصيا صاحب الحق هو الذى أعطى أباهم ، ولأنه بأيديهم ، ولا ينزع من يد صاحبه لغيره ، ومن قريش طائفة التزمت الحياد •

وقد كان خلف شديد انتهى الى صلح سديد ، لأن المختلفين أزمعوا الحرب ، وحيث بلغ الخلاف أقصاه تنبه المختلفون اذ نبهتهم العاقبة المرتقبة الى أن يكفوا ، أو يكف كل فريق عن غلوائه ، فتداعوا الى الصلح •

اصطلحوا على أن يكون فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وإن تكون الحجابة واللواء ، والندوة فى بنى عبد الدار كما هى •

وكان هاشم أصبح بنى عبد مناف ، وأنقبهم صحيفة ، ولذلك كان له الشرف على أخوته ، ونال مما أخذ به بنو عبد مناف ، وكان بنفس عليه أخوة عبد شمس ما كان له من شرف ذاتى ، ومكانة عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة ، وقد أعقبه فى شرفه مربي النبى عليه الصلاة والسلام عبد المطلب ، وهنا نقف وقفة عند عبد المطلب •

عبد المطلب :

٦٢ — نقف عنده وقفة قصيرة ، لأنه هو الذى حضن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى سن الحضانة ، وعبد المطلب أمه من يثرب مهاجر

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهى من بنى النجار بها ، وقد شب فى حياته الأولى فيها ، وقد تربى بينهم فى دار الغربية ، حتى أتى به عمه المطلب ، ودخل مكة ، ولزم صحبته ، فقيل له عبد المطلب •

وقد أعطته قريش رياستها ، واستحق ذلك بقوة نفسه وقوة خلقه ، وسماحته ، فهو لشبابها أب ولكهولها أخ ، فى طلعتة يمن ، وفى خلقه عزيمة قوية ، ولكن فى هدوء ، وسمت طيب راض ، وطيب ، ولكن فى غير هوان •

هو الذى حفر زمزم بعد أن طمرتها جرهم عندما سيطروا على مكة ، وكانت لهم قوة فيها واستمرت مطمورة عبر السنين ، حتى حفرها عبد المطلب ، فسقوا من مائها ، وأثار ذكريات اسماعيل عليه السلام بحفرها ، وملأهم عزة وكرامة باستعادة بئر كانت ببركة أم اسماعيل الذى كان هو وأبوه فخر العرب ، وزاده ذلك شرفا فيهم ، وعلوا ، وما كان لطيبة نفسه بالذى يستعلى على أحد بمناقبه ، وما أعطاه الله من حسن النقيبة ويمن الطالع ، بل يحمد الله تعالى على ما وفقه وهده •

ويذكر كتاب السير أنه حفرها برؤيا صادقة مكررة ، وكأنها الهام من الله تعالى ، اللهم سبحانه وتعالى آياه لصفاء نفسه ، واشراق روحه •

يروى على بن أبى طالب عن أبيه عبد المطلب أنه قال : انى لنائم فى الحجر ( بجوار الكعبة ) إذ أتانى أت ، فقال : « احفر طيبة ، قلت وما طيبة ، ثم ذهب عنى • فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه ، فجاء فقال احفر برة ، قلت وما برة ؟ ثم ذهب عنى •

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى فنمت فيه ، فقال احفر المضمونة قلت : وما المضمونة ، ثم ذهب عنى •

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه فجاءنى فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ؟ فقال : لا تنزف أبدا ، ولا تدم ، وتسقى الحجاج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل ، ومعنى بين الفرث والدم ، أى عند المذبح الذى كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية أى المكان الذى كان فيه نمل • ووجد الغراب ينقر عندها ، وكأن هذين كانا علامة حد المكان ، والآية التى تدل على صدق الآتى ، فى تبشيريه •

فلما بدا لعبد المطلب الماء كبر الله تعالى ، وقد كانت قريش تلاحظ عمله ، وكأنها غير مصدقة لنتائج ما يحفر ، فلما كبر علموا أنه أدرك ما يريد •

ولكنهم جاءوا يشاحونه فى أن تكون العين تحت سلطانهم جميعا ،  
لا تحت سلطانه وحده ، وقالوا : انها بئر اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ،  
فأشركنا معك فى السلطان عليها .

ولكنه لم يسلم لهم ، بل رأى أن تكون تحت سلطانه . لأنه هو الذى  
حفرها ، وقد نازعوه هذا الحق ، ثم لما رأوا من طبيته ، وراجعوا حسن  
نقيبته ، تركوا الأمر ، وما هو بمانعهم من مائها ، ولكنه يسقيهم ويسقى  
الحجاج منها فى غير منة ولا أذى ، ولكن فى عدل وحسن توزيع على أن يكون  
له حق السقاية فيها .

وان وصف زمزم بأنها لا تنزف ، وفيها سقاية الحجيج خبر حققه الزمن  
الى اليوم ، فلا يزال الحجاج يشربون منها ، وهى تفيض عليهم فى سخاء ،  
وهى عين ثرة ، ومعين لا ينضب ، ولا تزال فيها بركة اسماعيل ، ونقيبة  
عبد المطلب . والدلالة على أن بيت الله تحوطه البركة كما قال تعالى فى  
وصفه : « ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » .

٦٣ — ان الناظر فى تاريخ عبد المطلب ينتهى بأنه كان متصفا بثلاث  
صفات كريمات .

الأولى — الطيبة والسماحة ، فكان موطلا الكنف قريبا من الناس اليفسا  
محبوبا ، لا يستغلظ على أحد ، ولا يستكبر ولا يستعلى ، يطمئن أهل مكة  
اليه ، ويثقون به ، ويرضونه حكما ، ولو على نفسه .

الثانية — أنه كان مباركا ، لا يضع يده فى عمل الا بارك الله تعالى ،  
حمل المعول ، فحفر بئر زمزم واذا لم يكن ذا مال فى قومه ، فقد كان موفورا فى  
كرمه ، مباركا له فى رزقه ، وأكثر قریش فضلا عليهم ، وعائدة بالخير على  
جمهورهم ، لا يضرن بخير ، ولا يستأثر به ، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه .

الثالثة — عزمته ، وإصراره على ما يقوم به من خير مهما يصادف فى  
ذلك من عقبات ، وما يحتاج اليه العمل من خير له وللناس .

فكان قوى الارادة ماضى العزيمة ، متحملا اثر ما يقول .

نذكر علماء السيرة أنه ما كان له عند حفر زمزم الا ولد واحد ، وهو  
الحارث بن عبد المطلب ، وكان العرب يعتزون بكثرة المال ، وكثرة البنين ،  
فكان يجرى على ألسنتهم فى مقام الفخر « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا »

وإذا كان عبد المطلب قد قنع بما أعطاه الله تعالى من مال ، وإن لم يكن كثيرا كغيره من أثرياء قريش وثقيف ، فقد قنع به ، لأنه كان يكفى لحفظ مروهته ، وما كان حريصا على أن يجمع ، بل كان حريصا على ألا يمتنع ، وحسبه ذلك شرفا •

ولقد كان له شوق الى البنين ليكون أعز نفرا ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا •

ولقد نذر نذرا فيه بقية من بقايا الجاهلية ، وهو أنه إذا عاش له عشرة من البنين ، قدم أحدهم فداء عند الكعبة ، وكأنه يريد أن تكون فيه قوة التقرب الى الكعبة ، كما تقرب جده إبراهيم بولده البكر الى الله تعالى ، ولكنه فعله نذرا من نفسه ، ولم يفعله بأمر ربه ، ولذلك كان استعداد إبراهيم قوة عبادة ، ونذر عبد المطلب لا يخلو من جاهلية ، وهذا فرق ما بين أبى الأنبياء و خليل الله تعالى ، وصفيه ، ومن عاش فى جاهلية الوثنية ، غير مستنكر لها ، والله هو الذى يهب من يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء الاناث ، ويهب لمن يشاء الذكور والاناث •

اتجه الرجل القوى فى نفسه وعزمته الى الوفاء بنذره ، وقد بلغ ولده عشرة رجال ، ولكن من يختاره لهذا الفداء ، فأراد القرعة ، فجمعهم ، ودخل بهم فى جوف الكعبة ، وأمرهم أن يأخذ كل واحد منهم ورقة ، ويكتب فيها اسمه ، وقد أخبرهم من قبل بنذره ، فارتضوا طائعين غير منافرين ، وبعد أن كتبوا أسماءهم وضع اسم كل واحد فى قرح ، وأمر خبيرا فى القداح أن يسهم بينهم ، فساهم ، فكان القرح على عبد الله ابنه وأبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

ومع أن عبد الله كان أحب بنيه اليه ، أخذ الشفرة يحدها ليذبح أحب ولده اليه ، ولكن ترامى الخبر فى أندية قريش من أن عبد المطلب يحمل شفرته ليذبح ابنه ، فجاءوا سراعا اليه ، ورأوه حاملا شفرته ليذبح ولده الحبيب غير وإن ولا مقصر ، فصاحوا فيه ماذا تريد يا عبد المطلب • قال : انى أذبحه ، فهال الأمر قريشا ، وفزع اخوته ، وقد أضعفت عزمته وطاعتهم الاولى ، ومحبة أخيه ، ولكن لم تضعف عزمة الشيخ القادى ، الوفى بنذره وإن كان الفداء أحب اليه منهم جميعا ، ولكنها قوة الارادة والعزيمة • والايمان بما يعتقد ، وإن كان باطلا •

أقسم الأبناء وقريش على ألا يذبحه ، وبنوا ذلك على أنه ستكون مغبته سوءا على قريش خاصة ، وعلى العرب عامة ، قالوا له لا تذبحه أبدا حتى

تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه ليذبحه ، فما بقاء الناس  
على هذا ١٩

وقالت له ابنة أخته والله لا تذبحه حتى تعذر فيه ( أى تبدى العذر عن  
النذر ) فان كان فداؤه فديناه بأموالنا •

ذهبوا الى عرافة فى أرض الحجاز • فأبشارت عليهم بأن يقـدموا  
المدية وهى عشرة من الابل ويقرع بينها وبين الذبيح ، فان كانت القرعة عليه  
زادوا فى الابل ، حتى تكون القرعة عليها •

أصاخوا الى صـوتها ، واجمعوا الأمر ، ثم قربوا عشرةا من الابل  
وعبد الله الذبيح ، فقرعوا بينها ، فكان السهم على عبد الله ، ثم زادوا حتى  
صارت عشرين ، فكان القدح أيضا على عبد الله ، فزادوا حتى صارت ثلاثين ،  
ولكن خرج القدح على عبد الله أيضا ، واستمرت الزيادة عشرة بعد عشرة  
حتى وصل العدد مائة من الابل ، ثم ضربوا القدح فخرج القدح على الابل •

فقال قريش قد انتهى الأمر ، ورضى ربك بالفداء يا عبد المطلب • ولكن  
عبد المطلب يريد أن يستوثق من الرضا بالفداء ، فزعم الرواة أنه ضرب مرة  
ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الابل ، فنحرت الابل ، وتركت للناس لا يصد  
ولا يمنع انسان •

٦٤ — وان دل هذا على صفة من صفات عبد المطلب ، فهى تدل على  
صفة الرجل المريد لما يفعل ، القوى فى عزمه ، الصادق فى نفسه واختياره ،  
وهو يدل على قوته فى البلاء ، وتحمل الصبر على ما يكره ، وان تقاضاه  
الصبر ذبح أحب أولاده اليه ، فاختبر ، وابتلى فأحسن البلاء •

والرجل القوى ليس هو الذى يخضع ارادته لهواه ، أو عزمته لشفقته ،  
انما القوى حقا وصداقا هو الذى يجعل الايمان والارادة يغلب الهوى والمحبة ،  
وقد كان عبد المطلب القوى ، ولا يمنع ذلك أن يكون شقيقا محبا ، فاذا آمن  
بفكرة نفذها بقلب قوى صابر • وبنفس مطمئنة راضية ، ولو كان مصدر  
ايمانه باطلا •

وكان قوى الجنان ثابت الجأش لا يضطرب ، ولا يهن ولا يضعف عند  
المفاجأة ، ولا تذهب نفسه شعاعا ، عندما يكون الأمر المخوف •

جاءت الحبشة بملكها ، وأفيالها ، وأقبل على مسكة جيش لجب قوى

مستعد بأقوى العدد ، وبأكثر العدد ، فانخلعت القلوب واضطربت الا قلب  
عبد المطلب كبير قریش ، وسيد البطحاء ، وكان يحسن القول ، ويرهب بقوله  
فى هدأة من غير هداة فى الحق •

جاء الجيش الحبشى ، واستاق ابلا لأهل مكة ، ومن بينها ابل لعبد  
المطلب ، فذهب الى لقاء أبرهة ملك الحبش وقائد جيشهم ، ومعه الرهبة  
والطغيان ، فما اضطرب قلب كبير البطحاء ، بل ذهب اليه ، وكانت فيه  
هيبة ، وله سميت كريم ، يهابه من يلقاه ، ويطمئن الى سماحته ، فعند اللقاء وقع  
فى قلب أبرهة هيبة فسأل عما جاء اليه ، فسأله أن يرد الابل ، فقال انه  
حسبه جاء يسأل عن الكعبة ، وقال مستنكرا « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل  
عن الكعبة » فأجابه فى قوة أوقع الرعب فى قلبه بأجابته « أما الابل فأنا  
ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » والجواب فيه ارهاب وتخويف ، اذ أنه  
يقول له « لا تظن أنك منتصر ، أو غالب ، أو مقتلع البيت الذى جئت لهدمه ،  
فان ذلك فوق قدرتك ، بل فوق طاقتك ، لأنه بيت الله والله يحمى بيته ، ولن  
تنتصر ، فالله خاندك ، جواب مرهب مفزع ، ولكن فى هدوء الحكيم ، ورفق  
الذى يزن القول ، ويعرف موقعه •

ولذلك كلام مفصل فى موضعه ان شاء الله تعالى •

## عبد الله

٦٥ — ذلك هو الجد القريب الذى تربى النبی علیه الصلاة والسلام فى حضنه ، والذى رأى فيه أول ما رأى عزة الرجال ، وحكمة الشيوخ ، وعطف الأبوة التى عوضه بها عن أبيه الذى لم تكتحل عيناه برؤيته ، ولابد أن نذكر كلمة عن الرجل الذى افتدته قريش كلها ، وهو عبد الله أعز أولاد أبيه إليه ، وأقربهم منه ، لقد كان أحب أولاد عبد المطلب العشرة (١) ، وقد اتسم بالجمال فكان أجمل قريش ، وأحب الشباب إليها .

وكان فى خلقه طيبة نفس ، واطمئنان قلب . ورضا بما يجرى به القدر مع استعداد للفداء ، ان كان ما يقتضيه لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيه ليوفى بنذره ، فاستعد لأن يذبح ، فكان الذبيح الثانى بعد جده العظيم اسماعيل ، وإذا كان فداء اسماعيل بذبح عظيم كان من أمر الله تعالى ، لأن الله تعالى اختبر إبراهيم بما رأى فى المنام ، وما دام الاختبار ، فالفداء يكون بأمر الله تعالى ونهيه . أما ذبح عبد الله ، فكان بنذر من عبد المطلب ، فكان الفداء برأى أهل مكة ، فما كان من البشر يكون منهم ، وما كان من الله تعالى ، فالأمر إليه ، وكان لجمال وجهه ، ولطيب نفسه ، موضع اجتذاب الناس . ومحبتهم ، فلم يسلموه لأبيه ، لقد أراد قتله ، ونجوه من يد أبيه الشفيق الحازم المريد القوى فيما يريد ، وأن كان شديدا عليه .

وكان موضع اجتذاب النساء لوسامته وجاذبيته ، ولكنه كان العفيف الذى لا يريد الا الحلال ، ولا يبتعد عنه ، وكأنه يبتعد عن الحرام مروءة ، وكرامة نفس ، لا لتنفيذ أوامر الهية ، بل أمر مروءته واحتفاظ كرامته يستجيب لهما ، كأوامر المصادر الدينية .

تعرضت له امرأة ، راقبتها وسامته ، وجذبتها طيبته ، فارادته لنفسها ، وربما راودته عن نفسه ، ولكنه العيوف الذى لا يشتار الا عسلا يملكه حلالا نكاحا ، ولا يريده نزوة أو سفاحا ، فيردها الشاب القوى الذى لا يستهويه الهوى قائلا :

أما الحرام فالمات دونه      والحل لا حل فاستبينه  
فكيف بالأمر الذى تبغيه      يحمى الكريم عرضه ودينه

---

(١) العشرة هم الحارث والزبير وحمة وضرار وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب ، واسمه عبد العزى عبد الكعبة ، والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الله .



صان الشاب نفسه ، وصان أمانته ، وصان خلقه وكرامته ، فلم يتبدل  
كما تدلى الشباب من قومه ، لأنه أراد أن يعيش طاهرا كريما محبوبا ، لينقل  
وديعة الله تعالى للإنسانية الذى ينقل رسالته سبحانه وتعالى الى خلقه  
وذلك بزواج طاهر حلال .

## الأم :

٦٣ — كل فتاة فى قريش كانت تتمنى أن يكون الشاب عبد الله  
ابن عبد المطلب شبيه الحق — أن يكون لها زوجا ، وأن يكون لأولادها أبا ،  
وقد قارب العشرين أو يزيد من عمره عفيفا ، لم يزن بريبة ، ولم يعرف عنه  
نزوع الى شر ، بل كان ينزع الى الخير ، ولا يزيد ، ولأبيه عليه حق  
الطاعة فى غير معصية ، إذ كان له ملازما ، لا يستطيع له فراقا ، ولا خلافا ،  
لأنه حب أبيه ، وصفيه المختار .

وقد اختار أبوه له زوجا أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخى  
قصى ، وابن كلاب ، وكان أبوها سيد بنى زهرة ، كما كان عبد المطلب سيد  
بنى قصى ، ثم سيد مكة جميعها غير منازع ، لأنه محمود النقيبة حكيما بين  
قريش لا يطيش ، ولا يجبن ، ولا يرهق أحدا ، فكان السيد المطاع فى غير  
جبر ، ولا إعانت ، ولا تضيق ، ولقد التقى الشاب مع أبيه فى الاصحار الى  
بنى وهب بن زهرة ، إذ أن عبد المطلب كان قد تزوج هالة بنت وهب بنت عم  
أمنة ، واختار لابنة أمنة . وهى بنت عم لزوجته التى أنجب منها حمزة ابن  
عبد المطلب (١) الذى صار فى جهاده للإسلام سيد الشهداء ، وصفية أم الزبير  
ابن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك التقت فى حمزة  
ابن عبد المطلب ثلاث صلات بالنبى ، أولها أنه عمه ، وثانيها أنه ابن عم أمه ،  
وثالثها أنه أخوه فى الرضاعة ، وفوق ذلك أنه ثانى عميه اللذين تصديا للدفاع  
عن النبى عليه الصلاة والسلام فى مواجهة قريش فى مكة ، ولكنه الثانى الذى  
دافع عنه لا بمقتضى حكم القرابة القريبة الوثيقة ، بل بذلك وبحكم الايمان  
بالرسالة المحمدية ، والجهاد فى سبيل الله ، فكان سيد الشهداء حقا .

وكذلك كانت صفية بنت عبد المطلب لها بالرسول قرابتان : قرابة العصب ،  
وقرابة الرحم ، فهى عمته أخت أبيه ، وهى ابنة هالة بنت عم أمه ، وكانت معه  
فى الرخاء وفى الكريهة ، وفيها شجاعة آل عبد المطلب .

---

(١) ابن كثير الجزء الثانى ص ٢٥١ .

وبنو زهرة مع التقاتلهم فى نسب النبى فى جده كلاب كما سماه العرب ، وحكيم كما سماه التاريخ لما فيه من حكمة ، لم يكونوا مع بنى هاشم فى خلاف ، ولا منافسة جرت الى عداوة فى جاهلية أو اسلام ، بل كانوا لهم معاونين ومناصرين وموادين ، لا بقضاء يسيطر على نفوسهم ، ولكن مودة تربط على قلوبهم .

ولقد قالوا فى الأخبار ان كلابا كان ممن يؤمن بأنه سيكون نبى من قريش ، وكان يخطب قومه كل جمعة ينبههم بذلك (١) وان صح ذلك الخبر فمؤداه ان كلابا هذا كان من أشد المستمسكين بإبراهيم ، ونبى من بنى اسماعيل ، ولا يمتنعنا ذلك من أن نقول انه تأشب ايمانه بالله تعالى بعض أثارة من الوثنية الجاهلية ، فنحن لا ننفي هذا عن عقلاء العرب ، وذوى الأخلاق والهمة فيهم كعبد المطلب ، ومن بعده ابنه أبو طالب سيد مكة ، وحامى الرسول ، ومانعه من الأذى .

وآمنة تلتقى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة أمها برة بنت عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصى جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

٦٤ — وهنا يثور كلام يجيء فى أخبار عن عبد الله أبى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكانت له زوج غير آمنة تزوجها قبلها أو بعدها وان آمنة احدى اثنتين كانتا زوجين لعبد الله .

قال ابن اسحق صاحب السيرة « فقد ذكر أن عبد الله انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل فى طين له وبه آثار من طين ، فدعاها الى نفسه ، فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين فخرج من عندها فتوضأ ، وغسل ما كان به من ذلك الطين » ، ثم خرج عامدا الى آمنة فمر بالمرأة ، فدعته الى نفسها ، فأبى عليها ، وعمد الى آمنة فدخل عليها وأصابها ، فحملت بمحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم مر بامراته تلك ، فقال لها هل لك ؟ قالت لا ، مررت بى ، وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على آمنة ، فذهبت بها « (٢) » .

وانا نرد ذلك الخبر ، ونؤمن بأن عبد الله ما تزوج الا آمنة أم محمد خير الخلق والنور المنبثق فى هذا الوجود ، وانا نقرر ذلك .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٤ .  
(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٥٧ طبع الحلبى .

أولا : لأنه خبر انفرد بذكره ابن اسحق ، ولم ينقله ، ولم يأت فى كتب السنة الصحاح ، ولو كان عبد الله له زوج أخرى لاشتهر ذلك ، ولذكر فى الأخبار ، كما ذكر خبر زواج عبد المطلب المتعدد ، وأولاده من كل زوجة تزوجها ، وبيان نسبها ، ومن تنتمى اليهم ، وما كان عبد الله أبو سيد الخلق بأقل شأننا من أن يعرف زواجه الأول ، والثانى من عبد المطلب ان كان قد عدد الأزواج ، وقد علا شرف عبد الله بابوته لمحمد ، فليس بأقل من أبيه الكريم ، والسيد العظيم .

وثانيا : أن هذه الزوج المزعومة لم تذكر متى كان زواجهما منه ، وما أحوال ذلك الزواج لو كان حقا ، وما الذى انتهى إليه ، ولماذا تزوج أخرى فى هذه السن المبكرة ؟ ؟

ان عدم ذكر شيء من هذا فى ذلك الخبر يجعله غير قابل للتصديق ، وهو غريب فى ذاته .

وثالثا : أن المذكور فى السير أن المرأة المشار اليها فى السير كانت قد طلبت أن يصيبها ، ولم تذكر زواجا ، وأنه أجابها بالاستنكار ، وقال البيهقي المشهورين عنه اللذين يفيدان أنه لا يقبل الا الحلال الذى يسوغه له عرضه وكرامته ، وشرف أسرته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

ورابعا : أن الخبر يحمل فى نفسه دليل بطلانه ، لأنه يذكر أنها طلبته وهو مغبر بطين ، فلم ترض ، وكان المعقول وقد طلبها طلب الرجل لامرأته وأنها مانعته حتى يغتسل ، وأنه اغتسل أن يذهب اليها ، وإذا عاد اليه بعد أمانة وهى احدى زوجتيه ، فانه ليس لها أن تمتنع عليه لأنها زوجه ، فكيف يقال من بعد انه رضى به لغرة نور فى جبينه ، ولو كان ذلك هو السبب ، ما منعها عند أجابته وعلى ثيابه طين ، لأن الأساس فى نظرها أن تصل الى أن يكون النور فى رحمها لا يمنعها غبار طين أو نحوه .

فالخبر مضطرب فى مبناه متناقض مع العقل فى معناه ، فيرد جملة وتفصيلا .

### صفات سامية فى أمانة :

٦٥ — اتسمت أمانة كما يبدو من أخبارها ، أنها كانت صبوراً ، وكانت تشبه البتول فى سموها ، وفى اصطفاء الله تعالى لها فى أن تكون أما

السيد البشر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما اصطفى مريم البتول لتكون  
أما للمسيح عليه السلام ، ولكن آمنة ، ولدت محمد وحملت به كسائر البشر .

وكانت شبيهها بالبتول فى الصبر ، وفى خلاصها من فتن الزواج ، وكونها  
حملت صاحب اكبر رسالة فى هذا الوجود .

انها منحت زوجا مرموقا محبوبا تتمناه كل فتيات عصره ، ولكنـه  
سرعان ما غادرها بعد الزواج بمدة قصيرة ، قدرها بعض الاخباريين بانها  
ثلاثة أيام او ثلاثة اشهر ، سافر ليمتار لاهله من قريش تمرا ، فذهب لأخوال  
أبيه بنى النجار ، ومات هناك .

فهذه الأم الصبور على فراق زوجها الشاب ، ولم تشتت عسل الزواج  
ورضيت الحرمان فى سبيل نفع قومها ، ان ذهب ليجلب لهم رزقا ، والمرأة  
الفاصلة ترضى باغتراب من تحب اذا كان الاغتراب لنفع قومها ، واصلاح  
حالهم ، وارتضت صابرة ، أن يولد ولدها الحبيب فى غيبة زوجها الحبيب  
التي لم تلبث ان نالته حتى بعد عنها ، فكان الرضا بالانتساب اليه يغنى عن  
المتعة بقربه ، واكتفت من متعة هذا الزواج الطاهر بمتعة قرّة عينها وادها  
الحبيب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعاشت مطمئنة الى امل اللقاء ،  
وأن يجمع الله تعالى الشمل المتفرق كما أراد رب العالمين ، ولكن الله جلت قدرته  
أراد اختبارها فأفقدوها زوجها فى غربته ، فكانت الصابرة الكريمة القائمة  
على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها من غير أن يعرف عنها تملل بحياتها  
وعيشها .

ولما استغنى ولدها عن المراضع شددت رحالها مع وليدها ، وقطعت  
القيافى والقفار فى مشقة لا يقدر عليها الا الصابرون ، وذهبت الى يثرب  
لترى قبر زوجها الذى اختيرت له وهو مرمى الأنظار والحبيب فى مكة ،  
وأبى القدر الحكيم الا أن ترى بعد ذلك رسمه المدفون فيه ، وهى فى كل هذا  
الصبور المطمئنة الى قدر الله تعالى العادل : « لا يسأل عما يفعل ، وهم  
يسألون » .

ومكثت هناك بجواره مدة لا تقل عن ثلاث سنين كان فيها متاع حسن  
بالنسبة لها ، ان كانت قريبة من زوجها الحبيب ، وقد ارتضت ذلك ،  
واطمأنت نفسها ، فهى الصابرة الآمنة كاسمها ، الشريفة كقومها ، الكريمة  
كمحبتها .

ويظهر أنها لم ترد أن يبعد ابنها عن قومه ، وهم أشرف مكة ، ولم تكن التى تضن به على جده،فهى تؤثره على نفسها دائما وقد احتملت المشقة وأخذت تقطع الفيافى والقفار ، وليس معها الا جارية تعينها على مشقة الطريق ، وتكون لها رفيقة مع بعد الشقة ، وتعاونها فى حضانة الغلام النورانى .

ولكن هذه المجاهدة فى سبيل الوفاء ، والاخلاص للولد ولجده أجهدتها الرحلة فماتت ، وهى عائدة الى مكة ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة ، وهى اذ أسلمت روحها ، ودعت الدنيا تاركة عزيزها ، كما ودعت أباه من قبله ، ولكن وداعها الأول كان لعزیز الى طريق الأبدية ، أما وداعها من بعد ، فكان لولدها العزيز ، وتركه الى طريق الحياة والجهاد فيها ، ولكنها تركته الى رعاية الله تعالى مع الجارية التى صحبتها ، فرعاه الله تعالى وصنعه تعالى على عينه ، حتى وصل الى جده العظيم فى قومه فاحتضنه .

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لننظر الى تلك المجاهدة الهادئة الصبور ، فاذا قلنا انها عاشت كالعذراء اذ لم يكن الا أنها حملت سر هذا الوجود ، وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحفظ بها ، وكأنها كالبتول العذراء ، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة ، عزاء من رب العالمين اذ اختارها وتعهدها نبي وأقامها فى المحراب وكانت فى رعاية ظاهرة ، وأما أمانة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة ، وعلمت بحكم الباعث فى نفس ظاهرة أنها حملت أمانة ، واستمرت الأمانة معها فى رعاية الله تعالى ، وهى حاملة ما حملت غير وانية ولا مقصرة ، ولا هادى يهديها الا ما انبعث فى نفسها من نور الفطرة ، والاحساس بعبء الأمانة .

## الجنين المبارك

٦٥ — ان أحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كونى ثابت عند رب العالمين قد أَراده الله تعالى بحكمته وتخييره بإرادته ، وأقامه بقدرته ، وليس للمصادفة حكم عند الله ، وإنما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس ، لأنهم يربطون الأسباب بمسببات بحكم العادة ، ويطبقون عليها نظام قانونهم المحسوس المعلوم ، فإذا خالفه قالوا انه مصادفة ، وهذا نظر الذين يدركون الماديات ، ولا يدركون ما وراءها ، ويحكمون بالمحسوسات ، ولا يحكمون بأن ثمة سلطانا قاهرا لخالق الأسباب والمسببات ، وأنها لا تقيد إرادته ، بل هو الذى يقدرها بحكمته .

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنوا واتقوا لأنزل لهم الرزق مدرارا ، فقال تعالت كلماته ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

وصرح سبحانه بأنه أنزل الرجز على الذين ظلموا من آل فرعون ، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم ، فقال تعالت كلماته فى قصصهم « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إلا اتمنا طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فانتقمنا منهم ، فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وان هذه النصوص الكريمة تدلنا دلالة قاطعة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، ان سلكوا طريق الوصول الى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الاقوام بالرجز والحرمان والبلايا ان هم طغوا وبغوا ، فى ترتيب محكم سنه سبحانه وتعالى وإرادته ، وان خالف ما نعلم من الأسباب والمسببات .

لسنا نقول مقالة قدماء المصين من أن الكون يضطرب ، وما فى السماء يختلف اذا عصى ابن الأرض وأفسد ولم يصلح ، فان ذلك كلام قوم وثنيين يؤمنون بالمحسوس ، ولكننا نقول مقالة المؤمنين ، ان مدبر الكون يجرى الأمور

على مقاديرها بما قدره سبحانه وأراد ، وعلى ما ارتضاه من نظام « لا يسأل عمل يفعل ، وهم يسألون » \*

٦٦ — سقنا هذا الكلام لتوضيح أن محمد بن عبد الله قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه الى أن قبضه الله تعالى اليه ، وأن البركة التي آتاه الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به فى بطن أمه ، كانت خيرا على الانسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذى كان أول بيت للناس ، وهى كعبة المسلمين ، وهو المكان المقدس الذى قدسته الأديان كلها كما أسلفنا من قبل .

وقد كان انقاذ البيت ، وهو فى بطن أمه ، إذ أن أبرهة ملك الحبشة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبنى بدله فى اليمن ليكون ذلك البيت الجديد هو مزار العرب ، ومثابتهم وأمنهم كما كان البيت ، وفى ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، إذ يقول : « ربنا انى أسكنت من ثرىتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » \*

وقد استعد بخيله ورجله من قبل الحمل بالنبي ، وساور مكة وأممه حامل به ، وقد ردهم الله مدحورين ببركة الجنين الذى بعثه الله تعالى برسالة تشرف البيت الحرام وتحميه ، ولنخرج على ذلك بكلمة موضحة موجزة .

## أصحاب الفيل

٦٧ — آل أمر اليمن الى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ، وصار لها حاكما بأمره ، وبنى بها كنيسة فخمة بصنعا سماها القليس ، وأراد أن يحج اليها العرب ، وخاصة النصارى منهم ، فلم يؤثروها على البيت الحرام ، ولم يستبدلوها به ، وبعد بنائها بعث الى النجاشى بالحبشة ، وهو لا يزال يعتبر نفسه تابعا ، وجاء فى هذا الكتاب « انى بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لك قبلك ، ولست يمنت حتى أصرف اليك حج العرب » \*

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد ، فأراد تحقيرها ، وأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية .

فلما رأى أبرهة احتقار العرب لها ، واستمرارهم على الذهاب الى البيت الحرام من غير وئاء ولا تقصير لم يجد بدا لتنفيذ ارادته الا أن يهدم

البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عدة ، وخرج بالفييل الذى يستخدمونه فى الحرب مع الابل والخيول .

أفزع ذلك العرب وأعظموه ، وراوا مدافعته حقا عليهم فنفر منهم نفر بقيادة بعضهم وهاجموا أبرهة ، ولكنه هزمهم ، ومضى قاصدا البيت الحرام ، لا يقاومه أحد من العرب الا هزمه ، واستمر سائرا لا يلوى على أحد من العرب الا أخضعه .

وصل الى الطائف ، وقد راوا ما حل بغيرهم فمالئوه ، وخصوصا انهم كانوا ينفسون على قريش ما كسبوه من شرف لقيامهم على سدانة البيت . وحاولوا أن يجعلوا مكان تقديسهم بيتا بنوه للات الههم المزعوم .

أهم الأمر من بمكة من قريش وكنانة وهذيل ، وسائر من كان بها ، وعلموا أنه لا قبل لهم بمقاومته لما عنده من قوة ، ولأن الانتصارات القتالية فى طول طريقه الى مكة زادت قوة ، وزادهم خوفا ، فسكتوا حتى يكشف المخبوء فى قدر الله تعالى .

ولعل الفزع قد غلب عليه مما علم من منزلة للبيت فى الكتب المقدسة . ومنها كتب النصارى التى أشارت الى ذلك ، فلم يرد أن يستمكن من البيت عنوة ، بل أراد أن يسلمه له أهله ، لا ليزيد بناءه ، بل ليهدمه ، فان فعلوا كان ذلك مبررا فى زعمه .

ومهما يكن فانه قد تردد فى القتال ، أو أراد أخذه بسلام ، فأرسل رسولا الى مكة ، وقال له سل من سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له « أن الملك يقول لكم انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا له بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم : فان هو لم يرض الا حربى فاتنى به » .

ذهب الرسول الى مكة ، وعلم أن سيد البلد وشريف مكة هو عبد المطلب ابن هاشم قبلغه الرسول ، فأجابه عبد المطلب اجابة سليمة ، ولكن فى طيها ايمان بالله رب البيت ، وذلك لا يخلو من ارباب بقوة الله .

قال عبد المطلب للرسول : « والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » .



كان هذا الكلام السهل اللين يخفى فى نفسه انذارا شديدا لرجل كتابى نصرانى ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه الى أنه لا يحارب أحدا من أهل مكة انما يحارب الله ، ويهدم بيتا بناه بأمر الله أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فهو مع هذا اللين يتضمن تهديدا يروع من كان عنده اعتقاد بالله ، وإيمان برسالته •

وقد كان بلا ريب لذلك الكلام وقعه ، ومن الكلام الهادىء ما يفعل فى النفوس مالا تفعله المقاومة بالسيوف ، وخصوصا اذا كان الكلام لمن تعود الانتصار فى الحروب ، وهزيمة من يدافعه ، ان فى هذا الكلام تهديد بحرب لم يألّفها ولم يعرفها ، وهى حرب الله ، وحرب أبى الأنبياء •

٦٨ — استاق جيش أبرهة ابلا لعبد المطلب ، وقد طلب هو لقاءه فلقية ليؤكد ما قاله لرسوله بالقول المتضمن فعلا ، ان قرر أن يطالبه برد الابل التى استاقه جيشه بعلمه أو بغير علمه •

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب بعد أن علم أبرهة قوله •

ولقد كان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشدّهم هيبة ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، فنزل عن سريره ملكه وجلس بجواره ، ثم قال له بلسان الترجمان :

قل حاجتك • فقال للترجمان : حاجتى أن ترد لى ابلى مائة بعير أصابها ، فقال أبرهة كنت أعجبتنى حين رأيّتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائة بعير لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه •

فقال عبد المطلب يضع أبرهة أمام الله تعالى وجبروته الذى فوق كل جبروت ، أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه • قال أبرهة ، وقد غلب عليه الفزع : ما كان ليمنع منى • قال عبد المطلب أنت وذاك ، لا شك أن عبد المطلب يهدده بالله ، أولا بتأكيد أن الله مانع البيت ، وثانيا بأن قال له أنت وذاك ، كان التهديد واضحا ، وان كان هادئا ، ولعل الذى قوى وقعه هدوءه ، فالهدوء يخاطب النفس فتعتبر ، خصوصا لمن تعود الانتصار المادى الذى يكون فيه ايمان فى الجملة بالغيب ، وأبرهة نصرانى •

عندئذ تحقق رجاء عبد المطلب فى ربه ، وتحقق أمر الله ببركة الجنين الذى حل فى بطن أمه ، وهو سيد الخلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

أرادوا بالفيل أن يسير متجها الى البيت الحرام ، فوقف ولم يسر اليه وحبسه الله تعالى عنه ، فوجهوه الى اليمن ، فاتجهه ، فوجهوه الى الشام فاتجه ، ثم أرادوا أن يوجهوه الى البيت ، فامتنع (١) ولهذا كانت ارادة الله أن ينجو البيت ببركة البيت ، بركة الجنين المستكن فى الغيب المستور .

ولو أن أبرهة اعتبر واعتزم العودة الى اليمن لرجع من الغنيمة بالاياب ، ولكنه اعتزم تنفيذ نيته ، فلم يبق الا أن يأخذه الله تعالى اخذ عزيز مقتدر ، فأرسل الله تعالى طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الفيل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

انتهم رياح عاصفة ، ومعها طير جاء جماعة بعد جماعة ، ترميهم بحجارة صلبة شديدة قوية تنفذ فى الجسم ، لا تبقى فى ظاهره ، بل تدخل فى باطنه ، وراء جلده ، وقد جعلتهم كعصف مأكول ، أى كبقل اكل لبه ، وبقي قشره ، وقد قال علماء الاخبار ان تلك الحجارة الصلبة التى أرسلها الله تعالى بريخ عاصف كانت صغيرة تشبه حب العدس ، وأن الطير كان يحملها فى منقاره ، وفى رجليه .

ولقد قال بعض الكتاب انهم أصيبوا بالجدرى قرح أجسامهم ، ولعل جرثومة ذلك الداء الوبيل كانت فى الأحجار التى رمتها الطيور التى جاءتهم وباء وبلاء ، واهلاكاً ، وقد كادوا من الشر كيدهم ، ودبروا بالفساد أمرهم ، وتحدوا بيت الله وهو أول بيت وضع للعبادة ، والذي كرمه الله وباركه .

وليس عندى ما يمنع أن يكونوا قد أصيبوا بالجدرى بما رماهم الله تعالى به ، فقد قال ابن اسحاق فى سيرته « حدثنى يعقوب بن عينية أنه أول ما رميت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان فى ذلك العام .

هذا كلام مقبول اذا قلنا ان الحجارة كانت تحمل معها جرثومة هذه الأمراض الفتاكة ، ولكن ما لا يقبل هو القول بأن الطير هى جراثيم ذلك المرض ، لأن هذا يكون مخالفا لنص الآية الكريمة ، إذ أن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة .

---

(١) الاكتفاء ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ومن تاريخ البداية والنهاية

لابن كثير .

٦٩ — ان ذلك العذاب الأليم الذى أصابهم فى الدنيا ، فبعد أن أرسل الله تعالى عليهم المطير الذى جاء جماعة بعد جماعة ، ورماهم بالحجارة الجامدة التى كانت تنفذ الى جسمهم ، وتضع فيه جراثيم الأمراض الوبيلة كالحصبة والجدرى ، صاروا يتساقطون فى الطرق ويهلكون كل مهلك ، وقد وصف حالهم ابن اسحاق فقال : « خرجوا يتساقطون ويهلكون بكل مهلك على كل منهل \* وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة بعد أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعته منها ، مسده ( صديد ) تمت قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون \*

عاد من حيث خرج ، ولكن فرق ما بين الخروج ، أنه فى الخروج كان قويا فى بدنه مغرورا فى نفسه يصحبه جيش لجب ، يحسب أن لن يغلبه أحد ، وقد غلب من قاومه حتى اذا جاء الى رحاب الله يتحدى الله تعالى فى بيته ، ويريد هدمه ، وقد جعله الله تعالى مباركا ، عاد مذموما مدحورا ، مقصوص الجناح لا مجازا ولكن حقيقة ، فقد تقرح جلده ، وتساقط ، وذهب تدبيره وكيدته فى ضلال كأنه العماء \*

وقد استجاب الله تعالى لعبد المطلب. وهو آخذ بحلقة باب الكعبة يقول :

لا هم ان العبد يمنع      رحله فامنع رحالك  
لا ينيلن صليبيهم وصلبيهم      ومحالهم غندرا محالك

كانت واقعة الفيل هذه وأمنة الطاهرة كالبتول حاملة قد أودعها الله تعالى خير الخلق محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فكان مباركا على العرب ، وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه \*

وما حملت به كرها ، وما كان فصاله كرها ، فما كانت تحس بشدة فى حمله وما أحسست بشدة فى فصاله ، ولقد قالت السيدة أمنة الطاهرة : « لقد علقت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور ، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه » \*

## ولد الهدى

٧٠ — سبقت محمداً في الوجود بركاته ، فقد ولد كما يقول أكثر الرواة بعد خمسين يوماً من مغادرة الفيل وأصحابه مدحورين ، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم ، وقد ابتلعتهم الأرض ، بعد أن غرهم الغرور .

وقبل أن نخوض بالقول في مولده صلى الله عليه وسلم ، نقول انه ولد وأبوه غائب ، ذلك أننا أُلحنا في القول أنه ترك زوجته وقد ذهب في غير ليمتار لأهله ، وليتجر فيكسب رزقه ، فسافر في غير لقريش ، وكان الوفي الأمين فانتبهز فرصة ذهابه الى يثرب ، وزار قبر جده هاشم الذي كان يهشم الثريد ، الذي يأكل منه الحجيح ، ولكنه لم يعد من غربته ، بل أصابه المرض في بيت بنى النجار ، وعاد العير الذي كان معه ، وتركوه حزانى على تركه مدنفسا بمرض عضال في بيت بنى النجار أخوال أبيه ، وأصهار جده الكريم ، وعادوا الى مكة ، وأخبروا أباه الذي حذب عليه ، وزوجه الصبور التي صبرت غيبته ، وجمل لها الصبر لأنها كانت ترجو لقاءه ، ولكن حرمت من هذا ، ففطع الأمر عليها ، ولكنها الصبور مع رقة صباها .

وان عبد المطلب أرسل الى ابنه الحبيب كبير أولاده الحارث ، فذهب اليه ، وقد رأى فراق نفسه ، وقيل أن الموت سرى اليه ، ولم يجده أخوه الا ميتا .

فاذا كان الأب قد ثكل ابنه الحبيب فتجلد ، فقد فقدت الأم الزوج الحبيب فكان منها الصبر المرير ، ولكنه مع ذلك كان الصبر الجميل ، وهو الصبر الحبيس الخالى من الضجر والأنين .

### ولادته قبل وفاة أبيه :

٧١ — أكثر الرواة على أنه ولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه عبد الله ، ولكن روى أنه توفي قبل أن تضع أمه حملا ، ومنهم من أقصر المدة ومنهم من أطالها ، حتى أوصلها الى نحو ثلاث سنين ، فقد قال ابن حزم الظاهري ما نصه :

« ولد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، اذ مات أبوه ، وهو لم يستكمل ثلاث سنين ، وماتت أمه ، وهو لم يستكمل سبع سنين » .

وان هذا القول يتقارب مع من يقول ان أباه «عليه السلام» مات بعد ولادته عليه الصلاة والسلام بنحو ثمان وعشرين شهرا ، ولكن كلام ابن حزم يومئذ الى مدة أطول ، لأن الثمانية والعشرين شهرا هي سنتان وثلاث ، ولا يقرب من ثلاث سنين .

فقد روى عن عوانة بن الحكم أنه قال هو وأبوه ان عبد الله توفى بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا ، وقد قيل توفى بعد ولادته بسبعة أشهر .

واننا نستبعد كل الاستبعاد أنه توفى والنبي عنده نحو ثلاث سنين ، كما نستبعد أنه ولد من بعده ، لاجماع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام استرضع فى بنى سعد ، وهو يتيم ، ومن كان أبوه حيا لا يتيما ، واذا كانت الرضاعة أقصى مدتها فى الغالب حولان كاملان لمن يريد أن يتم الرضاعة ، وقد أرسل الى المراضع فى أولها أو بعد مضي وقت قصير من الولادة ، فلا يمكن أن يسمى عند أخذه وأبوه حيا يتيما ، واجماع الرواة على وصفه باليتم عندما أخذته حليمة التى أرضعته .

وان الذى رجحه الرواة - وعليه الكثرة الكاثرة - أن أباه توفى وأمه حامل به . وقد قال ابن كثير فى تاريخه « والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور » .

وقد روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، قال خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام فى غير من غيرات قریش ، ففرغوا من تجارتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فاقام عندهم مريضا شهرا . . . فبعث اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، ودفن . . . فوجد عليه عبد المطلب وأخوته وجدا شديدا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حمل ، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة » .

ويؤخذ من هذا الكلام أن رحلة عبد الله الى التجارة كانت فور زواجه أو بعده بقليل كما تسمى عبارة ابن كثير . وأن عمره يوم الوفاة كان خمسا وعشرين ، وكانت رحلته بعد الزواج بقليل ، ويستفاد من هذا أنه كان الزواج بعد العشرين وقرب الخامسة والعشرين .

ولقد قال الواقدي في وفاة عبد الله وكونه قبل ولادة ابنه الكريم :  
 « هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله عندنا » وهو المشهور ، كما نقل  
 الحافظ ابن كثير رضي الله تبارك وتعالى عنه (١) .

## ظواهر تعلن مكانته

٧٢ — تكريم الله تعالى له ظهر وهو جنين كما رأيت ، وظهر وأمه  
 حامل به ، وكان وجوده على ظاهر الأرض كان أمرا خارقا للعسادة ، في  
 بركته على قومه برد أصحاب الفيل وكيدهم في تضليل ، وفي الحمل به ، إذ  
 لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة ، وكانه مر في قلبها مرور الماء في  
 الميزاب ، وإن طال حتى مدة الحمل .

ثم كانت الأمور تسير سيرا يدل على أمور ربانية أكنهها الغيب لذلك  
 المولود الجديد ، فأبوه يلقي وديعة الله في أمانة الصبور المطمئنة ، وما كان  
 الزواج إلا ليلقى هذه الوديعة ، ويعرب عنها سافرا مغتربا ، وقبضه الله  
 تعالى بعد أن ألقى هذه الوديعة ، وكانه خلق بما يشبه كلمة الله تعالى  
 « كن فيكون » .

وينزل من بطن أمه مكتملا ، كأنه تجاوز السنة ، وهو قد نزل في المهد ،  
 لم يتناول له حجر النساء ، فأمه الصادقة تقول أنه وقع على الأرض معتمدا على  
 يديه كما نقلنا ، وهو في هذا شبه الساجد ، وقال بعضهم أنه نزل جائيا  
 على ركبتيه .

وعندما ولد أرسلت أمه الكريمة إلى جده عبد المطلب تبشيره بولد قد  
 رزقه ، فقالت في رسالتها : « قد ولد لك غلام فأنت فانظروا إليه » . وقد  
 أضافته إليه مسرية له عن حزنه لموت ولده عبد الله الذي وجد عليه وجدا  
 شديدا ، فلما جاءها أخبرته بالولادة ، وبرؤية صادقة تعددت روايتها مما يدل  
 على مكانته ، وبذلك سرت عن نفس حميها ، وهي الحزينة ولكنها الصبور  
 التي تواسي غيرها في مصاب أبيه ، ومصايبها ، وإن كان أعظم وأسق احتمالا ،  
 وجد ما يسهل احتماله أوجد ما يعوض ، وهو المولود الذي يسمو على كل  
 الخليقة ، وهو سيدها ، وهو محمود الوجود ، وهو حمد الكون وتسبيحه ،  
 وإذا كان الله تعالى قد أعطى به البركة على قومه ، فقد كانت أرهاصات

التكريم تبدو وهو جنين أيضا فى بطن أمه ، لقد رأت أمه فيما يرى النائم رؤيا صادقة ، والرؤيا الهام من الله تعالى ، أو توجيه منه سبحانه يشعر بها من تصفو نفسه ، وله اتجاه روحى ، ورأت حين حملت به كأنه خرج منها نور أضاعت له قصور الشام ، وقد ورد ذلك فى حديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح النسبة .

قد ذكر ابن اسحاق أن كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها : « انك حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع الى الأرض فقولى :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد (١)

ثم سميه محمدا .

وقد يقول قائل ، وكيف ثبت التكريم بالرؤيا وقد تكون أضغاث أحلام ، وهى لا تثبت شيئا ، فنقول فى الاجابة عن هذا السؤال العارض : ان الرؤيا الصادقة تشبه الالهام أو كأنها وحى ، أو هى جزء من الوحي كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من أربعة وأربعين جزءا من النبوة » وثبت فى الصحاح أن أول ما جاءت به أرهاصات الوحي كانت الرؤيا الصادقة « فما كان يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » .

هذا ما تقوله الحقائق الدينية فى الرؤيا الصادقة ، ويقول الذين يتكلمون فى الأرواح فى هذا الزمان ان الرؤيا الصادقة سبحات روحية فى الملكوت الأعلى .

وانه بلا ريب هناك فرق ثابت بين الرؤيا الصادقة وأخلاق الأحلام التى تكون صورة لحال مادية أو عصبية للنائم ، كتخمة تصيبه من كثرة الطعام ، أو أن يكون مخمورا ، أو أن يكون مضطرب الأعصاب ، أو مضطرب النفس ، أو مشغولا بأمر من أمور المادة أو الشهوة ، فان هذا يكون اخلاطا لا تخبر عن شيء ، ولا تصدق فى شيء ، وهى التى تسمى أضغاث أحلام ، والتى لا يكون لها تأويل ، ولا يعيرها خبير .

واذا كان من الناس من ينكر الرؤيا الصادقة ، ويكذب الأحلام باطلاق ، ويقول انها صورة للعقل الباطن ، فذلك لأنه لا يمكن أن يدرك معنى

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٣ .

الرؤيا الصادقة ، اذ لم يجربها ، لأن الله تعالى لم يؤته قوة روحية ولم يؤته طاقة نفسية يستطيع أن يتغلب بها على خواطر اللذات والشهوات . وهو لا ينام الا مخمورا ، أو مبطونا ، أو تكون نفسه واقعة فى الأهواء والشهوات ، فيكون ليله كنهاره ، ونومه كصحوه ، وحياته كلها صورة للمادة فى النوم واليقظة على سواء .

٧٤ — وترى من هذا الكلام الذى سقناه من بشارات التكريم فى منام امه البتول الطاهرة الصبور أن تسميته محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان بأمر من الآتى التى أتاه فى هذه .

وقد توافقت مع رؤيا أخرى راها سيد قريش عبد المطلب الذى كان قد اشتهر بالنسك فى قومه ، وان لم يكن نسكا فيه حرمان ، بل نسكا فيه ما يجمل بالبروة ، وقد كان صادق الرؤيا ، قيل لعبد المطلب لم سميت محمدا فقال شيخ قريش الطيب : « انه رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور . واذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها » .

واراد عبد المطلب أن يعرف مدى هذه الرؤيا التى راها ، فسأل من يعبر له رؤياه ، فقيل له انه يكون مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمد أهل السماء والأرض (١) ، اجتمعت رؤياه ، ورؤيا الأم الرؤوم التى قصتها على الجد الكريم عندما بلغت بالمولود الذى بلغته بانه مولوده فارتضى الاسم الذى أقهمت به رؤيا الأم وهو محمد .

صلوا عليه وسلموا تسليما      قالله قد صلى عليه قديما  
وحباه بالخلق العظيم فأبشروا      يا مادحين لذاته تكريما

لم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ولقد ذكر علماء السيرة انه لم يسم به أحد فى الجاهلية الا ثلاثة تسموا بهذا الاسم فى عصر ولادة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد قال صاحب كتاب الروض الأنف فى ذلك : « لا يعرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز

(١) الاكتفاء ص ١٦٨ من الجزء الأول .



أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول ، وهم محمد ابن سليمان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة الجلاح ، والآخر محمد بن حممران بن ربيعة • وكان أباء هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فذبح كل واحد منهم أن ولد له ولد سماه محمدا •

سقنا هذه القصة لنثبت منها ندرة الذين سموا ولدا لهم محمدا ، أن لم يكن معروفا ذلك الاسم عند العرب ، ونكاد نوافق على حصر العدد فى ثلاثة ، وإذا فرض وكان أكثر فانه لا يتجاوز به بكثير ، سواء أصبح السبب الباعث على التسمية أم لم يصح ، فان تلك التسمية لم تعرف الا قرب مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا نميل الى صدق هذا الباعث لأن التبشير برسول اسمه أحمد ، كان معروفا فى أوساط أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وأن أنكر أكثر اليهود رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دعوته لهم : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم » •

وقد اختيرت هذه التسمية من الله تعالى ، ولندكر اشارة الى ما فى هذه التسمية من معنى يفهم بمقتضى قراءة اللغة ، ذلك أن صيغة التفعيل تدل على تجدد الفعل وحدوثه وقتا بعد آخر بشكل مستمر متجددا أنا بعد أن ، فيقال اذا تكرر ذلك الفعل • وعلى ذلك يكون محمد ، أى يتجدد حمده أنا بعد أن بشكل مستمر حتى يقبضه الله تعالى اليه ، وذلك لأنه تكون منه فعال الخير المتجددة وقتا بعد آخر ، فهو لا يئى عن فعل الخير الذى يقتضى ثناء وحمدا ، ولا عن قول الصدق الذى يقتضيه ، ولا عن الجهاد فى الحق الذى يستمر عليه الى أن ينشر الحق وهو شرع الله تعالى ، ويخلد الى يوم القيامة •

وكان من أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - أحمد - وهو الاسم الذى بشر به فى الانجيل ، وبشر به موسى عليه السلام ، وهو أفعل تفضيل من الحمد والثناء ، فهو كثير الحمد ، وكثير الثناء والذكر لله تعالى •

ولعله لم يكن التبشير فى الانجيل وعلى لسان موسى عليه السلام الا بأحمد ، الا لأنه اشتهر بذلك فى حياته وخصوصا بعد أن بعث ، وكثرت دعوته ولأنه اسم لا يشاركه فيه أحد ، ولو نادرا ، فيكون التبشير متجها اليه •

تاريخ مولده :

٧٥ — الجمهرة العظمى من علماء الرواية على أن مولده عليه

الصلاة والسلام فى ربيع الأول من عام الفيل فى ليلة الثانى عشر منه ، وذلك لأن الفيل وجيشه ساروا مكة فى المحرم ، وولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مقدم الفيل بخمسين يوما ، وبذلك جمع الأكثرون على أنه ولد بعد مساورة جيش أبرهة بخمسين يوما .

وقد وافق ميلاده بالسنة الشمسية نيسان ( أغسطس ) ، فقد ولد فى العشرين منه ، وقد جاء ذلك فى الروض الأنف فقد قال : « ذكر أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ربيع الأول وهو المعروف ، وقال الزبير كان مولده فى رمضان ، وهذا موافق لمن قال أن أمه حملت به فى أيام التشريق ، والله أعلم ، وذكروا أن الفيل جاء مكة فى المحرم ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ٠٠٠ وأهل الحساب يقولون وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان ( أى أغسطس ) فكانت لعشرين مضت (١) .

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن هناك رواية تقول أنه ولد فى رمضان ، وأنه على مقتضى هذه تكون البعثة فى رمضان ، وأول نزول القرآن ، وأول نور الاسلام ظهر على وجه الأرض فيه بمولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه يوم الفرقان إذ جعل الله تعالى كلمة الشرك السفلى وكلمة التوحيد هى العليا ، وفيه زوال دولة الأوثان وياس الشيطان من أن يعبد فى هذه الأرض بفتح مكة المكرمة ، وطرح الأوثان من فوق ظهرها ، وحطمها .

ولولا أن هذه الرواية ليست هى المشهورة لأخذنا بها ، ولكن علم الرواية لا يدخل الترجيح فيه بالعقل .

ثانيهما : أن صاحب الروض يذكر فيما نقلنا أن الأشهر أنه ولد بعد خمسين يوما من قدوم جيش أبرهة ، ولكن هناك قول آخر مشهور وهو أنه ولد بعد خمس وخمسين ، كما فى رواية أبى جعفر محمد الباقر ، إذ يذكر أن الفيل قدم فى النصف من المحرم ، فيكون المناسب لليلة الثانية عشرة هو أن يكون قد مضى خمسة وخمسون ليلة (٢) .

وان ذلك يتفق مع التقدير الشمسى بعشرين من نيسان ، ولذلك نختار

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٠٧ طبع المغرب .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٦٢ .

هذا اذا كانت روايته وثيقة ، وإن ذلك الاختلاف اليسير فى ليلة مولده عليه الصلاة والسلام لا يضير ، لأنه عليه الصلاة والسلام وجد وشاهد الوجود الانسانى وكان شهيدا على أمته حفيظا على شرعها يشهد للمؤمنين بشرعه ، ويشهد على العصاة الخارجين وأمته شاهدة على الناس بالحق ، تبين للمنحرفين ، وتهدى السالكين .

وروايات الميلاد جاءت على السنة من عاصروها ، وما يعتمد على المشاهدة أو المعاصرة قد يختلف فيها العلم ، فيذكر كل انسان ما يعلم ، وإن كانت الحقيقة لا يختلف ، والمؤرخ يتعرفها من وراء الاختلاف اليسير ، والله سبحانه وتعالى هو العليم .

### ارهاصات النبوة يوم مولده :

٧٦ — وضعت آمنة الطاهرة حملها الطاهر الذى لم يثقل فأضاء الوجود ببزوغ شمس هذا الوجود ، وقد ذكرت الروايات فى كتب السيرة أمورا كثيرة ظهرت غب ولادته ، أو قارنت الولادة :

(أ) فقد قالوا انه خرت الأصنام ، وتزايلت عن أماكنها ، وتمايلت على وجوها ، لأنه جاء هادما ، وليس ذلك منها بارادة ، ولكنها بارادة القاهر الحاكم على كل شيء .

(ب) ظهر النور حتى أضاء قصور الشام .

(ج) جاء فى سيرة ابن اسحق « كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت كان يهودى قد سكن مكة يتجر فيها ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فى مجلس قريش يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ، فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال الله أكبر أما اذا أخطأتم فانظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات » .

وروى ابن اسحق عن حسان بن ثابت « قال انى لغلام تبعة ابن سبع سنين أو ثمانى سنين ، أعقل ما رأيت وسمعت ، اذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا اليه وأنا أسمع ، قالوا ويلك مالك ، قال قد طلع نجم أحمد الذى يولد الليلة » .

وحسان بن ثابت قد ولد قبل النبى عليه الصلاة والسلام بسبع سنين

فانه كانت سنه عند هجرة النبى عليه الصلاة والسلام الى يثرب ٦٠ سنة ،  
والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت سنة ثلاثا وخمسين •

وهكذا ، تواردت أخبار من جهات مختلفة عن اليهود بأنهم أدركوا  
مطلع ولادة النبى عليه الصلاة والسلام ، ونحن نؤمن بأن اليهود كان عندهم  
من علم التوراة ما يجعلهم يعلمون أن النبى الأسمى سيبعث من العرب ، وكانوا  
يستفتحون به على المشركين الذين كانوا يجاورونهم فى المدينة . « فلما جاءهم  
ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » •

(د) ذكر مخزوم بن هانئ المخزومى أن ايوان كسرى ارتجس ليلة  
مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسقطت منه أربع عشرة غرفة ،  
وخمدت نيران فارس التى يعبدها المجوس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة •

ورأى أحد رجال كسرى فى منامه أن ابلا صعبا تقود خيلا عربا قد  
قطعت دجلة والفرات فى بلاده ، فلما قص الرؤيا على كسرى افزعته ، فتصبر  
وأن لم يصبر ، فجمع كبار دولته وقال لهم : اتدرون فيم بعثت اليكم ؟ قالوا :  
لا الا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك اذ ورد اليهم كتاب بخمود النار ، ثم  
أخبرهم بما رأى أحد رجاله وبما هاله وقد تأولوا هذه الرؤيا ، وخمود  
النيران بأن حدثا يكون من بلاد العرب •

٧٣ — ونقف وقفة قصيرة أمام هذه الروايات التى توردت من مزايلة  
الأصنام عن أماكنها وتمايل وجوها ، وإضاءة الضوء ساعة مولده ،  
وارتكاس ايوان كسرى ، وخمود نار فارس التى لم تخمد منذ ألف سنة ،  
فنقرر أن العبرة فيها بصدق الرواية لا بكون هذه الأخبار مقبولة فى العقل  
فان حكم مؤرخ بعدم صدق الرواية ردنا •

ونقول فى الرواية ان المحققين فى علم الرواية لم يجدوا مساعا لتكذيبها  
فان الحافظ ابن كثير يروى فى هذا روايات كثيرة يعلن شكه فى صدق  
بعضها ، ويسكت عن سائرهما ، وقد نقلنا ما لم يشك فيه ، فحق علينا أن نقبل  
منها ما قبل ، ونرد منها ما ذكر أن فيه ريبا ، وخبر الصادق يقبل ، مادام لم  
يعرف عليه كذب ، والأحكام تبنى على أخبار الصادقين ، ولو كان فيها احتمال  
الكذب لأنه احتمال غير مبنى على دليل ، ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون  
سببا لرد أقوال الصادقين ، والا ما حكم قضاء ، ولا أدبين متهم ، ولا ثبت  
حق ، ولا دفع باطل ، ولذلك لا يسعنا الا أن نقبل ما لم يجر فيه طعن •

وأما من ناحية قبول العقل ، فانا قد بينا أن خوارق العادات تجيء

بتقدير الله تعالى الذى لا يتقيد بالعادات ولا بما يجرى بين الناس من أسباب ومسببات ، فانه خالق الأسباب والمسببات فقد يكون الرجز والمحق والخرف ، والزلازل لفساد قام به بعض الخلق ، وذكرنا الآيات الدالة على أن الله تعالى يلقى بالنعم على من يتقى ويعمل صالحا وقد تلونا من قبل قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وذكرنا أن الرجز والمعذاب قد يكون بسبب فساد ارتكبه بعض الأقوام ، كما أنزل الله تعالى من الرجز على فرعون وملئه ، بما كانوا يفسدون فى الأرض .

فالذين يدعون أن هذه الأخبار غير مقبولة فى العقل ، انما ينظرون الى الأسباب والمسببات العادية التى تجرى فى أعمال بنى الانسان ، ولو علوا بأنظارهم الى ما فى الكون من كسوف وخسوف ، وما فى الرياح من مثيرات ، وما فى الأرض من زلازل وخسوف ما وجدوا لذلك تعليلا الا أن تكون ارادة الحكيم العليم القاهر فوق كل شئ الذى لا يسأل عما يفعل ، وأنه يفعل ما يفعل لحكم يريدها ، ومصالح يقدرها ، وقد ربطها بأمور يعلمها ، وهو علام الغيوب ، وتقديره هو تقدير العليم الخبير .

واذا كان الله تعالى قد أراد الكرامة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأراد أن يعلم من يطيعون به من أهل وقوم ما كرمه الله تعالى به ، وهو سينادى بالحق ، فان ذلك هو المعقول ، وغيره هو المردود ، لأنه مخالف ، لما قدره الله تعالى لهذا الانسان الذى سيعلم الانسانية كلها .

٧٧ — ولا يصح لعاقل أن يقول ان هذه أهوام سيطرت ، وخيالات خيلت ، وظنون ظنت ، لمجرد أنها خالفت مجارى العادات ، وما ألف الناس فى كل مولود ، فليس ككل مولود .

ومع ذلك فنحن نرجح صدقها ، ولا نلزم الناس بالايمان بها ، فليس من الايمان أن نؤمن بأن ايوان كسرى ارتجف ، ولا النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار عند أن شرف هذا الوجود ، لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الايمان به ، إذ أن ما يجب الايمان به هو ما دعا اليه ، وما تكلم به عن الله سبحانه وتعالى ، وما نطق به القرآن الكريم ، وحكم به الديان .

ولو رجعنا الى ما كتبه الأناجيل الحاضرة فى مولد عيسى عليه السلام وما ألزمت الأناجيل به النصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل التى يزعمون صدقها — لوجدنا ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئا كثيرا بالنسبة لما ذكرته

الأناجيل وأوجبت الايمان به ، وانقبض قبضة يسيرة مما جاء فى هذه الأناجيل وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام .

(أ) جاء فى انجيل متى فى الاصحاح الثانى أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه فى المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .

(ب) وجاء فى انجيل لوقا فى الاصحاح الثانى ، لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة .

(ج) وجاء فى ولادة المسيح أيضا فى أحد الأناجيل ، لما ولد يسوع المسيح أضىء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة ، وعينى خطيب أمه يوسف النجار .

(د) وجاء فى انجيل لوقا الاصحاح الثانى « وعرف الرعاة يسوع ، وسجدوا له » .

(هـ) وجاء فى انجيل متى الاصحاح الثانى أيضا « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرمودس الملك ، اذ المجوس من الشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين : « أين هو المولود من اليهود » .

هذه قبضة مما عند النصارى فى أناجيلهم ، ولا شك أن ما يذكر عند ولادة الرسول من أخبار صادقة هى دون ما يذكره هؤلاء عن مولد عيسى عليه السلام .

وانه من الحق أن نقرر أن الفارق بين ما يقولون فى مولد عيسى عليه السلام وما يقوله الرواة الصادقون من ناحيتين :

الأولى - أن ما يذكر فى الأناجيل عن حال عيسى عليه السلام أكثر غرابة ، وما يذكر لنبينا عليه السلام أقل غرابة بكثير .

القاحية الثانية - أننا لا يجب علينا ديناً وإيماناً أن نذعن لهذه الأخبار وإن كانت صادقة ، ولكن المسيحيين يعتقدون صدق ما فى أناجيلهم ، ومن لم يصدقها يكون كافراً بها .

وإذا كان ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه ، فليس لأحد من الذين كتبوا فى النبى عليه الصلاة والسلام أن يثيروا غباراً حول ما ذكره عند ولادته عليه الصلاة والسلام ، ولا فعليهم أن يثيروا عثيراً بل أكواماً من التراب ، حول

ما قيل عند ولادة السيد المسيح عليه السلام ، ولكن رضى الله عن عبد الله ابن عباس الذى يقول ، ان الانسان يرى الشظية فى عين أخيه ، ولا يرى الخشبة فى عينه هو ، وما ذلك الا لعدم الانصاف .

## ارضاعه

### صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٨ — الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة . والرضاعة تكون من الأم ، لأن لبنها يسير مع نموه سيرا مطردا ، فكلما كبر الغلام فى المهد كبرت دسامة اللبن ، حتى يستغنى بالغذاء ، ولذلك كانت الرضاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة ، فقد قال تعالى فيما شرع من أحكام : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة » فكان بمقتضى الفطرة أن تكون أمنة الأم الرءوم هى التى تتولى ارضاعه . ولكن كان لابد من يعينها بلبنه ، فقد أرضعته معها ثويبة وهى جارية لأبى لهب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ناوأه العداوة لما بعث رسولا ورحمة للعالمين ، ولكن قد كان محبا لأخيه عبد الله ، ولابنه النبى الكريم محمد ، وكانت ثويبة أول من أعلم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد ، فأعتقها لهذه البشرى الكريمة ، وكان هذا له خيرا يحتسب ، ولكن أخفاه كفره ، وانضمامه الى المخالفين المؤذنين للنبى عليه الصلاة والسلام ، وضعفاء المؤمنين .

أعانت ثويبة أمنة فى ارضاعه ، وقد أرضعت أيضا حمزة ابن عبد المطلب ، وقد كان هذا سببا من الأسباب التى طلب عبد المطلب لمحمد المراضع .

وعلى ذلك نقول ان طلب المراضع للنبى عليه الصلاة والسلام من مراضع البادية له أسباب ثلاثة :

**أولها :** عدم كفاية لبنه لتغذيته ، ولعل من بعض أسباب ذلك ما نالها من حزن دفين عميق صبرت عليه من غير تصبر ، وهو موت زوجها الحبيب الطيب ، ولم يزل ألم قريش كلها لوفاته وألم أبيه ، وألم أخوته ، وأن خفقته فان المشاركة فى الأسى تخففه ولا تزيله .

**ثانيها :** أنه كان من عادة أشراف قريش أن يعطوا أولادهم للمراضع فى البادية ، ولا يرضع نساؤهم ، كما هو ظاهر الآن فى كبراء الحضر أو نوو

اليسار فيهم ، فانه لا يرضع نساؤهم الأولاد ، وان كانوا لا يرسلونهم الى الريف .

**ثالثها :** أن الغلمان اذا رضعوا فى البادية اكتسبوا غذاء طيبا ، وهواء ليس معكرا بما فى جو المدن ، فأهل الوبى أقرب الى الهواء النقى النظيف من أهل المدر .

ولقد قال فى هذا صاحب الروض الأنف ، وأما دفع قريش وغيرهم من اشراف العرب أولادهم الى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه أحدهما تفرغ النساء الى الأزواج ٠٠٠ وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه ٠٠٠ وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبى بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منا يارسول الله ، فقال : ومايمنعنى وأنا من قريش ، وأرضعت فى بنى سعد ، فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى المراضع الأعرابيات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ، ويتنسّموا نسيم البادية ، ويعرفوا عاداتها ، ويخششونوا بخشونتها ، ولا ينشئوا فى حلية المدينة ، غير متعرضين لما تقتضيه الحياة . من تحمل الأعباء ، وما تفرضه مقتضياتها من شدائد ليكون منها الأشداء .

**٧٩ —** جاءت المراضع الى مكة من بنى سعد بن بكر يردن الرضعاء يرضعونهم . وكان من عادة العرب ألا تأخذ الموضع أجرا على الرضاعة ، وان كن يقبلن من آل الطفل الهدايا والرعاية ، فتسد بعض حاجاتهن ، ويرين من العار أن يكون لهن أجر منتظم ، وسرى بينهم المثل السائر تموت الحرة ، ولا تأكل من ثديها .

ومنهم كما جاء فى الروض الأنف من كن يقبلن الأجرة ، اذا لحت بهن الحاجة .

ولقد كان محمد يتيما لم يترك أبوه شيئا يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاه ، وأمه اسمها أم أيمن التى حضنته بعد وفاة أمه الكريمة فكان يتيما فقيرا .

وقد حضرت المراضع ترجو أن يعهد اليهن بمن يرضعنه راجيات من هذه الرضاعة الهدايا أو رضا من المال ، لا أجرة يؤجرن بها أئداءهن ، فاذا كن يرجون ما يرجون ، فانهن لا يرضعن الا أولاد ذوى اليسار ، ولذلك أعرضن عن اليتيم الفقير ، وبذلك خرج كل المرضعات بطفل من ذوى اليسار ، الا حليلة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن كبشة ، وكان زوجها



معها ، واسمه الحارث بن عبد العزى ابن رفاة وكان المرضعات كما قال  
الواقدي عشرا كلهن عاد بالأولاد الا حليلة ، فلما رأتهن جميعا أخذن أطفالا ،  
ولم يبق الا اليتيم الطاهر محمد بن عبد الله ، أخذته راجية الخير ، وان لم  
ترج العطاء ، ولنتركها تحدثنا كيف قبلته ، فانها تصور لنا طيب نفسها ،  
وما أقاضه الله تعالى عليها من خير بسبب بركة اليتيم الكريم ، فهي تقول :

♦ — « فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا خرجت على أتان لى قمرء  
معها شارف (١) • كانت والله ما تبض (٢) • بقطرة ، ولا ننام ليلتنا أجمع  
من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثدى ما يغذيه ، وما فى  
شارفنا ما يغذيه ، ولكننا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد  
أذمت (٣) بالركب ، حتى شق ذلك عليهم •

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما معنا امرأة الا وقد عرض عليها  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك  
أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول ما عسى أن تصنع أمه  
وجده !!

فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى •

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى • والله انى لأكره أن أرجع من بين  
صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ، فلاخذنه •

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة •

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجيد  
غيره •

فلما أخذته رجعت الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى  
بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، حتى  
ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك •

---

(١) الأتان القمرء هى التى تميل الى الخضرة ، والشارف الناقة  
العجوز •

(٢) أى ترشح الناقة لنا بقطرة من اللبن نتغذى به لكبر سننا •

(٣) أى صارت مذمومة فى الركب •

وقام زوجى الى شارفنا فاذا أنها لحافل .

فبتنا بخير ليلة يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة  
لقد أخذت قسمة مباركة ، قلت والله انى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا ، وركبت أتانى  
وحملتة عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شىء من حميرهم ،  
حتى ان صواحبى ليقلن يابنت أبى نؤيب ويحك ، اربعى علينا ، أليست هذه  
أتانك التى كنت خرجت عليها ، فأقول لهن بلى والله انها لهى .

قالت ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله  
أجذب منها ، فكانت والله ، غنمى تروح على حين قدمنا به معنا — شباعا  
لبنا ، فنحلب ونشرب منها ٠٠٠ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون  
لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى نؤيب ، فتروح أغنامهم  
جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله  
الزيادة والخير .

٨٦ — اذا كان محمد قد اقدم باليمن والبركات على اهل محه ، برد  
أبرهة وفيله ، وجيش اليمن مدحورين ، عادوا ، فبركته بعد ولادته تسير معه  
حيث سار .

لقد رضيت باليتيم ، وصاحبها قبله ، وكلاهما طيب النفس مطمئن قانع  
مستعين بالله تعالى قانع بما يعطيه ، فجزاها الله تعالى جزاء حسنا ،  
فأطعمهم من جوع ، ودر عليهم الأثداء الجافة ، فأضاف الى لبنها لبنا كفاه  
هو وصبيها وأخصب كلهم بعد اجداد ، وامتلات أضراع غنمها ، فكان  
الخير العميم والفضل العظيم .

وقد يسأل سائل لم كان هذا ، ويستغرب ، ولكن لا غرابة لمن يؤمن بالله  
تعالى فان له تقديرا فوق تقدير العباد ، ونظاما فوق نظامهم ، وانما يستغرب  
من لا يؤمن الا بالمحسوس ، ويربط بين الأسباب العادية ومسبباتها .

وان الذى نقف عنده هو أن هذا الغلام الذى صنعه الله على عينه ولد  
يتيما ، ولكن لم يذق قهر اليتامى ، ولا ذل اليتيم ، بل كان بين أحضان من  
يحبونه ، فأول حواضنه أم رعو لم ترفى الوجود نورا الا نوره ، وغمرها  
حبه . وغمرته بعاطفتها ، فكان كل حبا له ، لم يشركه فيها زوج اذ فقدته ،  
قال حبه اليه ، فكان له صفوا خالصا ، لم يرنق بشركة ، والتقى فى عاطفتها  
حب لزوج كريم لم تنعم برفقته ، وابن حبيب محبب فيه كل ما فيه ، وكانت  
الحاضنة الثانية أم أيمن التى كانت ميراثه من أبيه أحبته كما تحب الأم ولدها

وكانت له بعد أمه رفيقة به أضافت اليه من حنانها ما عوضه ، وإن لم يكن  
العوض كالأصل ، ولا البديل كالبدل •

ثم كانت الحاضنة الغريبة التي صارت برضاعه أما كأمه ، خلق فيها رب  
العالمين محبته ، وجعله يمعنا وبركة لتري في محبته حب الله ، ولتري في  
عاطفتها عليه رزق الله تعالى •

والحواضن الطيبات الطاهرات هن اللاتي يدر منهن العطف الانساني ،  
فمنهن يتلقى العواطف الاجتماعية والأنس الانساني ، ولذلك نشأ محمد عليه  
الصلاة والسلام انسانا محبا يألوه كل من يعرفه •

وإذا كان قد فقد الأب ، فقد قويض له الجد ، وإذا كان قد فقد الأم في  
باكرورته ، فقد تغذى من عطف أم أيمن ، واستقى منها أكرم العواطف ، وهذا كله  
فوق ما أودعه الله إياه من خلق كريم عظيم •

٨٢ — أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين ، وهو في حضنها مع  
ولدها لا يفترقان ، لا تضن عليه بعطف ولا محبة ، ولا تخص ابنها بفضل منهما  
بل هما على سواء •

فما بلغ الحولين ، حتى استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء حتى كان  
غلاما جفلا ، أى قويا ممتلئا يستغنى بالطعام • ولم يذكر التاريخ أكانت تلتقى  
به أمه ، أم تركته الى البادية مطمئنة عليه !! ، ولكن اذا كان التاريخ لم يذكر  
أنها رآته ، فلنفرض أنها كانت تراه من وقت بعد آخر ، وإذا كان التاريخ لم  
يذكر الرؤية ، فان أقصى ذلك أنه لم يثبتها ، ولم ينقها ، فالفطرة والحنان  
يوجبانها ، وهما أصدق خبرا ، ولذلك نقرر أنها لابد كانت تراه من حين  
لآخر (١) •

وانه بعد أن استغنى عن الرضاعة ، وبلغ فيها حولين كاملين ، يكون  
من الحق على الرضيع أن ترده الى أهله ، وإذا كانوا يرون أن يبقى عندها  
فانه يكون برجاء منها ، ورضا منهم ، وهذا ما فعلته ، فقد قالت :

قدمننا به على أمه ، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما  
رآته أمه ، قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فاننا نخشى عليه  
وباء مكة ، فوالله مازلنا بها ، حتى قالت نعم •

---

(١) الاكتفاء هـ ١٧١ — ج ١ « وسيرة ابن هشام » •

رأت الخير بين يديه ، فأرادت أن تتيقنه ليبقى الخير ، ولأنه قد نال محبتها ، وأصبحت لا تستطيع فراقه كأنها التى حملته ، ولم ترض الأم التى حملت به أن تتركه لشوقها إليه ، ولتضمنه أحضانها ، فلم تسلمها ولدها لأول طلب ، بل مازالت بها حتى قبلت ، ولعل قبولها سببه ما ذكرته من أنها تخشى عليه وباء مكة ، وتريده أن يكون مستمتعا بجو الصحراء الصافى من حمل الأسقام والأوباء ، فهى قد رضيت ايثارا ومحبة .

### أخبار شق الصدر :

٨٣ — عادت حليلة فرحة ببقاء الخير والبركة ببقاء محمد فى حضانتها ، وإذا كانت من قبل مرضعا وحاضنة فهى الآن حاضنة ، وإن ذلك يحملها عبئا آخر ، وهو صيانتة وحفظه ، إذ كان من قبل يلزم حجرها ، أو يكاد ، أما الآن فإنه لا يلزم حجرها ، بل يغادره ليلعب ، ليروح ويغدو ، هنا وهناك ، وإن ذلك يحتاج الى صيانة ، وكانت تتبعه .

وقد خرجت مرة لتبحث عنه مع أخته من الرضاعة ، وكان الحر شديدا ، فتقيل كلاهما ، ( أى استرخى فى القيلولة ) فقالت الفتاة ، انه لا يحس بحر ، لأن غمامة تسير حيث يسير ، وتقف حيث لا تتركه .

ونقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة فى شق صدره عليه الصلاة والسلام ، فقد رويت فى ذلك أخبار بعضها فى خبر قصير ، وبعضها فى خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة فى بعض ، ونقص فى آخر ، وإن كان المعنى الأصلى متفقا فى الجميع .

ولنذكر واحدا منها ، وهو ما روى وثبت فى صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى ظئره ، فقالوا ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون ، قال أنس ، وقد كنت أرى ذلك الخيط فى صدره « وإننا نلاحظ فى ذلك الخبر أمرين :

أولهما : أن الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ان صحت كانت فى البادية فى مكان ناء عن زمزم ، وإذا كان من ماء مع جبريل ، فمن أين علم أنه من زمزم .

ثانيهما : أنه ذكر أنه كان يرى أثر الخيط فى صدره عليه الصلاة والسلام ، وإذا صحت الواقعة فإن المعقول أنه عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس •

ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب •

وعلى فرض أنها صحيحة ، لا نقول انها غير مقبولة ، بل انا نقبلها ان صحت ، ولكن الاضطراب فى خبرها ، يجعلنا نقف غير رادين ، ولا مصدقين •

ومهما يكن الأمر فى قصة شق البطن ، فإن الغلام الطاهر كانت تحوطه أمور خارقة للعادة لم تكن لتحدث للغلمان فى سنه عادة •

ولقد جاء فى الروض الأنف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عادت به حليلة بعد أن حملت أمه على الرضا ببقائه عندها سنة أخرى أعادته بعد شهر أو ثلاثة خوفا عليه مما يجرى ، ولقد ذكر الرواة حديث شق البطن ، وأنها لما بلغها خافت على الغلام فرددته الى أمه •

قال ابن اسحاق انها رأت أن بعض النصارى رأوه ، ورأوا ما به من علامات النبوة ، فطلبوا الى حليلة أن يأخذوه عندهم فارتابت فى ذلك حليلة فردته الى أمه خائفة عليه ، ولتخلى نفسها من التبعة ، وسنزيد من بعد الخبر بيانا •

٨٤ - هذا الكلام يدل على أنه آل الى أمه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة الثالثة ، وهو معقول لأنه لا رضاعة من بعد ذلك ، والأحوال كانت توجب هذا ، لما كان يصيب أمه الرضاعية من خوف عليه ، بسبب الارهاصات التى كانت تحوم حوله مما أفزعها •

ولكن جاء فى الروض الأنف ما نصه :

« وكان رد حليلة اياه الى أمه ، وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمرو ، ثم لم تره بعد ذلك الا مرتين احدهما بعد تزوجه خديجة رضى الله تعالى عنها ، جاءت اليه تشكو السنة ، وان قوما قد استنوا ، فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات ، والمرة الثانية يوم حنين » •

وان هذين بلا شك خبران متناقضان : أحدهما يفيد أن أمه تسلمته عند بلوغه سنتين وشهرين أو ثلاثا ، والثانى يقرر أنها تسلمته بعد خمس سنين وأشهر •

ولكن التوفيق بينهما ممكن بأن أخذها الأول لتضمه إليها ، ويكون في كنفها ، ولا يمنع ذلك من أن تجيء حليلة اليه تأخذها عندها الفينة بعد الفينة . يستروح بنسيم الصحراء ، وتقيم به ظئره المخلصة العطوف ، أما حد التسليم بخمس سنين ، فهو عندما أخذته نهائيا أمه ، ولم يذهب بعد الى بنى سعد ، ولذلك قرروا أنها لم تره بعد ذلك الا بعد أن اكتملت رجولته بتزوجه ، وبعد أن أبلغ رسالته ، وتذاكرت الركبان بنصرته في يوم حنين ، فقد دامت من بعد اقامته عند أمه ، ورحلت به الى يثرب لتربيته قبر أبيه ، ولتزور وهي وفاء لرجلها الطاهر الأمين .

لقد سلمته حليلة الى أهله ، وكان يتردد عليها برغبتها ، وأجازه أهلها ، وقد ذكر ابن اسحق خبرين قد نوهنا الى أحدهما ، ولم نذكر الآخر ، وقد كان السبب في الا يقيم عندها اقامة ممتدة ، ولكن تأخذه الوقت بعد الآخر :

**أولهما :** أن ابن اسحق قدر أنه زعم الناس فيما يتحدثون أن حليلة ظئره لما قدمت مكة به ضلت وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأمت جده ، فقالت له انى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى الناس فوالله ما أدرى أين هو ؟ فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل ابن أسد ، ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوده ويدعو له ، ثم أرسل به الى أمه آمنة .

وقد ذكر هذا الخبر ابن اسحاق ، وصدره بكلمة زعموا مما يدل على شكه ، ولكن لا موضع للشك فيه ، فالخبر في ذاته مقبول ، وهو يدل على عظيم حذب جده عليه ، وحرص حليلة ، ومحبة قريش له .

ولكن هل هذا كان في تسليمها الأول ، أو في تسليمه في المرات التي كان يتردد عندها ، تيمنا لجواره وقربه منها ، وقبول أمه لذلك ليستروح هواء البادية ، وتتقى أسقامه بها .

الخبر الثانى قد أشرنا اليه من قبل ، ورجحنا أنه السبب في اعادته بعد شهرين من بلوغه حولين كاملين ، وهذا نص كلام ابن اسحاق :

« حدثنى بعض أهل العلم : أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه حين رجعت به بعد قطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها لناخذن

هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، فزعم الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت منهم حتى ارسلته الى أمه •

### سفر أمه به الى يثرب :

٨٥ — كانت آمنة مثالا للمرأة الكاملة ، وهى بعد لم تتجاوز العشرين الا بقليل ، فقد رأت أن تزور يثرب وهو معها هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن تزور مع ولدها قبر أبيه ، وفى ذلك أجل الوفاء ، وأكرمه ، وكأنها ترى زوجها وديعته التى أودعها أياها •

وثانيهما — أن تعرفه بقرايته من ذوى الأرحام ، وهم بنو النجار ، إذ تزوج منهم جده هاشم ، تزوج سلمى بنت زيد بن عمرو الذى ينتهى بنسبه الى عدى من بنى النجار ، وكان بالمدينة ذا شرف ومال •

وقد تحقق لها ما أرادت ، ولعل هناك باعثا آخر ، وهو أنها كانت تخشى على وليدها العزيز جو مكة ، ووباءه ، فأرادت أن تخرج به من ذلك الجو المزدحم الأهل بالسكان ، لقد كانت حليمة تأخذه من وقت لآخر ، فينقى جسمه من جو مكة المتكاثف ، وينال من جو البادية ما ينعش جسمه ونفسه ، ويكون ارادته ويكون فيه متصلا بالكون لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يحول دونه باب ، بل هو متصل بالسماء وزرقتها ، والنجوم ومدارجها ، والقمر وإنبلاجه ، فيرى الشمس سراج الوجود ، والقمر منيره من غير استتار يمنعه ، أو حاجز ، يرى الشمس فى مشرقها ، وضحاها ، وأصيلها وغروبها ، وشفق القمر اذ يضىء ، فيشق نور الظلام وينبلج نوره ، ويتغنى به الشعر ، وفى ظله يتسامر المدركون لجمال منظره ، ودلالته على الخلاق العليم •

سافرت به أمه لتزور قبر أبيه ، وأخواله ، ولتخرج به من مزاحم مكة ، ومحاجزها ، وهى أحب أرض الله إليها ، ولكنه الوفاء ، ورعاية الوليد الطاهر فى جسمه ونفسه ، وأهله ، ولتريه ذوى رحمه كما رأى عصبته •

والظاهر أنها خرجت بعد أن أخذته من حاضنته ووضعتة بعد أن بلغ خمس سنين وأشهرها كما ذكرنا من قبل أى أنه كان قد ابتدأ السادسة ، وسار فيها أشهرها •

وقد زار ، أولئك الصفوة من الأخيار قبر عبد الله أبيه ، والزوج الحبيب زوج أمنة فعبرت العيون وسكنت الأصوات ، وتناجت الأرواح على مشهد من الغلام المحس المدرك ، فعرف أباه ، وقد أرمس في التراب ، ورأى رسمه بنظره ، وأدرك محبته من عبرات أمه ، فكان منظرا مطبوعا في نفسه ، وهمسا مس قلبه ومشاعره ، ولعله أول حزن مس قلبه الغض البريء .

أقام وأمه في أطم بنى عدى بن النجار ، وهو قصر بنى فى أكمة عالية كأنه الحصن ، وقد كانت الأطم معروفة فى المدينة .

ويظهر أن الإقامة لم تكن قصيرة ، وربما كانت طويلة نسبيا ، ومهما يكن فقد رسمت فى ذهن الغلام صنورا وضحاها الخيال ووسعها من غير مبالغة ولا اغراق عند ذكرها .

فيروى أنه قال ، وقد رآها بعد أن حمل أعباء الرسالة : « كنت مع غلمان من أخوالى نظير طائرا يقع عليه ( أى على أطم بنى النجار ) وقال فى الدار التى نزل بها هو وأمه : ها هنا نزلت بى أمى ، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب » .

### موت الطهور أمنة :

٨٦ — أقامت أمنة بدار بنى النجار ما طابت لها الإقامة ، ولم ترد الاستمرار بعيدة عن بنى هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافله ، فكان لابد من العودة ، فأخذت فى السير الى مكة ، ولكنها وهى عائدة اليها أدركها الموت بمكان اسمه ( الأبواء ) وهو بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب ، كما يقول صاحب الروض الأنف (١) وبذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتيما من أبويه الذى ادخره الله تعالى للإنسانية هاديا بالحق ، داعيا الى الرحمة ، فكان نبي الرحمة ، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التى تعترض فى أثناء الحياة ، فانه لا تنبعث الرحمة بالضعفاء الا ممن ذاق مرارة الضعف ، وأى ضعف أشد من اليتيم ، وأن القسوة فى كثير من الأحيان تكون من الذين ينشئون فى الحلية فاكهين فى نعيم الحياة .

---

(١) يقول فيه صاحب الروض الأنف ، وقيل سمي الأبواء ، لأن السيل كان يسوء فيه .



ولقد ماتت الأم الطاهرة ، وهو يدرك الحياة ، وقد ذاق حلاوة حنانها ، ولطف عطفها ، وهى التى كان هو لها كل الوجود ، واستبشرت به ، واتخذت حبه عوضا عن الحب الزوجى الذى فقدته فى باكورة زواجها ، وإذا كان قد فقد أباه من قبل ، فقد كان ذلك وهو فى غيب الله المكنون ، وقد عوضه جده عطف الأب فلم يحس بالمشقة ، لأنه لم يعلمه ، واستقبل الحياة بهذه الحال ، ولم يجعله جده عبد المطلب يحس بالفقد الذى لم يعه ، أما الأم ، فقد فقدتها ، وهو فى وعى ، وبعد أن ذاق حلاوة حنان الأم ، وأنه لا شيء يعوض عطف الأم الرعوم ، وهو حرمان من شيء موجود يشعر به ، وأصابته به لوعة ، علمته الصبر وعوده الأخضر .

وزادت اللوعة ، وزاد معها الصبر أن الموت ، وهما غريبان ، وليس لهما إلا الصحراء ، وطريق مدعثر ، وشقة بعيدة ، لا بد من قطعها ، فاجتمع ألم الغربة ، وألم الفقد ، وألم الانقطاع ، وصار الركب فى رعاية الله تعالى الذى صنعه على عينه ، وذلك ليحس مع الصبر واحتمال الآلام كريم الرعاية الالهية ، والعناية الربانية ، ويكون له من هذا زاد نفسى يذكره عندما يلاقى الشدائد فى الدعوة الى الحق ، ومناوأة الشرك وتكاثف المشركين عليه ، وتمرضه للأذى والتجائه الى الله اذا أحس بالضعف .

وان الذى حمّله ، وحل محل أمه فى حضائنه جارية حبشية ، وإذا كانت لم تعطه حنان الأم ، وعزة العطف ، فقد كآلته وحمته .

وان ارتباط حياته الطاهرة بأمة حبشية تزويد من الله تعالى له بـزاد انساني ، ليشعره بأن الناس سواسية ، وأن كل الفضل نعيم يحسن فى عمله ، لا فيمن يفاخر بنفسه ، وأنها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التى لا يستغنى عنها محمد صلى الله عليه وسلم أمة حبشية ، لأنه تربية ربانية على المساواة الانسانية ، وأنه لا شرف الا بالنفع ، والعاطفة . لذلك لم يكن غريبا من السدى حضنته جارية حبشية أذاقته حب الأمومة، وان كان دون حبها ، وأوصلته الى جده محوطا بعناية الله وعطفها — أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الانسانى ، فليس غريبا أن يغضب أشد الغضب ، عندما يسمع بعض صحابته يعير آخر بقوله « يا ابن السوداء ، ويقول فى قوة : لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن المبيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى فمحمد ابن المبيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا » .

٨٧ — ذاق حب الأم ، وذاق لوعة فراقها ، ولذلك زار قبرها ، بعد أن بلغ أشده ، وصار رجلا مكتملا سويا ورسولا نبيا ، جاء فى الروض الأنف «وفى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء ،

فبكى وأبكى » وهذا حديث صحيح ، وفى الصحيح أيضا أنه قال استأذنت ربي فى زيارة قبر أُمى ، فأذن لى واستأذنته أن أستغفر لها ، فلم يأذن لى ، وفى سند البزاز من حديث بريدة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حين أراد أن يستغفر لأمه ضرب جبريل عليه السلام فى صدره ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، فرجع وهو حزين ، وفى حديث آخر ما يصححه ، وهو أن رجلا قال له يا رسول الله أين أبى فقال فى النار ، فلما ولى الرجل قال عليه السلام ان أبى وأباك فى النار » وليس لنا أن نقول نحن هذا فى أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات » وإنما قال النبى عليه الصلاة والسلام لذلك الرجل ما قال ، لأنه وجد فى نفسه ، وقد قيل انه قال أين أبوك أنت ، فحينئذ قال ، وقد رواه معمر بن راشد بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال ان أبى وأباك فى النار •

ولاشك أن الخبر الذى يقول ان أبا محمد عليه الصلاة والسلام فى النار خبر غريب فى معناه ، كما هو غريب فى سنده ، لأن الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وقد كان أبو محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمه على فترة من الرسل ، فكيف يعذبون !!! ان هذا مخالف للحقائق الدينية ، لقد مات أحدهما قبل أن يبرز الرسول الى الوجود ، وماتت الأخرى وهو غلام لم يبعث رسولا ، ولذلك كان الخبر الذى يقول انهما فى النار مردودا لغرابة سنده ، أولا ، ولبعد معناه عن الحقيقة ثانيا • ولعل نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن الاستغفار ، لأن الاستغفار لا موضع له ، إذ أنه لم يكن خطابا بالتكليف من نبى مبعوث ، وليس كاستغفار إبراهيم لأبيه الذى نهى عنه ، لأن أبا إبراهيم قد خطب برسالة إبراهيم فعلا ، فهو مكلف أن يؤمن بالله ، ويكفر بالآوثان •

وفى الحق انى ضرست فى سمعى وفهمى عندما تصورت أن عبد الله وأمنة يتصور أن يدخل النار ، لأنه عبد الله الشاب الصبور الذى رضى بأن يذبح لنذر أبيه ، وتقدم راضيا ، ولما افتدته قريش استقبل الفداء راضيا ، وهو الذى كان عيوفا عن اللهو واللعب ، وهو الذى برزت اليه المرأة تقول هيت لك ، فيقول لها أما لحرام فاللمات دونه ، ولماذا يعاقب بالنار ، وهو لم تبلغه دعوة رسول ، ونفى الله تعالى العذاب الا بعد أن يرسل رسولا ، ولما تكن الرسالة قد وجدت ، ولم يكن الرسول قد بعث •

وأما الأم الرؤوم الصبور التى لاقت الحرمان من زوجها فصبرت ، ورأت ولدها يتيمًا فقيرا ، فصبرت ، وحملته صابرة راضية فى الذهاب الى أخواله ، أيتصور عاقل أن تدخل هذه النار من غير أن يكون ثمة رسالة الهية تهديها ، ودعوة الى الوحدةانية توجهها •

انى ضرت لا محبتى للمصطفى الحبيب فقط وان كانت كافية . ولكن  
لأن قصة أمنة جعلتنى لا أستطيع أن أتصور هذه الصبور معذبة بالنار ، وقد  
شبهتها بالتول مريم العذراء لولا أن الملائكة لم تخاطبها .

٨٨ — ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بقبر أمه غلبت عبراته ، ولا عيب في ذلك ، فقد قال عليه الصلاة والسلام البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ، ولقد ذكر الرواة أنه بكى عندما مر بالأبواء ، وبكى من معه لتذكر أمه . ولقد قال القرطبي في تذكروته « جزم أبو بكر الخطيب في كتاب السابق واللاحق ، والناسخ والمنسوخ ، وأبو حفص عمر بن شاهين بإسناديهما عن عائشة رضي الله عنها ، قالت حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فمر على قبر أمه ، وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انه نزل ، فقال يا حميراء استمسكي فاستندت الى بيت البعير ، فمكث عنى طويلا ، ثم عاد الى وهو فرح مبتسم ، فقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله نزلت من عندى وأنت باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائك ، ثم عدت وأنت فرح مبتسم ، فيم ذا يا رسول الله ، فقال « ذهبت لقبر أمه أمى ، فسألت أن يحبها الله تعالى ، فأحبها فأمنت بي » .

وروى في احياء أمه وأبيه خبر مثل ذلك بسند فيه مجهولون .

ونحن نرى أن توافر السند الصحيح في هذه الأخبار غير ثابت ، ولكن نقول ما قاله صاحب الروض الأنف - « الله قادر على كل شيء ، ولا تعجز رحمته وقدرته عن أى شيء ، ونبيه عليه الصلاة والسلام أهل أن يخصه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله تعالى وسلامه عليه » .

ولقد روى الحافظ بن كثير أحاديث كثيرة فى هذا الباب ، وذكر أن فيها غرابة ، وذكر الخبر الذى سقناه عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، سأل ربه أن يحيى أبويه فأحيهما وأمنا به ثم قال فيه : « انه حديث منكر جدا ، وإن كان ممكنا بالنظر الى قدرة الله تعالى - لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه » (١) .

وخلاصة القول وهو ما انتبهنا اليه بعد مراجعة الأخبار في هذه المسألة  
أن أبوي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في فترة ، وأنهما كانا قرييين الى

الهدى ، والى الأخلاق الكريمة التى جاء به شرع ابنهما من بعد ، وانهم -  
كانا على فترة من الرسل ، ونعتقد أنه بمراجعة النصوص القرآنية والأحاديث  
الصحيحة لا يمكن أن يكونا فى النار ، فأمة المجاهدة الصبور ، الحفية بولدها ،  
لا تمسها النار . لأنه لا دليل على استحقاقها ، بل الدليل قام على وجوب الثناء  
عليها هى وزوجها الذبيح الطاهر .

وما انتهينا الى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
وان كنا نرجوها ونتمناها ، ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقى  
المستقيم ، والأدلة الشرعية القويمة ، ومقاصد الشريعة وغاياتها .

## فى حضن عبد المطلب

٨٩ — عادت أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمت الغلام الطاهر الى  
جده عبد المطلب ، وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العامر بالخير ، وعمل  
المصالحات ، فأدناه اليه وقربه .

وفى البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب ، والشباب من الرجال  
والنساء ، كان فيه حمزة وكان فيه العباس ، وكانت فيه هالة زوج عبد المطلب ،  
وابنة عم أمه ، فهى ذات رحم ، وما كان يمكن أن تنظر اليه ، كما تنظر  
أزواج الآباء ، الى ذرية أزواجها ، بل كانت تعد كخالته ، لأنها ابنة عم أمه ،  
وهى ربة البيت الراعية لبيت زوجها الكريم ، ولذريته الأطلهار ، فما كانت  
تنظر اليه شزرا ، بل كانت تحبوه من عطفها ، ما تحبوه لولدها ، فكان  
وسط مملوءا بالعطف والصلاح ، فما قهره يتمه ، ولا أرهقه فقد أبويه ، وان  
لم يكن عزه كمثلهما ، ولا عطفه كمثلهما ، ولكن من حواليه ، لم يبقوا  
عذلا يستطيعونه الا قدموه .

وكان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ، والتقت فيه محبتان  
من عبد المطلب ، احدهما محبة أبيه الذى اهتصره الموت ، وعمره أخضر .  
ومحبة الغلام الطاهر فى ذاته ، فكان يدنيه اليه ، واذا كان اليتيم بطبيعته  
يوجد انفرادا نفسيا ، واعتزالا ، فان الجد العظيم خشى أن يكون لذلك أثره  
فى قلب هذا الغلام الحبيب ، فكان يباليغ فى تقريبه منه حتى يأنس به دائما ،  
جاء فى السيرة لابن اسحاق : « كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ،  
وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من  
بنيه أجلا لا له ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى وهو غلام

جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : « دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع » •

حباه عبد المطلب بالعطف الأبوي ، فكان ينسبه اليه مباشرة • فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابني ، لياتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ، ولكيلا يخس بآئه دونهم ، ويفضله عليهم في المجلس ، ليمنع قهر اليتيم ، فألقى الله سبحانه محبة منه عليه •

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف الكريم ييث روح الائتلاف في هذا اليتيم •

وكان فطرة عبد المطلب السليمة ، وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك في منامه الذي ارتآه ، ثم في أحواله التي شاهدها ، ثم في الأخبار التي جاءت عنه وهو في البادية عند حليلة وزوجها ، ولذلك كان يبدو على لسانه ما يدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، كما جاء في الخبر الذي سقناه ، وقد قال أيضا ابن اسحاق • مرويا بسنده « لما توفيت أمية قبضه اليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام وكان يجلس على فراشه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : « دعوا ابني انه يؤسس ملكا » (١) •

وكان في ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ، ورأت فيه وجودها ، تحنو عليه كأمه ، وهى التى حضنته كأمه ، وآوت به من غربته وهى أم أيمن ، وكان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنه فى رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية فى العناية به ، فيقول : لها « يا بركة لا تغفلى عن ابني فاني وجدته فى غلمان قريب من السدرة ، وان أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة » •

ولكمال عطفه ، وايناسه ، وتأليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول على بابنى ، فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث ، فقد اختطف الموت أباه ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانيا بأن اقتصرت الموت عود أمه ، وقد أدرك معنى حنو الأمهات ، ورأها كالعود الأخضر ،

يذبل ، ويذوى • ثم اختبره الثالثة ، وقد رأى جده الكريم يتركه ، فقد فقد الأبوة القرابية ، والأبوة البعيدة ، وقد أحس بعظم ما فقد عند سماع المراثى فيه ، وهى تعلن مكانته ، ومحبته وأنه قد ابتدأت ، وهو لا يزال حيا ، ولكن الموت يذنى منه •

وكانت الأشعار تجيء بالثناء من بناته ، ويقول ابن اسحق « انه لما أحس بذلك الموت أمر بناته أن يرثينه فكن يرثينه ، وهو يسمع » •

وهذا الرثاء هو أبلغ النواح ، وان ذلك الخبر يدل على أنه كان فى وعى كامل ، ولم يصبه خرق الشيوخوخة •

## فى كنف أبى طالب

٩٠ — كان اليتيم الكريم يعيش فى عزه وعطف ، ورفق فى أحضان أمه الطاهرة ، وحاضنة البرة أم أيمن بركة هذا البيت ، وكنف الشريف فى قومه السيد فى قبيلته ، لم يحس بالمهانة أو القهر ، بل أحس بالشرف والكرم والرفق والعطف ، واستمرت هذه حاله الى أن بلغ الثمانية •

وقد مات جده ، وكالته فى الثامنة من عمره ، ولكنه لم يفقد عطفه وهو يعالج سكرات الموت ، بل استمر قائما بحقه عليه ، ولذلك عندما أحس بالموت يدب فى جسمه ديبيا ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحياطته ، وقد اختصه بهذه الوصية ، لأنه كان فى قرين له مقام المطلب بعد أبيه ، ولأنه أقرب كل بنى إليه ، لأنه ابن شقيقه ، إذ أمهما واحدة ، وهى فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم •

وقد قام أبو طالب بحق الوصية ، فكان يرعاه حق الرعاية ، فكان يصاحبه فى غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة • لأنه ابتداءً يتعود عادات الشباب ، ولا يغنى عنه فى هذا الدور من حياته الا الصحبة الموجهة ، فكان يصحبه لهذا ، ولحبته الشديدة له ، فكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها ، فكان لا ينام الا بجواره فى منامه ، وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ، وكان مثله ، كمثل حليلة وأولادهم ، إذ حل فيهم فشبّعوا بعد جوع ، ودرت عليهم أخلاف ناقثهم بعد أن جفت •

كان أبو طالب فى بعض الأزمات المادية ، فكان عياله اذا أكلوا لم يشبعوا ، واذا أكل معهم محمد الميمون شبعوا ، فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم • قال

لهم كونوا كما أنتم حتى يجيء ولدى وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فإذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، وإذا لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لبار » هذا ما قصه ابن اسحاق فى سيرته (١) •

وليس عندى ما يسوغ لنا أن ننقض ذلك الكلام فهى قدرة الله تعالى على كل شئ ، وإذا اختص الله بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى ارهاصات الرسالة ، وقد جرى على يديه وفى أحواله خوارق عادات أخرى ، أوضح وأظهر وأبين ، فالضوء الذى صاحب ولادته ، وارتجاس ايوان كسرى ، وتهدم غرفاته ، وخمود نيران المجوس ، والبركة التى حلت على حليلة وذريتها بقدمه ، كلها أحوال خارقة للعادة هذا دونها فى الارهاص •

ولكن جاء عن الحسن بن عرفة ما قد يومئ بالتعارض الظاهرى ، فانه روى عن ابن عباس أنه قال : كان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم ، فيجلسون وينتبهون ، ويكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة •

وهذا قد يوهم التعارض ، وبفحص الخبرين يتبين أنه لا تعارض لأن الأول يتبين منه أن الشبع وفضول الطعام يكونان اذا كان بينهم ، وليس معنى ذلك أن ينتهب كما ينهبون ، انما معناه أن يأكل وقد عزل له طعام خاص ، حتى لا يتسابق معهم فى الالتهام ، اذ نفسه العفوف تأبى عليه أن يزاحم فى مد الايدي الى الطعام ، فذلك من تأديب الله تعالى له ، وما منحه من عفة وابتعاد عن الجشع فى الطعام وغيره ، كما يبدو من صفحة حياته •

وانه يكفى أن يكون معهم فى الطعام لتكون البركة ، ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذى اختصه به أبو طالب فان الله تعالى قابل ذلك التخصيص من عبده الكريم بفيض من فيضه العميم •

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢ •

## الى العمل

٩١ — اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمل ، وقد شب عن الطوق ، وان كان لم يبلغ سن المراهقة ، واتجه الى العمل الذى يستدعى رفقا منه ورعاية ، وفيه حنو على الضعفاء ، اتجه الى رعى الأغنام ، وهو عمل فيه ثلاث مزايا :

- احدهما : أن فيه سياسة لحيوان ضعيف يقتضى عطا ورفقا فى سياسته .
- والثانية : أنه يعاشر فيه الضعفاء من الغلمان الذين ليس فيهم استعلاء أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يستعلون بشرفهم .
- والثالثة : أن فيه كسبا ماديا من عمل اليد ، وأفضل الكسب ما كان من عمل اليد .

وانه كان يرعى الغنم فى بنى سعد ، مع اخوته من الرضاعة أولاد حليمة ، فكان يلهو معهم بذلك الرعى فى آخر أيام رضاعته ، وأولى سننى حضانته ، فكان لهُوه مفيدا ، وخير اللهو ما كان فيه مصلحة ، وفائدة ، وكان بلا شك ذلك النوع أجره فيه ، إذ أنه لهو ، وأجرته هو متعة اللهو الحلال المفيد .

وثبت أنه رعى الغنم فى مكة ، وقد كان فى سن شب فيها عن الطوق كما أشرنا ، وقد اتجه اليه غير لاه به ، ولكنه عامل فيه ليكتسب حلالا ، ويأكل طيبا .

ولقد ثبت فى الصحاح أنه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط ، يأخذها من أهلها ، والقراريط ، هى حصته من اللبن فيما يظهر ، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها يناله ، ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب ، أو يأكل منها ، ويتصدق فينال خيرين : خير الكفاية ، وخير الصدقة أو المودة .

ويظهر أن رعاية الغنم من تربية الله للنبيين ، إذ تعودهم على الرفق ، والعطف على الضعفاء ، وحسن قيادة النافر ، وتأليفه وتقريبه ، وادئانه من قطيعه .

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره ابن اسحاق بسنده ما من نبي الا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يا رسول الله ! فقال نبي الرحمة : وأنا ، .



وقد روى فى بعض الأخبار ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال :  
« بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعث داوود عليه السلام وهو راعى  
غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم » .

وجاء فى الروض الأنف فى تعليل ذلك : « وانما جعل الله تعالى هذا فى  
الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أمتهم رعاية لهم ، وقد رأى  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ينزع عن قليب ، وحوله غنم سود ،  
وغنم عفر ، قال ثم جاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه فنزع نزعا ضعيفا ،  
والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا يعنى الدلو ، فلم أر عقبريا  
يفرى فريه » فأولها الناس بالخلافة لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولولا ذكر  
الغنم السود والعفر لبعدت الرؤيا عنهما (١) .

وان هذه الرؤيا الصادقة أومأت الى الرعية ، بأنها كالغنم العفر ،  
للاشارة الى أن الرعية يسوسهما حاكمها بالرفق والعطف ، والتوجيه من طلب  
الغذاء لها من غير اعنات ، ينقلها من الخير الى الخير من غير ارهاق ولا  
اكراه ، ولا اذى ، كما ينقل الراعى قطيعه من كلاً ، من ماء الى ماء بالترغيب  
والتحبيب لا بالايذاء والترهيب .

### حماية الله تعالى :

٩٢ — حمى الله تعالى محمدا فى نشأته ، فكفله محبوبه ، فلم ترهق  
أعصابه ، ولم يرهق فى يتمه ، فنبت نباتا حسنا محبوبا أليفا مألوفاً ، وحمى  
نفسه من أن تتردى فى مهاوى الانحراف .

لقد كانت طبيعة العمل الذى اختاره الرسول ، لأنه أسهل الأعمال  
اليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم  
والعبيد . فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذى لا يعدمن معالى الأعمال  
بل يعد من صغارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه  
عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه الى العلاء شرف نسبه وطيبة محتده ،  
وما يراه فى أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وما يكمن فى طبعه الكريم من  
حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار  
للضعفاء ، ويجذبه الى النظام والرضا بالقليل صغر العمل فى ذاته من غير  
نظر الى ثمراته ، وأثره فى تربية النفس على حسن المعاملة ، والرفق بالناس .

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١١ طبع المغرب .

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم أو أولياؤهم فى الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البريء وغير البريء ، ومنهم من ينزع الى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد فى المجتمع اذا شدا وترعرع وبلغ أشده ، واذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع الى الحب الخالص البريء ، فهؤلاء يدفعون الى المجون ، والمجون يهدى الى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدى الى الفساد ، والصحة تجعل السقيم يعدى البريء ، وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب ، كما يقول الشاعر العربى الحكيم \*

فكان أشد ما يخشى على محمد عليه الصلاة والسلام فى صباه هو عدوى المجون ، ان هو محبب الى نفوس الغلمان فى سن المراهقة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام كان مراهقا فى هذا السن ، ولكنه تربية الله فجنبه ذلك ، وأبعده ، ويحكى عن نفسه عليه الصلاة والسلام والمجون يساوره ، فيعصمه الله تعالى ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ما روى البخارى عنه ، انه قال : « ما همت بشئ من أمر الجاهلية الا مرتين » وقد ذكر ابن اسحق أن احدى المرتين كان فى غنم يرعاها هو وغلالم من قريش ، فقال لصاحبه اكفنى أمر الغنم حتى آتى من مكة ، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلكلقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى \*

وفى المرة الأخرى قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم كما ألقى فى المرة الأولى ، وترى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال فى الهوى ، فهو فى الخطوة الأولى سد الطريق ، لا بمجاهدة نفسية ، لأن سنه لم تكن تقوى على المجاهدة النفسية ، بل بأمر خارج عن ارادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت ارادته ، وكانت له عزيمة تمنع ، وقوة ارادة ، وبمقتضى النظام الفكرى ، انه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذى منعه ، ربما كان يسترسل فى اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر الشهوات ، فكانت العصمة المانعة فى أول الخطوة ، وأول الدفعة ، وانما الصبر عند الصدمة الأولى كما قال عليه الصلاة والسلام من بعد ان منحه الله تعالى الرسالة \*

## الى التجارة

٩٣ — اشتهرت قريش بين العرب بالتجارة ، فكان سرايتها تجارا ، ذلك أنها لم تكن بلد زرع ، بل كانت بواد غير ذى زرع ولم يكن فى العرب صناعة تكون موردا اقتصاديا ، لأنها كانت مثابة أمن الناس بوجود البيت

الحرام ، فكان حجاج ذلك البيت يجيئون من كل فج عميق ، وكانت الأسواق تقام فى الحج ، كان فيها الاتجار ، وفيها تعقد ندوات الشعر ، والمسابقات البيانية ، فكان مع تبادل البضائع تروج بضاعة البيان •

وكان كسب أغنياء قريش من التجارة ، وأوساطهم فى المال كانوا يتجرون كل على حسب طاقته ، وعلى حسب ما عنده من المال ، وكبار التجار منهم كالعباس بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة وأبى بكر ، كانوا يتجرون فى الجلب من اليمن والشام •

وكانوا ينقلون بضائع الفرس الى الرومان عن طريق اليمن ، وبضائع الرومان الى الفرس عن طريق الشام • فكانت لهم رحلتان : احدهما فى الصيف يذهبون فيها الى الشام يجلبون اليها بضائع الفرس ، ويحملون فيها بضائع الرومان ، والأخرى فى الشتاء يحملون منها بضائع الفرس ويحملون اليها بضائع الرومان ، فكانت التجارة الخارجية سبيل ثروة كبارهم ، والتجارة الداخلية مرتزق أوساطهم ، وأما فقراؤهم فكان مرتزقهم من النعم الأبل والبقر والغنم •

ولذلك كان من مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى التجارة ، عمل الأغنياء ومرتزق الأوساط ، وما من المعقول أن يستمر راعى أغنام ، فانها تناسبه وهو صغير السن ، أما اذا كبر ، فانه لابد أن يتجه الى التجارة الداخلية والخارجية ، وأن يعرف الأسواق التى يكون منها الاستيراد ، ويكون عن طريقها التصدير ، ولابد حينئذ من أن يسافر ، وقد ألهمه الله تعالى أن يطلب السفر مع قافلة قريش التى تحمل البضائع الى الشام ، وتجلب منها •

## سفره مع عمه

٩٤ — عندما بلغ سن المراهقة وشب عن الطوق كان لابد أن يتجه الى مرتزق قومه وهو التجارة كما نوهنا من قبل ، وجد القافلة وفيها كافله ، وولى نفسه ، عمه أبو طالب ، فابتغى أن يكون مع هذه القافلة ، يسير بسيرها ، ويجرب الحياة عن طريقها ، ويدرس شئون التجارة التى يمارسها كبار التجار بمكة ، ويتعرف الأحوال ، ويكون على خبرة بالحياة وما يجرى فيها •

ويظهر أن عمه كان يستصغر سنه ، ويرى أن تلك الرحلة الشاقة فوق

طاقته ، فوق أنه لا منفعة له فيها ، ان ليس فى القافلة مال له ، حتى يتعرف  
حاله .

ولكن شدة رغبة النبى عليه الصلاة والسلام جعلته يستجيب لطلبه ،  
ولقد عبرت كتب السيرة عن رغبة محمد عليه الصلاة والسلام بقولها « صب  
به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - أى تعلق بالسفر - وأحب الصحبة  
فرق له أبو طالب وقال لأخريين به معه ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبداً .

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لماذا كان التعلق الشديد بذلك السفر ؟ قد بينا  
ما فيه الجواب عن ذلك ، وهو تعرفه التجارة وشئونها معرفة عيان لا معرفة  
اخبار ، وأن يمهد لنفسه ممارستها ، والاتجاه إليها بدل الاقتصار على رعى  
الغنم .

أما امتناع أبى طالب ابتداء كما يوهم القول ، فسببه الخشية عليه من  
وعثاء الطريق ، ولخشية الضيعة ، ولذا عندما نزل على ارادته قال « لا يفارقنى  
ولا أفارقه » .

خرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع عمه للتجارة بالشام ، فحلت  
القافلة بأرض مدينة بصرى ، وبصرى كانت موطناً لصوامع الرهبان ،  
يقيمون بها ، منصرفين الى عبادتهم ، وتعرف الانجيل والتوراة ، وما يحتويان ،  
فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب واشاراته ، وتبشيراته .

### ارهاص وبشارة بالنبوة :

٩٥ — قامت هذه الرحلة مشتملة على ارهاص كبير معلم بنبوة النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم وفيها اعلان عن البشارة بهذه النبوة والاعلام  
باماراتها .

لقد كان ببصرى راهب فى صومعة ، اسمه بحيرى ، وكان على علم  
بالكتاب ، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوى علم بالتوراة والانجيل ، يتوارثون  
ذلك العلم كابرا عن كابر .

وكان من طبيعة بحيرى كما هو طبيعة كل الرهبان الا يخرجوا للقاء  
القوافل ، ولا تعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها ، لأن الرهبنة تتقاضاهم  
العزلة وهم لا يخرجون عن سنتها ، ولا ينحرفون بانفسهم عن أحكامها ،

ويظهر أن قوافل العرب تعودت هذا وتعودوها من هذا الراهب خاصة  
ألا يلقاهم ، ولا يلقوه •

ولكنه فى هذه المرة خرج من صومعته ، اذ رأى من البينات ما يتفق  
ما عنده من التبشير برسول يأتى من بعد عيسى اسمه أحمد • فخرج من  
الصومعة ليلتقى بتلك القبيلة ، ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات ، ويتحقق  
فيه التبشير • ذلك أنهم نزلوا قريبا من صومعته ، ذلك أنه رأى غمامة تظلمهم  
تسير حيث يسرون وتقف حيث يقفون ، وأنهم اذا آووا الى فىء شجرة ،  
رأى أغصانها تنهصر ، وتميل حتى تظل واحدا منهم هو رسول الله صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، وجد هذه العلامات ، ويظهر أنه لم يتبين ذلك الصبى ، أو  
تبينه ، وأراد أن يعرف أحواله ، وبقيّة الأمارات الدالة على أنه المذكور  
فى الانجيل •

ولذلك أراد أن يزيد تعرفه بالقوم ، فاتجه الى اكرامهم ، فأقام لهم وليمة  
عامة تشمل صغيرهم وكبيرهم ، لا يتخلف منهم أحد ، وأرسل اليهم يدعوهم ،  
وقال فى رسالته لهم : « انى صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحب أن  
تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ، وعبيدكم وحرملك » •

لم يكن العجب من الدعوة الى الطعام ، انما كان العجب من أنه ترك  
صومعته ، وخرج اليهم ، ولذا قال رجل من قريش « والله ان لك يا بحيرى  
لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما  
شأنك اليوم » •

قال بحيرى صدقت قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وأحببت أن  
أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم • فاجتمع القوم اليه ، ولم يتخلف  
الا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحدائثة سنه ،  
وبقى تحت الشجرة يرعى ابلهم ويحرسها ، فلما رآهم لم ير الصفة التى عرف  
بها الرسول المنتظر فى كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلف أحد منهم عن  
طعامه ، فقالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتى ، الا غلام وهو أحدثنا  
سنا ، فتخلف فى رحالنا ، قال لا تفعلوا ادعوه ، فليحضر هذا الطعام •

فقال رجل من قريش مع القافلة : والملا والمعزى ان كان للؤم منا أن  
يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيتنا ، حضر محمد صلى  
الله تعالى عليه وسلم الوليمة ، واختصه الرجل بفضل من العناية فاحتضنه ،  
وأجلسه •

أخذ بحيرى يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى الأشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته •

حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك ، وانما قال بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو غلام لم يبعث : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما • عدل بحيرى عن استقسامه بهما ، وقال والله الا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال عليه الصلاة والسلام سلنى عما بدا لك •

جعل بحيرى يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره • ويقول ابن اسحق فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته •

ثم نظر الى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، فى موضعه من صفته التى عنده •

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال ما هذا الغلام منك ، قال : أبنى !! قال بحيرى ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال أبو طالب فانه ابن أخى • قال فما فعل أبوه • قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بأبن أخيك الى بلده ، واحذر من اليهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه ثرا ، فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده •

فخرج به عمه أبو طالب سريعا ، حتى أقدمه مكة ، وأنجز تجارته (١) •

٩٦ — ان هذه رواية من الروايات التى رويت فى هذه الرحلة ، والتقاء بحيرى الراهب • وليس فيما ذكره بحيرى • ولا فى أصل القصة غرابة • لأن التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت عند أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى ذلك فى مقدمة كتابنا ، وليس فى القصة أمر يستحيل تصديقه ، أو يتعذر تصديقه ، بل انه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، السيرة لابن هشام ، الاكتفاء •

واظلال الغمامة له عليه الصلاة والسلام ، ليس فيه غرابة أو ما يظن أنه غريب فى زعم الذين يجحدون ، ومن طبيعتهم جحد ما ليس ماديا ولا محسوسا ، ولكن يرد عليهم جحدهم بأن شواهد الصدق فى الخبر قائمة ، فخاتم النبوة كان أمرا ظاهرا فى جسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآه الراعون ووصفه الواصفون فإذا كانوا لا يؤمنون إلا بالمادى ، فهذا أمر مادى ظاهر ، وقد وجد فيه ، ولم يوجد فى أحد من غيره ، فكيف يمترون ؟ وهناك شاهد آخر بالصدق ، وهو وجود هذه الأوصاف المعروفة فى التوراة والانجيل حتى بعد أن أصابها التحريف ، وإذا كانوا قد نسوا حظا مما ذكروا به ، وأفسدوا الباقي ، فالبشارات تلوح معلنة وجودها ، رغم أنف الجاحدين المستكبرين ، فلا مجال لارتياح مرتاب .

بقى فى كلام بحيرى أنه يخوف أبا طالب الكافل الكريم من اليهود ، وفى بعض الروايات أنه يخوفه من الرومان لأنه يعرضه للأذى ، والتخويف منهما معا جائز ، وذلك لأن الرومان كانت الملكانية فى الطوائف المسيحية حريصة على معاداة العرب ، وكل مذهب دينى غير الملكانية ، ولذلك كانت العدواة شديدة اللد بينهم وبين اليعقوبيين بمصر ، وكان بينهما ما بين النصرارى واليهود ، بل كانوا أشد ائذا ، وحينما قربت العقيدة بين طائفتين كانت العدواة أحد ، إذ كل حريص على أن يدمج الآخر فيه .

وأما اليهود فمع أنهم كانوا فى البلاد العربية يستفتحون فى يثرب على الذين كفروا بالنبى الذى أن أوأنه ، كانوا يكرهون أن يكون من بنى اسماعيل ، لأن حسدهم يجعلهم يستكثرون أن يكون نبى من غير ذرية اسحق عليه الصلاة والسلام .

وخاتم النبوة الذى كان فى ظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو لحم ناتئ بين كتفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نسق ليس فيه تشويه للمنظر ، قيل أنه كتفاحة ، وقيل أنه كرقبة العنزة ، وأن كثرة التشبيهات معن رأوه فى جسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليست اختلافا فى أصله ، ولكنه اختلاف فى عبارة الذين رأوا ، والتشبيه من حيث حجمه ، ونظر الذى وصفه ، والرواية التى ذكرناها ، هى أقصر الروايات عبارات .

وقد روى الترمذى رواية أخرى أطول ، وقد جاء فيها أن بحيرى قال عندما أخذ بيد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين » فقال أشياخ قريش من أين علمك ، قال انكم حين أشرفتم لم يبق شجر ،

ولا حجر الاخر ساجدا ، ولا تسجد الا للنبى ، وانى اعرفه بخاتم النبوة أسفل  
من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاما « (١) »

٩٧ — عاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة التى يبدو  
من ثناياها أن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) أراد فيها أن يعرف الشام  
وأحواله . والتجارة ، والصفق فى الأسواق ، وبدأت فيه تلك البشائر النبوية ،  
وعلم الأشياء من قریش مكانة ذلك الصبى ، وهو المحبوب بينهم كأبيه ، حتى  
انه لما نبههم بحيرى الى انه لم يكن بينهم ويجب أن يكون بينهم ، تنبهوا ، وقال  
قائلهم ، انه للؤم ان لم يكن بيننا ، وناداه واحتضنه ، شعورا بالمحبة الشديدة  
المخلصة ، واشعارا بالندم على ما كان ، رأوا هذه الحال .

واخذ عمه ابو طالب بنصيحة الراهب ، وقفل به راجعا مسرعا ، خشية  
عليه ، مما خشى الراهب ، من أن يغتاله اليهود ، أو الرومان ، فعاد به الى  
قومه .

وانه فى هذه الرحلة التجارية التى رعب فيها محمد ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) واستجاب له ابو طالب شفقة ورقة وملاطفة ، وهو يحسب انها  
من رغبات الصبيان ، وأجابه محبة وتدليلا — يحسب انه لا جد فيها ،  
ولا غاية ، ولكن الصبى يظهر انه كان يريد منها الجد ، فيريد منها الاستعداد  
لعمل يعتمد فيه على نفسه ، ولا يكون كلا على عمه المحدود فى الرزق ، فهو  
يريد الكسب من عمل يده .

واذا كان اليتيم لم يقهر محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) فى نفسه ،  
ان أعزه الله تعالى ، وأكرمه ، ولم يمكن أحدا من قهره فكان اليتيم العزيز  
المحبوب ، فان محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) استفاد من اليتيم الجد فى  
طلب الرزق غير معتمد على أحد غير ربه ، انال من اليتيم محاسنه ، ولم ينل  
اليتيم منه بمساوئه .

ذلك أن الثابت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابتداء الاعتماد على  
نفسه من بعد وقد رأينا أنه ابتداء يرفع الغد صبيا ، فلما تجاوز الصبا الى  
المراهقة اتجه الى صناعة اشراف مكة ، وهو التجارة ، ولم يذكر التاريخ فى أى  
من ابتداء التجارة ، ولكن الامارات تصور لذا انه ابتداء فى سن مبكرة .



أولاً - لأنه رغب رغبة شديدة فى أن يسافر الى قافلة التجارة ، ولا نفرض أنه طلب ذلك لمجرد متعة السفر ، فانه كان صبيها جادا ، ولم يكن ممن يميلون الى المتع .

وثانيا : لأنه كان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ، اذ كان كافله الذى كفله ، وهو أبو طالب فقيرا .

### محمد التاجر :

٩٨ — اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعى ، وقد ثبت فى المصادر التاريخية انه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب ، واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم اليها ، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمع فى معاملته ، فكان لا يمارى الذى لا يجادل فى الشراء ، ولا يخفى الخبيث من البضائع ، ويظهر الطيب ممارسة فى تجارته .

وقد التقى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند فتح مكة ، فرحب به ، ووفى له بحق الرفقة القديمة فى الاتجار ، وتلقاه مستبشرا مرحبا ، وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه فى حاضره : « مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يشارى ولا يمارى » .

ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه . لأن كتاب السيرة لا يعنون فى حياة النبى ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الانسانية بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة ، وارهاسات النبوة ، وخوارق العادة الصادرة التى أحاطت بحياته فى حاله وترحاله ، ووجهتهم فى ذلك أنهم يجعلون موضع الاهتمام فى دراستهم هو ما امتاز به من يدرسون حياته ، ومثلهم فى ذلك أن من يكتب فى حياة رجل من النبغاء يعنى بجهة نبوغه ، وموضع النبوغ ، ولا يعنى بالنواحي الأخرى الا لتصوير شخصه .

وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد رسول الله تعالى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للانسانية كانت عناية كتاب سيرته الشريفة ، بما يتصل بالرسالة مما سبقها ولحقها ، وقليل منهم ما يكون اتجاهه الى نواحيه المتصلة به كإنسان الا أن يكون لذلك اتصال بموضوع الرسالة .

وقد كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى حياته الأولى راعيا

للغنم ، أو تاجرا مثالا للأمانة والصدق ، وكان مرموقا من مكة ، وأخص ما امتاز به فى حياته كلها الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ولطف العشرة ، وأنه موطلا الكنف يالف ويؤلف ، يفتح قلبه لكل عمل كريم ، ولا يضمن على أحد بالمعونة ان لزمت .

كذلك كان فى كل أعماله فى الحياة ، وكذلك كان فى تجارته ، حتى سمي الأمين ، وصار هذا اللقب علما له مع اسمه ، فإذا أطلقت كلمة الأمين ، لا تنصرف الا اليه ، اذ هى لا تطلق الا عليه ، وان كل من يعمل بأمانة ، ويقول بصدق دونه فى الأمانة والصدق ، وكان لذلك فى مكان يعلو به على كل من فى مكة المكرمة من غير استعلاء ولا استكبار .

ولكن ما الذى كان يتجر فيه ؟ لا زال هذا السؤال يلح علينا ما دمنا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا ، ولكن يصح أن نسد الفراغ فى هذا الجزء من تاريخه ، عليه الصلاة والسلام ، فانه يتجر فى البضائع التى تتبادل داخل مكة المكرمة ، ولا تذهب الى خارجها ، لأنه لم يعرف أنه خرج من مكة المكرمة مع قافلة التجارة الى اليمن أو الشام ، فكانت تجارته عليه الصلاة والسلام ، مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق فى داخل المدينة ، وما يفد اليها ، وقد كانت فيها أسواق تمتلئ بالتجار فى موسم الحج ، وكون الحجيج يفدون من أقصى أرض العرب الى أدناها لابد أن يجعل فيها بضائع ترد اليها مع الحجيج ، ويأخذ الحجيج من بضائع فى مكة المكرمة يعودون بها الى ديارهم .

وإذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التى ينقلون فيها بضائع الروم الى الفرس وبضائع الفرس الى الروم ، فمكة المكرمة كان فيها الاتجار فى داخل البلاد العربية فى موسم الحج ، ومنها بضائع الروم والفرس فى البلاد العربية ، فكانت فيها الأسواق رائجة .

### مشاركته فى الأمور الجامعة

٩٩ — لم ينقطع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قومه فى أعمالهم الجماعية ، اذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به ، فإذا كانوا على أمر جامع ذهب اليه ، وشارك فيه ما وسعه المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل ، أو لا يبشر بحق ، بل كان دائما مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل ، ينغض رأسه به ، هن غير صخب ، ولا شحناء ، فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا الباغضة من خلقه ، بل هو فى كل أحواله الودود الحليم ، والنفس الطيبة . كان يحضر دار الندوة اذا انعقدت ، ويستمع الى كبار العرب ، فما يرضيه

من قول الحق يستشرف اليه ، ويستبشر به ، وما لا يكون حقا ، يبدو نفوره منه ، ولا يرتضيه •

جاء فى كتاب زهر الآداب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صباه حضر ندوة قريش ، وقد حضر من اليمين كبارهم فنظر اليه قيل من أقباهم ، ورأى فيه نظرات قوية أحيانا ، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى ، فقال :

مالى أرى هذا الغلام تارة ينظر اليكم بعينى لبؤة ، وأخرى بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرتة الأولى كانت سهاما لانتظمت أفضتكم ، فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم •

لم يكن منقطعا عن الحياة الجماعية ، إذ أنه رسول الرحمة والمحبة ، وتأليف الجماعات ، فلا بد أن يكون بينهم فى الكريهة ، والرءاء ، لا يفترق عنهم إلا اذا كان الاثم ، فانه يجانبه من غير مباغضة لأهله ، بل يهديهم الى الحق واجتناب الآثام ، فمحب صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليس من طبعه الاعتزال ، بل من طبعه الاتصال بالناس ، ليعرف مواطن الصحة ومواطن المرض ، فاعتزال الحياة والأحياء ليس من الطبع القوى ، بل هو من الضعف العصبى ، إلا أن يكون لعبادة ، فانه ان اعتزل الناس استأنس الله ، فيقدم من بعد ذلك على الناس ، وقد ادخر •

## حرب الفجار

♦ ♦ — الفجار مصدر فاجر ، فمصدر فاعل فعلا أو مفاعلة ، كقتال أو مقاتلة ، ونقاش ومناقشة ، والفجار معناه تبادل الفجور ، أى وقع كل من المتحاربين ، وكان الفجور الذى تبادلته الفريقان ، هو أنهما أقدما على القتال فى الشهر الحرام ، وابتداء القتال فيه كان حراما فى الجاهلية ، ولعله بقية من بقايا ابراهيم عليه السلام ، ولذلك جاء الاسلام بتحريم ابتداء القتال فيه أو السير بالقتال فيه الا لضرورة ، ولقد قال الله تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » •

والأشهر الحرم كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان » وكان

المقاتل فيها حراما ليكون الأمن والاطمئنان في الحج الى البيت ، والعودة منه ، وكان رجب حرم فيه القتال ، لأنه شهر عمرة .

وقصة هذه الحرب ، التي انتهت فيها شهر الحرام كما جاءت في كتب السيرة ، أن رجلا من بني هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيرا للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحرير ، ومعنى اجارتها منع أى أحد من أن يعتدى عليها ، ويقال انها فى جواره ، وتسمى هذه العير اللطيمة .

فلما كانت هذه الاجارة كبر على بعض رجال كنانة أن يمندها من كنانة ، وهو البراض بن قيس ، فقال غاضبا اتجيرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله .

فسار الرجلان ، وقد غافل البراض الكنانى عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت الى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازن ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبي عليه الصلاة والسلام رابعها . وكان اليوم الذى حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو أشدها .

وقد توادع الفريقان على أن يستأنف القتال بينهما من العام القادم فى عكاظ .

فلما توافوا فى الميعاد ركب عتية بن ربيعة جملة ، ونادى :

« يا معشر مضر علام تقاتلون ، فقالت هوازن ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا كيف ؟ قال فدى قتلاكم ( أى ندفع الدية عليها ) ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا ، قالوا ومن لنا بذلك ، قالوا ومن أنت ؟ قال أنا عتبة ابن ربيعة ، فدفع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجلا . فيهم حكيم ابن حزام ، فلما رأوا الرهائن من الرجال بين أيديهم عفوا عن دياتهم ، وانقضت حرب الفجار بصلح كريم » .

١٠١ — وهنا نسأل ماذا كانت سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله فيها ؟ وما الذى حمله على الذهاب اليها : أما من ناحية سنه ، فنقول : ان ابن هشام يقول فى سيرته : « ان سنه كانت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، ويقول ابن اسحاق : انه كان فى العشرين من عمره المكريم .

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحاً على الأخرى ، الا أن يكون سند ابن اسحق أقوى ، فلقد قال الشافعى رضى الله عنه « الناس فى السيرة عيال على ابن اسحق » ولعله يكون مما يقوى خبر ابن هشام من السيرة أن أعمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذوه فى هذا اليوم ، فهذا يدل على أنه لا يزال حدثاً ، ومن بلغ العشرين يكون رجلاً .

ومهما يكن فانا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجيء فى حلف الفضول .

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتال ، لأنها ليست حرباً عادلة ، وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل فى حرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين ، فكلاهما آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذى رباه الله تعالى على عينه فى حرب خالطها الآثم ، فى سببها وفى زمانها ، وفى وقائعها ؟

لم يكن للنبى فى هذه الحرب الا أنه شهدا بعد أن حمى وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ، ولعله كان يود مشاهدتها ، لأن له قلباً طاهراً ، لا يسكن والناس فى كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقم بعمل فيه حرب ، ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى عمله الدافع للأذى ، وليس فيه أحداث : « كنت أنبل على أعمامى » أى أمتع النبيل عن أعمامى ، فهو كان درعاً واقية لأعمامه ، فلم يغمس يده فى حرب الا أن يكون واقياً لذوى رحمه كالنبيه الذين رعوه حق الرعاية .

ومهما يكن الأمر فى شهوده تلك الحرب الآثمة ، حتى فى نظرس الذين اشعلوها ، فقد كان من النظارة ، ولم يشترك الا أن يكون وقاية لذوى رحمه .

## حلف الفضول

٢٠١ — عاش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم ، اذ كان يتجه الى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينفوس ، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التى فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذى هداه الله تعالى اليه ، وأدبه بأدبه .

ومن ذلك حلف الفضول الذى قال فيه ابن كثير انه كان اكرم حلف وأشرفه  
فى العرب •

وقد كان ذلك الحلف ، والنهى عليه الصلاة والسلام قد بلغ العشرين ، وقد  
أجمع الرواة على ذلك ، وقالوا انه كان بعد حرب الفجار كان حلف الفضول فى  
شهر ذى العقدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أى أن الفجار كان فى شهر  
رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان ، والحج قائم ،  
وشهر رجب ليس من أشهر الحج ، وإن كان من الأشهر الحرم •

وقالوا ان سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه  
العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه بنى عبد الدار ، ومخزوما  
وجمحا ، وغيرهم ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان  
بهم علا جبل أبى قعيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة  
المشرفة فنادى بأعلى صوته منشدًا •

يا آل فهر لظلم بضاعته      بيطن مكة نائى الدار والنفر  
ومحرم أشعث لم يقض عمرته      يا للرجال ، وبين الحجر والحجر  
ان الحرام لمن تمت كرامته      ولا حرام لثوب التاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع بيطن  
أرض الله ، ويجوار البيت المقدس الذى لا تخطف فيه الأموال وتضيع  
الحقوق ، وأن الظلم بين الحجر ، وبين الحجر الأسود الذى يقدر سونه ، ويشير  
الى أنه محرم للعمرة •••••

كان أول من استجاب لنداء الله ، وتقدم لاعتاقه بنو عبد المطلب ، فقام  
فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال ما لهذا مترك ، أى لا يصح أن يترك •

اجتمعت لهذا بطون بنى هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله  
ابن جدعان ، وكان جوادا ، فصنع لهم طعاما ، وكان ذلك فى ذى القعدة  
الشهر الحرام •

تعاقدوا وتحالفوا ليكونوا على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل

بحرصوفة ، ومارساتيبر وحراء مكانهما ، وعلى الناس فى المعاش ، فسمت  
قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) .

وقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ، فقد مشى المتعاهدون الى العاص  
ابن وائل فانتزعوا من سلعة الزبيدي فدفعوها اليه ، وقد قال الزبير ابن  
عبد المطلب معتزا به :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا      الا يقيم ببطن مكة ظالم  
امر عليه تعاقدوا وتوافقوا      فالجار والمعتز فيهم سالم

ولقد سر النبي عليه الصلاة والسلام لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنه  
ينفذه فى الاسلام : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ولو دعى به فى  
الاسلام لأجبت ، تحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها » .

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولقد شهدت فى دار عبد الله ابن  
جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به فى الاسلام لأجبت » .

ولقد نفذ الحلف قبل بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيروى أن  
رجلا من خثعم قدم حاجا أو معتبرا ومعه ابنته من أوضا الناس جمالا ،  
فأخذها عنوة منه نبيه بن الحجاج وغيبها ، فقال الخثعمى : من يعدبنى على  
هذا الرجل ، ف قيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة المشرفة ، ونادى  
يا آل حلف الفضول ، فاذا هم يفيضون اليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسياقهم  
يقولون جاءك الغوث ، مالك ، فقال ان نبيها ظلمنى فى بنتى ، وانتزعها منى  
قسرا ، فساروا معه ، حتى وقفوا على باب داره ، فخرج اليهم ، وما زالوا به  
حتى عادت الفتاة الى أبيها .

وان ذلك الحلف كان لازما ، لأن مكة كانت بلد العرب ، وثمرات العرب

---

(١) قيل انما سمي حلف الفضول ، لأنه أشبه حلفا تحالفته جرهم على  
مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه ، وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرفهم اسم  
كل واحد منهم فضل ، وهم الفضل بن فضالة ، والفضل من الحارث ، والفضل  
ابن وداعة ، ذكره ابن قتيبة ، وقيل سمي حلف الفضول ، لأن أصحابه دخلوا فى  
فضل من الأمر التزموا به ، وقيل ان الفضول معناها الحقوق ، وتحالفوا على  
ردها .

تجىء إليها ، فلا بد أن يستقر فيها الأمن ، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق ، ولا يكون فيها اعتداء حتى يجىء الناس إليها •

ولأنها يحج إليها الناس من كل فج عميق ، فلا بد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا مقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت ، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس ، فلا يكون الأمن للأرواح فقط ، بل يكون للأرواح ، وللأموال ، ولكل ما يحتاج اليه اطمئنان النفس •

## الزواج

١٠٣ — بلغ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، سن الزواج ، ولكنه لم يتزوج فى سن مبكرة ، كغيره من الشباب ، بل استمر لا يتجه الى الزواج أو لا يفكر فيه ، حتى بلغ الخامسة والعشرين ، كما سنبيين •

ولماذا لم يعرف أنه فكر فى الزواج من قبل هذه السن ، لقد كان عفا كريما ، لم يقع منه فى طفولته ما يشين الكرام وقد عصمه الله تعالى يوم هم ، وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما ، ولكن ربما يرى فيه حراما ، فصانه الله تعالى بأن ضربه بالنوم ، فنام الليلة كلها ، حتى أيقظته الشمس فى ضحاها •

وهو ليس حصورا ، كما بليت على ذلك حياته من بعد ، وما كان خاملا فى قومه ، بل هو الذى اذا خطب لا ترد خطبته ، وكان فيه خلق قويمة يجعل القلوب تهفو اليه ، وفيه جمال يجعل الأنظار تتعلق به ، وتشرئب الأعناق اليه ، وقريش كلها يحبه • ويرضاه صهرا •

اكان فقيرا لا يجد ما يبوء به على أهله ؟ نعم انه لم يكن غنيا ، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملا ، فرعى الغنم ، ثم اتجر ، واذا كان الاتجار لم تأتة موفور يرفعه الى الثراء ، فقد كان فيه الاكتفاء ، فلماذا اذن تأخر فى الزواج •

ان الذى تلمسه من تاريخ حياته فى ابتدائها ، حتى صار شابا ممتلىء الشباب أنه ما كان يعير شهوات البدن اهتماما فليس للنساء موضع فى تفكيره ، انما يشغل النساء والطعام القلب الفارغ ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أى دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ، وشهوات النفس ، لا عن ضعف فى النفس ، ولكن عن قوة فيها ، وهمة عالية



تتجه الى معالى الأمور ، وعزيمة صادقة ، وإرادة قوية ، لا تجعل للهوى سلطانا عليها ، بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا هى التى تجذبها ، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولا تستولى على نفسه غاية يتغياها تتعلق بالبدن ، ولا مطلب من مطالب الجسد ، وان لم يتجه الى الحرمان فى ذاته .

وكأنه لا يعيش الا فى حياة روحية من غير حرمان ، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد ، وان شئت تقول انه الملك المريد المكلف الذى لا يعصى الله ، لأنه يريد الا يعصى ، فهو لا يعصى لامتناع العصية عليه بل لأنه يكف النفس عنها ، فله فى الكف فضل ، وليس كالمالك يمتنع عليه العصيان .

### خديجة :

١٠٤ — لم يعرف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتكلم فى صغره ، ولا فى باكورة شبابه فى أمر الزواج الا بعد أن نبه اليه ، وصار مطلوبا ، ولم يكن طالبا ، ولنذكر الأخبار كما جاءت فى كتب السيرة فيما يتعلق بزواجه من سيدة قريش ، كيف ابتدأت بالمشاركة فى التجارة ، ثم بالمشاركة فى الحياة .

اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بالأمانة والخلق الكريم ، وتحديث بأمانته الجماعات المكية فى سمرها وفى مجالسها ، وكان قد مارس التجارة فى دائرة محدودة فى داخل مكة على قدر طاقته ، وما يملك ، وانه لقليل .

وكان لخديجة مال كثير ، حتى ان غيرها الذى يحمل بضائعها ، كان يعادل غير قريش كلها فى حجمه ، ونفاسة ما اشتمل عليه من بضائع التجار .

وكانت حكيمة شريفة فى قومها ، تحتفظ بجمال ، وشباب ، وكانت أرملة زوجا لرجلين قد ماتا ، وما كانت تتولى تجارتها بنفسها ، لأن ذلك لم يكن شأنا من شئون النساء ، بل السفر والترحال للتجار كان من شئون الرجال ، لصعوبة السفر فى هذا الايمان ، وكما وصف السفر عبد الله بن عباس لولا الأثر لقلت ان العذاب قطعة من السفر وليس هو قطعة من العذاب .

كانت خديجة مع قوة شخصيتها لهذه الاعتبارات لا تذهب بتجارتها الى الشام ، وكانت تسلك احدى طريقتين — احدهما — أن تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها فى التجارة على أجر معلوم تعطيهما اياه ، على مقدار ما يبذلون

من جهد فى الرحلة ، يبيعون ويشترون باسمها ، ولا شأن لهم فى كسب التجارة ،  
وانما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن  
أو بالعمل أو بهما معا .

الثانية : طريقة المضاربة الشرعية ، وذلك بأن يتجروا فى المال بعقد بينها  
وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم ، مقسوما بحصص شائعة كالربيع  
أو الثمن أو السدس ، أو نحو ذلك ، وملكيتهما قائمة ، وإذا خسرت التجارة  
تكون الخسارة عليها وحدها ، لأن المال باق على ملكيتها ، ويسمى هذا العقد  
المضاربة أو القراض .

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان الى أمانة كاملة ، فكانت تتحرى  
فى أولئك العاملين لها الأمانة ، لأنهم فى عملهم ينوبون عنها ، لا تلقاهم الا فى  
ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قبلها من يكون معهم كميبرة  
مولاهما .

ولما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يعمل فى تجارة محدودة ،  
وقد بلغها أمانته ، وشرفه ، وعفته واستقامة نفسه ، اتجهت اليه ، وكان هو فى  
مطارج أنظارها ، والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ، لم ترض غيره  
بديلا ، لأنه لم يكن له نظير بين العرب ، فى أمانته وعفته وشرف نفسه ، وخلقه  
الكريم ، وبعده عن التدلى الى مهوى الرذيلة .

١٠٥ — بينما هى تفكر فى اختياره وكيفا عنها فى رحلة القافلة التى  
تحمل غيرها مع غيرها كان أبو طالب عم النبى عليه الصلاة والسلام يفكر فى  
أن يعرض محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، عليها العمل فى تجارتها وكيفا ،  
ليبعد عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، جهد السنين الشديدة التى كانت  
فى الأسرة .

ويظهر أنها كانت تبحث عن تراه كفتا لحمل العباء ، ويتهافت عليها  
الطالبون ، فأشار أبو طالب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، القوى  
الأمين ، بأن يعرض نفسه مسارعا الى ذلك خشية أن يسبقه غيره ، ولكن محمدا  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرى فى العرض ذلة لا يرضاها الكريم ، ومثار  
اتهام لا يرضاه الأمين ، فهو يريد عزة المطلوب ، لا ذلة الطالب ، ولتنقل للقارىء  
الكريم المجابة التى كانت بين العم وابن الأخ :

قال أبو طالب : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان  
علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير

قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك ، يتجرون فى مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك ، وان كنت أكره أن تأتى الى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد بدا من ذلك •

فيقول محمد الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعلها ترسل الى فى ذلك •

فقال أبو طالب أخاف أن تولى غيرك (١) •

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته ، وتكونان محل قبول أو رفض ، لأن الأمين حقا وصدقا – لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرا يتجر به ، ولكن الشرف فى ذاته مطلوب ، والأمانة سجية ، لا يتخذها سبيلا للكسب ، وليس هو غايتها ، لا تطلب الا له ، ولكن تكون ثمرة طيبة ، كما تثمر الأرض الطيبة ، والشجرة اللبانة •

قليل انها بلغتها هذه المحاوره بين العم وابن الأخ فطلبته ، وانها كانت تعرف صدقه وأمانته وكرم أخلاقه • وانها ما كانت تعلم أنه يريد هذا •

وعندى أنها كانت تفكر فيه ، وان رغبته تلاقت مع رغبة عمه سواء أعلمت بالمحاوره أم لم تعلم ، واذا أراد الله تعالى أمرا تهيأت أسبابه ، وكان التوفيق بنجاحه •

أرسلت خديجة الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، تطلبه وقالت له :

« دعانى الى البعثة اليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك » •

اننا نلمح من ثنايا السطور أنها كانت راغبة فى أن تعهد اليه بتجارته من ذات نفسها أو أنها لرغبتها أعطته ضعف ما كانت تعطى غيره ، ولماذا ضاعفت الاجر ؟ الجواب عن ذلك أنها وقع فى نفسها أن التجارة ستكون رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجيعه على الحرص ، وربما تكون رغبة خفية ، جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ، وأخفت ما لا تبديه مما جرى من خير بعد ذلك •

---

(١) المناقشة فى شرح المواهب اللدنية •

ولقد سارع محمد عليه الصلاة والسلام ، الى عمه الحبيب يخبره بما جرى ، لأنه طلبته ، فسر عمه ، وقال له « ان هذا رزق ساقه الله تعالى اليك » .

### ارهاصات الرحلة :

١٠٦ — فصلت العير ، وفيها خير خلق الله تعالى ، تكلؤها عنايته سبحانه وتعالى ، ولم تكن سفرا قاصدا بل كان فيها مشقة ، وان لم يكن فيها عنت فوق الطاقة ، وكانت عير خديجة وحدها ، تبلغ غير قريش كما أشرنا ، حتى بلغت سوق بصرى التى بلغتها القافلة الأولى التى كان فيها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) مع عمه أبى طالب ، وهو فى الثانية عشرة من عمره .

وروى أنه وصل الى سوق « حباشة » وهى أرض بتهامة ، ولكن الرواية الأولى هى المشهورة وهى أقرب الى التصديق ، أو هى الصادقة ، لأن تهامة من أرض العرب ، والرحلة كانت الى الشام ، اذ كانت العير حاملة البضائع الى الشام ، لا الى العرب .

وكان معه ميسرة مولى خديجة ، لا ليرقبه ، فما كان يتصور منها ذلك بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليخدمه وليعينه فى حله وترحاله .

وكان خروج العير أو وصولها لأربع عشرة بقية من ذى الحجة (١) ، وله عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة .

وكان هذه العير خرجت بعد قيام الأسواق التى تقام فى مكة أيام الحج ، عكاظ ، وذى المجاز ، ومجنة ، وهذا يومئذ الى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق التى تجيء من اليمن ، وسائر نواحي العرب ، قاصيها ودانيها ، ونهبت الى الشام محملة بها ، وكانت البضائع تباع فى مكة ، لتنتقل من بعد الى الشام ، أو الى اليمن .

ولما وصلت العير الى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد فأوى الى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورا ، وهو غير راهب الرحلة التى كانت مع عمه ، اذ الأول اسمه بحيرى ، وهذا اسمه نسطورا وقد مضى على الأولى نحو ثلاث عشرة سنة ربما يكون الأول قد مات ، أو غير صومعته .

---

(١) المواهب اللدنية للعسقلانى وشرحها ج ١ ص ١٩٨ .

التقى الراهب بميسرة غلام خديجة ، والذي كان فى معونة محمد عليه الصلاة والسلام وخدمته ، وقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، قال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ، وكأن هذه الشجرة منذ القدم هى منزل الأنبياء ينزلون فى ظلها وغيرهم ينصرفون ، ولا يلوون عليها ، وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بين محمد عليه الصلاة والسلام ، وعيسى عليه السلام ، والشجرة فى نظر هؤلاء المستبعدين لا تعمر فى العادة هذا العمر الطويل ، وليس من المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السيارة فى الطريق الطويل وفيه الظل والحرور ، اللهم الا أن يقال ان هذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الايواء اليها غيرهم ، ويجىء اليها النبيون كأنهم مأمورون بالايواء » .

ولهذا الاستبعاد فسر الكثيرون كلام الراهب بأنه ما نزل الآن فى هذه الساعة تحت هذه الشجرة الا نبي فهو يخص محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذى نزل الآن ، لأمارات عنده .

وربما نميل الى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل على تخصيص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وانما التخصص فى الاكرام الشخصى . والأمارات الظاهرة فيه (١) .

وقد قيل فى هذه الرحلة انه كان كلما اشتد الحر ، كان يرى ميسرة ملكين يظلاله من الشمس ، وبغيره يحمله .

وليس لنا أن ننفى ذلك الخارق للعادة اذا روى بسند صحيح ، لا مجال للريب فيه ، ولكن فى رواية ذلك كلام .

أقام محمد عليه الصلاة والسلام فى الشام حتى باع أحمال المعير الخاص بخديجة ، ثم بثمن ما باع اشترى بضائع من الشام ، وقفل راجعا بها الى مكة .

---

(١) يروى أن الراهب لما رآه دنا اليه وقبل رأسه وقدميه ، وقال له : آمنت بك وأشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة ، فلما رأى الخاتم قبله ، وقال أشهد أنك رسول الله تعالى النبى الأمى الذى بشر بك عيسى . . الى آخر ما قال . ويروى أنه فى أثناء تجارته اختلف على بعض معامليه فقال الرجل احلف باللات والعزى ، فقال ما حلفت بهما ، قال القول قولك .

والربح يتعرف بمقدار الثمن الذى تباع به لينقله التجار فى قافلة تذهب الى اليمن ، وقد باع كل البضائع التى اشتراها فى مكة ، فكان الثمن ضعف رأس المال الذى كانت المتاجر التى ذهب بها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فكان الكسب كان مثل رأس المال .

وان ذلك بفضل أمانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وحرصه فى التجارة ، وبفضل ما هو أعظم من ذلك وهو البركة التى فاضت على محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فيما يعمل .

### الأملاك :

١٠٧ — ان مبصرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما رأى من طيب نفسه ، ومن لطف عشرته ، ومن حسن معاملته ومن سماحته ، ومن أنه موطن الكنف يآلف ويؤلف ، مع شرف محتده ، ومكارم أخلاقه العامة والخاصة ، ولعله أخبرها أيضا بما كان من لقاء الراهب ، ومن اكرام الله تعالى فى الحر ، وما حسبه ملكين يظلاله فى الحرور اذا اشتد ، وغير ذلك من ارهاصات .

ثم ما كانت ترى من مكانة له فى قريش ، ومحبة غامرة له من كل من يلقاه ، فهو المحبوب المألوف .

كل هذا أوجد فيها طموحا لأن تكون زوجا له ، وأن تكون أما لأطهر الأولاد من أظهر الرجال ، ورغبت فى ذلك أشد الرغبة ، وهى التى بعد هلاك زوجها الأولين اللذين كانت لها منهما الولد — كثر طلاب يدها من أشرف مكة ، ولكنها العزوف العيوف التى ردت كل طلب مع كثرة من طلب ، وعلو أقدارهم المادية فى نظر الناس ، والنسبية فى نظر ذوى الأنساب .

ولكنها وجدت فى الشاب الهاشمى محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما ليس فى الرجال شيئا وشبابا — فرغبت فى الاملاك منه فى غير عشق ولا هيام ، ولا رعونة وطيش ، ولكن فى ارادة مقدرة ، وتفكير فى الماضى والحاضر والقابل ، فقد علت خديجة عن حال العشاق ، ولم يكن سنها ، ولا شرفها ، ولا مكانتها فى قريش لتسمح أن يغريها من الصفات ما يغرى الغريرات من النساء .

ولكن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) هل طمع فى الزواج منها أو من غيرها ؟ أو هل حدثته نفسه بمعنى من المعانى ، أو هاجسته من هذه الهواجس؟

انه لم يثبت شيء من ذلك لأن محمداً ( عليه الصلاة والسلام ) ما خلب كبده أمر من أمور اللذائذ والشهوات وما يتصل بها ، ولكنه اذا نبه يكتبه ، فكان لا بد من منبه .

١٠٨ — أدركت بفطنتها وغريزتها أنه لا بد من أن ينبه ، فتولت هي ذلك الأمر ، وللنساء فيه قدرة ، وإن كانت من مثل خديجة فيسه مواجهته واحتشام من غير اسفاف .

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبيه محمداً ( عليه الصلاة والسلام ) ولتجس نبضه ، وقد فعلت ، ولنترك الكلمة لها :

قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى أوسط قریش نسبا . وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها ، لو قدر على ذلك ، طلبوها ، وبذلوا لها الأموال . . . فأرسلتنى دسيسا الى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) بعد أن رجع فى غيرها من الشام ، فقلت يا محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما يمنعك أن تتزوج ؟ قال : « ما بيدى ما أتزوج به ، قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟ قلت خديجة قال وكيف لى بذلك ، فذهبت فأخبرتها فأرسلت اليه أن ائت لساعة كذا » ذهب محمد ( عليه الصلاة والسلام ) للقاءها ، فواجهته الأمر ، وخاطبته بعد أن استوثقت من أنه لا يردها ، فقالت « يا ابن عم ابنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك » وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، وإن لم يكن ذلك القبول فى عقد ، بل هو خطبة .

والسيدة الكريمة الحازمة لم تترك الأمر بينها ، بل لا بد من تلاقى الأسترتين بعد ، وتلاقى الارادتين ، وتوافق الرغبتين . لأن الزواج اتصال أسترتين ، لا مجرد اتصال فردين .

ولذا قالت لمحمد ( عليه الصلاة والسلام ) اذهب الى عمك ، فقل له : « عجل الينا بالغداة » .

جاء اليها أبو طالب ، فقالت له يا أبا طالب اذهب الى عمى ، فقل له

---

(١) أى بوسطك ، وكونك من أوسط قدرك أى أعلاهم نسبا .

يزوجني من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه ، وقال : « هذا صنع الله » •

٩٠١ — تمت الخطبة ، وتراضت الأسرة ، وكان يوم الزواج ، وكان الصداق اثنتي عشرة أوقية من ذهب ونصف أوقية •

اجتمع رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرفها لاتمام العقد ، وكان وكيل الزوج عمها ، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد ( عليه الصلاة والسلام ) وقف أبو طالب خطيباً ، وقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئىء معد (١) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا يوزن برجل الا رجيح به ، وان كان فى المال قلافان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما أجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونشاً (٢) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل •

وقد وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل (٣) ، ويظهر أنه كان له ما يسوغ أن يعقد من قبلها وخطب قائلاً فقال :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم ، ولا شرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم ، وشرفكم فاشهدوا يا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) •

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمها بالقبول ، لأنه أقرب اليها من ورقة فقال : قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : « اشهدوا يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) خديجة بنت

- 
- (١) ضئىء معناها أصل
  - (٢) أى نصف أوقية
  - (٣) كان ابن عمها



خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش » • ومن هذا كله يتبين ان الذى تولى تزويجها عمها عمرو بن أسد ، وشركه ابن عمها ورقة بن نوفل (١) •

والمشهور بين العلماء وأصحاب السير والتاريخ أن سنه عليه الصلاة والسلام فى وقت الزواج كانت خمساً وعشرين سنة ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها •

ولقد كانت أقوال أخرى فى سنهما عند الزواج ، ولم يبلغ واحد منها مرتبة الشهرة ، ف قيل ان سنه عليه الصلاة والسلام كانت الحادية والعشرين ، وقيل كانت التاسعة والعشرين ، وقيل كانت الثلاثين وقال ابن جريح كانت السابعة والثلاثين •

وهذه أقوال ليس لها سند ، والمشهور هو المعتمد ، حتى يقوم الدليل على خلافه ، وذلك فوق أن بعضها لا يتلاقى مع النسق التاريخى ، ذلك أن المتفق عليه أن الزواج لم يكن فور حرب الفجار ، بل كان بعده بمدة ، ولو كان فى الحادية والعشرين ، لكان فوره • والتقدير بالسابعة والثلاثين بعيد التصديق

---

(١) ننبه هنا الى أمرين - أولهما - أننا اعتمدنا فى تقدير المهر على ما جاء فى خطبة أبى طالب ، وجاء فى بعض كتب السيرة أنه أمهرها عشرين بكرا ، أى أنه ذكر أن المهر كان بالنوق ، وقد جمعوا بين التقديرين بأن الثانى كان قد زاده النبى عليه الصلاة والسلام ، لأن الكرام يزيّدون على ما هو مفروض ، وقد يقال ان المذكور من المذهب هو تقدير للقيمة •

الأمر الثانى - أن المشهور المعروف أن الذى زوجها هو عمها عمرو ، وهو المشهور ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد ، والأول هو الذى عليه المعول ، ولا التفات لغيره •

وما ذكره ابن اسحاق من أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح ، لأن خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولأن الخبر بأن الذى يقول أن الذى زوجها هو أبوها ، تضمن ما يدل على كذبه ، فقد قال رواه أن أباه كان سكران من الخمر ، وكلمه وهو سكران ، فألقت عليه حلة وضمخته بالطيب ، فلما استفاق ، قال ما هذه الحلة والطيب ، فقالت قد أنكحت منى محمداً ، فأنكر ، ثم لما رأى محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) وافق •

وان احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو سكران يستنكره العرف والعقل ، ولا يمكن أن يقدم عليه أبو طالب ، وهو كبير ومسن ، ووكيل للنبى ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) فى الزواج •

اذ مؤداه أن محمدا عليه الصلاة والسلام عاش راهبا الى أن بلغ السابعة والثلاثين ، وان بناته غير فاطمة تزوجن قبل الهجرة ، وبعضهن تزوجت وطلقت ، ثم تزوجت ، ولو كان زواجه فى السابعة والثلاثين ما كن بلغن سن الزواج قبل الهجرة ، وخصوصا أنه ما كان أول أولاده من أم المؤمنين خديجة أنثى ، بل ولده القاسم الذى كان يكنى به ، ثم ابنه الطيب ثم الطادر وهكذا ، نرى أن السياق التاريخى لا يتسق الا مع المشهور • وهو ذو السند ، ولا سند لغيره •

وأما سننها ، فقد كان المشهور أربعين ، وقيل كانت فى الخامسة والثلاثين ، وقيل كانت فى الخامسة والعشرين ، ولا سند لهذه الأقوال ، ولكن التاريخ يعتمد دائما على المشهور الذى له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السيرة فى أن سننها رضى الله تعالى عنها ، وجزاها عن الاسلام خيرا كانت أربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققين •

ولسنا من الذين يتجهون الى الاغراب ، لأن الاغراب ان كان سائغا فى بعض العلوم ، فهو لا يسوغ قط فى التاريخ ، لأن تتبع الاغراب فى التاريخ انكار لما اشتهر ، وارتضاء بما لم يشتهر من غير سند •

ان الحقائق هى الأمور المشهورة ، ورد ما عداها ، الا اذا قام الدليل المكذب للمشهور بما لا يقل عنه قوة ، والله تعالى أعلم •

## أغناه الله وواساه

• ١١ — ولد محمد عليه الصلاة والسلام يتيما ، وعاش يتيما ، ثم آتاه الله تعالى اليسر العامل ، وكفاه العيش الكادح ، رعى الغنم ودبر التجارة ، ثم بسط الله تعالى له الرزق ، وآتاه الزوج الوفية الرضية ، فأكمل الله بها انسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا فى قطع فيافى هذا الوجود ، وكمل كل منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هى امرأة شريفة ذات ثراء ، وهو رجل مكتمل عامل قوى أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجلته ، ووجه مالها الى الخير ، بحسن نيته وطيب طويته •

وقد كان يعمل لها فى المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالها على يديه أضعاف ما ينتج غيره ، وكان عبدا شكورا ، ولواستمر فى هذه الطريق يعمل فى مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغى المال وأعراض الدنيا هذه ، لنال الشباب والمال معا •

ولكنه رأى أن يعمل فى مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولدها ، لطيب عرفها وشرف نفسها ، وقد تخير لنطفته ، فاختر اكمل امرأة فى قريش ، وأعلاها فى المكرمات كعبا ، وقد اختارها الله تعالى لتكون له رداء فى شدائده ، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان ، فى وقت اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ، فأعنته المخالفون ، وكان عزيزا عليه أن يعتنهم ، فكان فى حاجة الى من يأوى اليه ، كما هو فى حاجة الى من يذود عنه .

وإذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين ، فامرأة محمد عليه الصلاة والسلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطوف الولود ، يلقي قريشا وصدودها ، وعداوتها وجفوتها ، فإذا آوى الى بيته وجد بردا وسلاما .

وإذا كان قد فقد عطف الأم الرعوم فى صدر حياته فى وقت الحاجة ، فقد عوضه الله تعالى فى خديجة زوجا وأما ورفيقة الحياة .

١١١ — أغنى الله اليتيم ، كان عائلا فأغنى فهل طغى واستغنى ، هل عبث وتلهى ، هل اتخذ الحياة لهوا ولعبا ، هل أخذ فى التكاثر ، والمكاثرة ! لا شئ من ذلك ، انما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذ سبيلا للخير وعون الانسان لأخيه الانسان .

ومحمد ( عليه الصلاة والسلام ) ما اتخذ المال بغية يبتغيها ، ولا غاية يتطلع اليها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه فى أى دور من أدوار حياته .

انما اتخذه وسيلة للمكرمات يقوم بها ، وللخير يسديه ، فكان يطعم الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة الى العون الا أعانه ، ولا ذا خصاصة الا سدها ، ولا ذا مسغبة الا أشبعه ، ولا ذا متربة الا رفعه ، كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فيرأب ثلمتها .

تلقت فيمن حوله ، فرأى كافله وحبيبه أبا طالب فى ضيق ، وعيلة ، فجاء الى عمه العباس وكان ذا ثراء ، وقال له هلا أخذ بعض ولد أبى طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضا عليه الأمر فقال اتركنا لى عقيلا ، وخذا من شئتما فأخذ صلى الله تعالى عليه وسلم ، عليا ، وأخذ العباس جعفرا ، فكان على ولده الذى تربى فى مهد النبوة .

وكل من حول محمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كانوا ممدودين بعونه وفضله ، وخلقه ، فكأنه استولى على مال خديجة ليوزع فى الخير ثمراته وليكون خيره عميما ، وفضله كثيرا .

وبينما كانت قريش تكسب بالربا والبيع الحلال ، وتشبه أحدهما بالآخر ، فتقول البيع مثل الربا ، كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتجر في الحلال ، ولا يكسب من اثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير .

وهنا يسأل سؤال لماذا ابتدا بالقل ، وانتهى بالكثير ! والجواب ان حياة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها قبل البعثة البشرية الكاملة فى كل احوالها فى سرائها وضرائها ، فى كريهتها ، ومنشطها ، فى ضيقها ورخائها ، فلم يتربه الفقر ولم يذله القل ، بل صبر عزيزا ، وقنع كريما ، وجد ليكسب قوته ، وحاول أن يخرج من ضيق الفقر بقوة العمل ، ومن ضنك العيش ببجوبة النفس ، وغناها ، فكان الفقير العزيز الكريم العامل المكتسب المبين ، فلم يقل فى فقره ربى أهانن ، وعاش مع الضعفاء شاعرا بضعفهم . وباحساسهم ، لا يسير وراء الأمانى والأحلام .

ثم اختبره الله تعالى بالمال ، فكان الشاكر ، الذى يفيض بالخير على غيره ، ويعلم حق المال ، فى مورده ، ومصرفه معا ، فلا يكسب الا من طيب ، ولا ينقده الا فى طيب ، وهو فى كسبه وانفاقه لا يكون الا نافعا ، فكسبه طيب ، وصرفه طيب .

وثبت من النظر الاجتماعى أن الكسب الطيب هو الذى يكون بطريق فيها نفع عام . فالزراعة كسب طيب ، لأن فيها تقديم الغذاء والكساء مما تخرج الأرض من زروع وأثمار ، والعمل باليد فيه كسب طيب ، لأن فيه نفعا عاما بالصناعات النافعة ، والاتجار كسب طيب ، لأن فيه الجلب للناس من أماكن لا يخرجون اليها وفيه توزيع خيرات الأرض على أهل الأرض لا يحرم منها اقليم ولا يستطيل بالقوة المادية فيها طاع .

وأخيرا محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ضرب للناس فى بشريته قبل البعثة أعلى مثل للفقير الصابر العامل فى فقره ، والغنى الشاكر الذى عاش كالضعفاء فى غناه ، فكان غنى النفس فى الحالين .

١١٢ — وأن محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، بعد أن استقامت لديه أسباب الرزق لم يتجه الى اللذات يشتر عسلها ويقرع منها ، بل كان الزاهد فى غير الحلال المعروف الذى لا يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، بل كان زاهدا غير محروم ، وطالبا للطيبات غير مبتغيها ، لأن الابتغاء قد يدفع الى اشتهاها .

وهناك أمر آخر ، كان يجعل المال غير ذى شأن الا بالقدر الذى يعين على

مكارم الأخلاق ، والنفع لبنى الانسان ، وهو ابتعاده عن كل أوهام الجاهلية ، وأحقادها ، ومنازعاتها •

وفى وسط بحبوحة العيش ، ومن غير ترفه ، قد أخذ يدرس الكون وما فيه ومن فيه ، وما وراء الكون من أسرار الوجود ، مبتعدا عن الوثنية ، وما حولها ، مستنكرا عبادتها ، غير مستسلم لتوهم أن فيها تأثيرا فى الانسان •

فما سجد لصنم قط ، وما أغواه شر قط ، بل كان الطيب الوادع الأمين •

وكان قويا فى بدنه ، غير مسترخ فى عضله ، فهو يصارع ركامة أقوى أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء ، ما عرف عنه قبل البعثة أنه اعتدى على انسان ، وما تناول بيده مخلوقا قط ، فما عرف أنه دخل فى شحناء ، لأنها لم تكن من شأنه ، وما أشر ، وما تكبر ، وما طغى •

وإذا كان موسى القوى قد أثر أنه وكز مصريا اضطهد اسرائيليا فقتله ، لاعتدائه على أحد من شيعته ، ولم يكن ظالما ، فما عرف عن محمد أنه تناول انسانا عدوا أو وليا بأذى قط ، ولكل فضل ، وقد فضل الله تعالى بعض النبیین ، فما كانت قوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أحد ، بل كانت قوته لله تعالى ، وللانسانية ، ثم لقومه من غير اعتداء •

## اعادة بناء الكعبة

١١٣ — ما من أمر جامع فيه خير فى ذاته ، وللناس كافة ، الا اشترك فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل ، وان قریشا ، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا يهى ولا ينقطع ، لأنه يتجدد أنا بعد آن ، وهو يتكون من عنصرين : أحدهما الكعبة المكرمة التى بناها أبو الأنبياء الخليل ابراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى أول بيت وضع للناس ، والحج إليها ، وإقامة المناسك فيها •

ثانيهما — اعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض ، وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة ، لا يتركونها ، ولا يقطعونها ، وخصوصا قریشا ، اذ وجدوا فيه عزهم الذى يعتزون ، وشرفهم الذى يتنافرون به أمام العرب جميعا ، ويجعل لهم سيادة وحكما ، وحسبهم أن العرب يتقاتلون الا فى أرضهم ، فاذا جاءوا اليهم كانوا فى حرم آمن ، كما من الله سبحانه وتعالى

عليهم ، فقال تعالت كلماته : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » •

وقد أصاب وهن بناء الكعبة المشرفة ، فأرادت قريش أن تجدد بناءها ، وكان ذلك بعد عشر سنين من تزوج محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من أم المؤمنين خديجة ( رضى الله تعالى عنها ) وكان النبی ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) قد بلغ الخامسة والثلاثين ، رجلا سويا •

ولم يكن قبل تزوجه كما توهم بعض الرواة من غير سند صحيح •

وبذلك كان بناء الكعبة المشرفة قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس سنين إذ أن البعث كان فى الأربعين ، وتجديد البناء كان فى الخامسة والثلاثين من عمره الشريف •

وكان التجديد ليكون على ما بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن قريشا أخذت لهذا البناء أهبتها ، واتفقت على ألا يكون البناء الا من مال طيب لا خبث فيه ، وأن يكون العمل بنية طيبة خالصة •

وقد قال فى ذلك ابن كثير : « كانت الكعبة المشرفة حرزهم ومنعتهم من الناس ، وشرفا لهم » لذلك أرادوا بناءها لما خشوا عليها من التهدم ، وقد قال أحد كبراء بنى مخزوم ، عندما هموا ببنائها :

« يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلة أحد من الناس » (١) •

١١٤ — هذا السياق يدل على مدى تأثيرهم بالكعبة المكرمة وتعظيمهم لها ، ومكانتها عندهم ، ويدل أيضا على أن الكعبة الشريفة واتصالها بالخليل ابراهيم جعلت حبهم موصولا به ، وأوجد ذلك فيهم نوعا من الوجدان الحى ، كان هو الثبت الذى صار زرع الايمان والتوحيد من بعد ذلك •

وأن ذلك يستدعينا أن نرجع الى الخليل ابراهيم لنرى كيف كان البناء الأول للبيت ، ثم ننزل من بعد ذلك الى ما كان من بعد •

ان ابراهيم أول من بنى البيت ، ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ح ٢ ص ٣٠١ •

ما يشير الى أنها قد بنيت من قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد قال فى ذلك ابن كثير رضى الله عنه :

« لم يجيء فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل ، عليه السلام ، ومن تمسك بهذا بقوله تعالى « مكان البيت » ، فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر له فى علم الله المقرر فى قدر المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم ..... » .

ثم يقول عما قيل من أن آدم عندما نزل الى الأرض نصب قبته فيها ، وأن الملائكة قد قالوا طفتنا قبلك بهذا البيت ، وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما : « ولكن كل هذه الأخبار عن بنى اسرائيل ، وقد قررنا أنها لا تصدق ، ولا تكذب » وينتهى من هذا ابن كثير الى أن التاريخ الاسلامى لا يعرف بانبا للكعبة قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، واننا نقف حيث وقف ولا نسير وراء أوهام أو أساطير لم يوجد من التاريخ الصادق ما يوثقها . ولا من الكتب الدينية الثابتة الصحيحة ما يؤيدها ، فلا نهيم فى ظنون ، « وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وقد بينا أن البقعة فى ذاتها قبل البناء عليها كانت معروفة فى التواريخ القديمة ، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير ، فقال ان بقعة البيت الحرام كانت معظمة من قبل بناء ابراهيم ، فقال : « وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرقة فى سائر الأعصار والأوقات » .

وان ذلك كلام حق اذ أن نص القرآن الكريم يومئ الى أن البيت كان له مكان مقدر قبل أن بينيه خليل الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ، وقد قال تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » فكلمة بوأنا تومئ الى أن الله تعالى قدر لهذا البيت مكانا من قبل ، وهدى اليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

واننا اذا انتهينا الى ما قرره ابن كثير وغيره من أن مكان البيت كان معتنى به ، وكان معظما ومشرفا ، قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فانا قد نحسب أن تكون بناية قد أقيمت حوله للعناية به ، ولحفظه من أن يضيع فى غيره ، ولكن من هم الذين بنوه ، وما مدى ما فعلوا ؟ ان ذلك هو المسكوت عنه ، والبحث عنه من غير وسائل معرفة من كتاب معصوم ، أو تاريخ وثيق رجم بالغيب وتظنن فى غير مظنة .

ولعل فضول العلم تجعلنا نتساءل أيهما بنى أولا ، البيت الحرام أم المسجد الأقصى ، فنجيب انه من المؤكد أن البيت الحرام الذى بناه هو ابراهيم ، وقيل ان الذى بنى بيت المقدس هو يعقوب حفيد ابراهيم ، وقيل بنى من بعد ذلك ، وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر : قلت يا رسول الله « أى مسجد وضع أول : قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى » •

ولابد أن نتصور أنه بعد أن بناه ابراهيم خليل الله تعالى ، قد جرت فيه اصلاحات كثيرة ، فما كان بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليستمر قائما غير قابل للتهدم أكثر من ألفى سنة ، فلم يكن كالأهرام بناه فرعون الذى اغتصب كل القوى فى بنائه ، ولكن بناه ابراهيم الخليل هو وابنه الذبيح من غير أن يجرى فيه غضب حجر أو مدر أو وبر ، أو قوة أى انسان •

## بناء قريش

١١٥ — اتجهت قريش بعزيمة ماضية ، وان شئت فقل مخالصة طاهرة الى بناء البيت بجهود أبنائها ، وأموالهم الطيبة التى لا خبث فيها ، فليس ثمن دم مغصوب ، ولا ربا ، ولا مهر بغى ، ودخلوا غير متنازعين ، ولا متخاصمين ، ولا متخاذلين ، أعدوا لذلك العمل الخطير فى معناه ، وان لم يكن البناء كبيرا فى ذاته بين الأبنية التى كانت تجرى فى أرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد ، ولكنها أقدس ما بنى البشر ، وما أقام أهل الحضر والمدن والوبر ، لأنها الكعبة « أول بيت وضع للناس مباركا » •

تقدموا للهدم ثم البناء ، ويظهر أن قدم العهد بالبناء والأحجار ، قد جعل بعض الهوام يعيش على مقربة منه ، فقد زعموا أنهم قد رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها ، فأشفقوا منها اشفاقا شديدا وخشوا أن يكونوا قد وقعوا منها فى هلكة ، ووقفوا حيارى لا يقدمون ، فلما سقط فى أيديهم ، والقبس عليهم الأمر ، حسبوا أن يكون ذلك لتأثمهم عند البناء باثم ، أو ليس فى مالهم طهر ، أو فى العمل الذى أعده خبث ، أو أن فى النفوس شيئا ، عندئذ وقف المغيرة المخزومى ، ينصح لهم بعدم التحاسد والتشاجر ، وأن يفتسموا ، ثم جددوا العزيمة ، « وقد جاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أنهم لما عزموا ذهبت الحية ، وتغييت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل » •

وان خبر الحية ان صح نقول اما أن تكون قد ركنت الى بعض أحجار الكعبة ويصح أن المولى جل جلاله سيرها اليهم لا من السماء ، ولكن من



مكان آخر ، ليفزعوا ، ولتتطهر قلوبهم من رجس الجاهلية عند بنائها ، فهى بيت الله الذى بناه بأمر نبيه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلا بد أن يبنى بأطهار على الأقل فى ساعة بنائه ، وقد قاموا بتطهير أنفسهم ، وتطهير أموالهم ، وتولوا بأنفسهم اقامة البناء .

اقتسموا البناء أرباعا ، فكان الربع الأول الذى فيه شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وبنى مخزوم لهم ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى ومعهم بطون من قريش انضموا اليهم ، وظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى وبنى أسد بن عبد العزى وبنى عدى ، وهو الحطيم » (١) .

وبعد أن قسموا هذا التقسيم ، وارتضته القلوب كان يجب أن يبتدىء العمل بالهدم أولا ، ثم البناء ثانيا ، ولكن لهيبة الكعبة فى نفوسهم ، ولعجزهم عن أن يعرفوا أهذه ارادة الله رب البيت وحاميه ، أم هى أهواؤهم الدافعة الى أن يفعلوا — هابوا أن يهدموا .

عند هذا التردد والتلكؤ تقدم الوليد المخزومى ، وحمل المعول ، وقال أتقدمكم ، وهو يقول : اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم ناحية من الركنين ( الركن الأسود والركن اليمانى ) وهما حصة بنى مخزوم ، ومع ذلك لم يتقدم كل ذى حصة من حصته ليهدمها .

صبح الوليد معتزما من غداته متمما ما بدأ بمعوله ، فأخذ يهدم الناس معه ، كل يهدم ما فى حصته وأخذوا يهدمون ، حتى رأوا أساس البناء الذى وضعه خليل الله عليه الصلاة والسلام .

ومن مقتضى الفطرة التى لم يأت بها رسول أن تجرى أهوام كثيرة ، وأن تروى أخبار حول هذه الأهوام ، وأنا نضرب عن كل ذلك صفحا .

١١٦ — وأنهم قد أخذوا من بعد ذلك فى اقامته ، ويظهر أنه قد عاونهم فى الرسم والبناء رجل قبلى اسمه باقوم ، فهو الذى وضع هندسة البناء ، وكان مولى لبنى أمية .

وقد قام كل فريق بحصته فى البناء ، وقد اشترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان زميلا فى العمل لعمه العباس بن عبد المطلب ، وقد روى

الشيخان (البخارى ومسلم) فى ذلك عن جابر أنه « لما بنيت ذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اجعل ازارك على رقبتك يقيك من الحجارة ففعل فخر الى الأرض ، وطمحت عينه الى السماء ، ثم أفاق ، فقال ازارى ازارى ، فشد عليه ازاره ، فما روى بعد ذلك عريانا » .

هذا حديث صحيح ، روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سقناه لبيان أن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) اشترك فى أشرف عمل قامت به قریش ، وهو فى شرح الشباب ، وحمل الحجارة ، وأنه لم يأخذه الترف قط ، وأنه لم يفكه فى نعيم المال ، فكانت حياته حياة الأقوياء ، وأن الخبر يدل على أن الله تعالى كان يرعاه ، وقد رباه على عينه ، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس ، ووضع بعض ثوبه على رقبتة ، انكشف بعض عورته ، فطمحت عينه الى السماء ، وأصابته غشية اتصال بالمال الأعلى ، وسترت عورته ، فقد كان فى حراسة الله سبحانه وتعالى ، وحياطته .

ولا نرد الخبر لما فيه من غرابة ، فقد رواه الشيخان البخارى ومسلم بسند صحيح ، وما يروى بسند صحيح لا يرد لمجرد غرابته على الحس والأسباب والمسببات ، انما يرد لوجود دليل يثبت أن ذلك مستحيل ، والأمر فى قدرة الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات ، ومأنح كل ما فى الوجود نعمة الوجود .

لقد ائتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذى بنوه ثمانية عشر ذراعا وأخرجوا منه الحجر ، وهو ستة أذرع ، أو سبعة من ناحية الشام ، لأنهم قد قصرت نفقتهم ، فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم .

وقد يسأل سائل ، ان المفروض أن قریشا كانوا من أغنياء العرب ، وبجوارهم ثقيف ، وهم أغنياء ، وكان ممكن أن يعلنوا اكتتابا عاما يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء .

والجواب عن ذلك أنهم لم يشركوا العرب فى بنائهم ليلقى لهم الاختصاص بسدائنه وبشرفه ، وبإنشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه الا بمال مكسوب من طيب حلال ، وليس بمكسوب مما يجرى فيه كسب خبيث أو فيه شبهة خبيث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيرا ، إذ كثر فيهم الربا والميسر ، ومن الصعب اخراج الطيب ، من بين هذا كله .

ولقد جعلوا للكعبة بابا واحدا من ناحية الشرق ، ويقول ابن كثير :  
« جعلوه مرتفعا لئلا يدخل اليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من  
شاءوا » .

وان النبی علیہ الصلاة والسلام كان يريد أن يعيد البيت الى ما كان  
على بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لولا أنه يخشى عليه كثرة الهدم والبناء  
فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله  
صلی الله تعالى عليه وسلم قال لها : « ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ،  
ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ، وجعلت لها بابا شرقيا ، وبابا غربيا  
وأدخلت فيها الحجر » .

١١٧ — تم بناء البيت الحرام ، ولم يختلفوا فى شيء عند اقامته ، لأن  
كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ، ولكن أمرا لا يقبل القسمة  
اختلفوا فيه ، وهو الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن الذى يضعه فى موضعه من  
هذه البنية .

تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا ، وكان الخلاف شديدا وكادت الدماء  
تسيل لتلغ فيها السيوف ، أراد بنو عبد الدار أن يضعوه ، بما أعطاهم من قبل  
قصى من سدانة البيت ، وقربوا جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى  
ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى الدم المملوءة به الجفنة .

ومكثت قريش على تلك الحال التى تأزمت حلقاتها أربع ليال سويا .

ثم اجتمعوا بعدها فى المسجد الحرام ، وتشارروا فى هداة ، وأخفيت  
جفان الدم أو جفان الموت ، وتناصفوا فى القول ، وأخفوا نوازح الشر ، أو  
استلوا من الأضغان ، وان القصد الطيب يكف فى كثير من الأحيان نوازح  
الشر ، فيفتح فى وسط الخصام ، نورا من نور الوئام ، وقد كانت الجلسة  
الهادئة سبيل ذلك ، ببركة بيت الله الحرام .

لقد وقف أسن قريش يدعوهم الى السلام وانهاء الخصام ، فقال :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب  
هذا المسجد يقضى بينكم : فارتضوا ذلك ، وعلموا أنه توفيق الله تعالى عندما  
ظهر أول داخل ، فإذا هو محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم )  
فقال كبيرهم : هذا الأمين رضينا به حكما .

وكان محمد ( صلى الله تعالى وسلم ) يسمى الأمين ، وقد اختص بهذا الاسم ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف الا اليه ، وقد أشرنا الى ذلك ، وكلمنا مضى فى عمره الكريم زادوا استيثاقا من أمانته وصدقه وحكمته وعدالته •

لذلك طابت نفوسهم جميعا عندما علموا أنه سيكون الحكم بينهم الذى يرد القضب الى أجفانها •

انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، فطابت نفسه وقرت عينه ، اذ قرت به القلوب المضطربة وقال : هلم الى ثوبا فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ، حتى اذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده الشريفة ، ثم بنى عليه » (١) •

هذه حكمة بالغة ، انحل بها الخلاف ، وانتهى الى وفاق من أن تمشق السيوف ، ويستعدوا للحتوف ، وهكذا كانت النفحة المباركة من محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) وقد بدت بوادر النبوة ، وظهرت ارهاصاتها •

١١٨ — قامت الكعبة الشريفة متجهة الى السماء ، واستمرت على ذلك فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يود أن يعيدها عليه الصلاة والسلام الى ما كانت عليه فى عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكنه قدر أن قريشا قريبو عهد بكفر ، فلم يزعمهم •

وبعد عصر الراشدين ، ثم عهد معاوية ، ثم جاء عهد يزيد بن معاوية ، وخرج عليه الخارجون من أهل الايمان وكان ممن خرج عليه عبد الله ابن الزبير ، وقد قوى أمره بعد أن قتل الامام الحسين بن على ، تلك القتلة الفاجرة ، وقد بايع الكثيرون ابن الزبير •

ثم تجرد له عبد الملك بن مروان ، وكانت المغالية ، وحوصرت مكة التى كان بها ابن الزبير ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وتهدمت ، فأتجه ابن الزبير الى اقامتها على قواعد ابراهيم ، فأعاد طولها ، وأدخل من الحجر الأذرع التى كانت قد نقصت منها لضيق المال الحلال الذى كان بيد قريش ، وجعل لها بابا آخر ، وكان قد سمع عن طريق خالته أم المؤمنين التى روت حديث النبى عليه الصلاة والسلام الذى ذكرناه آنفا •

---

(١) سيرة ابن هشام •

لم يستمر الأمر لابن الزبير ، بل قتل ، واستمكن الأمر للحجاج بن يوسف الثقفي المسلط من قبل عبد الملك ، فشاور عبد الملك فى الأمر الذى غيره عبد الله ابن الزبير فى بناء الكعبة ، واعادتها الى قواعد ابراهيم فكتب اليه : « أما ما زاده طولاً ، فأقره ، وأما ما زاده فى الحجر ، فرده الى بناته ، وسد بابيه الذى فتحه ، ففعل ذلك ، ويروى أن عبد الملك ندم على ما أذن ، ولعن الحجاج » .

ولقد فكر المهدي فى أى يعيد البناء على قواعد ابراهيم فناشده الامام مالك ، وقال أخشى أن يصير ملعبة للملوك ، فترك الأمر .

### الخمس :

١١٩ — من هذا نرى أن قريشا كانت حريصة على البيت الحرام ، تعليه ، لأنها ترى فيه علوها وشرفها ، وشددت فى القيام عليه ، وابتدعوا فى ذلك بدعة تخالف ما كان عليه ابراهيم فى قيامه بمناسك الحج ، وعظموا الحرم تعظيماً زائداً ، حتى لفرط تحمسهم له التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفه ، ولذلك سموا الخمس .

كانوا يقولون نحن أبناء الحرم ، وقطان بيت الله ، فكانوا لا يققون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعر ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويقول فى ذلك الحافظ ابن كثير فى تعليل فعلهم . وتكميل الكلام فيه :

« حتى انهم لا يخرجون عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة ، وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطاً ولا سمناً ، ولا يسلون شحماً وهم حرم ، ولا يدخلون بيتاً من شعر ، ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من أدم ، وكانوا يمنعون الحبيج والعمار ما داموا محرمين — أن يأكلوا الا من طعام قريش ، ولا يطوفون الا فى ثياب قريش ، فان لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الخمس وهم قريش ، وما ولدوا ٥٠ ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ، ولو كانت امرأة ؟؟ ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها ، وتقول : « اليوم يبدو بعضه : أو كله ، وبعد هذا اليوم لا أحله » .

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أخمسى ، فطاف فى ثياب نفسه ، فعليه اذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسه ، وكانت العرب يسمى تلك الثياب « اللقى » (١) .

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٠٥ .

١٢. — هذا بعض مما كان يجرى من قريش تعصبا للبيت ، فهم اعتبروا الحج عندهم هو زيارة البيت الحرام . وهذا من التعصب له ، حتى نسوا شريعة ابراهيم في الحج ، وهو اعتبار الحج عرفة ، والطواف ركنا من الأركان ، وليس له وقت محدود طول السنة .

وانه لمن ارهاصات النبوة أن محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعث رسولا نبيا ، كان لا يتمسك بتقاليد قريش وأعمالها ، بل كان يقف بعرفة ، وأن ذلك بلا ريب توفيق من الله تعالى ، والهام الله تعالى له بأن يقيم الحج على ما كان يقيمه ابراهيم .

ولم يسر على ما سار عليه العرب ، بل كان يطوف بالبيت كما يطوف .

ويلاحظ أن الناحية التجارية في قريش قد بدت واضحة في أمرين :

أحدهما — ان الحجيج لا يأكلون من الطعام الا ما يكون من قريش ، فهو ترويج لتجارة قريش ، وكذلك الأمر في الثياب .

وثانيهما — ما كان يقام من المتاجر في الأسواق التي كانت تجاور مكة .

وانه بلا ريب كانت تلك التقاليد فيها فحش في العمل ، إذ كان بعض القبائل ، إذا لم يجدوا ثيابا من ثياب الخمس ، يطوفون عراة ، وفيهم النساء ، حتى انهن كن يستترن عوراتهن الغليظة بأيديهن .

وان هذه الأحكام يحسبون أنهم مأمورون بها ، ولقد أنكرها الاسلام ، فقد قال الله تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها : قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، اتقولون على الله ما لاتعلمون ، قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بداكم تعودون ، فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

وإن محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام ،  
كان ينفر من كل أرجاس الجاهلية ، ولو كانوا يدعون أن الله تعالى أمر بها •

لم يسجد لصنم قط ، ولم يرتكب فحشاء ولا لهوا ، ولم يترد فيما كان  
يتردى فيه شباب الجاهلية • ولم يتناول خمرا قط ، ولم يلعب ميسرا •

ولقد يستنكر في صمت المؤمن بالحق ، كل ما كانت تقع فيه قريش •

وقبل أن نتقدم للمبعث المحمدي ، وقد جاء أبانه ، وحان حينه ، إذ أنه  
( عليه الصلاة والسلام ) كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ، وقارب المبعث ،  
فقارب الأربعين ، وهى السن التى بعث فيها رحمة للعالمين •

وقبل أن نتقدم لمقام الرسالة المقدس ، والمبعث النبوي الأقدس ، يجب  
أن نتكلم فى أمرين :

أولهما : تكامل صفات الرسول ، وبيان ما كان عليه من خلق كامل ،  
هو مثال للأخلاق الانسانية العالمية ، فهو قبل أن يكون رسولا مبعوثا من الله  
سبحانه وتعالى ، كان كالملائكة فى أخلاقه ، بيد أنه كانت له ارادة ، وكان  
مكتمل الجسم الانسانى ، والحياة الانسانية ، وقد رباه الله سبحانه وتعالى  
ليكون النبى المختار الذى ولد فى الأميين ، وكان منهم •

ثانيهما : أحواله فى تأملاته ، وعبادته قبل الرسالة ، و « الله أعلم حيث  
يجعل رسالته » •





التَّكَاْمَلُ الْإِنْسَانِي فِي مُحَمَّدٍ ﷺ



## التكامل الانساني في محمد

( صلى الله عليه وسلم )

١٢١ — نتقدم بهذا الباب من القول بين يدي المبعث المحمدي ،  
لنتعرف من اختاره الله تعالى من بين خلقه رسولا للعالمين ، وكيف قد أدبه  
الله تعالى بتأديبه الكريم ، وخلقه كاملا ، لأن رسالته دعوة الى الكمال ، فهو  
الكمال المطلق في التكوين البشري ، ونحن نريد أن نقسّم ما كان من خلق  
فطري ، لم يكسبه من الوحي الالهي ، وإن كان متطابقا مع ما جاء به الوحي ،  
وما أدبه به القرآن ، حتى كان خلقه المتين . وكان كما قالت عائشة رضى الله  
تعالى عنها « خلقه القرآن » ، وما كان خلقيا بمقتضى التكوين كان متفقا مع  
ما جاء به الوحي ، وما دعا الى خلقه ، وقاربوا فيه ، ولم يصلوا الى ما وصل  
اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في أوصاف محمد  
ابن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ان خصال الجمال والكمال في  
البشر نوعان : ضروري دينوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ،  
ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعالى زلفى ، ثم هي  
على فئتين أيضا ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل .  
فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان  
في جبلة ( عليه الصلاة والسلام ) من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة  
عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعو  
ضرورة حياته اليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من  
الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والزهد ، والصمت  
والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق ، والمعاشرة وأخواتهما ، وهي التي  
جماعها حسن الخلق » .

ونرى من هذا أن القاضي عياض قد قسم الأوصاف التي تحلى بها النبي  
( عليه الصلاة والسلام ) قسمين : أحدهما — كان بالفطرة الانسانية وهي كمال  
الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسمية (صلى الله تعالى عليه وسلم) — وثانيهما  
ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية ، وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر

والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق الذى هو جماع الفضائل الانسانية ، ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحى اليه مما تلقى فيه الفطرة المستقيمة مع الوحى ، فالوجود والتواضع والصبر والفصاحة ، والتأنى ، وحسن التأنى للأمور ، والرفق فى القول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت فى محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى ، قبل الرسالة ، اعدادا لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه .

وانا لنذكر فى هذا الباب من الكتاب ، ما كان فيه بمقتضى الطبع الانسانى السامى الذى فطره الله تعالى عليه وما كان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهية للرسالة ، وتحمل الأعباء ، والقيام بحق هذه الرسالة والدعوة اليها بما يزيكها وينميها ، واذا كانت قد استمرت فيه بعد البعثة ، فانها ثمرة الله فى غرسه ، وتناول الناس أكله ، واذا كنا سنشهد على هذه الصفات بما جاء من أقوال أصحابه من بعد البعثة ، فليس ذلك لأن البعثة هى التى أوجدتها ، بل لأنها الأقوال الناطقة المؤيدة لذلك ، فقد أوجدها فيه العلى القدير .

وقدمناه على الرسالة لأن الله تعالى أعدها فيه ليكون كاملا ، وليقوم بأعبائها .

## ١ - وفور عقله

١٢٢ — لم يتوافر العقل فى انسان كما توافر فى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ولو لم ينزل عليه الوحى ويخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيا لأن ينشئ دولة ، ويقيم مجتمعا طيبا فاضلا . ولكن أتم الله تعالى عليه نعمته ، فجعله نبيا مرسلا ، فاجتمع له الكسب الذاتى بالادراك بالفطرة الانسانية العالية المكتملة بالتكوين الانسانى والرسالة الالهية الهادية المرشدة ، وكانت الأولى مقدمة للثانية ، وما كانت احدهما لتغنى عن الأخرى فما كانت الرسالة تجيء لغير عقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية كريمة اختارها الله تعالى لموضع رسالته وحمل أمانته . وما كانت الكفاية العقلية فى أسمى علوها بمغنية عن الرسالة ، لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيا فى تدبير الحاضر والقابل الى يوم الدين ، انما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحى لا يفكر الا فيما بين يديه ، ولا يخترق الحجب والأستار الى ما وراء

ما لديه ، فلا بد من علم الله يمدّه بعلم القابل ، وهو عالم الغيب والشهادة ،  
فمهما تكن قوة العقل ، فانه لا يستطيع أن يصلح غير زمانه ، وكل شيء عند  
ربك بمقدار .

منذ نشأ محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) والعقل المكمّل  
حليته العليا التي سما بها على الغلمان أترابه ، فمنذ استوى غلاما ،  
والعقل يزيّنه ، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذي أخذه ليعوده أخلاق الرجال  
المكتملين .

ولما ذهب الى بيت عمه أبى طالب بعد وفاة جده القريب ، كان الغلام  
الرزين المكمّل وسط أولاد أبى طالب ، لا يسبق الأيدى الى الطعام ،  
ولا يدخل فى زحمة الاعتراف ، بل يتريث غير نهم ولا جشع ولا طامع ،  
بل الهادئ الرزين قد يكتفى بالقليل أو ما دونه ، حتى يقتنبه اليه عمه  
الشفيق فيقرب اليه ما يبعد ، ويخصه بما يفيّه مئونة المزاحمة حتى اذا بلغ  
قدرا يستطيع فيه الاكتساب . عمل على رعى الأغنام ليأكل من عمل يده ، ولينال  
من خير الدنيا بمقدار ما قدم فيها من نفع غير مؤثّل ولا مقصر .

وعقله المدرك لمصيره بقابل حياته فى قابل عمره ، فهو يعد نفسه للتجارة  
عمل قومه ، ومكتسب أرزاقهم ومنشط قواهم ، فألح على عمه أبى طالب أن  
يأخذه معه الى الشام فى قافلة تجارة قريش ، ليكون على خبرة بالصفق فى  
الأسواق ، وليتعلم المصادر والموارد ، وذلك وهو فى الثانية عشرة من عمره  
حتى اذا عاد من هذه الرحلة المباركة عاد وقد امتلأ عقله تجربة ، فيمارس  
التجارة صغرت بضاعته أو كبرت ، وهو على بينة من أمرها ، عليم بأسواقها ،  
والرائج منها والكاسد .

ولكمال عقله كان الشاب التاجر يحضر مجتمعات قريش ، فهو يحضر  
ندوتها فاحصا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ، ولا يقره ،  
ويحضر حلف الفضول ، ويرى لعقله الكامل المدرك أنه لا يسره به حمر  
النعم ، ولا يرى نصرة للحق أقوى منه ، ولو دعى به فى الاسلام بعد أن عم  
الحق ، لأجاب تكريما له واعلاء لقدره .

وهكذا نراه قد أوتى عقلا مدركا ، وعمل على تغذيته بالتجارب والاتصال  
بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمل على علاج أدوائه ، ان وأتاه الله تعالى  
بفضل من عنده .

واننا ونحن نتكلم على قوته العقلية النافذة الى الحقائق ، لا الى المظاهر  
نتعرض لنفوره من التقليد من غير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهلية التي  
كانت تحرم وتحلل من غير بيئة ولا علم قائم على الحقائق المقررة الثابتة •  
فلم تره يسجد لصنم قط ، لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه  
نفعا ولا ضرا ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتها • فيستحلفه الراهب باللات  
والعزى فيقول الغلام ما كرهت شيئا كما كرهتهما •

ويختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزى ، فيمتنع ، فيسلم  
له التاجر بحقه من غير حلف لأمانته •

وأى عقل أكمل من أن يرى قومه ينحرفون عن إبراهيم فى حجه ، ويذهب  
فرط حرصهم واعتزازهم بالبيت ألا يقفوا بعرفات فيجئ الرجل العاقل المكتمل  
محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ويتعرف مناسك إبراهيم ، فيقف  
بعرفات فى ميقاته ، ان ذلك كله لا يكون الا من رجل عاقل يعمل عقله فى  
هداة من غير مجادلة ، لأن المجادلة تحدث المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان  
الريب ، وتبددت الحقائق بين المتنازعين •

لقد علمت قريش كلها بكمال عقله ، وقوة ادراكه ، فرضيت به حكما ،  
ساعة أن احتدم الجدل ، وكادت السيوف أن تمتشق ، والمعارك أن تنصب ، فلما  
نادته القرعة أن أقدم ، وافصل بين الناس بالحق ، رضوا بحكمه ، لأنه  
سيكون حكم العقل والحق ، وأى شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدى الى  
الحكم الذى يرضيهم جميعا ، فيشركهم جميعا فى فضل حمل الحجر الأسود  
الى موضعه من غير مشاحة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم ، ويحمله هو بيده  
ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه فى  
موضعه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل •

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين فى العصبية الجاهلية ، فلم ينطق  
بها ، ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوثام والسلام ، ولا يحب الحرب  
والخصام ، ولذلك لم يشارك فى حرب الفجار ، الا بتفضيل السهام عن أعمامه  
حماية لهم ورحمة بهم ، بموجب الرحم الوصيلة ، لا بموجب الحرب التى أحلت  
فيها الحرمات والأشهر الحرم •

وانه من المؤكد أن محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) كبح جماح  
هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل ما يفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله  
الشبان فى باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلا سويا اكتملت أخلاقه كما  
اكتمل جسمه ، فكان القوى الذى يسيطر على أهوائه ، فلا ينحرف مع هوى ،

ولا تجمع به شهوة ، وأنه اذا ضعف سلطان الهوى قوى سلطان الحق ، واذا قلت حدة الشهوة ، استقام حكم العقل ، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوى والشهوة ، والعقل السيد هو الذى يسيطر على أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضل العقول الا اذا دخلت النفوس الأهواء ، وعسكرت صفاءه ، فمحمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كان أعقل قريش ، لأنه هو الذى لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة •

وقد قال القاضى عياض فى فضل عقله عليه الصلاة والسلام ، وآثاره فى الاسلام :

« وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله • وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتز فى رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج الى تقريره لتحققه •• ولقد قال وهب بن منبه ، قرأت فى أحد وسبعين كتابا ، فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وفى رواية أخرى ، فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل فى جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » (١) •

ويقول ابن كثير : « معلوم لكل ذى لب أن محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) من أعقل خلق الله تعالى ، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق فى نفس الأمر » (٢) •

وان مظاهر عقله بدت واضحة بعد البعثة فى سياسة رعيته ، فقد كان الله يوحى اليه بالأحكام الشرعية ، وما يجب من الرفق بالرعية ، والأخذ على يد الظالم ، وحماية الحق من الباطل ، ويترك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفذ الحق فى رعيته ، بالمسلك الذى يسلكه مختارا ، مسددا ، فان تبين خطأ نبهه سبحانه وتعالى عليه اذا كان أمرا متصلا ببيان الشريعة وأحكامها •

(١) الشفاء الجزء الأول ص ٤٣ ، طبع الحلبي •

(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥ •

وأنه فى الأمر الذى تركه سبحانه وتعالى له بدا عقل النبى عليه الصلاة والسلام فى احكام التدبير وكياسة الحكيم .

اشتد أمر النفاق والمنافقين ، وكثرت أضرارهم ، فطلب عمر رضى الله تعالى عنه من محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) أن يقتلهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ثم اشتد النفاق ، حتى هم أهل كل بيت فيه منافق أن يقتله ، فقال عليه الصلاة والسلام أين عمر لو قتلتم حين قتلهم لأرعدت لهم أنوف هى اليوم تريد قتلهم .

فهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وبهذا العقل الحكيم أدار المدينة الفاضلة التى قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهييه ، ونفذت فيها النظم الاسلامية .

## ٢ - بلاغته

١٢٣ — كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرشياً قد نشأ فى قريش ، وهى أفصح اللهجات العربية ، وكان يحضر أسواق مكة فى موسم الحج ، ويتذوق ما ينشد فيها من شعر ، وقد تفصح فى بنى سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب ، فالتقى فى بيانه لغة العقل والحضارة النسبية فى مكة المكرمة ، وسذاجة البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته فى لهجة أفصح أهل البادية .

ولذلك كان النبى محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) أفصح الناس منطقاً ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو اذا أرشد كانت ألفاظه كالجواهر تنثر بين الناس من غير بهرجة ، وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب .

واذا تحدث فى معاملات الناس وفى سمرهم الذى لا مجون فيه كان كلامه النмир العذب يسرى فى النفوس سريان النسيم العليل ، والماء العذب ينعش القلوب ، ويروى ظمأ النفوس .

وقد وصفت حديثه أم معبد بعد البعثة : فقالت : « اذا صمت فعليـه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، وكان منطقـه خـرزات نظم يتحدـرن » .



هذا وصف لكلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن بعثه الله تعالى ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قبل البعثة ابتداء ، وما بعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله تعالى ليكون موضع رسالته ، ومبلغ وحيه ، كان يجمع بين الإيجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا اعضال ، بل هو السهل الذى لا توعر فيه ، ترى فى كلامه عليه الصلاة والسلام جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة اللفظ من غير تحسين ولا تزيين ، فهو الجمال الطبعى الذى لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة •

وكان فيه معانى الإلهام ، وجملة الله تعالى بالصفاء ، لأنه خرج من نفس صافية ، وقلب مفعم بالإيمان والصدق ، فكان صافيا كنفسه ، خاليا من الشوائب خلو نفسه منها •

وقد وصفه الجاحظ ، فقال : : الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف ، استعمل البسيط فى موضع البسط ، والمقصود فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإلهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائاه عن اعداته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهزم ولا يلزم ، ولا يبطىء ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح فى معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم » •

وانه قد اجتمع له عليه الصلاة والسلام مع سلامة المعانى حسن اختيار الألفاظ المناسبة فى الحال المناسبة من غير أن يقرع الأسماع ، بكلام له رنين ، بل بكلام يدخل على القلوب فى أناة ورفق فينسب فيها انسياب النмир العذب ويكون ثمة تناسق بين المعنى الكريم ، واللفظ الجميل من غير اعنات للأفهام ، ولا ارهاق للأسماع •

وكان فى منطقه حلاوة ، فيخرج اللفظ من لسان واضح بين ، تخرج الحروف من مخارجها ، وتقع فى مواضعها ، والسامع مشدوه من حلاوة

الكلمة ، وحلاوة اللفظ ، والمعانى الأبيكار ، فى أسلوب لا توعر فيه ، ولا تكلف ، ولقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى وصف كلامه « ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد الكلام كسرديكم هذا (١) ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه •

فكان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون بآناة ، غير مندفع فى القول ، ولا متابع له فى استعجال ، حتى أن عائشة رضى الله تعالى عنها تروى أن حديثه لو عد السامع حروفه عدا لأحصاها •

وان ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الالتقاء ، ذلك لأن الامهال فى القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ، ويتأمل المعانى ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه فى أفكاره من غير أعناات لنفسه ، ولا ملال ، وان الملل يعترى السامع ، اذا فاته تتبع المعانى ، وادراك المرامى والغايات •

١٢٤ — ومنطق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان خاليا من الفأفة والتمتمة ، وكل عيوب الكلام ، فى صوت هادىء عميق ، يجمله الصدق ، ويدخله فى مداخل النفس ، ويوجه الرشيد الى الحق • ونغمات صوته هادئة قوية فى صوت غير أجش ، ولا جفوة ، ولكن التقى فيه عمق النغم الفطرى ، بجمال الصوت ، وجهارته فى غير ضجيج ، ولا صخب •

ولقد روى أن الحسن بن على أحد السبطين الكريمين قد سأل هند ابن أبى هالة ربيب النبى عليه الصلاة والسلام من خديجة أم المؤمنين وكان هند رجلا وصافا ، سألته حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : قلت صف لى منطقة ، قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، متواصل الأحزان ، دائم الفكر ليس له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (١) • ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلا ، لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم شيئا ، لم يكن يذم ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه ، اذا تعرض أحد للحق بشيء ، حتى ينتصر له ، اذا أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل

---

(١) السرد هو متابعة الكلام من غير تمهل ، بل على الولاء والاستعجال ، فلا يعطى السمع فرصة تذوق الألفاظ والمعانى •

(١) أى يستعمل جميع فمه عند الكلام ، فلا يتكلم بطرف اللسان ، بل يقبل على القول اقبال المهتم به •

بها فضرب بابها مه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غص طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » .

وانه مهما يقل الرواة فى بلاغة كلمه ، وفصاحة لفظه وجمال نطقه ، لا نصل الى حقيقة بلاغته ، فان المأثور الذى نقرؤه ، نجد فيه العلم المجتمع ، والعبارات التى يستطبيها كل مستمع ، يجد فيها نفاذ الالهام ، وتناسق الألفاظ ، وترى فيه الحكم ، وحسن المأخذ ، والجمع بين الأطراف فى لين ويسر من لفظ جاف ، ولا معنى مستخف ، بل كل الكلام فى معناه وخواتمه ، ومأخذه ، يدخل الى القلوب ، فيجد مساكنه ، وان المستشهد بقوله يردده أمام العامة ، فيلقفونه ، وأمام الخاصة فيهمضونه ، يفهمه كل انسان مهما تكن طاقته ، لا يتخير غريبا لغرابته ولا لفظا لحلاوته ، ولكن كل ذلك يجرى فى رفق ، بل هى السليقة الكاملة تنطق ، والفصاحة الفطرية تتكلم ، وليس ذلك قولنا للمحبة فقط ، ولكن الحقيقة .

وحق علينا أن نقول مقالة الجاحظ بعد وصف كلامه ، وخشى على نفسه أن يقال انه انبعث من المحبة ، فقد قال ، ولعل من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلا والذى حرم التزويد عند العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعيه .

كبرت كلمة من يقول اننا تجاوزنا الحد فى وصفنا لبلاغة خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال تحديثه ، وبلوغه من البيان الانسانى اعلى مراتبه الذى لا يبلغ شأوه أحد ، بل هو الحق الذى لا امتراء فيه ، أننا لم نتجاوز الحد ، ولكن لم نبغى ولم نصل اليه .

١٢٥ — وأنه من الحق علينا أن ننقل الى القارىء ما قاله القاضى عياض فى وصف فصاحة محمد عليه الصلاة والسلام وبلاغته ، فقد قال رضى الله تعالى عنه : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببداائع الحكم ، وعلم السنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويبار بها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ... ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل

الحجاز ، ونجد كلامه مع وطيفة الهندي وقطن بن حارثة العليمي والأشعث ابن قيس ، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال حمير ، وملوك اليمن » (١) .

وان هذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم كل لهجات العرب ، وقد أتاه ذلك من إقامته بمكة المكرمة التي كان يلتقى فيها بقبائل العرب ، في موسم الحج ، مع حرص على تعرفها ، وذكاء مدرك لها ، وتحصيل واع لكل ما يسمع ، وحفظ لكل ما يجرى حوله .

ولقد ذكر بعض الرواة أنه كان يعرف ألفاظا كثيرة من الفارسية ، والرومانية ، وان لذلك شاهدا من كتبه للرومان ، فقد جاء في ذلك الكتاب : « أسلم تسلم ، والا فعليك اثم البريسيين » ، وهذا لفظ روماني استعمل في معناه الدقيق ، وهم العامة والزراع وغيرهم من الدهماء .

وان تعلمه لهجات العرب وفوارق لغاتهم يدل على أن الله تعالى كان يعده لهذه الرسالة الالهية العامة ، ولقد ساق القاضي عياض شواهد من كتبه عليه الصلاة والسلام الى همدان ، ووائل بن حجر ، ووازنها بكلام قريش في الصدقات .

ثم يقول القاضي عياض في الشفاء :

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة ، وحكمه الماثورة ، فقد ألفت فيها الكتب ، ومنها ما لا يوازي فصاحة ، ولا يبارى بلاغة كقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « الناس كأسنان المشط » . « والمرء مع من أحب » . « ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ، « الناس معادن » « وما هلك امرؤ عرف قدره » . « والمستشار مؤتمن » . « ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » وقوله « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » وقوله : « ان أحبكم الى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، المواطنون أكنافا الذين يالفون ويؤلفون » . وقوله : « ولعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه ، ولا ييخل بما لا يغنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها » ، ونهيه عن قيل ، وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنع هات وهات ، وعقوق الأمهات ، وواد البنات » وقوله : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » . وخير الأمور أوسطها » ، وقوله : « أحبب حبيبك هونا

---

(١) الشفاء ص ٤٤١ .

ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما » وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ،  
 وقوله فى بعض دعائه : « اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى  
 وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعئى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ،  
 وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من  
 كل سوء ، اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش  
 السعداء ، والنصر على الأعداء » . هذا ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته  
 ومحاضراته ، وخطبه ، وأدعيته ومخاطباته » (١) .

ولقد ذكر من بعد ذلك القاضى عياض عهوده عليه الصلاة والسلام التى كان  
 يعاهد بها القبائل ، والمهدنات التى يهادن بها ، فانها بلغت من احكام الموثيق ،  
 ودقة الشروط ما لا يصل اليها تحرير كاتب ، ولا توثيق معاهد ، فانها بلغت مرتبة  
 لا يقاس عليها ، ولا تحاكى ، وسبق فيها سبقا بعيدا لا يقدر قدره .

ونذكر أن لـ محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) عبارات لم يسبق  
 بها ، فقال رضى الله تعالى عنه .

وقد جمعت من كلماته التى لم يسبق اليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ فى  
 قلبه عليها ، كقوله : حمى الوطيس ، ومات حتف أنفه ، ولا يلدغ المؤمن من  
 جحر مرتين . السعيد من وعظ بغيره » (٢) .

وهكذا يثبت القاضى عياض فصاحة الكلم النبوى ، والبلاغة المحمدية  
 بما ساق من عبارات جامعة ، ومعان رائعة ، وألفاظ ينبثق منها النور ، وتضبط  
 بها حقائق هذا الوجود .

١٢٦ — وأننا ان تركنا أقوال الذين شاهدوا وعايينوا من صحابته  
 والذين روى المنقول فى سيرته ، وعمدنا الى الأحاديث المدونة الصادقة  
 النسبة ، والتى رواها العدول طبقة بعد طبقة ، وأردنا أن نتعرف نسق بيانه  
 من عباراتها ، ومحكم معانيها من ألفاظها ، لوجدنا من بعض ما يتبين فى ذلك  
 النسق :

( ١ ) أن اللفظ يجىء سهلا ، نجد فيه الجمال الطبعى ، نجد الألفاظ  
 متناسقة يأخذ بعضها بحجز بعض ، مع الإيجاز ، واحكام المعنى ، والاتجاه

(١) الشفاء ج ١ ص ٤٦

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦

الى مقصد القول ، وتصوره ، أحيانا بالحقيقة ، ويكون لها جمال كجمال الطبيعة ، اقرأ ان شئت قوله عليه الصلاة والسلام ، فى الدعوة الى القناعة ، والرضا بالقليل ، وعدم اللجاجة التى تؤدى • « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وقوله فى الدعوة الى ضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهكذا التعبير السهل العميق فى معناه يسرى فى كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل توجيهاته ، ولذلك سرعان ما تحفظ ، فهو كلام يقال ليحفظ •

(ب) وان من خصائص البلاغة النبوية أنها لا تعلو على العقول الفطرية ، فهى تدرکہا فى أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه فى النفوس ، والخاصة يجدون فيه علم ما لم يعلموا ، انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام فى بيان وحدة الأمة الاسلامية وما ينبغى لتعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقرأ قوله عليه الصلاة والسلام فى المعاهدات التى تعهد ، والنفوس على أحقادها ولا تستل منها سخائما : « هدنة على دخن » فان كل انسان يفهم أن القلوب فاسدة ، وأن الصلح الظاهرى لا يصيب الأحقاد التى طويت عليها القلوب ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام فى فضل العمل ، وأن يكفى كل انسان مثونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره للاستعانة به « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله فى الأمر لا يختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عنزان » وقوله عليه الصلاة والسلام فى توزيع خيرات الله تعالى فى أرض الله ، كل أرض بحصتها من الرزق : « كل أرض بسمائها » وقوله فى الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رجالهن بعنف : « رويدك رفقا بالقوارير » •

وان هذه التعابير جلها جديد فى العربية لم يسبق بها فى قول قائل ، وهى واضحة المعنى بينة المقصد ، لا تعلو على العامة ، ولا تجفو عنها أذان الخاصة ، بل كل الناس يجد فيها علما لم يكونوا به عالمين •

(ج) أن كلامه عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم ، فيه حكمة ، وفيه ألفاظ قليلة ومعان جديدة لم تكن معروفة • انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد سئل : انحاسب على ما تنطق به السنن • فقد قال عليه الصلاة والسلام مجيبا ، « وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد السننهم » وقوله فى صلة الرحم عند المنابذة والقطيعة : « ليس الواصل بالمكافئ » ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ، ومثل قوله : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » •

( د ) وانه من الظواهر العامة فى كلامه عليه الصلاة والسلام انه يخاطب العقل والوجدان من غير استكراه للألفاظ أو تكلف فى المعانى ، بل كل ذلك يجرى سهلا طيبا قيما ، فيه ارشاد وتوجيه ، اقرأ قوله عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين الى أن يكونوا ايجابيين فى أقوالهم وأفعالهم ، لا يتبعون من غير تفكير : « لا يكن أحدكم امعة يقول ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس تحسنوا ، وان أساءوا فتجنبوا الاساءة » .

( هـ ) خلو كلامه عليه الصلاة والسلام من الصناعة البديعية ، فهو بديع فى ذاته من غير صناعة ، وقد يجىء أحيانا فى كلام الرسول بعض المسجع ، ولكنه مسجع غير مقصود ، بل هو من احكام القول ، فمثلا قوله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » لا شك أن فيه سجعا ، أو ما يقرب منه ، ولكن التكلف غير موجود ، وان كل لفظ منه موضوع فى معناه ، لو أردت أن تغيره ما طاوئك المعنى ، فهل يمكن تغيير كلمة غنم مع ما فيها من ثروة فى المعانى بغيرها يؤدى مؤداها ، ويكون فى ايجازها ، ونسقتها ، وكذلك الأمر اذا أردت استبدال سلم مع ما يرمى اليه من سلامة العرض واللسان عن لغوه ، وتوفير العقل ، والابتعاد عن لجاجة القول ، فهو عليه الصلاة والسلام ، لا يقول الا حكما ، ولا ينطق الا فضلا ، وتلك غاية قوله ، فان كانت حلية ، فهى الحلية التى لا تكلف فيها ، ولا استكراه فى نسقتها ، أو محاولة الصناعة التى تعطى الكلام الفطرى ، وتغشاها بغواش من ضجيج الأوزان .

وان الجمال الفطرى فى القول ، والحسن اللفظى من غير تحسين ، بل المسجع الذى يكون كسجع الحمام . يأتى من غير اعمال ولا قصد اليه ، حتى فى بيان الحقائق الشرعية ، ودقيق المعانى الفقهية ، ففى بيان الشروط الباطلة المقترنة بالعقود ، وأساس البطلان فيها ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله . ما كان من شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل ، وان كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله تعالى أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » .

الا ترى أنه كلام جميل جاء فى نسق محكم ، والحسن فيه باد من غير تحسين ، والجمال فيه بارز من غير تجميل ، وهو مع كل هذا فقه عميق ، يدرك مغزاه الفقهاء ، ويعرف معناه من لم يبلغوا فى الفقه شأوا .

وانه لو اوضح كل الوضوح أنه جاء عفو الخاطر ، ولم يكن باجتهاد فكر ،

وتجميع الفاظ ، وتنسيق كلمات ، انما كان المعنى الجيد القاصد فى اللفظ  
المحكم المصور الواضح •

( و ) وانه أحيانا يجيء كلامه القصصى الذى يحكى قصة فى أسلوب  
تصويرى ، تنطق فيه حقائق القصة وأبواب العبرة فى كلام مرسل سهل ، يمكن  
القارئ أو السامع من أن يصل الى غايتها ، ويدرك معانى هدفها المصادق من  
غير اسراف فى اللفظ ، ولا نقص فى الأداء ، ولكن وفاء وكمال فى غير حشو ،  
ولا لغو ، واليك قصة أصحاب النار ، كما روى البخارى وغيره : « بينما  
ثلاثة نفر يمشون فأخذهم المطر ، فأووا الى غار فى جبل ، فانحطت على فم  
غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا  
عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال  
أحدهم • اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامراتى ، ولى صبية  
صغار أرعى عليهم ، فاذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدتى فسقيتها قبل بنى ،  
وانه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم أت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت  
كما كنت أحلب فجئت بالحلاب ، فقممت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما من  
نومهما ، وأكره أن أسق الصبية قبلهما والحسبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل  
ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ،  
فأخرج لنا منها فرجة نرى منها السماء •

ففرج الله منها فرجة ، فراوا منها السماء •

وقال الآخر اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال  
النساء ، وطلبت فأبى ، حتى آتيتها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار  
فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجلها قالت يا عبد الله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم  
الا بحقه ، فقممت عنها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا  
منها فرجة ، ففرج لهم •

وقال الثالث : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز (١) ، فلما  
قضى • قال أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه ،

---

(١) جاء فى القاموس المحيط الفرق بسكون الراء وفتحها وفتح الفاء  
ومكيال بالمدينة ثلاثة أو يسق ستة عشر رطلا ، وجمعه فرقان ، والخلاصة أنه  
وعاء لكيل الحب من أرز وغيره •



حتى جمعت منه بقرا ورعاءها ، فقال اتق الله تعالى ، ولا تظلمنى حتى • قلت اذهب الى تلك البقر ورعائها ، فخذها ، فقال : أتهزأ بى ، اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت انى لا أستهزئ بك خذ لك البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب •

فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى •

واننا نقف عند القصة الصادقة ، فانا نجد العبارات السهلة المستقيمة ، ويجوارها التصوير للأفعال التى تنبعث من القلوب ، ويقصد بها فاعلها وجه الله تعالى ، والحديث واضح فيه مع صدق القصة العبر والمعانى التى ذكرها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنها يبرز :

أولا : ان الأعمال بالنيات ، وان الله تعالى لا يقبل الا الطيب من الأعمال ، ولا يكون العمل طيبا الا اذا قصد به وجه الله ، وابتغاء ما عنده لا يريد جاها ، ولا شرقا ولا مالا ، انما يريد الله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشئ » ، لا يحبه الا الله •

وثانيا : أن قدر الله تعالى يسير على نظام محكم فى علمه ، وبحكمة بالغة يقدرها ، وأنه سبحانه وتعالى ينزل الفرج ، لمن يتجه اليه ، وأنه يجيب دعوة المكروب ، لخير قدمه ، ولا خلاص قلبه ، وابتغاء ما عند ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » :

وبدل ثالثا : على أن الله سبحانه وتعالى يجازى المؤمن الفعال الذى يتجه فيها الى العمل الايجابى الذى ينفع الناس ، وخصوصا الأقربين ، كما رأيت فى الخير الذى قدمه الرجل الأول ، من احسان الى أبويه ، وتقديمهما على أولاده الصبية الصغار ، وتركهم يتضاغون ، ولا يزعج أبويه ، وان ذلك هو الايثار ، لأن الأولاد قطعة منه ، فتقديمها لتقديم لنفسه ، فتقديمهم اثره ، وتقديم أبويه ايثار ، فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » •

وبدل رابعا : على أن الكف عن الشر بعد أن تتوافر دواعيه وتهجم أسبابه هو من الأعمال الايجابية التى يثاب عليها المرء ، فالفضيلة ايجابية ، وليست سلبية •

وبدل خامسا : على أن الوفاء بالحق فضيلة الاسلام ، وأنه ليس بقريب من الله من أكل حقوق غيره ، وأقرب الناس من أعطى كل ذى حق حقه ، وتدل

القصة فى ضمن ذلك على أن أجر العامل يجب أن يوفى ، وأن يعطى العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

( ز ) هذا وان احكام القول ليبلغ فى الأخلاق والمعاهدات التى عقدها النبى عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة ، فهو يعقد المعاهدات ، لا يترك فيها حقا الا سجله فى عبارات واضحة مانعة من الجهالة التى تفضى الى نزاع فى فهمها ، ولا يترك فيها واجبا عليه الا دونه فى عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف ، بل هى صريحة كاملة الشروط ، لأن مقاطع الحقوق عند الشروط •

ولو أن ساسة هذا العصر درسوا مخلصين وثائق المعاهدات التى أملاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا متجهين الى الحق أن يحرروا معاهدات خالصة لوجه الحق ، لا يجدون ثروة يأخذون منها الا معاهدات النبى الأسمى ، وسيكون لذلك فضل من الكلام عند التعرض لسياسته ان شاء الله سبحانه وتعالى •

### ٣ - الخلق الكامل

#### ( ١ ) الرفق

١٢٧ — قال الله سبحانه وتعالى لنبىه الكريم : « واثق لعلى خلق عظيم » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد فى مسنده : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » •

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول فى معناه كثيرا ، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها ، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة ، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد ، ويشمل حب الناس والرفق بهم ، ويشمل التواضع ، وتوطىء الكنف لهم ، ويشمل البشر ، ولقاء الناس به ، ويشمل الأناة والحلم ، ومنع الجفوة ، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف ، ويشمل الجود بما عنده ، والزهد فيما ليس عنده ، ويمنع الغلظ والفظاظة ، ويشمل العفو عن المسيء ، واقالة عثرته ، ويشمل الرد على المسيء بالاحسان ، ويشمل تخليص القلب من الاحن ، ويشمل الاعراض عن الجاهلية ، وترك

المهاترة ، والممارسة والمجادلة ، ويشمل التيسير ، وترك التعسير ، والتبشير ، دون التنفير .

وفى الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتألف مع الناس ، والقرب اليهم ، وتوطيء الكنف لهم ، والتواضع ، والرفق بالضعفاء ، والقرب منهم ، والألم لآلامهم ، والسرور لسرورهم ، والاندماج فيهم من غير تأثير ، ولا تجانف لاثم .

وان الخلق الحسن يؤثر فى الدعوة الى الحق ، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة .

وانه من أوصاف النبوة ، ولقد قال الله تعالى فى ثمرات الخلق الحمدي « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

#### (ب) العفو :

١٢٨ — ولقد هيا الله تعالى محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ليكون الهادى الى الحق ، والى صراط مستقيم ، فوهبه الخلق الكامل ، الذى يؤلف القلوب ، ويجمع النفوس ، الا من طغى واستكبر ، وأثر الهوى على الحق ، وكان قبل البعثة يحب العشير ، ويقرب الصديق ، ولا يعنت أحدا بعداوة ، بل كان الملاك الطاهر بينهم ، يعف عن قول الخنا وفعله ، ويبتعد عن الهوى وجموحه ، لا يعادى ، ولا يصخب ، ولا يفحش فى قول أو عمل ، وهو الصادق ، وهو الأمين ، وهو الذى يعين الكل ، ويغيث الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، يعفو عن ظلمه الا أن يكون فى ذلك انتهاك لحرمة من حرّمات الله ، أو اعتداء على فضيلة .

واذا كان المسيح عيسى ابن مريم قد كان خلقه السماحة يعفو عن المسء كذلك خلق النبيين عامة ، وخلق محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان ذلك ايجابيا ، وليس سلبيا ، يفعل الخير ويجتنب الشر ، وكان التاجر السمح الصبور ، حتى انه يروى بعض القرشيين أنه بايع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببيعة قبل البعثة ، وبقي شئ لم يأخذه من محمد ، فانتظره النبى عليه الصلاة والسلام ثلاث ليال ، وكان يذهب فيقيم فى مكانه الذى غادره فيه ، حتى لا يضل فلا يهتدى اليه ، فيضيع حقه الثابت له .

ولقد امتدت هذه الأخلاق الى ما بعد النبوة ، فكانت دعامة الدعوة ، فسار بسنة العفو عن الاساءة ، والاعراض عن الجاهلية استجابة لقوله سبحانه وتعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقد كان ذلك الخلق يجذب الناس الى الايمان من غير دليل ولا برهان ، وان كان الحق واضحا فى ذاته ، وزاده وضوحا خلق النبى الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولنذكر واقعة كان العفو فيها داعية الاسلام .

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا ، والناس قائلون ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا وهو قائم ، والسيف مصلت على رأسه فى يد الرجل ، وهو يقول : من يمنك منى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام بقلب مؤمن ولسان صادق : « الله » ، فسقط السيف من يد الرجل . فأخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « من يمنك منى » ، قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه . فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله ، فقد ذهب الرجل الى قومه يحببهم فى محمد ( عليه الصلاة والسلام ) ودينه ، يقول : « جئكم من عند خير الله » ، ولقد قال فى مجمل أخواله هند بن أبى هالة ، وهو ابن أم المؤمنين خديجة من غير النبى .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يخزن لسانه . الا بما يعنيه ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يفعل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده ، أهمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة (١) .

وقال هند هذا فى مجلسه : كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه من جالس ، أو قاله فى حاجة ، صابره ، حتى يكون هو المنصرف . ومن سألته حاجة لم يرد الا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، وصاروا عنده فى الحق سواء .

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تغشى فيه فلتاته ، متعادلين يتفاضلون بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب (١) .

ويقول : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا نشتهى ، ولا يوءس منه راجيه ولا يخيب فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المرء والاكثر وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث . كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه . اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسالته ، حتى ان أصحابه يستحلمونه فى المنطق (٢) اذا رأيت طالب حاجة ، فارفده ، ولا يقبل الثناء الا من مكافء ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام . ويقول كان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، فأما تقديره ، ففى تسويته النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ، ففيما يبقى ويغنى ، وجمع له الحلم والصبر ، فكان لا يفضه شئ ولا يستفزه .

### (ج) اخلاقه خارقة للعادة :

١٢٩ — ولنقف وقفة فى تجزئة ذلك القول البليغ ، ودلالته على ما وراءه مما ينبغى أن تكون عليه أخلاق الداعى الى الحق ، وصاحب الرسالة التى حملها الله تعالى ، وأثر هذه فى الاجابة .

لقد قال بعض الكتاب معددا الخوارق التى صاحبت الدعوى المحمدية ، قال ان من أعظم الخوارق التى كانت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخلاقه ، فكانت فى ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بنى الانسان ، فهى أعلى من

١

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣ .

(٢) الكتاب المذكور ، وابن الحرم معناها المامه بها ، ولا يغشى فلتاته لا تستر .

أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وليس فيه روحانية عيسى عليه السلام المجردة بل كانت فيه الروحانية الانسانية ، بما فى الانسان من مطالب الجسم ، وتجرد الروح ، فمحمد صلى الله عليه وسلم بين الناس الانسان الذى تتجلى فيه الانسانية الكاملة ، وفى طبعه روحانية ارادية ، فكل ما فيه من أخلاق القربية والارادة ، دخل فى تكوينه ، فهو ليس حصورا ، ولكنه عفيف لم يتدل الى خنا قط ، ففضيلته كف للشر ، وتجنب له ، والعفة من حصور ، ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه ، وأهواء تعانده ، وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة ، والغلب للفضيلة ، وما يكون الوصول اليه بغالب يكون أعلى وأنفس ، مما يجيء رخيصا سهلا .

١ - وان من أول صفات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكره ربيبه هند ، أنه يخرن لسانه ، أى يكون لسانه كأنه فى خزانة قد ستر لا يظهر الا لخير يرتجيه . فلا يشجع على نفرة ، بل أنه لا ينطق الا فيما يعنى الذين يخاطبهم ، ويفيدهم ، ويكون فيه تأليف لقلوبهم وتقريب لنفوسهم ، وتأنيس غريبهم ، ويأمر باعطاء ذى الحق ، ولا يتكلم فى مرأ ، ولا يذم أحدا ولا يكثر فى قول ، خشية سقط اللسان ، لا يعيب الحرمات ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول ، فاذا تكلم هو كان كلامه فصلا ، وكان قوله حكما .

وجملة القول فى ذلك أنه قد استولى على لسانه ، فلا يتكلم الا اذا لزم الكلام لرفع حق ، أو خفض باطل ، أو تأليف ، أو زرع مودة ، أو اسداء معروف ، فلسانه ليس خارجا على ارادته ، ولكنه مكملها ، ويسير تحت سلطانها ، وارادته للحق .

٢ - والصفة الثانية من أخلاقه أنه يأتلف مع أصحابه ، ويمتزج احساسه الفاضل باحساسهم لينساب الى نفوسهم ، يكرم كريمهم ، ويرفع خسيسه صغيرهم ، حتى يحس بأنه منه ، ويوزع محبته بينهم ، ويعطى نفسه لكل واحد منهم حتى أنه يظن كل واحد منهم أنه موضع الرعاية منه ، واذا رأى أمرا حسنا أعلن حسنه ، وان رأى قبيحا نبه اليه فى رفق الهادى الأمين الذى يؤلف ، ولا ينفر ، ويقرب ، ولا يبعد ، لا يسكت عن باطل .

وهو بينهم اليقظ الذى لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لا يطوى نفسه لأحد على شر ، وينقذهم ، وكان حريصا يحذر من يتوهم منه شرا ، ويحترس منه من غير تقطيب وجه ، أو غلظة فى قول ، بل هو فى كل أحواله ،

الأليف المؤلف • يفتح قلبه لهم ، ليقول خيارهم ما تنطوى عليه نفوسهم ، ويستحى غيرهم من أن يظهر خبيثة نفسه ، بل يبقى حبيسا لا يظهر ، وربما خبا فيزول ، ويستقيم أمره ، فان بعد الرذيلة عن النور والماء يذبلها ، بل يذهبها •

٣ - والصفة الثالثة المتواضع الكريم الذى لا ضعة فيه ولا ذلة ، فهو اذا دخل على جماعة جلس حيث ينتهى المجلس وحث أصحابه على ذلك ، ويتطامن لهم فى المجلس ؛ ويمسهم بجناح الرحمة ، ويسوى بينهم ، وبشره مستمر ، يلين جانبه لهم ، ويغض الطرف عما لا يحسن الا أن يكون فى السكوت ترك لواجب الارشاد ، وان أرضد ففى رفق يكتفى بالاشارة • فان لم يكف كان التعريض ، فان لم يكف كان التنبيه فى تعميم ، فاذا رأى بعض الناس يسىء ، لا يواجهه بالاساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، ولا شك أنه اذا كان التوبيخ فيه معنى العموم كان اللطف ، وكان مع ذلك أقفل ، وأبلغ أثرا •

ولا يمزح الا قليلا ، وان مزح فبعبارة فيها حكمة ، ولا تخلو من بيان كقوله لعتمه صفية : « لا يدخل الجنة عجوز » فبكت ، فقال عليه الصلاة والسلام ، تكن « كواعب أترابا » ألا ترى فى هذا مداعبة لطيفة تخبر عن حال من أحوال الآخرة •

٤ - الصفة الرابعة بعده عن الغلظة والجفوة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا عياب ، ولا متتبع للعورات ولا صخاب ولا فحاش ، فلا يفحش فى القول ، وان كان صدقا ، فان النطق بهجر القول ، ولو كان وصفا صادقا لمن يرمى به ، فانه لا يصح النطق به الا اذا ترتب عليه ضياع حق أو نصر باطل ، فانه يذكر موضوعه ، ومن غير تخير للفاحش •

٥ - الصفة الخامسة : الامتناع عن الذم امتناعا مطلقا ، الا أن يضطره الحق اضطارا ، فانه يتكلم بالكناية ، ولا يرتضى للعبارة سترا ، وإبعادا عن الفحش ، فلا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، وما يجلب خيرا للناس •

٦ - والصفة السادسة : التى يدل عليها هذا الكلام من ذكر أخلاقه ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يلتزم السكوت كما أشرنا ، ولكن ليس سكوت المعى الحصر ، بل سكوت من يفكر فى القول قبل أن ينطق ، ومن يحذر من أن يشيع عنه ما لا يليق بمثله ، وهو يقدر ، وقد يكون سكوته حلما وعقلا ، وأغضاء ، واعفاء عن يكون فى قوله سوء •

٧ - والصفة السابعة : أنه لا يغضب لشيء يتصل بذاته ، ولا يستفزه شيء يتعلق به ، بل لا يغضب الا لله أن تنتهك حرماته ، فاذا كان ذلك لا يسكت حتى يقام حد الله .

١٣٠ - هذا ما وصفه به هند بن أبى هالة ، وقد كان رجلا وصافا للرجال ، لا تفوته اللحامات ، ولا تختفى عليه النظرات ، وتتكشف دخائل النفوس من العبارات ، وقد لخصنا لك بعض ما تنبىء عنه الكلمات .

ولننقل بعضا من قول من عاشروه وخالطوه ، لتعرف كيف كان عشيرا وفيا ، وذا خلق هنىء ، لا جفوة ، ولا جفاء .

لقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة ، وهى التى عاشرتة ، وهو يحمل أعباء الانسانية كلها ويخوض الحروب ويتنقل بين ميادينها - أنها قالت فى أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما ضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده خادما قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما خير بين شيئين الا كان أحبهما اليه أيسرهما الا أن يكون اثما ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه ، حتى تنتهك حرمت الله ، فينتقم لله عز وجل .

ولقد وصف أبو هريرة صاحبه ، فقال :

كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، بأبى وأمى ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق .

وان هذا الوصف لذلك الصحابى الجليل ، ينبىء عما كان عليه الصلاة والسلام من معاملة للناس ، وقد وصفه فى هذا بثلاث صفات :

أولا : أنه فى لقاءه يقبل بنفسه كلها على من يلقاه ، فلا يلقاه لقاء جانبيا أو يكلمه بطرف من لسانه ، أو يستقبل استقبال المستهين ، بل هو واضح فى إقباله ، كما هو واضح فى أدباره ، فان تركه لا يتركه الا بعد أن يتم حديثه ، وعندئذ يتركه ، فلا يبقى حديثا لم يستمع اليه ، ولم يستمع اليه وهو يولى مدبرا .

والصفة الثانية - أنه لم يكن يجبه الناس بفحش ، أو بخروج القول عن جادته ، وقد أشرنا الى هذا فى وصف ربيبه هند بن أبى هالة .



الصفة الثالثة - أنه لا يصخب ، ولا يغاضب ، ولا يجادل فى الأسواق ،  
بل كان كل شيء فيه على سمت حسن وجلال .

وقد أشرنا الى أنه عليه الصلاة والسلام كان كما يستفاد من وصف ربيبه  
له متواضعا أبلغ ما يكون التواضع ، ولقد خير عليه الصلاة والسلام بين أن  
يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا .

هذا هو النبى صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله تعالى رحمة  
للعالمين ، وقد بعثه فى قوم شمس ، فيهم عنجهية جاهلية وغطوسة نسبية ،  
يخير نبيهم المبعوث لهم بين جبروت الملك ، ورق العبد ، فيختار رق العبد ،  
لأنه يريد أن يقرب من النفوس ، لا أن يعلو عليها ، فالرشاد يجرى من القريب  
منهم ، ويبتعد عن المستعلى عليهم .

روى أبو أمامة رضى الله تعالى عنه قال : « خرج علينا رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم متوكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما  
يقوم الأعاجم يعظم بعضا بعضا ، وقال : انما أنا عبد أكل ، كما يأكل العبد ،  
وأجلس كما يجلس العبد » .

وقد جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : وفى حديث عمر رضى الله  
تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تطرونى كما  
أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وعن  
أنس رضى الله عنه أن امرأة كان فى عقلها شيء ، جاءت ، فقالت : ان لى اليك  
حاجة . قال صلى الله عليه وسلم « اجلسى يا أم فلان فى أى طرق المدينة شئت  
اجلس اليك ، حتى أقضى حاجتك » (١) .

ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام فى أهله موطأ الكنف ،  
يعين أهله فى مهنة البيت ، ولا يستنكف ، يغسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقع  
ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويأكل  
مع الخادم ، ويحمل بضاعته .

وكانت الأمة من اماء المدينة اذا احتاجت الى من يعينها من الرجال ،  
ولقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعانها فى حاجتها ، حتى  
تقضيها ، ثم ينصرف عنها موفورا غير منقوص .

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٧٦ .

## هيئته :

١٣١ — ومع هذا التواضع الكريم غير الذليل ، كانت هيئته فى القلوب أشد ما تكون هيئة الرجل الذى اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ، وما كان تواضعه الا لما يعلمه من فرط هيئته ، فيلطفها بذلك التواضع ، بل انهما نبعا من هيئة واحدة ، فهما متاخيّتان ، بل انه لا يتواضع هذا التواضع من غير ان يتضع ، الا من يكون قويا فى نفسه ، لا يحس بأنه ينزل الى المهانة فيما يفعل ، وفيما يدع .

ولقد وصف الواصفون مجلس النبى عليه الصلاة والسلام بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته ، وقوة وقاره ، وسمته ، فقد كان مجلسه عليه الصلاة والسلام يحفه الوقار ، لا يتكلمون الا اذا اذن فى القول ، فاذا صمت صمتوا ، لا يخرجون عن قوله ، ولا يبعدون عن ارادته . ولكن فى تواضع ، واطمئنان .

وقد كان أحيانا يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ، ويريد هدايتهم ، وأحيانا كان النساء يسترسلن فى القول فى مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول ، وهو قسادر على اسكاتهم بنظراته ، ولكنه لا يرمضهن ، ولا يمنعهن .

وقد كان يرشد بعض النسوة ، فكن يتسابقن فى سؤاله ، فتصايحن عليه ، فدخل عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهن يتصايحن فى تسابق الى السؤال ، فسكتن : فابتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت سنه ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، ما الذى أضحكك ؟ فقال الرسول الكريم الرؤوف الرحيم : هؤلاء النسوة كن يتصايحن على ، فلما رأينك سكتن ، فقال عمر : أى عدوات أنفسهن أتهيننى ولا تهين رسول الله .

فالت احداهن : ولكنك أفظ وأغلظ ، فأسكتها الرسول ، وقال القوي المهيّب ، نافيا الغلظة عن صاحبه : « لا ، ان الشيطان لا يسير فى فيج يسير فيه عمر » .

ولم يكن عمر أشد هيئة من النبى بل النبى المهيّب المحبوب ، ولكنه يتطامن ليصل الى القلوب ، وهو لا يترك هيئته ترهب ، ولكنها هيئته ما كانت الا لترشد ، فالارشاد غايته فى حاله مهيبا ومتواضعا .

وان أخبار هيئته فى مبدأ البعث لها صور ووقائع ، ولكن ما كان عليه الصلاة والسلام يسلط هذه الهيئة التى تفرض صاحبها الا نادرا ، لتكون

استجابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذى لا يدخله رهبة ولا ترغيب الا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة .

ولكن ان كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجها لوجه ، ورأى فيهم استهزاء مقيتا ، وانفرد بهم ، بين بأس الله تعالى عليهم ، وقوته وما وهبه الله تعالى من هبة ربانية ، ولنذكر من ذلك واقعتين .

احدهما - أنه يروى عمرو بن العاص أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف بالمبيت ، والمأ من قريش جالسون فى فنائه ، فكلما مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غمزوا بالقول ، فيبدو ذلك فى وجهه ، وكرروا ذلك حتى أتم الطواف سبعا ، ثم التفت اليهم ، ووقف وقال لهم فى قوة المؤمن ، وعزمة الصادق ، وهيبة القائل : يا معشر قريش شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ؛ لقد جئكم بالذبح ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فراعهم قوله وأفزعهم ، فما كان منهم أحد الا كان يرفوه بأحسن القول ، ويقول اذهب أبا القاسم موفورا . ما علمنا عليك شرا قط .

ولا شك أن الهبة الانسانية التى منحها اياه رب العالمين كانت هى الفاصلة فى هذا ، وما كان للتهديد الذى ساقه عليه الصلاة والسلام له الأثر النفسى ، الا لصدوره عن مهيب قوى .

الثانية - أن أشد الناس طغيانا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن هشام الذى سماه التاريخ الاسلامى بحق أبا جهل فقد كان فاجرا ، لا شرف فى القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعه ، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت فى اندفاعه الى الشر وصبره له . ولقد كان لبعض العرب دين عليه ، فمأطله ، ثم امتنع عن السداد أن يستعين ببعض زعماء مكة ممن هم على شاكلته ليستأدوه دينه ، فأحالوه تهكما - على محمد ابن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم - فذهب اليه الرجل يستعين به ، فذهب النبى عليه الصلاة والسلام الى بيت أبى جهل الطاغية ، وطرق الباب ، فخرج اليه ، وفرائصه ترتد ، من هول العزمة المحمدية ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أد للرجل دينه ، فذل كبرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغرا ، وصار هو أضحوكة الجاهليين أشباهه .

وكان عليه الصلاة والسلام يخفف من جأش من تناله هيئته عليه الصلاة والسلام . دخل عليه رجل ، فأصابته من هيئته عليه الصلاة والسلام رعدة

فقال عليه الصلاة والسلام : « هون عليك ، فانى لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وروى أبو هريرة : دخلت السوق مع النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وارجح أی ( أوف الميزان ) ، فيثب التاجر الى يد النبی صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده ، وقال هذا ما يفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل . فذهبت لأحملها ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

وقليل من الناس من يلتقى فيه التواضع والهيبة ، وإن محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد وصل الى أسمى درجات الهيبة ، ونزل من التواضع الى درجة يقرب فيها من كل ذى حاجة وذى ضعف ، يأنس به الضعيف ويرجوه ذو الحاجة فى حاجته .

إن أكثر الذين يستكبرون . ممن يحسون بضعف فى نفوسهم ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة شخصية تفرض هيبتهم فيستعينون بالكبرياء وغمط الناس والتسامى عليهم ، ليعوضوا النقص ، ويخففوا الضعف ، أو يخلقوا هيئة صناعية : مصدرها مال ، إن ذهب فقد ذهبوا ، أو منصب يتعالون به إذا ألقوا عنه أصيبوا بالصغار والضياع ، أما ذو الشخصية المهيبة بتكوين الله تعالى ، وبما منحها الله تعالى من علم وفضيلة وقوة نفس . فانها لا تحتاج الى المهابة الصناعية والغطرسة والاستعلاء بها على الناس ، والاستهانة بهم ، واستصغار أمورهم .

والمهابة الفطرية التكوينية المستمدة من العلم والخلق والفضيلة هى والتواضع صنوان ينبعان من معين واحد ، فهما لا يفترقان ، لأن المهابة الفطرية ليست فى حاجة الى غذاء صناعى ، بل إن المهابة توجب التواضع ليكون التآلف والتكامل الجماعى .

### العفو والتسامح :

١٣٢ — ينبعان من قلب سليم وخلق كريم ، ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها فى خلق النبی صلى الله تعالى عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » ، فهو يأخذ بهديه . ويتبع منهاجه من غير عوج ، ولا التواء ، والله تعالى يأمره بقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

واستمع الى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » •

وقد هياه الله تعالى قبل البعثة ، ليكون العفو عن هفوات الناس ، المتجاوز عن أخطائهم ، وأن العفو والسماحة لا يسكنان الا قلبا خاليا من الأحقاد والأضغان ، ومن يعمل ليقود الخلق الى الحق لابد أن يكون نظره الى ما هو أمامه ولا ينظر الى الوراء ، والأحقاد والأضغان ، ومحاسبة كل امرئ على ما كان منه ، انما هي تشد صاحبها الى الوراء ، فلا يكون تفكيره الى ما يجب عليه القيام به فى المستقبل ، بل يكون تفكيره فى شفاء غيظ من أسقامه التى كانت فى الماضى ، ومن يأتى برسالة داعيا الى الحق ، لا يكون دبرى النفس يشغله الماضى عن الحاضر ، بل يكون عاملا للمستقبل •

محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذى خلقه ليحمل أقوى رسالة ، وأعظم هداية ، رباه ربه على الصفح الجميل ، ليكون قلبه متجها دائما الى ما هياه الله تعالى له ، من حمل الدعوة الى الحق ، متفرغا لها ، فما كان من احن يضعها دبر أذنه ، وما كان من واجب تفرغ له ليليلغ الرسالة على أكمل وجه ، فلا يشغل نفسه حقد ، ولا تملؤها احن ، فحسك الصدور يشغل عن العمل ، ويفسد الصلوات ، ويقرى بالعداوة ، ونبى الله تعالى فوق أن يشغله صغن •

ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يبعثه الله تعالى ، فلم يعلم فى تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد الجاهلية وما كانت تبثه من عداوات ، بل انه فى آخر الرسالة يعلن الصفح الكامل ، فيقول فى قوة ذى العزم من الرسل ، « ألا ان دم الجاهلية موضوع ، وأول دم أبدأ به دم عمى الحارث بن عبد المطلب » •

ولقد كان بعد البعثة حريصا على سد كل مسام الأحقاد والأضغان ، وذلك بمنع النميمة ، ولو كان ما ينقل صدقا ، فقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا ، انى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر (١) » •

ولحبته للعفو الكريم والصفح الكريم ما كان يوجه لوما على عمل عمل مادام يخص نفسه ، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى

---

(١) البداية والنهاية ص ٦ ص ٣٨ •

عليه وسلم : « والله ما قال لى لشيء صنعته لم صنعت هكذا ، ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع .

ويقول ذلك العشير الذى خدمه فى السفر والحضر : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، أرسلنى حاجة ، فقلت : لا أذهب - وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجت حتى أمر على صبيان ، وهم يلعبون فى السوق : فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قبض بقفاى من ورائى قال : فنظرت اليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس ، ذهبت حيث أمرتك . فقلت نعم أنا أذهب يارسول الله » ومضى أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حيث أمره أو طلب اليه من حاجة (١) .

هذا خبر يبدو صغيرا فى مقام أخبار النبوة المحمدية ، ولكنه كبير فى مغزاه ، وفى معناه ، وقد بدت السماحة وسماحة الأخلاق . أولا - فى أنه عفا وسامح خادمه وهو يعانده ، ويرد قوله ظاهرا ، فما لامة ، ولا عتب عليه ، ولا احتسبها عليه ، ولكنه تركه لتقديره ، وقبل ألا يذهب الا مختارا غير مأمور .

وثانيا : تتبعه ليعرف ماذا أجدى الصفح الجميل ، وعلاج شماس النفوس بالتسامح والتساهل ، والاخاء من غير اعنات ولا استكراه فى اغلاق واغضاب ، أو مغاضبة .

وثالثا : لم يكتف بألا يغضب ، بل أنه يداعبه مع ذلك ، فيقبض عليه من تفاه ، ثم يناديه مداعبا ضاحكا يا أنيس ، يدلله بتصغيره ، وهو الذى عانده ، ورد ارادته .

ثم يقول معلنا انتصار السماحة والعفو ، وعدم المؤاخذة على ظواهر الأفعال « ذهبت حيث أمرتك » هذا كمال النبوة وخلق النبى الذى يدعو النفوس الشاردة فيروضها على الحق ، ويؤنسها فى عفو وسماحة ، وصفح جميل ، بل أن الإشارة لا تعلق قط ، حتى تكون أمر .

---

(١) الكتاب المذكور .

وقال أنس هذا « كنت أمشي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذب بردائه جبدا شديدا ، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبرته ، ثم قال : « يا محمد مر لى من مال الله تعالى الذى عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » .

وان هذه السماحة ، وذلك العفو خلقه قبل البعثة ، وكان خلقه عندما اشتد الأذى ، فهو يعالج عنف قريش بالرفق فى القول ، ويعالج الإيذاء بالصفح الجميل ، الذى لا يمين به ، ولكنه يهدى به من شاء الله تعالى ، ولو لم يكن العفو أساسا ، لطلب من الله تعالى كما قال تعالى عن نبيه نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ، ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض ، ولكل أمة رسول تكون أخلاقه على ما يكون سبيلا لهدايتها ولارشادها .

روى أنه لما كذبت قريش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالغت فى الأذى ، ولما لجأ الى ثقيف فى الطائف أغروا سفهاءهم . أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « ان الله تعالى قد سمع تحول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم - فناداه ملك الجبال وسلم عليه . وقال مرنى بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ( الجبلين اللذين يحيطان بمكة المكرمة ) قال النبي السمع الكريم : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » .

وذكر ابن المنكر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن يطيعك ، قال أوخر عن أمتى ، لعل الله تعالى أن يتوب عليهم » .

وان سماحته عليه الصلاة والسلام وعفوه ليبدو ان فى عفوه عمن عادوه وأذوه وقاتلوه ، ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والقتال الاسلوكه ، وما تركوا كيذا الا كادوه له ، ثم آل الأمر الى أن ينتصر عليهم نصرا مؤزرا .

عندما فتح الله تعالى له مكة المكرمة ، نادى الملا من قريش ، ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الايمان ان كان لهم النصر ، ولكنه فكر فيما ينبغى لمثله معهم ، وتطبيب قلوبهم ، وازالة الأحقاد من نفوسهم ، فقد قال لهم فى ود رآه فى موضعه : ما تظنون أنى فاعل بكم ، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، ما نظن الا خيرا ، قال أقول لكم ما قاله أخى يوسف لأخوته : « لا تشريب عليكم

اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وبذلك أنهى الأحقاد ، ووضعها دبر أذنه ليستقبلوا عهدا جديدا فى الاسلام •

ان الداعى بدعاية الحق ، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين : أحدهما إدراة التآلم من الناس لأذى سبقوا به ، أو لحسك الصدور ، أو لفحش كان منهم ، فانه جاء لهدايتهم ، لا لمقابلة اساءة بمثلها ، ولا ليشغل نفسه بالنقمة بهم ، وان كانت حقا أو أخذ حق ، ولا علاج لذلك الا بأن يجعل نسيان الماضى ، والتسامح ، هو السبيل لهذا النسيان ، والعفو عما سلف من سيئات هو الذى يمكن الداعى من الخلاص الا من الحق •

ثانيهما : أن يبعد الأثرة عن نفسه ، فلا يفكر فى العمل لنفسه ، وذلك يقتضى الايثار ، والفناء فى دعوته التى يدعو اليها ، وان تطهير النفس من الأثرة ، انما يكون بتغليب ترك الحقوق اذا لم يكن فى تركها اقامة لباطل ، أو خفض لحق ، أو سكوت عن حق عام ، فالداعى ينسى حقوقه الشخصية ، بل يهملها من غير تهاون ، ولا يترك حقا عاما ، ولا أمرا من موجبات دعايته ، فان تساهل فى حقوقه ، فلكى يتفرغ ب كله للحقوق العامة •

واذا كان ذلك ما ينبغى أن يكون عليه دعاة الحق ، والناصرين له من الناس ، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العالمين ، انه ينسى حقوق نفسه ، فيعفو عنها ، ويذكر حقوق الناس ، فلا يفرط فى أى جزء منها •

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » •

وفى الجملة ما كان يحمل الا الخير ، وينفى عن نفسه كل ما يثيرها على أحد ، فلا يكون منه الا النفع ، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكراهة الا أن يكون لله •

## حياءه :

١٣٢ — الحياء صفة نفسية يظهر أثرها فى العمل على الا يفاجىء الشخص الناس بما يتفرهم ، أو بما لا يألون ، لا يظهر منه ما يخالف الفضيلة ، فلا يعلن رذيلة ، ولا أمرا لا يتلقاه الناس بالقبول ، ويعمل على ارضاء النفس



الجماعية ما لم يكن اثما ، وهناك صفات تلتبس مع الحياء ، أو يبدو بآدى  
الرأى أنها تعارضه •

فقد ظن بعض الناس أن الحياء ضعف نفسى ، وأنه قد يكون السكوت فيه  
نوع من الرياء ، وذلك باطل ، لأن الحياء الحقيقى ليس ضعفا ، ولا ينشأ عن  
ضعف ، انما ينشأ عن الكمال ، لأن من عنده الحياء لا يحب أن يظهر منه الا  
ما هو كامل فى ذاته ، والا يظهر منه ما هو مردول فى ذاته أو يعده الناس  
مردولا ، وذلك ليس ضعفا ، ولكنه نقاء وصفاء للمجتمع من أن ترنقه مظاهر  
الانخلاع من القيود الاجتماعية ، والتحلل من الروابط الانسانية التى تربط  
الآحاد ربطا نفسيا •

والشجاعة والحياء يتلاقيان ، بل ان تلاقيهما هو ذروة الكمال ، فان  
قول الحق فى موضعه ، وفى وقته المناسب يتلاءم مع الحياء ، والسكوت عن  
النطق بالحق فى وقت الحاجة اليه ، لا يعد حياء ، بل انه استخذاء ، والحياء  
حماية للفضيلة ، وتضييق على الرذيلة من أن تظهر ، وإذا كان للحياء اثر فى  
شجاعة قول الحق ، فانه يحمل القائل على الدعوة اليه فى رفق من غير  
عنف ، فيكون أجدى ، وأشد تثبيتا ، وأهدى سبيلا ، وان اقتضى الحق مجاهرة  
به تأخذ وصف القوة ، لا يمنعها الحياء •

ولا يظن أحد أن فى الحياء رياء ، انما الحياء ألا تنطق الا بالحق ،  
أو لا تغمطه ، أو تغمض العين على الباطل ، انما الحياء يمكن صاحبه من أن  
يسوس الحق سياسة المستمسك من غير هواده الا أن تكون رفقا •

ولقد ذكر القاضى عياض فى الشفاء فى بيان الحياء : وأما الحياء  
والاغضاء ، فالحياء رقة تعترى وجه الانسان ، عند فعل يتوقع كراهيته ، أو ما  
يكون تركه خيرا من فعله ، والاغضاء التغافل عما يكره الانسان بطبيعته ،  
وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن  
العورات اغضاء • قال الله تعالى : « أن ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحيى  
منكم • » الآية ••• عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « كان  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها » (١) •

وان مظاهر حياء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبدو فى عامة أحواله ،  
نذكر بعضها منها يدل على سائرها •

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٦٨ •

( ١ ) أن بعض أصحابه كانوا لفرط كرمه يتناولون الطعام ، ثم يأخذون فى الحديث ، فكان هذا يؤذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد يكون منه اضطراب فى بيته ، واقلق لراحة أهله ، وضيق فى ذات نفسه ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحى من أن يأمرهم بالخروج ، أو يطلبه اليهم ، أو يشير به بأى نوع من أنواع الإشارة ، حتى تولى الله تعالى تعليم المؤمنين الأدب فى هذا المقام ، وأعطى رسوله من أن يخالف قانون حياته ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم ، إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » .

(ب) ومن مظاهر حياته ، وعدم المجابهة من غير ضياع للحق ، أنه إذا كان قد بلغه عن أحد ما يكرهه ، لا يجابهه بأنه فعل ما يكره فى الشرع ، ولا يجيبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان يقول : « ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا » . فينهى عن العمل ويستنكره ولا يسمى فاعله .

وإن ذلك فوق أنه مظهر من مظاهر الحياء ، فانه أولا يجعل النهى عاما ، والاستنكار شاملا لكل من يحتمل أن يقع منه هذا العمل ، وفوق ذلك أن ذلك التعميم على قبح الفعل فى ذاته من غير تعلقه بشخص بعينه ، فالاستنكار للفعل من غير نظر الى فاعله ، ومع كل هذا فإن ذلك هو الحكمة ، لأن المجابهة للفعل فيه خزيه ، وقد يجر تكرار اللوم الى المجاهرة والاستمرار ، وإن تكرار الخزي اعانة للشيطان ، كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقوم قالوا لمحدود فى شرب خمر ، أخزأك الله ، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تعينوا عليه للشيطان » .

(ج) ومن مظاهر حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن الفعل إذا كان يندر وقوعه ، فإذا وقع لا يجابه صاحبه بالنهى ، بل يحث أصحابه على أن ينيهوه ، دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار مما رأى أنه لا يليق أن يكون لبسة الكاملين ، فلم ينبهه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينيهوه ، وقد دفع الى ذلك حياء النبى عليه الصلاة والسلام أولا - والرفق بالرجل من مرارة الاعلان ثانيا ، ومنعه من أن يقع عليه خزي ثالثا .

(د) ومن مظاهر حياته ، ولطف مودته عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا لقي الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه الى جانب آخر ، حتى يكون محدثه هو الذى ينصرف عنه .

روى أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كان اذا استقبل احدا بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه .

وروى أنس أيضا أنه كان اذا صافح الرجل أو صافحه لا ينزع يده منه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، واذا أراد رجل أن يسر اليه حديثا فى أذنه ، فيحنى رأسه له ، ويستمر حائيا رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينحيه .

وقد يقول قائل ما للاحياء والشمائى النبوية التى من شأنها أن تسهل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه أدب شخصى ليس له صلة بالدعاية أو تبليغ الرسالة !!؟

ونقول ان خلق الداعى يجذب الى موضوع الدعوة ، فلو كان الداعى فحاشا ، أو صغابا ، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته لنفر منه الناس ، وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهتمهم لون الدعوة ، بمقدار ما يهتمهم لبها .

واذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ، ويوجهها نحو الحق ، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذابا للنفوس ، فان الحياء ، يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم ، بل يجىء اليهم من جانب ما يألون ، فلا تنفر النفوس ، ولا تنشعب عن الحق ، وان عنف الداعى ، وتفحش قوله يعوق دعوته ، ويكون استتقاله مؤديا الى رده .

واذا كان مع الحياء لين فى الطبع من غير ضعف ، وقوة فى الحق وصل اليه فى مداخل سهلة لينة ، ولقد قال فى وصفه على بن أبى طالب كان أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة .

ولقد كان الالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء ، والاستمسك بالحق مزيجا من أخلاق كريمة ، جعله لا يترك التنبيه الى الحق فى رفق ، وجعله يصل الى ما يريد من ايفاله فى القلوب .

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبى عليه الصلاة والسلام بين لطف العشرة ، والحياء ، والتأديب اللطيف .

قال ذلك العربى ، وهو ابن جبير : نزلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر الظهر ، فخرجت من جناني ، فاذا نسوة يتحدثن ، فأعجبني ، فرجعت ، فأخرجت حلة حبرة فلبستها ، ثم جلست اليهن ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قبته ، فقال يا أبا عبد الله ما يجلسك اليهن ، فهبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله ، جمل لى شروء أبتغى له قيذا ، قال فمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعته ، فألقى رداءه ٠٠٠٠ ودخل الأراك ففضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقنى فى منزل الا قال لى السلام عليك يا عبد الله : ما فعل شراد جملك •

فتعجلت الى المدينة ، فاجتنبت المسجد ، ومجالسة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد ، فجعلت أصلى ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعض حجره ، فجاء صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، فطولت رجاء أن يذهب ، ويدعنى ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : طول يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائم حتى تنصرف •

فقلت والله لأعتذرت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأبردن صدره ، قال فانصرف ، فقال السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت ، فقال عليه الصلاة والسلام رحمك الله مرتين أو ثلاثا ، ثم أمسك عنى فلم يعد (١) •

انظر أيها القارئ الكريم للتأديب النبوى لأصحابه من غير أن يكون فحشا ، وفى حياء المؤمن ، وأدب الهدى المحمدى ، لقد لاحظ رجلا يرى جمعا من النسوة يعجبهن ، فيلبس أحسن ثيابه ، ويجلس اليهن ، فيسأله فيكذب ، فيراه يخطئ خطئين - أولهما - أن يخرق حجاب الحياء فيجلس فى مجلس النساء ، وذلك خدش لحيائهن ، وتهجم عليهن ، واختراق لحجاب الحياء فى ذات نفسه ، ثم يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويلج النبى عليه ، ويلومه على ما كان منه • بل انه يوهمه ابتداء أنه صدقه فى كذبه ، ويومئ من طرف خفى الى أنه لم يقل الحقيقة • فيكرر له ما اعتذر به وقتا بعد آخر بآثاء ، وذلك ليحملة على التوبة والاستغفار ، انه يريد على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب ، فأخذ يكرر السؤال فى شبه مداعبة ، وهو

---

(١) الوفا بأخبار المصطفى لابن الجوزى ج ٣ ص ٤٤٩ •

يقصد اللوم ، انه ما انتهى من تكرار القول • وهو يعرف مداه من القلب ، حتى أقر بما ارتكب ، وبأنه قد كذب على الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والاقرار بالذنب أول أبواب التوبة ، وقد ندم على ما فعل بدليل تهريبه من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

### جوده عليه الصلاة والسلام :

١٣٤ — الجود اذا لم يقصد به التفاخر ، كان بابا من أبواب الخير الذى يكون بالعطاء لذى الحاجة الذى لا يمتن فيه ولا يستكثر ، بل يبذل سدا لحاجة محتاج ، أو لاعانة مستعين ، أو ليتصدق يرجو ما عند الله تعالى ، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورا ، وهو بهذا خلق جماعى يربط المودة بين احاد الجماعة • ولقد عد الحكماء أن الفضائل أربعة جعلوا منها الحكمة والشجاعة ، والعفة والسخاء ، فهو فضيلة عامة ، لا تصدر الا عن يحس بحق الجماعة عليه •

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جوادا يعطى ما فى يده ولو كان فى حاجة اليه ، فهو علم المؤمنين أن يؤثروا على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة •

ولقد ذكر ابن عباس فقال : « كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » •

فالجود صفة ملازمة له تعلو ولا تنزل ، تعلو فى رمضان ، ويسمو علوها فى العشر الأخيرة من رمضان عندما يذاكره جبريل القرآن •

وقد كان الجواد خلقه قبل البعث ، كما استمر من بعد البعث ، اذ كل شيء فيه قد ازداد خيرا ، ولقد قالت له خديجة رضى الله عنها : « انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم » •

وقد جاء فى كتاب الشفاء ، رد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف ، وأعطى اليه العباس من الذهب ما لم يطق حمله ، وحمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها فقسما •

فكان من كرمه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يوزع كل ما يجيء اليه من غنائم ، ولا يبقى منها لنفسه شيئا ، الا ما يكفيه •

وما كان يرد طالب حاجة فقط ، حتى كان يبلغ به الجود ( أن يجود بالموجود كله ) بل انه اذا لم يكن الموجود حمل عبء الدين ليسد الحاجات .  
جاءه رجل يسأله حاجة ، فقال ما عندى شيء ، ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شيء قضيناه . ولقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد رأى محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحمل ثمن البياعات ، ليؤديه اذا لم يكن معه - قال له : « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبه ووزيره عمر الفاروق ذلك ، لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التى فطره الله تعالى عليها ، والتى جعلته فوق الكرماء والأجواد .

ولقد لاحظ ذلك أنصارى كان فى حضرة الرسول وصاحبه فقال : يا رسول الله ، أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلا لا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ كره ، وعرف البشر فى وجهه ، وقال بهذا أمرت . وذكر الخبر الترمذى .

ولقد كان جوده من فرط اعتماده على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب ، ولأنه يؤثر على نفسه ، ولأنه حمل نفسه سد حاجة أى محتاج ، فهو جود من قبيل تحمل الأعباء ، لا من قبيل السخاء المجرد ، لقد قال عليه الصلاة والسلام ، وصدق فعله قوله « من ترك ما لا فلورثته ، ومن ترك عيالا فالى وعلى » .

فمال الناس لأنفسهم الا ما يفرض من زكوات عليهم ، وأما الذين لا يستطيعون أن يعملوا أنفسهم ، فهم يكونون فى عياله ، وعليه وحده تحمل أعبائهم ، ذلك أن الفقراء عيال الله ، ويحملهم رسول الله .

يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .  
« كان رسول الله لا يدخر شيئاً » .

وعن أبى هريرة أن رجلا جاء يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مع الرسول مال فاستلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان جود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليزيد ، حتى انه يخلع ثيابه لمن يطلبها ، فقد روى الطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأى صاحب بز ، فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم ، فخرج وهو عليه فاذا رجل من الأنصار ، يقول يا رسول الله اكسنى قميصا ، كساك الله تعالى من ثياب الجنة ، فنزع القميص فكساه اياه ، ثم رجع الى صاحب الحانوت ، فاشتري منه قميصا بأربعة دراهم ، وبقي معه درهمان ، فاذا بجارية فى الطريق تبكى ، فقال ما يبكيك فقالت يا رسول الله دفع الى أهلى درهمين

اشترى بهما دقيقا فهلكا ، فدفع اليها رسول الله الدرهمين الباقيين ثم انقلب ،  
فاذا هى تبكى ، فدعاها ، فقال لها ما يبكيك ، وقد أخذت الدرهمين . فقالت  
أخاف أن يضربوني فمشى معها الى أهلها ، فسلم فعرفوا صوته ٠٠٠ ثم قالوا  
ما أشخصك بأبينا وأمنا ، فقال اشفقت هذه الجارية أن تضربوها ، فقال  
صاحبها هى حرة لوجه الله تعالى لمشاك معها ، فبشرهم رسول الله بالخير  
والجنة .

ولقد كانت عشرة دراهم مباركة ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
بركتها فقال : « لقد بارك الله تعالى فى العشرة كسا الله نبيه قميصا ، ورجلا  
من الأنصار قميصا ، وأعتق الله تعالى منها رقبة ، وأحمد الله هو الذى رزقنا  
بقدرته (١) » .

وكان عليه الصلاة والسلام ينفق ماله ، ويحرض الناس على الانفاق ،  
وكان فى كرمه كثير الاعتماد على الله تعالى فى رزقه ، فهو يقول لبلال « أنفق  
بلالا ، ولا تخش من ذى العرش اقلالا » ويقول عليه الصلاة والسلام « ما من  
يوم يصبح الا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم  
أعط ممسكا تلفا » .

وان ذلك الكرم لم يكن بعد البعثة المحمدية ، بل كان قبلها . ويقول فى  
ذلك ابن كثير :

« ثم كان قبل البعثة ، وبعدها ، وقبل هجرته ملجأ الفقراء والأيتام ،  
والضعفاء والمساكين » .

وهنا نقول ان جود محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليس جود من  
يعرض عن المال فلا يطلبه ، أو جود من يجرد نفسه من أسباب الحياة ، فلا يترك  
المال اذا جاء ، بل يطلبه من أسبابه الحلال ، الطيبة التى لا خبث فيه قط ، ولكن  
ليمر على يده مرورا ، ليصل الى الضعفاء واليتامى والأرامل والمساكين ،  
فهو يعبر من يده الطاهرة الأمانة اليهم .

لقد كان تاجرا يكسب من التجارة لنفسه ، ولزوجه الطاهرة الأمانة  
خديجة وتدر عليه الدر الوفير ، وكان يستخدم كل خبرته التجارية التى أفادها

---

(١) راجع البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥ ، وقد ذكر أن فى بعض رواته  
من يضعفه بعض الرواة .

من بيئة مكة التجارية ، ولكنه ما كان يفعل ذلك لنفسه ولا لزوجته ، ولكن ليعطى هو وهى الفقراء والضعفاء كسبهما الطيب الذى لا خبث فيه .

لقد ذكر عن عيسى عليه السلام الزهادة فى المال ، وأنه لم يعمل على كسبه ، بل تجرد منه ، ومحمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) فقد كان يعيش ويكسب ويتجر فى صدر حياته ليحصل على المال ، وينفق ما حصل عليه على الضعفاء ، فهو قد سخر نفسه عاملا ٠٠٠

وفى كل فضل ، ولكن زهادة محمد صلى الله عليه وسلم ايجابية ، ان أنها تكسب المال من الكسب الطيب ، وذلك الكسب فيه نفع عام ، لأنه اما زرع يأكل منه الانسان ، واما عمل وكدح ينمى ثروة الجماعة ، واما نقل خيرات الأرض التى يفيض من اقليم الى اقليم آخر بالتجارة ، وفى ذلك نفع عميم ، ثم ان الكسب لا يبقى يد فى الجواند ، بل يفيض به على غيره ، فهى زهادة ايجابية كادحة عاملة .

### المشفقة والرافة والرحمة :

١٣٥ — وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه رءوف رحيم ، والرافة والشفقة متقاربتان فى المؤدى ، وقد قال تعالى فى ذلك الوصف : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، وقال تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ونحن فيما كتبنا من بحوث تتصل بهذا المقام قررنا أن الرحمة تكون آثارها عامة ، وقد أشار الى ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من الحث على الرحمة ، فقال بعض أصحابه : « يارسول الله أكثر من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا » فقال عليه الصلاة والسلام « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة بالكافة » .

والشفقة وأختها الرافة تكون فى النواحي الخاصة ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان فيه الرحمة بالكافة ، وكان فيه الرافة الخاصة ما لم تتعارض الرحمة بالكافة ، وذلك يكون فى الرافة بالآثمين الظالمين الذين يرتكبون ما يوجب حدا من حدود الله ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .



وأنه عليه الصلاة والسلام كان يعالج النفوس الشاردة بالرفقة التي تؤنس هذه النفوس ، فتقرب بعدها ، وتستأنس بعد جفوتها •

ويروى فى ذلك أن أعرابيا جاء يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له أحسنت اليك ، قال الأعرابى ولا أجملت ، فغضب الحاضرون من المسلمين ، وقاموا اليه ، فأشار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم أن كفوا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ، وأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرجل ، وزاد شيئا ، ثم قال أحسنت اليك ، قال نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ، فقال عليه الصلاة والسلام : انك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شيء ، فان أحببت ، فقل ما قلت بين يدي ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك ، قال نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى بذلك ، قال الأعرابى ، نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا • فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيديوها الا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتي ، فانى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت اليه ، واستناخت ، وشدد عليها رحلها ، واستوى عليهم • وانى لو تركتكم ، حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » (١) •

ان ذلك الحديث ، ينبىء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدينه الى الحق ، ولا يهلكه ، وأنه يسوس النفوس ويتجه الى الجادة من غير عنف •

وفيه الشفقة الكاملة ، وأنها علاج النفوس ، وليس العنف علاجا ، ولكنه قمع فى غلظة ، وقد يؤدى الى الاصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته •

وفى ذلك كمال التبليغ للرسالة الالهية ، وتعليم الراعى كيف يسوس الرعية ، ويأخذها الى مواطن الحق ، وحمايته •

وان شفقته الشخصية على المتصلين به لتبدو فى معاملته لأهله من أزواج وأقارب سواء أكانوا أقربين أم كانوا غير ذلك ممن لهم رحم موصولة •

ولقد امتنع عليه النوم عندما أسر عمه العباس بن عبد المطلب فى غزوة بدر ، فكان يبكى لأنينه ، وهنا فى هذه القضية ، يبدو أمران يظهران متناقضين - أولهما - أنه لأن عمه وحبيبه العباس قد أسر ، ويذوق مرارة الأسر يشفق عليه ، ويشتد الأسى عليه - وثانيهما - العدالة المقررة الثابتة التى تسوى بين الناس فى النتائج ، اذا تساوا فى الأسباب الموجبة لهذه النتائج المؤدية اليها ، وان الجمع بين دواعى الشفقة ، وموجبات العدل عسير على غير محمد ( عليه الصلاة والسلام ) .

وان الشفقة ودواعيها ، والحرص على الواجب والعدل ، ليتجلى فى أمر زوج ابنته ، فانه كان أسيرا فى غزوة ، فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك أساره الا بفداء ، فأرسلت زوجه زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام فترسل زوجه الى أبيها تفدى زوجها بحلية عندها كانت أهدتها اليها فى عرسها أمها خديجة أعز النساء على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر فى القلب الشفيق فى الرجل العادل ، ففيه الشفقة على ابنته ، وفيه الذكري ، لأوفى النساء له وأبرهن به ، وأحناهن عليه ، وأعزهن عنده ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير ، فهنا التكليف الشاق ، والاحساس القوى ، فمحمد يبكى من فرط ما جاش فى نفسه من ذكري ، وما يدعوه الواجب ، فيجمع أصحاب الحق فى الفداء ، وهم الغزاة المجاهدون ، ويعرض عليهم النظر فى واجبه ، والرفق بأحاساسه ، وما هو بالذى يفرض عليهم الرأى .

فيكون الرأى من أصحاب الحق فيه أن يعيدوا الحلية الى صاحبيتها .

وهنا نجد محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين شفقة الأبوة ، وذكري الزوج البارة ، الحانية العطوف ، والواجب العادل الذى عليه أن يؤديه .

وان شفقتة الأبوية التى لا تتعارض مع الواجب ، أو لا يعارضها واجب من العدالة ، والتسوية بين الناس لتبدو فى شفقتة ، على ابن زينب ، وهو يحتضر ، فقد أرسلت الى أبيها نبي هذه الأمة ، ولكن الرجل الشفيق خشى من ضعف الشفقة أن يرى حفيده يحتضر ، فأرسل اليها عليه الصلاة والسلام يقول لها « ان لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى ، فلنحتسب لنعتبر ، ولكنها تصر على أن يحضر ، وتقسم عليه ، فقام اليها النبي ، وقام معه من بحضرته من صحابته ، فوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجره ، ونفسه تخرج ، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فقال له سعد ابن

أبى وقاص : « ما هذا يا رسول الله ، قال الرسول : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » .

ولقد كانت الشفقة مع القيام بالواجب ، تتجلى فى موت ولده ابراهيم الذى وهبه الله تعالى على الكبر ، ثم استرد الوديعه ، فما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حزن الأبوة ، كما رأى فى وفاة ابراهيم ، اذ بكى من عيب ما أصيب به ، وكان ثقيلًا ، ولما رأى أسامة بن زيد محمداً صلى الله عليه وسلم يبكى صرخ ، فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال له يا أسامة : « البكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » .

ولقد كان وهو يبكى يقول : « الموت حق ، وإن القلب ليحزن ، والعين لتدمع ، وأنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وفى هذا اليوم كسفت الشمس ، فقال المحبون ، ان الشمس كسفت لابراهيم ، ولكن نبى العقيدة الصحيحة البعيدة عن الأوهام ، نسي حزنه ، أو غلب وأجبه على حزنه ، كما هو شأنه دائماً . فوقف خطيباً ، وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ، ولا لحياة أحد » .

وأم الناس ، وصلى بهم صلاة الكسوف .

وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الشفيق الرفيق الودود المحب دائماً ، ولكن عاطفته الانسانية لا تغلب على واجبه ، بل الواجب أولى ، وأحرى بأن يؤثره على غيره .

وان شفقته تعم ، فتكون رحمة ، لا تختص بالآحاد ، بل فهو أحياناً يغضب ولا يغضب الا للحق ، ولكن قلبه التقى الخالى . من كل سوء بالناس ، تغلب عليه الرحمة العامة دائماً ، فيقول فى ضراعة لربه الرحيم :

« اللهم انى بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيا رجل دعوت عليه ، فأجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وظهورا ، وقربة تقربه اليك ، يوم القيامة » .

وان مظاهر حياته كلها شفقة ، فامرأة فى عقلها شىء يقف معها فى جانب من الطريق يستمع الى حاجتها ، ويلقى فى قلبها الطمأنينة .

وجارية يضيق منها ثمن دقيق ، فيدفعه لها ، وتبكي خشية أن يضربها

مالكوها ، فيسير معها اليهم ليمنعهم من ضربها ، وأحد السبطين يركب على ظهره ، وهو ساجد ، فيطيل السجود ، حتى لا يزعجه ، ويستمر مرتحلا ظهر جده الرءوف الرحيم ، حتى يتركه •

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيخفف فى صلاته ، ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه ، وهكذا • وقد يقول قائل : ان شفقة النبى عليه الصلاة والسلام أمر ثابت ، وهل لهذه الشفقة صلة بالرسالة ، وولايته لأمر المؤمنين • ان شفقة المسيح عليه السلام كانت لروحانيته ، وأنه لم يكن منشئ دولة •

ونقول فى الاجابة عن ذلك : ان عيسى عليه السلام كان صاحب رسالة ، وكان من مقتضى هذه الرسالة أن يكون بالذين يدعوهم رءوفا ، فالشفقة من مقتضيات الرسالة والدعوة فان الدعوة من الشفيق الرفيق تكون مستجابة من القلوب الطيبة المؤمنة المطمئنة ؟ ان الرحمة هى التى تجذب الناس الى الداعى ، وليست القسوة ، ان النفوس التى تدعى الى الحق منها ما يفتح الله قلبه للحق بقوة ايمان الداعى وشفقته ، واجتذابه اليه بالحق ، ومنهم من يحتاج الى البيّنات والأدلة ، وهؤلاء هم أهل البرهان والدليل ، ومع الأنبياء معجزاتهم ، ومنهم من يكون على قلوبهم غشاوة ، وهؤلاء يدعون بالبرهان والحق ، وتكرر الدعوة اليهم فان اعتدوا رد كيدهم فى نحرهم •

وان من مقتضى الولاية الشفقة ، ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاة الرفق بالرعية ، ودعا لهم ان رفقوا بها ، وأشفقوا ولم يرمضوهم بقسوة أو ظلم أو استكراه ، أو اضعاف للنفوس ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه •

ولقد أدرك هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واتخاذ له قدوة فكان لا يولى الا من يشعر منه بأنه يكون فى ولايته شفيقا رحيفا الا اذا وجب حد ، فانه لا شفقة ، والرحمة بالكافة تقتضى اقامته •

ولقد دخل على عمر رضى الله عنه رجل ، وكان عمر قد اعتزم أن يوليه ولاية ، فرأى عمر يقبل بعض ولده ، فقال الرجل أوتقبل ولدك يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، وأنت ألا تقبل ولدك ، قال : لا ، فقال الفاروق ، وأنا لا أوليك ؛ من لم يرحم ولده لا يرحم رعيته •

## صدقه وامانته وعفته « صلى الله عليه وسلم » :

ان حديث صدق الرسول عليه الصلاة والسلام يعد من نافلة القول فى هذا المقام ، وكذلك امانته وعفته ، فهو الصادق الذى عرف بالصدق من منذ أن وعى الى أن قبضه الله تعالى اليه ، فما عرفت عليه كذبة قط فى حياته كلها صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان الكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب ، فان الحرية التى كانت لهم بمقتضى قيامهم فى بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكم فى عقولهم ونفوسهم ، وألسنتهم وتفكيرهم ، ولم يكن عندهم الملق الذى يجعلهم يدهنون فى القول رجاء خير يبتغونه ، وانه حيث يحكم الملك العضوض - وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان ، احدهما النفاق ، وثانيتها الكذب ، لأن النفاق فى ذاته كذب ، والكذب لازمة من لوازمه ، ولذا أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان » ولم يظهر فى العرب نفاق أو كذب الا ما كان يصاقب حواضر البلاد التى يحكمها ملوك أو أمراء كالمملوك أو حكام مستبدون بشكل عام ؛ كأراضى العرب التى كانت تجاور النعمان ، أو الغساسنة فى الشام ، فانه يجوز أن يكون فيها النفاق والكذب والملق ، ووراءهما خيانة الأمانات .

وان التاريخ ليروى أن أبا سفيان ، وقد كان زعيم الشرك فى الوقت الذى جرى فيه حديث بينه وبين هرقل ملك الروم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد سألته عن نسبه الكريم ، فقال انه من أوسطنا نسبا ، وعمن يتبعونه ، وعن أسئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبى عليه الصلاة والسلام ، أجابه بالصدق غير مائن فيما يقول ، ولقد قال ، وهو محقق من أثر الحقائق التى ذكرها لهرقل : « لولا أنى أخشى أن يحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » .

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغا بينهم .

وكذلك النفاق ، ولم يعرف النفاق فى أوساط المسلمين الذين استجابوا الا من اليهود ، ومن يجاورونهم من مشركى المدينة ، فقد ظهر فيهم النفاق مقترنا بقوة المسلمين .

اذن لم يكن غريبا أن يكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صادقا بين الصادقين .

ولكن صدق محمد صلى الله عليه وسلم ليس كصدق غيره من أهل مكة المكرمة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعده الله تعالى ليكون رسولاً للعالمين ، فأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت من ارهاصات النبوة ، فلم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم صادق القول فقط ، بل كان صادق القول ، وصادق الحس ، وصادق النفس ، ونقص بصدق الحس بأن يكون نظره الى الأشياء والأشخاص صادقاً في وصفها ، مستبطناً من وراء الظاهر ، ما يعرف حقائق استبطنتها ، ثم صادق في النظر الى نفسه ، فيعرف مواضع الخير ، فيفعلها ، ويعرف مواضع الشر فيجتنبها ، وهو صادق في مقاصده ، وصادق في غاياته ، يخلص في ادراك الحقائق ، والاتجاه اليها اتجاه مستقيماً لا عوج فيه ، فيستقيم ادراكه ، ويصدق في كل أمر يتصل بالقلب والضمير .

ولأن الايمان أساسه الاخلاص في العمل والقول والانداعان ، لا يتصور ايمان مع كذب ، ولقد سئل من بعد نبوته ، أيكون المؤمن جباناً ، فقال عليه الصلاة والسلام يجوز ، وسئل أيكون بخيلاً قال يكون بخيلاً ، وسئل أيكون المؤمن كذاباً : قال لا يكون المؤمن كذاباً ، اذ الكذب والاخلاص في الاتجاه والقول والعمل نقيضان لا يجتمعان .

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رآته قريش كلها ، وأمنت به ، حتى سمي بالأمين ، كان يعرف بالأمانة ، وينادي بالأمين ، وان الأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غير صدق ، والصدق يقتضى كل الفضائل ، والكذب عش الرذائل .

وعفة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كانت صيانة من الله تعالى صانه عن أن يلهو ، ولا يمكن أن تكون الشهوات وانحرافها ، الا ومعها اللهو بكل ضروبه ، وقد صانه الله لا عن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقدماتها ، وعن أخذ أسبابها ، فصانه عن اللهو ولو كان بريئاً .

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام الى الرغبة في أن يحضر عرساً فيه لهو ، فانه عندما ذهب اليه ضرب الله سبحانه وتعالى على ذاته بنعاس أصابه من غير غم ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشمس في ضحاها ، وكذلك كان الأمر في ليلة أخرى ، حين استوى عوده ، وكانت له ارادة مسيطرة على نفسه ، كان عزوفه عن اللهو بارادة مهدية مدركة ، ولم يكن بنوم يصيبه الله تعالى به ، ولذلك استعصم ، ولم يحدث منه قط ما يكون انسياقاً وراء هوى جامع ، أو شهوة مسيطرة . حتى كان الزواج ، فكان الحلال الذي لا مرية فيه .

## الوفاء ورعاية العهد :

١٣٦ — انه يستدل على سجايا الرجل بمقدار رعايته لمن كان لهم به صلة وممن كانوا معه على عشرة طيبة ، فيوفى بحق هذه العشرة ، يرعاها حق رعايتها ، يصلها ولا يقطعها ، يذكرها ولا ينكرها ، فالوفاء خلة الرجل الكريم ، وبمقدار وفائه يكون مقدار ما آتاه الله تعالى من خلق سمح ، ونفس مؤمنة بالخير ، معترفة به لأهله .

وان وفاء النبی صلی الله تعالى عليه وسلم لمن مضى من معاصريه يسترعى أنظار من قرأوا سيرته الطاهرة :

(١) وأوضح مثل ، وفاءه لأُم المؤمنين خديجة ، يود صديقاتها ، ويصل صلاتها يذكرها بالخير والاعتراف بالجميل ، حيث جاء ذكرها ، حتى ان أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمع صلي الله تعالى عليه وسلم يذكرها ، وان كان ليذبح الشاة ، فيهديها الى خلاتها . استأذنت عليه أختها فارتاح اليها ودخلت عليه امرأة ، فبش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة » .

وان الوفاء لحسن العهد من الايمان ، وناهيك بأعظم من فى الوجود . فلا بد انه كان أوفاهم ، ومما يتصل بوفائه لزوجه البارة خديجة ان عائشة من كثرة ثنائه عليها قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بذلك الله خيرا منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : الا والله ما أبدلنى خيرا منها ٠٠٠ أمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وكان لفرط وفائه كان اذا رأى أحدا من أولادها من غيره فاض عليه بالعطف والحنان ، اذ قد سمع صوت ابنها هالة قد جاء اليه ، فخرج اليه مناديا فى لهفة فرح : هالة ، هالة ٠٠ واكرمه ، وبالحق فى اكرامه .

(ب) ومن أوضح وفائه عليه الصلاة والسلام وعرفانه للجميل ما روى عن أبى قتادة أنه لما جاء وفد النجاشى ملك الحبشة الذى أوى أهل الهجرة الى

الحبشة وأكرمهم - قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نكيفيك يا رسول الله خدمتهم • فقال محمد صلى الله عليه وسلم الوفى العارف للجميل : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأحب أن أكافئهم •

نعم ان محمدا عليه الصلاة والسلام يجازى الاحسان بمثله ، والا ضاع العرف بين الناس ، وهو أسوتهم •

(ج) ومن كريم وفائه ، ولطف مودته وعدم نسيان من ارتبط معهم برباط من مودة وعشرة ، مهما يتباعد زمانها ، فان الكريم لا ينسى عشرة من عاشرهم ضغفوا أو علوا ، قدم عهدهم ، أو قرب ، وقد وجد أختا له من الرضاع اسمها الشيماء من سبأيا هوازن ، فتعرفت له ، فلما عرفها بسط لها رداءه ، وقال لها ان أحبيت أقمت عندى مكرمة محببة ، أو متعتك ورجعت الى قومك ، فاختارت قومها • فأرسلها •

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان جالسا يوما ، فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام صلى الله تعالى عليه وسلم فأجلسه بين يديه •

(د) وانه ليوفى حتى لمن فرح بولادته ، فقد كانت جارية لأبى لهب قد أرضعت النبي عليه الصلاة والسلام فى أول ولادته ، وخرجت فبشرت أبا لهب بالولادة ، وأعتقها أبو لهب لهذه البشارة • فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يبعث اليها بصلة مستمرة موصولة ما كانت حية ، فلما ماتت سأل عن بقى من نوى قرابتها ، فقيل لا أحد •

ولقد كان فى جملة أخلاقه أنه يصل رحمه ، ولو لم يكونوا له نصراء وأولياء ، فهو لا يصل رحمه مكافئا ، ولكن يصلهم راحما ، وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال عن بعض نوى رحمه : « ليسوا لى بأولياء غير أن لهم رحما سألها ببالتها » (١) •

---

(١) الشفاء ج ١٨ ص ٧٤ ، ٧٥ •



## العبادة

### عبادته قبل البعثة :

١٣٧ — تحير ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى تعرف ربه الذى يستحق العبادة وحده ، ولا يشركه فى العبادة وثن ، ولا شجر ، ولا شئ من المخلوقات ، وحكى الله تعالى حيرته فى كتابه الكريم ، اذ حكى عنه أنه ابتداء أنكر أن تكون الأصنام آلهة ، واستنكر على أبيه عبادتها ، وقال تعالى فى قصته : « وان قال ابراهيم لأبيه أزر اتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » •

ونرى من هذا أن الخليل عليه السلام ابتداء فى الخروج من الضلال الذى كان فى قومه ، فبين ان الوثن لا يصلح ربا لأنه لا يضر ولا ينفع ، وقام لديه الدليل بآزالة ما يعلق بها من أوهام ، فحطمها ، وتأكد بتحطيمها أنها لم تضره ، وأنها لا قوة فيها ، لا ظاهرة ، ولا باطنة •

ثم أخذ يختبر الآلهة التى كانت شائعة بين أقوامه ، فجاء الى النجوم ، وكان من سكان العراق الذين عرفهم ممن كان يعبد النجوم ، فأتجه الى النجوم يعرف سر كنهها عساه يجد قوة فيها تسوغ تألها ، فوجدها تأفل ، فليس لها بقاء ذاتى مستمر • ومثلها لا تصلح للآلوهية ، ثم أتجه الى القمر باعتباره كوكبا كبيرا ، فوجده مثل سائر الكواكب ، ثم أتجه الى الشمس ، وكان المصريون يزعمون أن فيها آلهتهم ؛ وقد زار مصر ، ولكن وجدها لا تصلح للآلوهية ، لأنها أفلت ، وهكذا نراه متحيرا ، حتى هداه ربه ، فكان أبا الأنبياء ، فمن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بعده ، وذكرهم القرآن الكريم ، ثم كانت الهداية بعد الحيرة ، والاطمئنان واليقين ، بعد الشك المحير •

ونبينا محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) خطا خطوة ابراهيم الأولى ، وهى انكار عبادة الأوثان فقد أنكرها ابتداء ، ولم يعترف لها بوجود ، فما سجد لصنم قط ، وما قدس صنما قط ، وإذا استقسمه أحد ، لا يقسم بها ، ولما أراد بحيرى الراهب أن يسحلفه باللات رده ، وقال انه

يكره ذكرها ، وما كره ذكر شيء كما كره ذكرها ، فأدرك محمد ( عليه الصلاة والسلام ) حفيد إبراهيم ما أدركه إبراهيم ، وعلم بالعقل السليم ، وقطرة الله تعالى ما علمه جده الأكبر إبراهيم •

ولكن الخطوات الأخرى التي خطاها إبراهيم في معرفة ربه لم يخطها فلم يخط خطوة تعرف الله في النجوم ولا في الشمس ، بل وقف عند عبادة الله ، وأدراك عظيم قدرة الله سبحانه ، واستحقاقه وحده للعبادة •

والسبب في أن محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) لم يخط الخطوات التي خطاها خليل الله إبراهيم ، أن إبراهيم رأى فعلاً من عبد مع الأوثان الكواكب ، وعبد الشمس ، ولم يكن في الأقوام الذين بعث فيهم من يذكرون الله كثيراً ، ولو على انحراف في الاعتقاد ، أما العرب ، فكانوا يعرفون الله تعالى ببقايا ديانة إبراهيم ، وكانوا يذكرون الله في الحج بغية إبراهيم في العبادة ، فهم يعرفون الله على انحراف ، ولم يكونوا يجهلونه ، بل كانوا في مناسك الحج يذكرون الله كثيراً ، في تلبيتهم ووقوفهم في مناسكه ، والضلال في إشراكهم بالله ، بينما الظاهر من تاريخ الكلدان ، والمصريين ، أنهم ما كانوا يذكرون الله تعالى في عبادة قط ، فلما نشأ محمد ( عليه الصلاة والسلام ) في قوم يعرفون الله ويشركون معه في العبادة أوثانهم ، ترك ما ابتدعوه ، وأنكره ، وبالغ في إنكاره ، وأبقى من بقايا إبراهيم الاعتراف بالله ، ثم كان إيمانه بربوبيته وحده ، واستحقاقه وحده للعبادة والألوهية •

وقد يقول قائل : « أن الله تعالى وصفه بأنه كان ضالاً فهدى ، إذ قال تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى » فإن هذا يدل على أنه كان ضالاً في العبادة ، ومن يعرف الله تعالى لا يضل في عبادته • ونقول في الجواب عن ذلك : أن محمداً بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) كان يعرف الله تعالى ، ويؤمن به ، ويكفر بالأوثان ، وينكر أن تكون مستحقة لأي نوع من التقديس لها ، كما رأى جده الأكبر إبراهيم أنها لا تضر ولا تنفع • ولكنه كان حائراً في الطريقة التي يعبد الله تعالى بها ، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه إلى الله تعالى ، وعبادته وحده ، ويريد أن يقوم بحق الله ، وكانت ديانة إبراهيم قد جهلت ، ولا يعرف من طريقها الا قليلاً ، فكان لابد من أن تصيبه حيرة ، حتى يهديه الله تعالى إلى شيء مما بقى من دين إبراهيم ، وهذا هو مؤدى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا » •

١٣٩ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ عابدا منذ ادرك سن التمييز ، فكان عقله فى الله تعالى يفكر كيف يعبد ، ثم يجد فى التفكير فى خلق الله تعالى عباده ، واذا كان ابراهيم عليه السلام قد اراه الله تعالى ملكوت السموات والأرض ليصل الى ادراك ربه ، فقد كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم منذ كان غلاما زكيا يرى فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، والنجوم المسخرات بين السماء والأرض عبادة ، لا ينظر الى السماء وابراجها وزينتها ، والشمس وضحاها ، والليل اذا يغشاها ، لا ينظر الى كل ذلك على انها مناظر جميلة ، وزينات باهرة ، بل ينظر فى دلالتها على الخالق ، ولا ينظر اليها متعرفا سر الاضاءة فى الشمس ، وانما يتعرف منها سر الدلالة على المنشئ ، والأرض والماء والزرع ، والشجر والثمار كل ذلك كان يستغرق تفكيره لا يعلم كيف خلق ، ولكن ليعلم من الذى خلق ، وكلما أمعن بفكره تعرفا للخالق ، واستدللا عليه ازداد ايمانا به ، وطلبا لرضوانه ، واطمئنانا لنفسه .

اتجه الى معرفة الخالق ، وما يرضيه عاكفا على ذلك عكوف العابد فى صومعته ، لا يطلب الا ارضاء ربه ، ولكنه لم يعلم ما يرضيه ، ولا ما يكون نسكا له الا ما توارثه العرب من حج البيت ومناسكه التى بقيت من عصر ابراهيم عليه السلام ، ونزهت نفسه وقلبه ولسانه ، حتى صار ربانيا بفطرته المستقيمة وقلبه السليم .

وكانت كل أعماله لارضاء الله تعالى ، فهو يخالق الناس بخلق حسن ، لا يكذب ، ويتصدق ويقدم للناس الخير ، لأنهم عيال الله ، وقد صار كل شيء فيه لله تعالى ، وقد صار قلبه المعلق بالله تعالى الخاضع الخانع ، لا يرى فى الوجود الا الله تعالى ، ولا يحسب أنه الا القانت له ، الخاضع ، ولكنه يجهل الشكل الذى يرتضيه لعبادته ، فصار كلمه لعبادته ، قلبا ولسانا وعملا وخلقاً .

وزهده فى الاختلاط كان يريه من الناس افكا من عبادة للأوثان ، ومن خمر يعاقرونها ، وميسر يلعبونه ، وخصومات يفجرون فيها ، وشحناء ليست من شأنه ، ومجادلات ليست من غايته ، وشعر يتبعه الغاؤون ، والكبر الأثيم الذى لا اثم فوقه ، تقديسهم للأحجار ، واتجاههم الى تقديسها بدل تقديس الديان ، كل هذا زهده فى الاختلاط .

ولذلك كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعث عزوفا عن أن يغشى مجالس قريش فى سمرها ، أو ما يزجون به فراغهم ، الا أن

يكون جدا يوجب الخلق الكريم مشاركتهم فيه ، كما شاركهم فى بناء الكعبة المكرمة ، وكما كان يحضر فى ندوتهم اذا جد الجد ، وكما حضر حلف الفضول •

والسبب فى عزوفه عنهم أنه يبتعد عن مواضع يعزب فيها عن ذكر الله ويبتعد عن التفكير فى ذاته تعالت عن الشبيه ، وتنزهت عن المثل ، وأنه يريد أن ينصرف الفكر فيه ، والتفكر فى ذاته وارضائه ، خير من عبادة الحركات والمظاهر ، فكانت حياته كلها لله تعالى •

ما كان يخرج من خلوته الا لاسداء معروف ، أو اطعام مسكين ، أو اغاثة ملهوف ، أو لاقراء ضيف عز عليه اقراء ، وان ذلك كله عبادة ، لأنه ما يقصد الا وجه الله تعالى ، وارضاءه لله تعالى ، وأى عبادة أعلى من ذلك شأنًا •

كل شئ فى الوجود يذكره بالله ، فكلما رأى الخلق كان منه ما يدل على الخالق • كلما رأى النعم فى الوجود تذكر الخالق •

ولقد دعا بعد بعثته الى التفكير فى الله تعالى ، فكان يقول « تفكروا فى آلاء الله » أى فى نعمه « وحكى عن ربه أنه قال : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق • فبى عرفوتى » •

ولقد كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يعلن أن التفكير فى الله وآلائه وخلق الله أساس العبادة ، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال على بن أبى طالب صلى رسول الله ، وحبيبه المجتبى : « سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن سنته ( أى طريقته ) فقال المعرفة رأس مالى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة بالله كنزى ، والحزن رقيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهد خلتي ، وقرة عيني فى الصلاة » ورويت زيادة وهى وثمرة فؤادى فى ذكره ، وعملى لأجل أمتى ، وشوقى الى ربى عز وجل « (١) •

• ١٤ — قد كان من أحوال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الاعتزال الا فى مكرمة تؤثر ، أو صلة رحم ، أو اغاثة ملهوف ، أو تحمل للكل ، فعندئذ يتصل بالناس لينفعهم ، ويتقرب منهم ولا ينقطع حتى وهو فى عزلته ، لأنه ما جاء لخيرهم فهى عزلة يسكن فيها الى الله تعالى خالق الناس •

وكلما كانت تتقدم به السن تزداد عزلته ، ويزداد تفكيره فى ارضاء الله تعالى ، وتعرف صفاته ، والوصول الى عمل ما يرضيه ، ويرى فيه ما تقر به عينه ، وتطمئن اليه نفسه ، ولا يريد غير الله •

وقد صارت العزلة خلوة يخلو فيها للعبادة ، فقد ذكر الرواة أنه كان يتحنث ( أى يتعبد ) فى غار حراء ، الليالى نوات العدد ، واستمر يزداد فى الخلوة والعبادة ، وقال الرواة كان يتعبد شهرا كل عام ، حتى كانت البعثة ، وهو فى خلوته فى غار حراء •

وكان عليه الصلاة والسلام يتزود لذلك ، ويمكث فيه الشهر للعبادة ، وذكر الله تعالى •

وقد تكلم العلماء فى المنهاج الذى كان عليه الصلاة والسلام يتبعه فى عبادته ، أكان على شريعة من الشرائع السماوية السابقة •

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه :

اختلف العلماء فى تعبد ( عليه الصلاة والسلام ) قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ، وما ذلك الشرع ، فقليل شرع نوح ، وقيل شرع ابراهيم ، وهو الأقوى ، وقيل موسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به (١) •

هذا ما قاله ابن كثير ، وقبل أن نأخذه مأخذ التسليم مع تردد الأقوال بين نوح و ابراهيم وموسى ننبه الى أمرين من الضرورى التنبيه اليهما فى هذا المقام :

أولهما — أن الثابت من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ومن تقرير القرآن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦ •

لم يكن على علم يكتب الديانات القديمة ، فلم يعرف التوراة ، ولا الانجيل ،  
وان كانت فيهما إشارات برسول يأتي من بعدهما اسمه أحمد ، ولم يكن بمكة  
المكرمة التي كانت محل إقامته مدارس للاهوت الموسوى أو المسيحي .

ولما ذكر القرآن أخبار اليهود والأنبياء السابقين قالوا يعلمه بشر هو  
شخص رومى ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون »  
انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين »  
وبذلك يثبت أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن على علم بالشرائع السابقة ، وذلك  
هو الحق ، وهو يتفق مع اعجاز القرآن فى أنه أتى بالصادق من أخبار السابقين  
بوحى من الله تعالى ، اذ لم يكن عنده علم بها .

ثانيهما - أنه كان بمكة المكرمة نفر قليل أنكروا عبادة الأوثان ، ولم  
يعبدوها ، وسموا حنفاء ، وقالوا انهم كانوا يتعبدون على بقايا من ديانة  
ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذلك سموا حنفاء . وروى أن النبی صلى الله  
عليه وسلم كان يتحنف فى غار حراء - بدل يتحنث - وانا نسوق ذلك لبيان  
أنه كانت هناك بقايا من ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد بقى منها  
بقيين بقية فى الحج وبقاء جزء ، قد ينبىء عن امكان تعرف ما جهل .

وانا لذلك نقرر أنه عرفت عقيدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وربما  
تعرفت بعض الشرائع التفصيلية عنده من أركان الصلاة ونحوها . وانا مع  
تقديرنا لهذا نرجح أن عبادة النبی عليه الصلاة والسلام كانت بالهام من الله  
تعالى من غير وحى ، وقد كان دائم التفكير دائم الخشوع دائم التأمل فى  
الكون ، فهو ابتداء بالعبادة الفكرية ، وربما عرف بعضا من صلاة ابراهيم ،  
كما عرفت بعض مناسكه .

هذا وان محمدا ( عليه الصلاة والسلام ) كانت رؤياه صادقة كل الصدق ،  
فقد قال عليه الصلاة والسلام ان أول الوحى كان بالرؤيا الصادقة ، فكان اذا  
رأى رؤيا جاءت مثل فلق الصبح ، أى انها تكون واضحة ، فلعله فى وسط  
تعرفه لصلاة ابراهيم جاءت رؤيا بها مثل فلق الصبح .

ومهما يكن من الروايات ، فان الثابت المؤكد ، أنه كان يتحنف فى غار  
حراء الليالى ذوات العدد ، وكان يتزود بالزاد لخلوته هذه ، وكانت الالهامات  
تفيض عليه فى المدة التى كانت قبل البعثة ، وأنه كان يرى الرؤيا مثل فلق  
الصبح ، وأنه منذ بلغ سن ادراك المعانى الدينية كان دائم التفكير والتدبر  
لمعرفة الله تعالى ومحاولة رضائه ، ونرجح بهذا أنه كان يتعبد على ديانة

إبراهيم ، وأنه وصل الى بعض أجزائها بالالهام وبالزُّوايا الصادقة وبالاعتراف ،  
وانا نستبعد كل الاستبعاد أنه أخذ من التوراة والانجيل ، فما كان له علم بهما .

### عبادته بعد البعثة :

١٤١ — هذه صورة صادقة أو مقربة من عبادته عليه الصلاة والسلام  
قبل البعثة ، وهى تدل على أنه كان قواما لله تعالى طالبا مرضاته ، وإذا كان  
لم يعرف شريعة إبراهيم على وجه الكمال ، فقد عرف ما يكفيه لأن يكون عابدا  
يطلب رضا الله تعالى ، وقد صفت نفسه فأدركت ، وخلص قلبه فألهم . وعلم  
أن ملة إبراهيم كانت الفطرة المستقيمة والحنيفية السمحة ، فأختارها ، وسلك  
سبيلها .

فالعبد المتجهة الى الله تعالى كانت فى قلبه ونفسه ، وكيانه وخلقه ،  
قبل أن ينزل عليه كتاب هاد ، قد أذهب حيرته ، ووجد الكتاب ينير له السبيل ،  
 ويفصل الأحكام ، ولا شك أنها تكون أهدى بعد هذا التنزيل ، وأن العبادة  
فى الجاهلية قبل البعثة كانت فى قلبه بذرة صالحة نمت لأنها كانت فى أرض  
طاهرة خصبة ، ولم يكن لها سقى ولا رعى ، ومع ذلك أنت أكلها ، فبعد البعثة  
المحمدية جاءها السقى والرعى فأربت ونمت ، وازدهرت فى قلب مخلص  
مدرك ، وصار قريبا من الله تعالى بقلبه الطيب المخلص ، وبمعرفة شرعه  
تعالى ، وباتصال الوحى به دوما من غير انقطاع ، فكان بذلك أعبد خلق الله  
تعالى ، وكلما ازداد علما بالله وشرعه ، ازداد عبادة ، وخوفا من الله ، وارضاء  
له ، ولقد روى أبو ذر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « انى  
أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطنئت السماء ، وحق لها أن تئط ،  
ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو  
تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » . رواه الترمذى .

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها عن عبادة  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت الصديقة بنت الصديق : « كان  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم ، حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر  
حتى نقول لا يصوم ، وكان لا تشاء تراه من الليل قائما الا رأيته ، ولا تشاء  
تراه نائما الا رأيته » ، وقد روى فى الصحيحين البخارى ومسلم أن  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام حتى تورمت قدماء ، فقليل له : اليس  
الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أفلا  
أكون عبدا شكورا » . ولقد ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء أنه قال خرجنا  
مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى شهر رمضان فى حر شديد ،

وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعبد الله بن رواحة .  
وفى الصحيحين أيضا عن علقمة قال : سألت عائشة هل كان رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم يخص شيئا من الأيام ، قالت : لا ، وكان عمله  
ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستطيعه .

ومعنى الديمة فى الحديث أنه يحب الدوام على العبادة ، ولا يحب  
الانقطاع عنها ، وكان هو يستديم العبادة ، ولو كان فيها ما يشق ، ولكنه  
لا يطلب من المؤمنين الا الاستدامة فى العبادة ، وان قلت ، ولذا يقول عليه  
الصلاة والسلام : « أحب الأعمال الى الله أدومها ، وان قل » .

وذلك لأن استدامة العبادة ولو قليلة يجعل المؤمن فى ذكر دائم لله تعالى ،  
لا يغيب عنه سبحانه ، فهو فى قلبه دائما ، ويتحقق فيه قوله صلى الله تعالى  
عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ومن ذلك  
قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله تعالى يحب الديمة من الأعمال » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو المؤمنين الى التخفيف من  
الصلاة ، والمقراءة ، وأن يصلوا بصلاة أضعفهم ، حتى لا يكون فى الصلاة  
ارهاق ، ورأى بعض أصحابه يصلى بالناس فاطال القراءة ، مما شق على  
الناس ، فقال : « فتان أنت » لأن التطويل يؤدى الى فتنة من لا طاقة لهم على  
الاطالة .

ولكنه عليه الصلاة والسلام فى قيامه الليل كان يختار لنفسه الأشق ،  
لأنه عليه الصلاة والسلام يطبق ما لا يطيقه عامة المؤمنين ، فيختار لهم ما لا  
يشق عليهم ، ولقد قال عوف بن مالك : « كنت مع رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلى ، فقامت معه ، فاستفتح  
بالبقرة ، فلا يمر بآية رحمة ، الا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب الا وقف  
فتعوذ ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت ،  
والكبرياء والعظمة ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك » (١) .

وهكذا نرى عبادته عليه الصلاة والسلام فيها ذكر دائم ، وتلاوة للقرآن  
دائمة ، وكان يحرض أصحابه على أن يقرأوا وهو يسمع ، فاذا ذكره بأن  
القرآن نزل على قلبه ، قال لهم انه يحب أن يسمعه من غيره .



ومع دوامه على العبادة التى وصفها القرآن ، ودعا اليها ، وبينها عليه الصلاة والسلام ، كان اذا سكت عن القيام بصلاة ، أو ارشاد عام ، دائم التفكير فى آلاء الله ، والتأمل فى خلقه ، ليدرك عظمتة ، وكمال سلطانه ، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التى ابتدأ بها قبل أن يوحى اليه ، ولقد قال هند ابن أبى هالة ابن خديجة : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة » وكان كثير الاستغفار ، لأن الاستغفار عبادة فى ذاته ، لأنه احساس بوجوب الالتجاء الى الله ، وفيه احساس بقصور ما يؤدى العابد من العبادة ، واستغفار العمل احساس بالحاجة الى الله والقرب منه ، وعظمتة ، وجلاله ، وشعور بأن عمله مهما يكن كبيرا صغير بالنسبة لله تعالى ، ومن يستكثر حسناته ، كأنه يمن على الله تعالى فى هذه العبادة ، وان الشعور بالاستغفار والالتجاء اليه بعد عن المن ، وان الصوفية يمتثلون الاستكثار ولو من الطائعين ، ومنهم من يفضل المعصية التى تحدث ذلا وطلبا للاستغفار على الطاعة التى يصحبها الاستكثار ، ويقول حكيمهم : « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت ذلا » ويقول أيضا فى هذا المعنى : « ان معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت ذلا وافتخارا » .

ولقد كان سيد العابدين يحصن عبادته بالاستغفار ، حتى لا يكون منه من الاستكثار ، صلى الله تعالى عليه وسلم .

## الزاهد

### قبل البعثة :

١٤٢ — نشأ محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يتيما فقيرا ، واجه الحياة بيئته وفقره ، ماتت أمه بالأيواء ، بعد أن ولد يتيما من أبيه فأودع جده عبد المطلب فكفله بالرعاية ، ولم يكن فى سن من يتحمل التبعة ، ويقدر لمستقبله وان كان يحس بالفقر ، واذا كان جده قد كالأه ، وكفاه حاجته ، وأغدى عليه بما يستطيع من خير ، وأفاض عليه بمحبته التى تغذى عاطفته ، ويجعله يعيش موادا غير مبالغى ، ولكنه عاش معه أمدا قصيرا ، اذ توفى بعد سنتين من كفالته .

وبعد ذلك أخذ يواجه الحياة مع ضعف الصغر ، ومع الفقر المعجز ، ذلك أن عمه أبا طالب الذى آلت اليه كفالته كان ذا عيال ، وكان مقترا عليه فى رزقه ، وان هذا الغلام الذى يعلو عقله على سنه ، واحساسه قوى يدرك

ما حوله قد أدرك ما عليه حال عمه كافله ورفيقه وحبيبه ، الذى أفاض عليه بمحبة غدت نفسه ، فكان لابد أن يعمل عملا أن لم يغنه عن عمه ، فانه يعينه الى حد .

اتجه ابتداء الى رعى الغنم الذى تعودده ورأه وهو فى بنى سعد ، فرعى الغنم لبعض اهل مكة على أجرة يأخذها من لبنها ، قراريط معلومة كخمس ما قدر أو نحو ذلك ، وبها يستعين ويعين .

ثم كان من بعد ذلك يتجر فى قليل من المال ، أو فى مال غيره حتى اشتهرت أمانته ، ثم اتجر فى مال خديجة ، وضاعفت له الأجر لما اشتهر به من أمانة وصدق ، ولأن الربح تضاعف على يديه .

ثم كان الزواج ، وكان المال الوفير ، ولكنه لم يكن جماعا للمال كائزاً له ، فلم يعرف أنه تكونت له ثروة قط تقدر رأس مال ، بل كان ينفق ما يدخر فى أوجه الخير ، من صلة رحم ، وإعانة محتاج ، وإغاثة ملهوف ، ومشاركة لذوى الحاجات فى شدايدهم ومعاونتهم على نوائب الدهر .

وبذلك يضرب محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الأمثال فى الزهد الإيجابى ، وليس الزهد السلبي الذى هو زهد المحرومين ، بل زهد هو زهد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون فى ادخار المال إلا لحاجة بعد جمعه . وبذلك سار قبل البعثة ، على ما بعثه الله تعالى من بعد ذلك بالنسبة للمال .

وبذلك نرى محمد بن عبد الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا ينسى العمل الصالح فى طلب الرزق الحلال وفيرا ، ولكنه لا يلهو به ولا يلعب ، ولا يكثر الذهب والفضة ، ولا يتفاخر بالخيال المسومة والأنعام والحرث ، ولكنه ينفقها فى مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر .

وإذا قيل أنه لم تعرف له أبواب النفقات فى حياته قبل البعثة نجيب عن ذلك بأن الكريم ينفق سرا ، ولا ينفق علنا ، وأن ذلك القدر المجمل عرف من ناحيتين : - أحدهما - قول خديجة أم المؤمنين فى خطابها له مطمئنة : « انك تحمل الكل وتقربى الضعيف ، وتعين على نوائب الدهر ، وتغيث الملهوف » وحسبنا ذلك لبيان هذا الاجمال .

الثانية - أنه لم يعرف له مدخر قط مع الاستقامة ، والبعث عن الزخارف ، مع كثرة الكسب ، وما يدر عليه من مال خديجة أجرا له على استغلاله فى التجارة .

وانه بهذا يتبين أن زهده قبل البعثة هو زهده من بعدها ، طلب الكسب الحلال ، لا ليدخر ويستكثر ، بل لينفق منه فى مكارم الأخلاق ، واعانة الضعفاء ، فهو يطلب ليعطى ، ويكثر ليطعم غيره ، وهو لا ينفق على نفسه وعلى أهله الا القليل بالمعروف من غير خصاصة واضحة ، ولا حرمان ظاهر ، بل يتناول الحلال ويكتفى باقله ، ولا يحرم مما هو طيب حلال ، وكذلك كانت الحال بعد أن بعثه الله تعالى نبيا .

١٤٣ — ان زهد محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الذى وصل اليه بفطرته السليمة فى وسط الجاهلية هو أعلى درجات الزهد ، ولنستعرض بعض كلام الصوفية فى الزهد الصوفى لتتعرف مقام زهد محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن ينزل كتاب يرشده ويهديه ، لقد قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « للزاهد فى الدنيا علامتان علامة فى فقدها ( أى أسباب الشهوات ) وعلامة فى وجودها ، فالعلامة التى فى وجودها الانصراف عنها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالإيثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان ، » .

وزهد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) قبل البعثة ، كان أعلى من إثارة غيره بها عند وجودها ، والراحة من فقدها ، لأنه كان زهد العامل للحصول على أسباب اللذائذ ، فإذا حصل عليها لا يختص بها ، بل يؤثر غيره بها ، ولا يتأتى زهد فقدها ، لأنه لا ينتظرها وجودا وفقدا ، ولكن يعمل لوجودها لينفق على الفقراء وليمتع غيره ، فهو زهد ايجابى عامل . كما نوهنا ، فليس زهد الحرمان الذى جاء من فلسفة الهنود ، ولكنه زهد الكاسب الذى يكسب لغيره . ويبقى لنفسه القليل الذى يقيم أوده ، ويمكنه من استمرار الكسب لغيره .

ولقد رتب الامام أحمد رضى الله تبارك وتعالى عنه مراتب الزهد اثنى مراتبه ترك الحرام ، والمرتبة الثانية ترك فضول الحل ، بل يقطع نفسه عن بعضه ، فهو يمنع عن نفسه بعض الحلال من غير تحريم ، ولكن ليعودها احتمال الحرمان ان لم يجد بعض الحلال ، فهو تهذيب وتربية . والمرتبة الثالثة وهى العليا الا يشغل نفسه عن ذكر الله تعالى بالاشتغال بالدنيا ، واستغراقها لنفسه ، وهو زهد العارفين .

ومحمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل البعثة كان زهده أعلى من ذلك ، لأنه كان مشغولا بذكره دائما فى كل عمل يعمل ، وكل عبادة يؤديها ، وكل فكرة يتفكر بها ، وما كان يعمل لتعود ثمره عمله على نفسه ، بل لتعود على نفع غيره ، فهو العابد فى كل حياته ، ولا يعمل الا لله ، وإذا كان شغل

النفس بذكر الله تعالى هو زهد العارفين ، فزهد محمد صلى الله عليه وسلم  
أعلى منه •

### زهد بعد البعثة :

٤٨ — كان زهد محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم )  
امتدادا لزهد قبل البعثة ، ولكنه بعد البعثة أخذ صورة أجل وأعظم ، لأنه حمل  
أعباء الرسالة ، فكان زهدا فى الاستعلاء بالسلطان ، وزهدا معروفا عند  
كافة المؤمنين ، ليكون أسوة حسنة فيما يطبقونه من زهد عليه الصلاة  
والسلام ، وكان زهد العامل الذى يعمل فى كل ميادين الحياة ، لا زهد من يعكف  
فى الصوامع ، وكان يبيث ذلك فى المؤمنين ويدعو اليه •

ولعل أظهر مظهر للزهد رفضه أن يكون ملكا كداوود وسليمان وبعض  
الأنبياء ، فقد روى ابن عباس أن الله تعالى أرسل الى نبيه ملكا من الملائكة  
معه جبريل ، فقال الملك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله  
يخبرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فقال رسول الله عليه  
الصلاة والسلام ، بل أكون عبدا نبيا ( رواه البخارى ) •

وكانت أوامر القرآن تدعو الى الزهد فى الحرام ومنعه عن أمته كلها ،  
ولكن الخطاب كان موجها ابتداء اليه عليه الصلاة والسلام ، ولقد جاء فى كتاب  
البداية والنهاية لابن كثير :

« قال الله تعالى : ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة  
الحياة الدنيا لفتنتهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » ، وقال تعالى : « واصبر  
نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم  
تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه  
وكان أمره فرطا » وقال تعالى : « فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا  
الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم » وقال تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من  
المثاني والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا  
تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين » والآيات كثيرة ... (١)

وان هذه النصوص كلها الخطاب فيها للنبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، ولكنه موجه الى كل المؤمنين ، ولا يختص به وحده ، وهو يدل على

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٤٨ •

أمرين : أولهما : الامتناع عن الحرام ، وهذا زهد العوام ولذلك طوّل به الناس جميعا . وثانيهما : أن الامتناع عن الحرام لا يكون بمجرد الامتناع المادى الواقعى ، بل أنه لابد من البعد النفسى وتجنب أسبابه ، ولذلك كان النهى متجها الى الأسباب النفسية ، فقال تعالت كلماته : « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » وكأن الدعوة الى ملازمة الذين ينصرفون عن الشهوات الى الله سبحانه وتعالى والاتجاه اليه ، وألا يخالط الذين يجترعون الشهوات فقال تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه » فعشرة الذين يتجهون الى الله تعالى فى غدوهم ورواحهم ، وفى غدوتهم وعشيتهم تربى فى النفس معنى الاستبعاد عن الحرام والاتجاه اليه سبحانه وتعالى .

واننا نجد زهد محمد ( عليه الصلاة والسلام ) يشدّد كلما تمكن من المال ، وكلما اتسع سلطانه - وكلما كثرت تكليفاته وكلما أقدم على الشدائد ، لأنه يرى أن تحمل مصائب الحرب وشدائدّها انما يكون ابتداء بتربية للنفس وحملها على ترك اللذائذ ، أو القدرة على تركها ، وما كان يدعو أئمة بذلك بلسان القول ، بل كان يدعو بلسان الفعل ولسان الفعل فى هذه الحال أجدى فانه لا يصح أن تكون الدعوة الى التقشف آتية ممن يرفل فى الدمقس والحريز ، ان تكون حاله مناقضة لقائه ، فلا يسمع له قول ، ولا يقبل منه كلام .

١٤٥ — ان النبى عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة كان يحمل كل ضعفاء المؤمنين ، فما يكون له من كسب من تجارته فى مال أم المؤمنين خديجة ، ينفقه على الضعفاء من المؤمنين ، وهم أول من اتبع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد امتنع المشركون عن اطعام الضعفاء وخصوصا الذين يؤمنون ، بل أرهقوهم عذابا وعسفا وهوانا ، وكان يواسيهم بالعطاء وطلب الصبر ، والفرج القريب ان شاء الله تعالى ، لا يألو جهدا الا بذله ، وهو يكتفى بالقليل من العيش الذى يقيم أوده ، ليتحمل عبء الدعوة ، والقيام بحقها .

ولما هاجر الى المدينة ، وانشغل بالاسلام عن التجارة التى كانت المرتزق له ، ويظهر من مجرى التاريخ أنه قد أنهارا قبل الهجرة ، وربما يكون قد صفاها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضى الله تبارك وتعالى عنها ، وصار رزقه من بيت المال الذى يعمل فيه ، ان هو العامل الاول ، وله الاستيلاء على خمس الغنائم بمقتضى الولاية العامة الاسلامية كما قال تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء ، فان لله خمسة ، وللرسول ولذو القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير » .

عندما صارت نفقته من بيت المال ، أو من الغنائم ، وإنها لتكون بأشق جهد يبذله وأعظمه علا زهده عليه الصلاة والسلام فى المال والعيش الرغيد ، ولولا قيام الأود ، وأنه لابد من لقيمات يقمن صلبه ، لزهد حتى فى اللقمة القفار .

كان عليه الصلاة والسلام ينام على الحصير ، حتى يؤثر فى بدنه الكريم ، ويروى عن ابن مسعود أنه قال : « انه عليه الصلاة والسلام نام على حصير ، فأثر الحصير بجلده ، فجعلت إمسحه ، وأقول ألا أذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيه تنام عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مالى للدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت ظل شجرة ، ثم راح وتركها » .

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسد بحشية من ليف ، وراء عمر بن الخطاب ، وهو على مثل هذه الحال ، فبكى ، فقال له النبى الزاهد : وما يبكيك ؟ فقال عمر : ومالى لا أبكى ، وكسرى وقصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التى أرى ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : يا عمر ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ، قال بلى ، قال هو كذلك .

### قوت الزاهد :

١٤٦ — فى الصحيحين البخارى ومسلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » هذه دعوة محمد عليه الصلاة والسلام الى ربه ، ولا ندرى أهى دعوة الاستجابة لها توفير القوت لآل محمد عليه الصلاة والسلام ، أم هى دعوة للاقتصار على القوت الضرورى ، وتحمل آل محمد عليه الصلاة والسلام ذلك ، والصبر عليه والرضا به ، والقناعة الراضية الكافية التى لا يطلب معها غيرها ؟ أجيب أن الاستجابة تكون بهما ، أى بتوفير القوت الضرورى وأن يلقى الله تعالى فى قلوب آل محمد عليه الصلاة والسلام من الأزواج الطاهرات ، ومن يلوذ به من أسرته الرضا به ، والصبر عليه وأن تكون الأسرة كلها فى زهد ربه ، تحتمل ما يحتمل ، وتصبر على ما يصبر ، لتكون أسوة لغيرها ، ولكيلا يكون من بعضهم من يطمع فى المال الذى يساق ، ويكون تصرف رب هذه الأسرة الزاهد كذلك .

ولقد كان كذلك ، فقد روى الامام أحمد أن ابا هريرة يقول : « ما شبع نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى فارق الدنيا » أى أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يرى أن من التمتع

أن يأكل من خبز القمح ثلاثة أيام متتابة ، بل كان الشعير غالب طعامه عليه الصلاة والسلام ، وقد يكون معه التمر .

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما شبع آل محمد عليه الصلاة والسلام من خبز ، حتى قبض ، وما رفع من مائدته كسرة قط » . ومن هذا الخبر يستفاد أنه ما كان يقدم له على مائدته الا ما يكفى بلا زيادة تفضل عنه .

ولقد كان لا ينفى عن الخبز نخالته ، بل كان يأكله من غير نخل ، فقد قالت الصديقة بنت الصديق : « والذي بعث محمداً بالحق : ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزاً منخولاً قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل ، الى أن قبضه » .

وما كانوا يأدمون الطعام دائماً ، بل كانوا يأكلون فى كثير من الأحيان الخبز قفاراً غير مأدوم ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة : فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير أنها قالت : « ان كنا آل محمد ليمربنا الهلال ما نوقد ناراً ، انما هما الأسودان التمر والماء ، الا أنه كان حولنا أهل دور من الانصار يبعثون الى رسول الله بلبن منائحهم ، فيشرب ، ويسقينا من ذلك اللبن » .

وهكذا نجد استجابة الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل رزقه وآله قوتا ، ولكنه من أدنى القوت ليكون قدوة للمسلمين ، وليكون غذاء لفقرائهم ، ولكيلا ترمض نفس بحرمان ، ولكيلا يأسوا على ما يفوتهم من وفرة الرزق ، وأسباب النعيم والعيش الرفيع ، فى هذه الحياة .

ولكن يلاحظ أنه لم يحرم على نفسه صنفا من فاكهة ، أو طعاما من اطعمة أهل الترفه والنعيم ، بل يقبل كل الحلال ، ولكنه يكتفى بالأدنى دائماً فاطما النفس عن أهوائها وملاذها ، تقوية لها ، ولتكون الارادة الحاكمة بسلطان العقل هى المسيطرة ، ولا تكون النفس أمة ذلولا للأهواء والشهوات بل تكون سيدة مطاعة ، حاكمة عليها غير محكومة بها .

١٤٧ — ومع هذه الزهادة التى التزمها ، وأخذ نفسه بها ما كان يدعو الناس اليها ، لأنهم لا يطبقونها ، ولأنه الذى أمر المؤمنين بالآلا يفعلوا الا ما يطبقون غير مسرفين على أنفسهم ، اذ يقول : « ان هذا الدين لن يشاده احد الا غلبه ولكن سدودا وقاربوا » . فهو عليه الصلاة والسلام يأخذ نفسه بزهد لا يأخذ به غيره لكيلا يرمض فقير بفقر ، ولا ذوق بقل بقله .

ولقد روى أبو داود فى سننه أن سائلا سأل بلالا مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا : حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : ما كان له شيء من ذلك الا أنا الذى كنت الى ذلك منه منذ بعثه الله تعالى الى أن توفى ، فكان اذا أتاه المسلم فرأه عائلا يأمرنى فأنتطلق ، فاشتترى له البردة ، والشيء فأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضنى رجل من المشركين ، فقال لى : « ان عندى سعة ، فلا تقترض الا منى ففعلت ، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فاذا المشرك فى عصاية من التجار ، فلما رآنى قال لى : « يا حبشى » قلت : يا لبيه ، فتجهمنى ، وقال قولا عظيما غليظا ، وقال أتردى كم بينك وبين الشهر ! قلت قريب • قال ان بينك وبينه أربع ليال ، فأخذك بالذى لى عليك ، فانى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وانما أعطيتك لتصير لى عبدا ، فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك • قال بلال فأخذنى فى نفسى ما يأخذ أنفاس الناس ، فانطلقت ، فناديت بالصلاة حتى اذا صليت العتمة ، ورجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله ، فاستأذنت عليه فأذن لى فقلت يارسول الله بأبى أنت وأمى ، ان المشرك الذى ذكرت لك أنى كنت أتدين منه قال كذا وكذا ، وليس ما يقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى ، فأذن لى أن أتى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضى به عنى ، فخرجت حتى أتيت منزلى ، فجعلت سيفى وحرابى ورمحى ونعلى عند رأسى ، فاستقبلت وجهى الأفق ، فكلما نمت انتبته ، فاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فأردت أن أنطلق ، فاذا انسان يدعونى ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلقت حتى أتته ، فاذا أربع ركائب عليهن أحمالهن ، فأتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فاستأذنت ، فقال لى رسول الله : أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك فحمدت الله وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع قلت بلى ، قال : قل ، فان لك رقابهن وما عليهن فاذا عليها كسوة وطعام أهدهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليك ، ثم اقض دينك ، ففعلت فخططت أحمالهن ، ثم علقتهن ثم عمدت الى تأدية صلاة الصبح ، حتى اذا صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرجت الى البقيع ، فجعلت أصبغى فى أذنى فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ديناً ، فليحضر فمازلت أبيع وأقضى ، وأعرض حتى لم يبق على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دين فى الأرض حتى فضل عندى أوقيتان ، أو أوقية ونصف ، ثم انطلقت الى المسجد ، وقد ذهب عامة النهار ، فاذا رسول الله عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد وحده ، فسلمت



عليه ، فقال لى : ما فعل الله قبلك ؟ قلت : قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق شيء • قال فضيل شيء قلت نعم ديناران ، قال : انظر أن تريحنى منهما ، فليست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل فى المسجد حتى اليوم التالى ، حتى اذا كان آخر النهار جاء راكبان ، فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما • حتى اذا صلى العتمة دعانى ، فقال : ما فعل الله تعالى قبلك ، قلت قد أراحك الله تعالى منهما - فكبر وحمد الله تعالى شفقا من أن يدركه الموت • وعنده ذلك ، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته « (١) » •

١٤٨ — سقنا هذا الخبر مع طوله ، لأنه يدل أولا : على زهادة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم المطلقة التى لا يدخر فيها فى بيته • ويدل ثانيا : على أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يحمل أعباء العائلين من صحابته ، يعينهم حتى يبعد عنهم ذل الحاجة ، ويحميهم من رق الدين ، ويدل ثالثا على أنه اذا لم يستطع أن يعطى أمرهم بأن يستدينوا عليه •

ويروى فى ذلك الترمذى بسنده أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأله أن يعطيه • فقال : ما عندى ما أعطيك ، ولكن اذهب فاتبع على شيئا ، فاذا جاءنى شيء قضيته ، فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه فكرة النبى عليه الصلاة والسلام قول عمر • فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ، ولا تخش من ذى العرش اقلا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف لتبسم فى وجهه لقول الأنصارى •

١٤٩ — ولقد كان ما يجرى على النبى عليه الصلاة والسلام يجرى على نسائه ، فيتحملن راضيات فى أكثر الأحيان •

ويروى أن امرأة من الأنصار دخلت على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها - فرأت على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عبادة فانطلقت لتبعث الى بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • فقال ما هذا يا عائشة قلت يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت ، وبعثت بهذا ، فقال رديه ، فلم أرد ، وأعجبني أن يكون فى بيتى ، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت فقبال رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة •

(١) تاريخ الحافظ لابن كثير نقلا عن الشماثل لأبى داود ص ٥٦ ج ٦ •

ولم يكن عليه الصلاة والسلام يدخر لغده شيئا يسارع اليه الفساد ، وقد روى الامام أحمد انه اهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فاطمى خادمه طائرا ، والظاهر انه اكل هو طائرا ، وبقي طائر ، فلما جاء الغد اتى به فقال لأئس خادمه : « ألم أنهك أن تبقى شيئا لغد » •

ولما افاء الله على رسوله.نخيل بنى النضير ، كان يدخر منها فكان يعزل لأهله من تمرها ، ما يكفى سنة ، ثم يكون الباقي مما ينفق فى الخيل والجمال مما يعد للحرب ، وفى السلاح الباقي ، صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدخر ذهباً ولا فضة ، حتى انه كان وهو مريض مرض الموت عنده سبعة دنائير أو ستة ، فما زال بأهله حتى تخلص منها • وروى انه كان له فى مرض موته قطعة ذهب صغيرة عبروا عنها بأنها ذهبية ، فتصدق بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يخرج من الدنيا ، وليس له شيء ، ولا عليه شيء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » •

١٥٠ — كان آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أزواجه يحملهن ما يحتمل ، لأنهن آله ، والسعة عليهن قد تعود بالسعة عليه ، فسدا للذريعة كن يتحملن ما يتحمل •

ولكن يظهر انهن طالبنه مرة بما ليس عنده ، وضاق بهن ذرعاً ، فالى عليهن بأن حلف الا يدخل عليهن شهراً واعتزل عنهن ، وسكن عليه من داره ، فدخل عليه عمر ، وإذا هو مضطجع على حصير ، قد اثر فى جسمه عليه الصلاة والسلام ، فهملت عينا عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام مالك ، فقال أنت صفوة الله تعالى من خلقه وكسرى وقيصر فيما هما عليه ، فجلس عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : « أو فى شك أنت ، يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، أما ترى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة •

وقد عتب الله تعالى على نبيه أن حرم عليه أزواجه شهراً ، فقال تعالى : يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم ، وإذا أسر النبى الى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبات به واظهره الله عليه ، عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نباها به قالت من أنباك هذا قال نبأنى العليم الخبير ،

ان تتوبا الى الله فقد صفت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه ، فان الله هو موله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه ان يلقن ان يبيله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » •

ولقد كانت شكواهن من ان محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذهن بما أخذ به نفسه ، وان كان أخف ولكنه فى كلتا الحالتين دعا ربه أن يكون رزق آل محمد صلى الله عليه وسلم قوتا ، لا يتجاوزنه الى رافع الحياة وفاكهها ، ولذلك حلف بما حلف تأديبا وتجربة ، ومحبة أيضا ، وبعد أن مضى الشهر الذى حلف الا يقربهن فيه ، لم يعد اليهن الا بعد تخيير صريح يقبلن فيه أن يكون رزقهن قوتا لا نعيم فيه ، الا بالحلال ، وبين أن يسرحهن بالمعروف ، وذلك بأمر صريح من الله سبحانه وتعالى ان قال سبحانه :

« يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعن ، وأسرحن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ، يا نساء النبى من يات منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا ، نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما • يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقين فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » •

نفذ محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر ربه بالتخير ليخترن ، وابتدأ بأحب نسائه اليه ابنة صديقه وصفيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، عائشة ، فقال لها انى ذاكر أمرا ، فلا عليك أن تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، وتلا عليها هذه الآيات فقالت : افى هذا أستمأر أبواى ، فانى اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وبذلك اخترن عيشة النبى عليه الصلاة والسلام الزاهدة ، فكن جديرات بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وسيد الزاهدين •

## الصابر المصابر

١٥١ — ان نشأة محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) الأولى من شأنها أن تربي فيه خصلة الصبر ، وحاله فى شبابه الباكر تربي فيه الصبر واستمسكه بالفضائل فى وسط الرذائل التى كانت تكثر فى قومه لا يقوى عليه الا بالصبر وضبط النفس ، واجتنابه للأهواء والشهوات التى كانت تسيطر فى مكة ، لا يقوى عليه الا الصابر الذى يجمع دواعى الشهوات بين جنبيه ، ويقدها عن متابعة الأهواء ومنازع الشيطان ، ان ضبط النفس اقوى مظاهر الصبر ، والناظر الى حياة محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) يراه منذ نشأته الى بلوغه سن الشباب ، الى اكتمال رجولته يرى فيه اصرارا على خلق واحد ، وعقيدة واحدة ، يتزلزل كل شيء حوله ، ولا يتزلزل ، ولا يكون ذلك الا من صبور .

لا تغريه جدة ، ولا يجزعه فقر ، لا يدفعه التكاثر حول تقديس الأوثان الى الميل نحوها ، ولا يحرضه التقليد للأقوياء على أن يخضع لصنم أو يقوله بسلطان ، بل يدافع الاعتقاد فى الأصنام ، يدافعه فى نفسه ، ويدافعه فى مجتمعه ويدافعه فى كل مظاهر حياته ، غير متجانف لاثم ، ولا راض عمن يخضعون به .

ان كل ذلك يحتاج الى ضبط نفس ، وضبط فكر ، واستقامة نظر ، وصبر عميق يتغلغل فى أطواء النفس ، وثنايا الفؤاد وكل هذا لا يكون الا من صابر مصابر ، يغالب الأحداث بالصبر ، ويغالب الأعداء بعدم الفزع ، ان الصبر أقسام يختلف كل قسم باختلاف موضوعه ، والصدمات التى يلقيها الصبور .

أولها — الصبر على النوازل تنزل به ، ومن نوازله نازلة الفقر ، لاترمض نفسه به ، ولا يذل ، ولا يخنع لذل الحاجة ، بل يرضى بالقليل صابرا ساعيا جادا فى جلد ، ودأب . حتى يمنعه الفقر من أن يتسرب لنفسه بالاحساس بالذل ، أو بأن تذهب قوى النفس شعاعا من الاحتياج ، وان ذلك النوع من الصبر كان فى النبى ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، فما ظهر منه ذل الاحتياج ، بل كان حتى عندما تمد موائد الطعام ، لا يكون أول من يمد ولا أكثر الغلمان تزامنا فيه ، ولا تسابقا اليه ، بل كان حريصا على ألا يفعل ، ولو فاته الطعام .

القسم الثانى : الصبر على الحرمان من الأهواء والشهوات وقمعها ، وعلى دفع الخواطر الفاسدة ، وعلى مقاومة ما تدعو اليه أحوال عبدة الأوثان لتحريم أمور حلال كتحریم السائية والوصيلة والحام وكاستباحة المختنقة والموقوذة والنطيحة ، وما كان منه شرب الخمر ، وملاعبة بالميسر ، واستقسام بالألزام ، فكل ذلك امتنع عنه محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ، قبل أن يبعثه الله تعالى ، وذلك من تحصين نفسه بالصبر ، وما منحه الله تعالى من قوة احتمال .

القسم الثالث : من الصبر هو على ما ينزل من نوازل ، وقد جاء مجمد ( صلى الله عليه وسلم ) فى الحياة ليكون صبوراً وشكوراً .

أول ما أدرك الحياة مميزاً ماتت أمه وحملته حاضنته الحبشية الى جده ، ثم لم يلبث أن فقد الجد ، وقد بلغ سن التمييز الذى يعرف الحامى ، وانتقل الى بيت عمه ، وكان محدود الرزق كثير العيال ، فتعلم كيف يكون الصبر حيث التضاحم ، فما كان يمد يده فى زحمة الغلمان على الطعام .

ثم كان الصابر فى رعى الغنم ، ثم كان الصابر فى كسب القوت ، وهكذا كان الصبر عدته التى يعدها لنوائب الدهر ، وملامات الزمان ، وأخذ يحمل وحده أعباء حياته جلدا صبوراً .

وإذا كان قد صابر النوازل والقل واحتمل ، فقد احتمل نعمة الكثير من المال كما احتمل القل ، فلم يطغ اذ جاءه المال الوفور عندما اتجر فى مال خديجة التى صارت من بعد زوجه وأم المؤمنين ، فاحتمل النعمة كما احتمل النقمة ، وضبط نفسه فى نعمته ؛ كما ضبطها فى نقمته ، فلم يكن فى الأولى جازعاً ؛ ولم يكن فى الثانية فرحاً فخوراً . وقد بين الله تعالى فى كتابه أن الذى لا ييأس فى الحرمان ؛ ولا يطغى عند الجدة هو المؤمن الصابر ، فقد قال سبحانه : « وَلئن اذقنا الانسان منا رحمة ؛ ثم نزعناها منه ، انه لئيوس كفور ، ولئن اذقناه نعماء يعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

والصبر فى هذا المقام أجل أنواع الصبر ، لأنه هو الذى يكون فى أعظم الرجال الذين أوتوا القدرة على تحمل الأعباء . لا يأثرون ويبطرون فى سرائهم فيكونوا صابرين ، ولا يجزعون ويهلعون فى شدائدهم فيذلوا .

وكذلك كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قبل أن يبعثه الله تعالى نبياً ، فكان مهيناً لأعظم رسالة فى الوجود .

١٥٢ — بهذا الخلق الصابر يختار الله تعالى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ليكون رسوله الذى يدعو الناس الى التوحيد فى وسط قوم صلاب شداد غلاظ ، فالدعوة فيهم تحتاج الى عزم الأمور ، والصبر من عزم الأمور ، بل ان عزم الأمور يحتاج الى صبر شاق مرير ، لا يتحملة الا اولو العزم من الرجال ، واولو العزم من الرسل ، كما قال تعالى مخاطبا محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) الصبور ، والمكاره تحيط به احاطة الدائرة بقطر : « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك الا القوم الفاسقون » .

كان لابد بعد البعثة من ان يكون علاج الأمور كلها بالصبر ، صبر على المشركين فى اوهامهم ، وصبر عليهم فى دعوتهم منه الى الحق ، وقد اصرروا على الباطل ، وصبر على سفهائهم ، وصبر على اذاهم المستمر ، الذى اقدم عليه ذور الحقد والعصبية ، ولم يستنكره كبرائهم ، وصبر فى الدعوة الى الاسلام ، وما يكاد طريقها ، ويعرقل سيرها . ولذلك جعل الله تعالى اقوى اوصاف المؤمنين الصبر ، فقال تعالى : « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » ، ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام الصابر حقا وصدقا ودعا الى الصبر ، فقد اثر عنه أنه قال ما من أحد تصيبه مصيبة ، فيقول انا لله وانا اليه راجعون ؛ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيرا منها ، الا أجاره الله تعالى فى مصيبتى واخلف له خيرا منها .

وان فضيلة الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير تملل بل فى ثبات جأش واطمئنان قلب وتحمل ، هى قوة لصاحبه فوق أن فيها تفويضاً لله تعالى مع العمل من غير تخاذل ، فالمفوض الصابر يؤمن بقدرة الله تعالى حق الايمان ، وأنه المغير ، ولذلك طلب الرسول الصابر صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يصاب أن يدعو الله تعالى ، ويفوض اليه أمره فان ذلك يعطيه جلدا واحتمالا ، ولقد قال ابن القيم فى علاج النفس بحملها على الصبر بالتفويض .

« وهذه الكلمة أى التى قالها محمد ( عليه الصلاة والسلام ) فى العلاج بالصبر ، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه فى عاجلته وآجلته فانها تتضمن أمرين عظيمين اذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبتيه ( أحدهما ) أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة وقد جعله عند العبد عارية ، فاذا أخذه منه ، فهو كالعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضا فانه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له منحة معارة فى زمن

يسير ، وأيضا فانه أليس أوجده من عدمه حتى يكون ملكه حقيقة ، وألا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، وألا يبقى عليه وجوده ، أفليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقى ، وأيضا فانه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهى ، وتصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكة الحقيقى ٠ ٠ ٠

والثانى : أن مصير العبد ومرجه الى الله تعالى مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجيء ربه فردا ، كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فاذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود ، ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن تبراها ، ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » (١) ٠

١٥٣ — كان محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) صبورا ، أبلغ ما يكون الصبور ، فقد كان قبل البعثة فى المنشط والمكره ، والصابر فى الفقر والغنى ، والصابر فى العجز والمقدرة ، ثم كان بعد البعثة الصابر فى أداء الرسالة ، وتبليغها والدعوة اليها ، صابر المشركين عند الدعوة ، صابر قومه الذين جفوه ، ونكروه وهم يعرفونه ، وكذبوه ، وهو الصادق الأمين ورموه بالسحر كذبا ، والجنون افتراء ، وقالوا ما قالوا فيه وفى رسالته ، وقد وسع صبره كل افتراءهم ، فما وهن فى دعوته ، ولا يئس من اجابته ، وكان يرضى فى أن يصدع بأمر ربه وهو يصبر على انكارهم من غير أن ييأس من ايمانهم ، ويدعو عليهم ، فلم يقل كما قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » بل قال : « ان قومى لا يعلمون » وقال : « انى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله » ، ولكل نبي من أنبياء الله تعالى فضل وقد فضل بعض النبيين على بعض ٠

ولقد أدوه ، وآذوا أصحابه ، وهو القادر على أن يقمعهم ، أو يدعو عليهم بالمقت ، ويسخط عليهم ، وانزال غضب الله تعالى عليهم ، بل انه كان يتلقى كل ذلك بالرجاء والاطمئنان الى أنه مبلغ رسالة ربه ، غير وان ولا مقصر ، مدركا ان الله تعالى بالغ أمره ، وأن العاقبة للمتقين ٠

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ٠

كان طاغيتهم يلقي عليه فرث الجُزور ، وهو يصلى ، فما يغضب ، ولا يثور ، لأن الغضب يفقد الحق قوته ، والثورة تطيش حولها أحلام من يدعوهم ، وهو حريص على أن يترك لهم حرية الاختيار ، وتقدير الأمر فى أناة ، وهداة مدركة ، والغضب يدفع الى الملاحاة والمنازعة ، وهو يريد أن ينزع من قلوبهم سخيمة الحقد الملاحى ، بل يضع فى قلوبهم قوة الحقيقة تسرى فى قلوبهم ، وتنساب فى نفوسهم ، وهم مطمئنون من جانبه غير منزعين .

يصبر عليه الصلاة والسلام صبر الطبيب يعالج المريض ، وقد هاج هياجه ، وأرغى زبده ، فيأخذه فى حكمة ، عالما أن المقاومة من المرض ذاته ، وأن غايته معافاة المريض ، فليصبر ، حتى يصل الى هذه الغاية غير منزعج ، ولا مخاصم ، ولا معاند .

ولقد صبر عليه الصلاة والسلام على استهزائهم وعلى سخريتهم ، وهو أخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منه زادت عنايته بالدعوة ، وزادت قوته فى الاحتمال ورغبته فى المصابرة ، غير متحمل ولا يائس ، فان الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء ، ويهدى للتى هى أقوم ، ويوقظ الضمائر ان كانت فيها قوة الحياة ، وان الصبر للذى تشمس نفسه يكون كالسقى والرعى يحيى ولا يميت ، والملاحاة تشغل النفس عن الحق ، وتوجب انحياز كل الى جانبه ، فلا يرى الا ما عنده ، ويعمى عما فى الجانب الآخر ، فتكون النظرة الجانبية ، والنظرة الجانبية لا تصيب صاحبها .

وصبر عليه الصلاة والسلام على الأذى ينزل بجسمه ، وبأهله ، ألم تراه صبر على الحرمان هو وبنو هاشم عندما قاطعتهم قريش ثلاث سنين دأبا . لا قوا فيها العنف من قومهم ، فما أسلموا محمدا عليه الصلاة والسلام لأعدائه .

فكان صبر محمد ( عليه الصلاة والسلام ) صبرين ، صبر الداعى الى الحق يحمل فى أثناؤه ما يلقى من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وصبرا على أذى القريب الواصل الذى يرى أنه كان سببا فى أنه ذاق آله وأحبابه مرارة الحرمان والقطيعة .

وصبر عليه الصلاة والسلام يوم ذهب الى ثقيف يطلب منهم الايمان ، فأثروه ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم يقذفونه بالحجارة حتى أسالوا دمه الكريم ، وكان الصابر الكريم عندما عرض عليه جبريل أو ملك الجبال أن يطبق الأخشبين عليهم ، فطلب من ربه أن يستأنى بهم ، ويقرر فى اطمئنان الصابر أنه لا يبغى الا رضاه ، فيقول لربه . ان لم يكن بك غضب على فلا ابالى .



١٥٤ — ولما رأى الأذى الشديد ينزل ببعض من أسلموا ، أذن لهم فى الهجرة الى الحبشة ، وهو المقيم الصابر ، لا يتخلى عن دعوته ، ولا يفر ممن يدعوهم ، بل يصابريهم ، ويلقباهم بالرفق ، ولطف المعاملة ، وان لم يقابلوه بمثلها ، بل يجافونه ويعادونه .

وإذا كان قد خرج من مكة المكرمة مهاجرا ، فليس ذلك لأجل الخوف ، أو نفاذ الصبر ، بل لأن الدعوة استوجبت الهجرة بعد أن استمكن لها فى يثرب ، وهو إذ يخرج كان صابرا ، إذ أنه يخرج من مكة المكرمة ، وهى أحب أرض الله إليه ، ولولا أن أهلها لم يستجيبوا وآذوه ما خرج منها ، فكان الصابر فى خروجه ، ولم يكن خروجه جزعا و فرارا .

ولما هاجر كان المجاهد الصبور ، ولقد صابر وصبر فى ثلاثة ميادين من الجهاد .

صابر فى محاربة الأهواء والشهوات ، وسمى ذلك الجهاد الأكبر ، ودعا المؤمنين الى متابعتة فيه .

وصابر فى ميدان الحرب ، فكان المجاهد الثابت الذى لا تزلزله قوة ، ولا يذهب تفكيره شعاعا ولو تألب عليه العرب جميعا ، كما فى غزوة الأحزاب ، وقد جاء المشركون من الخارج واليهود من الداخل ، « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وأذ زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا » ، ونجد النبى عليه الصلاة والسلام كان فى هذه المعركة ، الصابر ، الصابر ، الذى لم يذهب ساعة من نهار الرجاء منه ، وان كانت الشديدة قد بلغت أقصاها .

وصابر صلى الله تعالى عليه وسلم فى الداخل طوائف ثلاثا فأخذ بالرفق الضعفاء ، فكان ييث فيهم روح الايمان ، وكان الضعف يبدو أحيانا منهم فى وقت يحتاج فيه الى الجلد وقوة العزيمة ، والثبات فى البأس والضراء ، وحين البأس .

وصابر المنافقين الذين كانوا يظهرن الايمان ، ويبطنون الكفر ، ويلقون بالبأس والهزيمة ، ويدعون الى التردد فى صفوف المؤمنين ، ويستجيب لهم بعض الضعفاء من المؤمنين ، ويصبر عليه الصلاة والسلام على ما يثيرونه حول شخصه وآله ، كما خبوا ووضعوا فى الحديث الذى

أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة • ويشير عمر بقتل كبيرهم ، فبرده محمد عليه الصلاة والسلام بأنه لا يريد أن يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه ، ويستمر صابرا حتى ينهى الشر نفسه ، كما تموت بعض الحشرات بسهما •

وكان اليهود فى المدينة ، فكان يصابهم حتى ينكشف فسادهم ، فإذا انكشف أخذهم ببعض ذنوبهم صابرا مصابرا ، وإن الصبر فى الشدائد ، هو صبر العاقى المدرك بأن غايات الأمور لا تدرك إلا بالصبر المبرر ، وكان إذا ادلهم الأمر لا يجزع ، ولا يفزع ، بل يتأنى للأمور ، ويصطبر لها ، معالجا أمرها فى أناة وحكمة ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى ، فإذا دهمه الأمر ، لا ينزعج ولا يضطرب ، ولا يذهب لبه وتفكيره ، بل يسيطر على نفسه ، ويدبر الأمر من غير هلع ولا جزع ، وكان يرى أن الصبر من الإيمان •

وإن الشدائد النفسية تحتاج الى الصبر أكثر من الشدائد المادية ، وانظر الى موقفه الصابر ، عندما أشاعوا قالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة ، فقد تلقى الخبر ، وساوره الظن ، وبدأ فى بعض عمله ، وفى ملامح وجهه ، ولكنه كان المثل الكامل فى الثبات ، وتقدير الأمر ، ودعا بعض خاصته للاستشارة فى هذا الأفك ، وليتعرف مقدار الحق فيه ، فمنهم من نفى الوقوع وأكد النفى كعمر رضى الله عنه ، ومنهم من دعا الى التحرى بسؤال جارياتها ، وهو على ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هداة الصابر أن ذلك هو الأسلم والأحزم ، فسلكه ، فانتتهى الى البراءة ، وما كان ذلك ليكون إلا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر فى وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيطر عليها الحكمة دائما •

وإن صبر النبى صلى الله عليه وسلم فى البأساء والضراء وحين البأس ، كان صبر من يتوقع البلاء قبل أن يقع ، فعبد نفسه لقوة الاحتمال ، وقد أخبره الله تعالى بما سينزل به بالمؤمنين ليصبروا فقال تعالى : « ولنبليوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون » •

ولقد قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، إلا أن نصر الله قريب » •

وقال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » •

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » •

فكان الصبر الاختيارى من غير شكوى ولا أنين عدته فى تبليغ رسالة ربه ، وقد تربى عليها قبل البعثة ، وكان قوته بعدها •

## العادل

١٥٥ — الأمانة والعدل صنوان متلازمان ، فلا يمكن أن يكون الأمين غير عادل ، ولا أن يكون العادل غير أمين ، لأن الأمانة مراعاة الانسان لحق غيره ، لا ينكره ولا يجحده ، والعدالة ، تبتدىء من انتصاف الانسان من نفسه ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى طلب أداء الأمانات بالعدالة فى الحكم ، فقال تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعمًا يعظكم به ، ان الله كان سميعًا بصيرًا » •

ولقد اشتهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة ، حتى صار اسمه « الأمين » ولما حكموا أول من يدخل البيت فى أمر الحجر الأسود ، وكان هو الداخل الأول ارتضوه حكما ، وفرحوا به ، وقالوا انه الأمين ، وكان فى معاملاته كلها عدلا ، لا يغبن ، ولا يخدع ، وكان ينتصف من نفسه فى كل ما يتعلق به ، كان ذلك قبل البعثة •

أهدت اليه أم المؤمنين خديجة قبل البعثة زيد بن حارثة ، فكان مولى له ، ولما عرفه أهله ، وجاءوا اليه يريدون أن يفقدوه بثمنه ، أعطاهم الرجل العدل ، الحق فى أخذه ، ولم يمارهم فى حقهم ، بل انه زاد فى العدل الاحسان ، فقال خذوه من غير ثمن اذا أراد الذهاب معكم ، ولكن زيدا رفض أن يترك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يبقى فى قريه مولى ، ولم يقبل الذهاب مع أسرته ، وهنا يتحرك العدل مرة أخرى فى قلب محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، فيتخذ له ولدا ، وقد كان ذلك سائغا عند العرب ، كما كان سائغا عند الرومان ، ويلحق المتبنى بنسب من تبناه ، فكان يقال له زيد ابن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان مقتضى

هذا الألفاق قرشياً ، وتزوج على أنه قرشى ، حتى نزل من بعد البعثة تحريم التبنى ، وعدم الحاق الدعى بنسب من تبناه ، وكان قد أراد محمد بن عبد الله العادل ( عليه الصلاة والسلام ) أن يعوضه عن ترك أسرته بذلك التعويض الكريم .

ولقد كان الخصماء يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام قبل بعثته ، فقد روى أن الربيع بن خيثم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهلية قبل الاسلام ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة والاستقامة ، وكونه لا ينطق الا بالحق ، ولا يتجه الى غيره ، ولا يرضى بالباطل أبدا .

### بعد البعثة :

١٥٦ — لقد كان عليه الصلاة والسلام يوزع الغنائم ، فيعطى كل ذى حق حقه ، لا يلتفت الى ما وراء ذلك ، فلا غاية يطلبها الا تحقيق العدل وأرادته ، يعطى الرجل من الغنيمة بمقدار جهاده ، وقد يعطى من يريد تأليف قلبه ، وقد أسلم على حرف ، فهو يعطى لعاعة من المال لمن يريد أن يتألفه ، كما كان يعطى بعض القرشيين الذين أسلموا عند الفتح تأليفاً لقلوبهم وليستمرروا على دينهم الذى دخلوه طوعا من غير اكراه ، ولكن لكثرة معاندتهم من قبل تألفهم النبى ببعض من الصدقات .

ولقد حدث أن قال بعض الذين فى قلوبهم ضعف ايمان للرسول عليه الصلاة والسلام : عدل ، فرد عليه النبى ( عليه الصلاة والسلام ) « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى » ولنذكر الخبر ، كما فى كتب الحديث ، فقد روى قتادة أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بالاسلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقسم الغنائم ، فقال : « يا محمد ، والله لئن أمرك الله أن تعدل ما عدلت ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام ويلك ، فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ، ثم قال نبى الله ، احذروا هذا وأشباهه ، فان فى أمتى أشباه هذا يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، فان خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم » وروى مثل هذا فى الصحيحين مسلم البخارى .

وان هذا الكلام يدل على عدالة النبى عليه الصلاة والسلام المطلقة ، فقد سمع القول من المعترض من غير أن يمنعه من الاعتراض ، ولكن بين له أنه العادل ، وأنه سيكون أرهاق من بعده ، فمن عدل كعدله نجا ، ومن لم يعدل فقد انحرف الى الهاوية .

ويدل ثانيا على أن أمثال هذا ممن يرون العدل غير عدل ويحكمون بهواهم ، أو بنظرهم بادی الرأى سيكونون شوكة فى جنب الحكم الاسلامى ، وأن سلامة الحكم فى ردعهم ولو بالقتل وتكراره ، وذلك عقابهم اذا خرجوا على الحاكم العدل والا لا يقتلوا ، كما قال على « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه » .

ثم ان النبى عليه الصلاة والسلام أردف فى هذه الواقعة ما يؤكد عدله المطلق القائم على أمانته ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أعطيك شيئا ، ولا أمنعكم انما أنا خازن » .

وان النبى العادل كان ينفذ الحق فى نفسه ، ان ظن أنه اعتدى ، كان يقسم الغنائم مرة ، وبعض أعراب المسلمين يلاحيه ، فرده بعود فى يده ، فشكا الألم فأعطاه الرسول الأمين العادل ، ليقصص منه ، فعفا الرجل ، واستحيا أن يفعل .

ولقد كان يخشى لفرط احساسه بالعدالة ، وألا يلقي الله خالصا من حقوق العباد ، فقام ، وهو مريض مرض الموت ، وقد بلغ به الاعياء أشده وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا ، فهذا مالى ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشعناء فانها ليست من شأنى ، ألا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ، ان كان له ، أو حللنى ، فلقيت ربى وأنا طيب النفس » .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم بكل ضرويه ، وأكل أموال الناس ، وينهى عن معاونة الظالمين بكل أسباب المعاونة ، وأنه يشدد فى ذلك ، فهو يقول : « اتقوا دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، ونهى المحكومين عن أن يسكتوا عن ظلم الحاكمين ، لأنه معاونة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة الا اذا رأوا ولم ينكروا » وأوجب حمل الظالم على العدل ، وحث على ذلك فى قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق اطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

وان هذه الأحاديث تدل على أمرين عظيمين : - أولهما - شدة تمسك النبي عليه الصلاة والسلام بالعدل والدعوة إليه والتشدد فيه ، والاستمسك به ، لأنه كمال في ذاته ، ويدل على استقامة النفس ، حاكما كان أو محكوما ، فهو الكمال المطلق ان كان - وثانيهما - أنه يدعو الى العدل الجماعى ، لأنه هو الذى يستقيم به أمر الجماعة ، فلا يظلم الرجل أهله ، ولا يظلم الزوج زوجته ، ولا القريب قريبه ، ولا الرئيس مرموسه ، ولا الحاكم محكومه ، ولا المولى مولاه ، وأنه عليه الصلاة والسلام يقول فى حديث قدسى عن ربه : « يا عبادى انى كتبت العدل على نفسى فلا تظالموا » .

١٥٧ — ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى الفصل فى خصومات المسلمين فى خاصها وعامها ، ويأتى فى فصله بحكم الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكانت أفضيته تقصد القضاء بحكم الله تعالى ، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به من أمر وما نهى عنه ، وكانت أحكامه عادلة ، لا يحابى قويا ، ولا يهضم حق ضعيف .

ولما سرت فاطمة المخزومية ، وأهم قريشا أن يقطع محمد صلى الله عليه وسلم يدها ، ذهب اليه حبه أسامة بن زيد فتشفع له فى ألا يقيم الحد عليها بقطع يدها ، فنهره عليه الصلاة والسلام قائلا له مستنكرا : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا يقول :

« ما بال أناس يشفعون فى حد من حدود الله ، انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف قطعوه ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

فكان العدل الذى لا يمارى ولا يحابى فى حكم من أحكام الله تعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام ينظر فى الأمر عند الاختصاص الى لب القضية ، فيتعرف المعتدى ، فيحكم عليه ، ولا ينظر فقط الى المظهر ، ويروى فى الصحيحين « البخارى ومسلم » أن رجلا عض يد رجل آخر ، فنزع العضوض يده من فم الآخر ، فوقعت ثناياه ، فاختصموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن الذى رفع الأمر من عض أخاه ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام ، منحيا باللائمة على العاض مهدرا دية أسنانه : « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » .

وهو بهذا ينظر نظر الأريب الى موضوع القضية ، ليتعرف موضوع الاعتداء ، ومن الذى كان السبب ، ثم فيه اشارة الى من دفع عن نفسه الظلم ، وتعين عليه الا يدفع الظلم الا بالذى ينزل بالآخر ، فهو برىء مما يترتب على فعله ، والمتسبب هو الذى ييؤء بالاثم ولو كان هو الذى نزل به الأذى .

وكان عليه الصلاة والسلام يلاحظ فى قضائه ثلاثة أمور :

أولها - العدل بين الناس والمساواة بينهم فى تنفيذ أحكام الله تعالى لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ، بل الجميع أمام القانون سواء ؟ وفى المأثور « الناس سواسية كأسنان المشط » .

ثانيها - أنه يلاحظ الأثر الاجتماعى لحكمه ، فهو يفظل العقاب على من يكثر فساده ، حماية للجماعة المسلمة من شره .

ثالثها - أنه لفرط ايمانه بالعدل يخشى أن يقع منه ظلم لأحد ، بسبب من يدلون بالحجة فى فصاحة منهم وعجز غيرهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام وهو العدل الأمين ! انكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بحق أخيه ، فانما اقتطع له قطعة من النار » .

وفى الحق ان النبى عليه الصلاة والسلام كان عدلا فى ذات نفسه ، وعدلا فى كل ما يقوم به ، وعدلا فى أحكامه ، ويغلب المساواة فى كل شىء حتى فى الهدايا يهدى اليه باعباره كبير المؤمنين ، ويقول فى ذلك ابن القيم فى زاد المعاد فى هدى خير العباد . وقد جاء فى صحيح البخارى أن النبى عليه الصلاة والسلام أهديت اليه أقبية من ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه ، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور ابنه ، فاستقبله ، وقال يا أبا المسور خبأت لك هذا .

وهكذا نرى العدل يعم ولا يخص ، وانه كما ثبت من تاريخه قبل البعثة وبعدها لم يظلم ، ولم يضيع حقاً لأحد ، بل كان الحريص على حق غيره الحفيظ عليه .

وكان يعوض من يهدى من أصحابه ان تمكن من التعويض ، ويهادى من يهاديه ، لأن الهدية محبة ، وهو عليه الصلاة والسلام يبادل المحبة بالمحبة فهو عادل حتى فيما تبعته العاطفة ، ويدعو اليه الود .

## الشجاع

١٥٨ — يذكر بعض العلماء الشجاعة بأنها منبعثة من القسوة الغضبية ، ولكنها خاضعة لحكم العقل ، والحكمة ، والمعرفة ، وهى السبيل الى دفع الأذى والنفع للجماعة ، وليست مرادفة للتهور ، وإن كان منبعثهما واحدا ، وهى القوة الغضبية الدافعة عن النفس فى موقف للتعرض للأذى ، بيد أن التهور اندفاع غير محكوم بالعقل والحكمة ، ولا خاضع للمعرفة ، أما الشجاعة فإنها لا تصدر الا عن تفكير سليم ، ودواعى الحكمة المستقيمة .

وليست الشجاعة منافية للحذر ، بل انه مسيطر عليها ، فهو يدفعها ، وهو يحكمها ، وقد يكون الخوف مع الشجاعة ، لأن الشجاع يتردد قبل أن يقدم فيوازن بين العمل ونتائجه ، والأقدام وغاياته ، وهل يتعين الضرب بالسيف ، وإن ذلك كله قد يصحبه ، فليس الشجاع هو الذى لا يخاف قط ، إنما الشجاع من يتغلب على بواعث ، ويتقدم فى تدبير محكم ، وصبر وقوة احتمال ، ولا تتصور الشجاعة الا مع التدبير والصبر والاحكام وتعرف الغايات والمقاصد .

والشجاعة قد تكون معنوية ، وليس لها مظهر حسى ، وقد تكون حسية بدافع معنوى ، ورغبة فى رفع حق ، وخفض باطل ، والنبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان المثل الكامل للشجاعة المعنوية ، التى لا تهاب المخالفة فى الحق ، فقريش كلها كانت تسجد للصنم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يسجد للصنم قط ، وكان يجابه بذلك قريشا ، ولا يبالى ، وكانوا يحلفون باللات والعزى ومائة الثالثة الى آخر الأسماء التى سموها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وكان هو يرد من يطلب منه الحلف بها ، فيقول انه يكرهها وما يكون ذلك الا من شجاع قوى الايمان بما يعتقد ويؤمن فيختلف مع بائع فى الثمن ، فيطلب منه الحلف باللات والعزى ، فيرد محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ردا قويا ، بأنه يكره هذه الأسماء ، فيقبل الرجل قوله من غير يمين لروعة ايمانه وشجاعته فى هذا الايمان .

وانه فى رحلته الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين كان شجاعا فى نفسه وفكره وقلبه عندما منع رجال القافلة التى اعطته زمامها من أن يسابقوا رجال قافلة أخرى ، واجه من معه بذلك المنع غير هباب ولا وجل ، ثم خالف طريق الأخرى ، وسار فى طريق أخرى ليمر بقبر أمه بالأبواء ، ويستعبر عليه العبرات ، إذ كان لأول مرة زاره ، وكان فى وعى عند موتها ، إذ كان فى السادسة من عمره ، ومع ذلك وصل قبل القافلة ، وكان قد اختار الطريق



الذى ظنه من معه وعرا ، وظنه هو مسلوكا ، وكان مستقيما ، لأنه وصل قبل القافلة المسرعة من غير مسابقة •

وان هذا الخبر فى ذاته يدل على قدرة تدبير للأمور ، وتعرف لأقرب الوصول الى الهدف ، ويدل على رفق بمن معه ، والابتعاد عن المسابقات غير المثمرة الا التعب ، وعلى كمال الرفق بمن فى صحبته ، كما يدل على شجاعة نادرة ، وقوة احتمال كاملة •

ولقد كان شجاعا فى أقصى درجات الشجاعة عندما قبل أن يكون الحكم بين قبائل العرب فى وضع الحجر الأسود ، فقد تقدم وهو يعلم أن الحاكم لا يرضى كل من يحكمونه ، ولكنه بتوفيق الله تعالى أراضاهم جميعا •

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا قبل البعثة يقول الحق ولا يخشى لومة لائم ، يجاهر به غير مستهين بمن يقاومه ، بل راض بأن ينطق بالحق ، وحسبه ذلك وكفى •

#### بعد البعثة :

١٥٩ — بعد أن بعثه الله تعالى بدت شجاعته كاملة ، والبعثة من أول أدوارها ، وفى أنثائها ، وفى نهايتها تحتاج الى شجاعة ، وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، قال له : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به الا عودى » ولقاء أعداء الفكرة يحتاج الى شجاعة وثبات جأش ، وقوة احتمال ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » فما يختار رسولا خوارا ، ولا رسولا ضجرا ، ولا رسولا يعتريه اليأس فى أول الصدمة ، بل يستمر مصابرا مستعدا للصدمات ، واحدة بعد أخرى ، وأحيانا تجيء متكاثفة غير متفرقة ، بل مجتمعة صلبة غير متكسرة ، فكان لا يتلقاها الا شجاع النفس ذو العزيمة الصادقة فى هدأة المؤمن والقلب •

لقد كان أبو جهل يردد ويبرق ، ويعمل فى إيذاء مستمر ، عسى أن يجبن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن دعوة الحق المستمرة غير الوانبة ، بل كلما اشتدت وسائل الإيذاء وتعددت وتجمعت ، ازداد عليه الصلاة والسلام عملا ، ما هاب وما مل ، بل كان يصدر بالحق فى اطمئنان وشجاعة •

ولقد كان من أعدائه ذو البطش الشديد فما هابه ولا خافه ، وان رفق اليه فى القول ، فذلك شأنه والواجب عليه ، ليقرب من القلوب ولكى لا يكون فظا غليظ القلب ، فينفذ الناس من حوله •

وعندما أقبل على المسلمين عمر بن الخطاب وكان جبارا مرهوبا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وهو لا يزال على الشرك فزع المسلمون الا رجلين - أحدهما - حمل سيفه ليقتله به ان أراد شرا وهو أسد الله تعالى وسيد الشهداء حمزه بن عبد المطلب ، ومحمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما فزع ، بل رجا ، وما اضطرب بل اطمأن ، فقال ادخلوه ، فدخل والنبي الأمين ثابت مطمئن هادئ هدوء المؤمن الشجاع ، فلبى عمر ، بقوة ، حتى استكان ثم دعاه الى الاسلام ، فأسلم .

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان شجاعا يستمر فى دعوته ، وهو يعلم أن الملأ يأترون به ليقتلوه . فما وهن لائتمارهم وللأذى ينزل به ، وبضعفاء صحابته .

وكان الشجاع الثبت ، وهو مهاجر ، وقد آوى الى غار ثور ، والقوم قد أحاطوا به حاملين سيوفهم ، بل كان الشجاع ، وهو يقول لصاحبه الخائف على النبي صلى الله عليه وسلم لما عساه يصيبه : « لاتحزن ان الله معنا » .

وعندما لاقى اليهود فى يثرب ، وهو يعلم مكاييد اليهود واذاهم ، ومكرهم الخبيث الذى لا يمتنعون فيه عن الغدر ، وقد هموا به ، وأرادوا قتله غيلة برمى حجر عليه من عل ، ويدس السم فى طعامه ، وما جبن ، ولا سكنت عن الدعوة ، بل استمر يدعوهم الى الحق « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

وان الشجاعة المعنوية بين المنافقين كانت سياسته ، فهو يصدع بالحق بينهم ، كما صدع به بين أصحابه ، فهو فى معاملة المنافقين يسوسهم يريد عمر أن يقتل عبد الله بن أبى ، فيمنعه فى قوة غير أبه لاعتراضه ومكانة عمر فى أهل الايمان ، ويقول له مرشدا ، « لا تقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يقتل أصحابه » . وكان أبعد نظرا من عمر ، لأنه بعد ذلك يرم أهل كل منافق به واستأذنوا النبي عليه الصلاة والسلام فى قتل من فيه من أهل النفاق ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبى من النبي عليه الصلاة والسلام أن يأذن له بقتله ، فلم يأذن ، وقال : « أين عمر ، لو قتلهم يوم طلب عمر أن تقتلهم ، لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم » .

وكان عليه الصلاة والسلام شجاعا كريما ، عندما قبل أن يكتب صلح الحديبية ، كما أملى المشركون ، وقد اشتد الأمر على المؤمنين ، لما قالوا من يخرج من المشركين مسلما بغير رضا وليه ردوه ، ومن خرج من عند محمد صلى الله عليه وسلم مرتدا الى مكة المكرمة لا يرده ، وغضب عمر وكثرة

من المؤمنين ، وقال قائلهم ، لماذا نقبل الدنية فى ديننا ، واشتد غضبهم عندما جاء أحد المسلمين من قریش مكبلا بالحديد فردّه •

كان شجاعا وهو يعلم أنهم على خطأ المخلصين ، وردهم ، ثم تبين بعد ذلك ما كان عليه النبى عليه الصلاة والسلام من حكمة ، عندما طلبوا هم عدم التمسك بهذا الشرط ، والغائه ، لأنه لم يرتد أحد من المسلمين ، ومن خرجوا مسلمين من قریش ، ولم يقبلهم ترصدوا المشركين فى متاجرهم ، فأذاقوهم الويل والثبور ، وقتلوا منهم ، واستولوا على غنائم كثيرة من أموالهم على ما سنبين ان شاء الله تعالى •

### شجاعة النبى عليه الصلاة والسلام فى ميدان القتال :

١٦٠ — كتب القتال على محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه ، وهو كره لهم ، لأن الدعوة الاسلامية لا بد أن تأخذ طريقها ، وأن ترد الاعتداء حتى يكون الدين لله ، وتستقيم القلوب ، ولا تكون الفتنة ، والاكراه على ترك الهداية ، والوقوع فى الغواية ، بعد أن من الله تعالى عليهم بالحق ، والايمان وما كان أهل الايمان ليستخذوا ويستكينوا ويهنوا عن نصرته ، ولذلك أذن لهم فى القتال ، كما قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » •

كان لا بد من القتال جهادا فى سبيل الله ، ولنصرة الحق ، وكان لا بد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام الموجه له فى كل ميادينه ، والموجه له فى كل نواحيه وضروبه ، وما كان محمد عليه الصلاة والسلام القائد الذى يحارب بغيره ، فيوجه الى الميدان ، ولا يتوجه هو اليه ، بل كان يتجه هو اليه ليكون القدوة الحسنة فى كل أمر يدعو اليه ، لا يرضى بنفسه ، ولا يستأثر بالراحة ، ويترك غيره يعمل ، بل يكون فى أول العاملين المتقين •

وكان على رأس المجاهدين ، جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض ما نصه : « قد حضر عليه الصلاة والسلام المواقف الصعبة ، وفر الكماة الأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزعزع ،

وما من شجاع الا وقد اُحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواء عليه الصلاة والسلام » (١) .

ولقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرّض المؤمنين » أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بأن يقاتل المشركين اذا واجهوه ولو كان وحده ، وذلك الأمر الخاص به الذى كلفه ، وقد فهمه أولئك المفسرون من قوله تعالى : « لا تكلف الا نفسك » .

ومهما تكن دلالة ذلك النص فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمل عبء الجهاد ودخول الميدان بنفسه من غير ضن بها وكان أصبر أصحابه فى الجهاد ، فما فرق من صفوف القتال ، وما يختاره فى موضع آمن ، ولو تولى عنه كل من حوله .

ولقد روى عن فارس الاسلام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : « انا كنا اذا حمى اللباس ، واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد اقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو اقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » .

فكان عليه الصلاة والسلام هو العلم الذى يهتدى به فى الميدان أشجع المجاهدين وأصبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول عبد الله بن عمر الذى شاهد الحرب ، ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الشجاع الرضى الكريم الصبور ، الذى يقف فى الهيجاء ، ويحمل سيفه ، ليجيب كل هيلة .

وانه عليه الصلاة والسلام كان قوى الاحتمال مع شجاعة ، ورباطة جأش ، لقد جرح فى يوم أحد ، واشتدت جراحه ، وانزفت دمه ، ومع ذلك داوم على الحرب ، ولم يهن ولم يستكن .

ولقد أريد قتله عليه الصلاة والسلام فى هيجاء أحد ، واضطرابها ، فجاء أبى بن خلف يريد قتله ، وقد أعد لذلك عدته منذ بدر الكبرى ، اذ كان فى الأسرى ، فلما كان أحد ، ولم يكن للمسلمين جاء وقد ادرع بالحديد ،

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٦٦ .

لا يرى منه الا عينه ، حتى لا يصيبه سيف أو رمح ، وهو يقول أين محمد (صلى الله عليه وسلم) لا نجوت أن نجا محمد ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزف من دمه ما أنزف ، خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث ابن الصمة ، وحملها ، وانتفض بها انتفاضة تطايروا تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، قطعنه عليه الصلاة والسلام فى عنقه طعنة تداً دأمنها من فرسه مرارا ، وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع الى قریش يقول : قتلنى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يقولون لا بأس عليك • فقال لو كان يجمع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ، والله لو بصق على لقتلنى ، فمات فى سرف فى قفولهم الى مكة المكرمة (١) • وانه فى حرب هوازن ثبت وحده ، وذلك كاف لبيان مدى شجاعته وصبره •

١٦١ — هذه شجاعته عليه الصلاة والسلام فى الجهاد بالسيف ، وقد ذكرنا شجاعته المعنوية فى السلم ، وكيف كان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يلاحظ فى أفعاله للميئة وتقاليدها ، ولو كانت مستنكرة ، ولو كان منشأ هذه التقاليد أنهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون ، بل ما يكون معروفا يعرفه ، وما يكون نكرا ينكره ، وهو فى ذلك قبل البعثة وبعدها على حال واحدة ، ولا يهاب الرجال ، بل يهاب الله تعالى وحده ، ويرفق بالرجال ما كان الرفق سبيلا للهداية ، فهو الهادى المرشد الداعى الى الحق فى كل أحواله •

وهو يستجيب لداعى النجدة ، حيث تكون الاستجابة واجبة ، والنجدة لازمة ، وحيث يكون ملهوف يغاث ، لقد فزع أهل المدينة ، وتصايحوا لمخوف ألم ، فانطلق ناس قبل الصوت • يتعرفون مكان الاستغاثة ، وكل يعتقد أنه الذى سبق ، ولكنهم وجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد سبقهم الى الصوت ، ولقوه قافلا وقد سبقهم ، وقد سارع الى الصوت على فرس لأبى طلحة ركبته النبى صلى الله عليه وسلم الشجاع القوى الأمين ، والفرس عار ، لا سرج عليه ، وقد سبق عليه الصلاة والسلام والسيف فى عنقه ، وقال لهم ، وهو راجع : « لن تراعوا » •

وهكذا كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملة فى كل ضروب الشجاعة •

(١) الشفاء ص ٦٨ ج ١ •

وإذا كان الحق يتكلم ، ولا يجمع ، وفى الميدان يتقدم كل الصفوف ، ولا يجمع ، وفى النجدة هو السباق الى مواطن الاغاثة فهو فى كل أحواله الشجاع ، ولكن فى غير خيلاء ، ولا مفاخرة ، ولا استعلاء ، بل هو فى هذه الداعى الى الحق ، والى صراط مستقيم .

وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « فضلت الناس بشدة البطش ، والمراد البطش بالظالم ، وأخذه بالقوة بعد ألا تجدى الموعظة ، ويخرج من طور الجاحد المجرى الى طور المعتدى الأثيم ، الذى يحاول أن يفتن الناس فى دينهم والفتنة أشد من القتل .

## الرجل

١٦٢ — ان سمات الرجال الخلقية والعقلية ينبىء عنها أو تسمى إليها صفاتهم الجسمية ، فأولئك الشواذ فى تكوينهم النفسى أو العقلى يبسود شذوذهم فى أجسامهم بضمور واضح مثلا فى عضلات الوجوه ، أو اعوجاج فى بعض أجزاء جسمهم ، أو اضطراب فى عيونهم ، أو انحراف فى بعض الملامح ، وان ذلك يتضح كاملا ، لأهل العلم بالاغصاب ، والنفوس ، والمتبعين للمرضى من الشواذ .

وان اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل فى الجملة على استقامة العقول والنفوس ، وان المزاج النفسى يصحبه غالبا مزاج جسمى كامل ، متناسق فى تركيبه الظاهر والداخل . فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاما لا شذوذ فيه ، ويكون معه انسجام نفسى كامل ، وعقل كامل وخلق كامل .

ولقد وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النبيين فى حديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمى . وهو كمال فيه جمال . لا يكون ما يسوغ النفرة منهم أبدا . فقد روى سعيد بن المسبب . أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصف لأصحابه ابراهيم وموسى وعيسى . فقال : « أما ابراهيم فلم أر رجلا قط أشبه بصاحبكم . ولا صاحبكم أشبه به منه . وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنودة (١) . وأما عيسى

---

(١) المضرب الخفيف اللحم ، والجعد المنكسر الشعر ، والأقنى المرتفع قصبه الأنف ، وشنودة قبيلة من الأزد ، والأدم ذو الحمرة المشرب بسمرة .

ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر • كثير خيلان الوجه ،  
كأنه خرج من ديماس • تخال رأسه نقطة ماء • وليس به ماء ، أشبه رجالكم  
به عروة بن مسعود » •

وان هذه الأوصاف لأولئك الأنبياء الثلاثة • وهم من أولى العزم من  
الرسول ، تدل على كمال التناسق الجسمي فيهم مع اختلاف فى الأوصاف  
الجزئية • واتفاقهم فى أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطنى من حديث  
أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبى عليه  
الصلاة والسلام قال : « ما بعث الله تعالى نبيا الا حسن الوجه حسن الصوت •  
وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا » ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) •

لم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) من الخلق والتكوين مستترعا للأنظار ، هو جميل فى جسمه ،  
كما هو جميل فى خلقه ، وانه عندما تحدى قريشا بالقرآن الكريم ، وعاب  
الهتم ، وبين بطلان عبادتها ، ورأوا أباطالب عمه فكلموه • وهو يحميه  
دونهم • أتوا بفتى نهد هو أجمل قريش فى زعمهم ، ليكون ولدا لأبى طالب ،  
ويسلم لهم محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) ليقتلوه ، فرفض  
تلك المساومة على ابن أخيه ، وقال فى تهكم لاذع « تعطونى ولدكم أغذوه  
لكم ، واعطيكم ولدى تقتلونه » وهذا الخبر يدل على أن محمد بن عبد الله  
( صلى الله تعالى عليه وسلم ) قد بلغ الكمال الجسمى ، ان سواه الله تعالى فأحسن  
خلقه •

ولا شك أن ذلك التناسق الجسمى له أثره فى الدعوة ، والاستجابة لها  
ان كان مصحوبا بأشراق روحى ، وانه مما يروى فى ذلك أنه بعد أن  
تجاوبت الدعوة المحمدية فى الأصداء ، وعرفت فى أرجاء الجزيرة العربية ،  
وشاع خبر المكذبين وهم الكثرة ، كالمشأن فى كل دعوة جديدة تجيء على  
لسان رجل يأتيهم بجديد لم يألفوه ، فى هذه الأثناء قابل أعرابى محمد  
ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) قراعه منظره ، واشراق وجهه ، وتألؤ  
النور فى جبينه ، فسأله من أنت ؟ فقال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) ، فقال الرجل فى ايمان مدرك : أنت الذى تقول عنه قريش انه كذاب !!  
فقال الرسول الكريم : نعم • فقال الرجل ليس هذا بوجه كذاب ، ما الذى تدعو  
اليه ؟ فنذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فأعلن الأعرابى  
ايمانه •

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء  
من طرق أنه كان فيه جمال يتلأأ وجهه اشراقا ، ونختار من هذه الروايات

وصفين جامعين : أحدهما وصف هند بن خديجة رضى الله تعالى عنه ، وكان رجلا وصافا فيه دقة ملاحظة ، وإدراك للصفات ؛ - وثانيهما - لأم معبد ، ولنختر هذين الخبرين ففيهما الغناء •

١٦٣ — حديث هند بن أبى هالة ربيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رواه الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقد قال الحسن أول سيدى شباب أهل الجنة •

سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لى شيئا منه أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخما مفخما يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر (١) أطول من الربوع (٢) وأقصر من الشذب (٣) ، عظيم الهامة ، رجل (٤) الشعر ، ان انفرت عقيقه (٥) فرق ؛ والا لا يجاوز شعره شحمة أذنه ، ذا وفرة • أزهر (٦) اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى (٧) العينين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع (٨) الفم أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة معتدل الخلق باديا متماسكا ، سواء البطن والصدر ، فسيح الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراويس أبذر المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرقة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة شثن الكفين (٩)

(١) وخيلا جمع خال ، وهو شام الوجه الذى يعطيه حسنا ، فى الماء السائل •

(٢) أى أنه ربعة من الرجال أقرب الى الطويل منه الى القصير •

(٣) الشذب البائن الطول •

(٤) الشعر الرجل المرسل أنه مشط •

(٥) العقيقة شعر الرأس •

(٦) الأزهر النير •

(٧) الأقنى السائل الأنف •

(٨) المضليع الواسع والمشنب رواق الأسنان ، والمسربة ، خيط الشعر بين

الصدر والسرقة ، وسواء معناه سوى •

(٩) شثن الكفين والقدمين ، أى أنهما ذواتا لحم ، فليسا معروقتين •

والزنندان عظما الذراعين ، سائل الأطراف ، أى أن أطرافه عليه الصلاة والسلام

فخمة لا تعرج ، بل انها مستقيمة ، ورحب الراحة أى واسع اليد •



والقديين ، سائل الأطراف سبط العضب خمسان (١) الأخصمين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء • إذ زال ثقلها (٢) ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية ، اذا مشى كأنما ينحط من صلب ، واذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام •

وان هذا يدل على الجمال والكمال ، جمال الرجولة ، وكمال الانسان ، فكل ما فيه يسترعى الأنظار ، ولا تنصرف عنه ، ولذلك من لقيه ممن هو خالى الذهن ، لا يتجه اليه بحقد أو حسد ، أو ضغن يلتفت اليه ، ويجد فيه مثلا كاملا للرجل ، ومكانة عالية فى الخلق ، والاشعار بالمودة ، فهو لا يتقدم مباهايا ، ولا يسبق معتزا ، ولكن يسير وراءه متواضعا ، متطامنا ، ويلقى السلام على كل من يلقاه اشعارا له بالمودة والمحبة ، حتى لا تسبق الجهامة ، والمنافرة ، فهو جميل التكوين والتنسيق فى جسمه مرضى اللقاء ، بل محبوب اللقاء فى خلقه ، وما قام بينه وبين أحد فى الجاهلية عدا ، ولا كانت شحنا بينه وبين أحد منهم ، ولا ملاحاة فى عصبية أو ما يشبهها من المشادات الجاهلية ، بل كان الأليف المألوف ، القريب الى النفوس خصوصا النفوس المستقيمة التى لا التواء فيها ، ولا منافرة •

وذلك فوق ما خصه الله تعالى به من جاذبية شديدة تعلن الطيبة ، وتكشف عن خبيثة نفسه الطاهرة المسالمة التى لا تنافر ولا تفاضب ، ولا تصعب •

ولنقرأ وصفا ، لامرأة مر عليها عابرا فى هجرته من مكة الى المدينة ، فقد قالت واصفة له • وقد سئلت عنه أم معبد :

لقد مر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الديلمى ، فسألوها هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا ، وقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وكانوا محملين ، فنظر عليه الصلاة والسلام الى شاة فى كسر خيمتها ، فقال ما هذه الشاة

---

(١) خمسان الأخصمين ، الأخص وسط القدم الذى ينزل الى الأرض ، ولا تمسه ، وخمصانها أنه طويل ، أى أنهما متباعدان •

(٢) التقلع ، رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ ، التزام طريقة الشيء ، والقصد فيه ، والهون الرفق •

يا أم معبد ، فقالت : نحلها (١) الجهد ، فقال عليه الصلاة والسلام أتأذنين لى أن أحلبها ، فقالت ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، فكان فى حلبة منها ما كفاهم أجمعين ، ثم حلبها ، وترك عندها اناءها ملائ . فلما جاء بعلمها استنكر اللبن ، وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت والشاء عازب !!

فقالت : لا والله مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صاحب قريش الذى تطلب !!

فقالت : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاعة (٢) حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبته ثلجة ، ولم تزر به صعلة ، قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقته خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلامهم وأحسنهم من قريب ، ربيعة لا تشنوه عين من طول ، ولا تقحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين (٣) ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (٤) .

١٦٤ — هذا وصف من رأوه ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : جمال تكوينه الجسمانى ، وكمال التنسيق بين أعضائه ، حتى انه لو أراد مصورا أن يضع سورة لرجل مكتمل الجسم ، منسق الخلق ، ما وجد خيرا من هذه الصورة التى يصورها من رأوها ، وكان لها روعة عند كل من رأوها ، يستوى فى ذلك من خالفه وعائده ، ومن أطاعه وصدقه ، فهى صفات لها أثرها عند الناظر اليه ، وهى تزيد الموافق تصديقا ، وتثير الحقد

(١) المحل الجذب ، ونحل يعنى ضعف وهزل .

(٢) الوضاعة الجمال ، وأبلج الوجه معناه مشرق ، والثلجة كبر البطن ، والصعلة صغر الرأس ، والقسيم والوسيم من سلامة التكوين ، والدعج شدة سواد حبة العين ، والوظف طول رمش العينين ، والصحل بحة يسيرة تجعل للصوت تأثيرا .

(٣) غصنان هما الاثنان اللذان يحيطان به أبو بكر ، والدليل .

(٤) محفود أى مخدوم ، ومحشود معناه أن من معه يحيطون به ، ومعنى غير مقند لا يجابهه غيره بالخطئة والمخالفة .

والحسد ، ومحبة الأذى عند من يعانده استكبارا ، فان المكابر يزداد اعناتا ، كلما رأى عوامل التأييد لنقيض رأيه تزداد وضوحا واعلاما ، وخصوصا اذا كان صدقا ثابتا بالمعايينة ، وليست خبرا يقبل الانكار .

وان قريشا كانت تعلم فيه ذلك التكوين ، ولذلك لما أرادت أن تعوض أبا طالب عن ابن أخيه قدمت له أنهد فتى قريش ، ولكن أنى يكون من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور الانسانية ورسولها .

— الأمر الثانى — أن قلبه الطاهر كان يشع على وجهه بالنور ، فهو اذ يمشى يحف به النور الذى أضفاه الله تعالى عليه بتطهير قلبه ، وتنوير نفسه بالخير ، فكان كما قالت أم معبد « وضاء الجبين متلألئا بالنور ، من غير استكبار ولا استعلاء ، بل كان بين الناس متطامن النفس ، وان اليهم ، وهى فيهم كأحدهم ، لولا فضل الرسالة ، وما جعله الله تعالى له من مكان ليصل القول الطيب الى أمتة » .

الأمر الثالث — شدة جاذبيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع الهيبة التى تفرض قولها على الناس ، ومع كمال المحبة واستشراف النفس المحبة اليه ، أو النفس الخالية من ضغن أو حقد ، أو اعنات فى المخالفة ، فان النفس التى تكون على هذه الشاكلة توجد فيها مقاومة للتأثير النفسى الذى يتجه الى البراءة ، وانها تكون مدنسة بالشر قد سكنها الشيطان وغلبت عليها وسأوسه ، فالقلب لا يصدق ، ويكون ممن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ، ولقد كان المشركون يعرفون قوة تأثيره بشخصه ، فوق ما معه من حق وبيئات تثبت صدق ما يأتى ، ولذلك كانوا يسبقون الى قبائل العرب ينفرونهم ، لكيلا يؤثر فيهم بشخصه وقوله ، وبيئات الله تعالى التى أجراها على يديه ، ونزل بها الوحي الالهى .

ومع كبر ما صنعوا ، لم ينفر الناس من الاستماع اليه ، والانعطاف ، لأن الحق بين ، والحجة قائمة ، والداعى تنجذب اليه النفوس ، وتصفى اليه أفئدة طلاب الحق الذى لا يمتارون فيه ان وجهه اليهم ودعوا اليه .

١٦٥ — وكان كل شئ فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلن قوته وجماله وكماله ، فكان فى شكله الشاب وقد تجاوز الستين من عمره ، لم يكن فيه شيب . بل كان أسود الشعر ، حتى عد الذين خالطوه من صحب ، وخدم شعرات شبيهة فذكروا أنه لم يشب فى لحيته ورأسه الا عشرون شعرة وعدها خادمه أنس رضى الله عنه بأنها احدى عشرة ، حتى انه كان يوصف بالشباب . وقد تجاوز الستين فى أصح الروايات عن سنه ، واذا كان تعبير

فى بعض شعره ظن خضابا فانه لم يكن خضابا ، وانما كان من كثرة ما يضمخ به شعره من مسك ، فقد كان يحب الطيب ، وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « حُبب الى من دنياكم ثلاثة : النساء ، والطيب ، وجعلت قرعة عيني فى الصلاة » .

ونرى أنه عليه الصلاة والسلام جعل الصلاة من الدنيا ، اذ وصفها مما حُبب اليه من شئون الدنيا ، لأن الصلاة مع جانبها الروحانى ، ومع أن فيها ذكر الله تعالى ، هى تصلح الدنيا ، لأن الصلاة تربي الضمير ، وترهف الوجدان ، فتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك تصلح شئون الدنيا والآخرة معا .

وانه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على الطيب يتطيب به دائما ، حتى انه كان ينبعث عرف الطيب فى مجلسه ، ولقائه ، وفى مظاهر حسه ، وكان اذا مس رأس طفل استمر العرف الطيب فى رأسه ، وانه ليعرف أن الرسول مر فلمس طفلا بالريح الطيب .

ولا شك أن العرف الطيب تستروح به النفس ، ويقبل معها الجليس ، وتنجذب اليها النفوس ، وان الرائحة الكريهة تنفر ، وتبعد .

وكان عليه الصلاة والسلام يعنى بالنظافة فى المظهر ، كما عنى بتطهير المخبر ، كان يعنى بنظافة الحس ، كما عنى بنظافة النفس ، ولنترك الكلمة للقاضى عياض يبين ذلك . . فقد قال :

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ، ونزاهته عن الأقدار ، وعورات الجسد ، فقد خصه الله تعالى بخصائص لم توجد فى غيره ، ثم تممها بنظافة البشرة وخصال الفطرة وقال : « بنى الدين على النظافة » . . عن أنس ( خادم رسول الله ) ما شممت عنبرا قط ، ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده قال فوجدت ليده بردا وريحا ، كأنما أخرجها من جونة عطار قال غيره مسها بطيب ، أو لم يمسه . . يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبى ، فيعرف من بين الصبيان بريحا ، ونام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى دار أنس ، فعرق ، فجاءت أمه بكارورة تجمع فيها عرقه ، فسألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقالت نجعله فى طيبنا ، وهو من أطيب الطيب . وذكر البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام يمر فى طريق ، فيتبعه أحد ، الا عرف أنه سلكه من طيبه ، وذكر

اسحق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب ، صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
وروى المزني عن جابر : « أردفني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفه ،  
فالتقمت خاتم النبوة بقمي ، فكان ينم على مسكا (١) » .

وهنا ننظر نظرة فيما رواه اسحق بن راهويه ، أو ذكره من غير رواية ،  
وهو أن رائحته عليه الصلاة والسلام التي كانت طيبة كانت من غير تطيب ،  
وأن ذلك بلا ريب جائز وممكن ، فليست أمرا مستحيلا في العقل ولا في  
الشرع ، فقد اختصه الله تعالى بخواص ليست في كل الناس ، والله أعلم حيث  
يجعل رسالته .

ولكن ثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتضمخ  
بالطيب ، وليس ذلك مما يعيبه ، بل هو من المستحسن ، وثبت أنه عليه الصلاة  
والسلام كان يقول : أنه فيما حُبب اليه من شئون الدنيا الطيب .

ومهما يكن فإن محمدا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يكون  
ريحه طيبا ، لكيلا يكون منه ما ينفر جليسه ، بل يجذبه ويحبيه .

### خاتم النبوة :

١٦٦ — هذه الصفات الجسدية كلها صفات كمال وجمال ، وقد  
يشاركه بعض الناس في بعضها ، ولكن لا يشاركونه في كلها . فليديه  
صلى الله تعالى عليه وسلم صفة جسمية لا يشاركه فيها أحد ، وهو جزء بارز  
بين كتفيه ، وهو من نوع جسمه ، وأن كان بارزا فيه ، ويظهر من مجموع  
الروايات أنه كان صغيرا بحيث لا يظهر من وراء الثوب نائتا نتوءا واضحا ،  
فقل أنه كبيضة الحمام ، وقيل أنه كالتفاحة ، ولا بد أن يكون كالتفاحة  
الصغيرة ، وقد قال سلمان الفارسي ، أتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم  
فرايت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة ، وقد تكاثرت الروايات في ذلك ،  
حتى بلغ الخبر في ذلك حد المشهور المستفيض ، وكأنه وصف جسدي معلم  
للمرسالة ، لا يمارى فيه من رآه ، والله تعالى آيات في خلقه .

## تقدمة صفات النبی « صلى الله تعالى عليه وسلم »

١٦٧ — المنهاج الذى يسلكه الكتاب فى السيرة العطرة ، سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتبوا صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخر سيرته الطاهرة ، فلا يكتبوها قبل البعثة المباركة ، ولكن يكتبونها بعد أن بلغ الرسالة ، ومضى الى لقاءه الكريم .

ونحن قد اخترنا أن نكتب تلك الصفات قبل تكليفه أداء الرسالة ، لأننا رأينا — ونرجو من الله التوفيق — أن نكتبها قبل البعثة ، ليعلم القارئ من الذى كلفه الله أداء الرسالة ، ومن الذى اختاره ليكون بشيرا ونذيرا للناس كافة عربهم وعجمهم ، وليعلم الناس أنه لم يكن فى مجموع صفاته وكمالاته كسائر الناس ، وإن كان من الناس ، وأنه ليس بكل واحد من البشر مجموع أخلاقه وتكوينه ؛ وإن كان منهم ، فهو من الناس ، ولكنه فى أعلى كمال الناس ، وإذا كان ليس من الملائكة ، فهو أعلى من الملائكة ، واليق بالرسالة ، وأجدر بها من الخلق أجمعين .

وأنه بعد معرفة هذه الصفات وتعرفها ، وانفراده بها من بين جيله ، بل من بين الأجيال كلها ، لا يستطيع أحد أن يقول : لماذا اختاره ربه دون عمرو بن هشام ( أبى جهل ) أو دون عمر بن الخطاب وهو من الأبرار ، أو دون الصديق ، وهو من الأطهار ، أو دون على ، وهو من الأشداء الأبدال ، لا يستطيع أحد أن يسأل لم اختيار دون هؤلاء أو غيرهم ، لأن هذه الصفات الخلقية والجسمية لم تكن لأحد من هؤلاء ، ولا من غيرهم ، ولم يكن ذلك الاثراق المتألىء الوضاء فى واحد منهم ولا من غيرهم ، ولم يعرف لأحد من الناس الا لأكمل الأخلاق محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) .

وإذا كانت تلك الصفات ، وما آتاه الله تعالى من فضل ، وما اختصه من رحمة هى التى جعلته مستأهلا لأن يحمل أمانة الرسالة دون غيره ، فإنها تكون مقدمة للرسالة ، ولا تكون نتيجة لها ، والمقدمة بمقتضى المنطق والعقل تسبق النتيجة ، وتمهد لها ، والتمهيد لا يكون بعد المقصد ، بل أنه يرشح له ، وينيره ، ويهتدى اليه .

وقد يقول قائل : أنك فى سبيل بيان صفاته الكريمة قد أتيت بأخبار عنها من بعد بعثته ، واستشهدت له بعد إرساله رحمة للعالمين ، وبذلك تقع فيما خالفته ، وهو أنك ذهرت الصفات بعد البعثة ، وموضعها قبلها على ما ذكرت من منطق !!

ونقول فى الاجابة عن ذلك : « اننا استعنا بالأخبار التى وردت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرسالة لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة ، ولأنها ذكرها من شاهد وعاین من بعد الرسالة ، وهذه الصفات التى عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، صفات ذاتية ، لم تجيء بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فما وصفه الجسدى حادثا بعد الرسالة ، ولكنه كان من قبلها ، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الأمانة والصدق ، والعفة ، والحلم ، والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وإن أخبار النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته ، ويدونون خليقته ، ويهتمون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجایا الا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة لربه ، ويلتقى بالقبائل ، ويقرب المرافقين ويدنيهم ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، ولا يلاحقهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويوطئ أكنافه لهم ، وهو ليس فظا ولا غليظ القلب ، فالأخبار التى استشهدنا بها لاثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتى ، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة الغطاء عنها معرفة لها ، وهى ذاتية قد هيأتها لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين ، « يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

## البشارات بالنبى المنتظر

١٦٨ — كان العالم يموج بفتن مادية ، فالحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والرومان ، ومن قبل عصر نبوة عيسى انسابت الجيوش اليونانية بقيادة الاسكندر المقدونى وراء فارس ، حتى وصلت الى الصين ، وقد كان العصر من بعد عيسى عصر الاضطهاد الدينى ، اضطهد النصارى ابتداء ، ومكث اضطهادهم زهاء ثلاثة قرون لقوا فيها من الرومان واليهود أشد ما يلاقى ذو اعتقاد فى اعتقاده ، وذو ايمان فى ايمانه ، حتى ان نيرون أحد امبراطرة الرومان كان يطليهم بالقار ، ويشعل النار فيهم ، ويسير فى مركبه تحيط به تلك المشاعل الانسانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين فى ايمانهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وقبلوا العذاب الهون ، وتوقصوه ، ورفضوا أن يغيروا فى سبيل دنيا يصيبونها ، أو دفع عذاب ليتقوه .

وكانت مصر من أول البلاد التى دخلت فى النصرانية الأولى ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ولذلك كانوا أشد البلاد تعرضا لأذى الرومان الذى كان سلطانهم مفروضا عليها وعلى الشام ، وجاء اليهم العذاب الشديد فى عهد

دقلدياتوس ، وذبحت فيهم مذابح سجلها التاريخ ، وأرخ بها التاريخ القبطى مسجلا تلك المذابح ، يذكر الرومان بما يعود عليهم بالخزى والعار ، ويذكر المصريين الأولين بالافتخار ، ويذكر المتأخرين من الأقباط بالاعتبار .

ولما دخل قسطنطين امبراطور روما فى النصرانية فى الثالث الأول من القرن الرابع كان ذلك سبيلا لسيطرة الانحراف فيها ، وانتقل الاضطهاد من النصارى الى اليهود ، فأذيقوا من العذاب أكؤسا ، وشربوا منه ، ثم جاء من بعد ذلك لون آخر من الاضطهاد ، ذلك أن كنيسة روما خالفت كنيسة مصر فى بعض جزئيات عقائد النصرانية بعد أن انحرفت من الوجدانية الى التثليث انقلب الاضطهاد الى داخل النصارى أنفسهم ، فكان منهم الملكانيون الذين تتمثل فيهم عقيدة روما ، واليعقوبيون الذين تتمثل فيهم عقيدة المصريين .

وكان ذلك الاضطراب فى العقيدة النصرانية التى حرقت ، ثم انتهأه الى أمر غير معقول فى ذاته ، من قيل ان المسيح ابن الله ، وأنه نزل الى السموات العلا حيث الله أبوه ، وتجسد الى الأرض لتغفر خطيئة آدم لعصيانه ربه وأكله من الشجرة ، فكان غريبا أن يكون تكفيرا للمعصية الأولى بالأكل بمعصية أشد وأوغل ، وهو قتلهم ولد الله فى زعمهم ، والعقل لا يعلم ولا يدرك أن معصية أشد فى حق الله تكون تكفيرا لمعصية أقل ، بل لخطأ جاء تضليلا من عدو أثيم .

ومن غرائب تلك العقيدة أنها تحاول الجمع بين الوجدانية والتثليث فيصعب التصوير ، ولكن مع ذلك يصدقون على ريب من مفكريهم ، وتسليم من عوامهم .

١٦٩ — والعرب كانوا فى حيرة أشد ، وان كانت حياتهم لا تمكنهم من التأملات فى العقائد ، ولعلمهم لو تأملوا ، ولم يغلب الاتباع ، وقولهم « أنا وجدنا آباءنا على أمة ، وأنا على آثارهم مقتدون » لكانوا قادرين على الوصول الى الصواب ، أو على الأقل منهم من يصل ، كما فعل الحنفاء ، وانهم كانوا قبل البعث عددا محدودا .

لقد كانت حياتهم مضطربة بين توحيد جزئى ، ووثنية جانبية ، لقد كانوا يتبعون إبراهيم ، ويعتقدون أن الله وحده هو خالق الكون ومنشئه ومدبره ، فاعترفوا بذلك بوجدانية الخلق والتكوين ، ولكن مع ذلك أشركوا معه فى العبادة أحجارا لا تنفع ولا تضر ، يزعمون أن العبادة لها تجعل منها شفعاء يشفعون .



ثم كانت البشائر بأن نبيا سيبعث كان يتردد فى البلاد العربية ، كان  
يجرى على السنة بعض العرب ، كما يروى عن قس بن ساعدة الايادى أنه  
ذكر فى احدى خطبه أن نبيا قد أدركهم زمانه ، وأن أوانه •

وان البلاد العربية ، وخصوصا الحجاز كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال  
رسول مبعوث ، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات ، مثل  
ما جاء على لسان قس بن ساعدة الآنف الذكر ، ولعله يومئ الى أن له صلة  
بالنصرانية وخصوصا أنه ثبت فى القرآن ، أن التبشير بالنبي محمد الأمى  
عليه الصلاة والسلام مذكور فى التوراة والانجيل ، كما قال الله تعالى :  
« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة  
والانجيل » •

وقال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء  
ببيتهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم  
من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل » •

وقال تعالى : « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم  
جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أقررتم وأخذتم  
على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » •

وقال تعالى فى بشارة عيسى عليه السلام بمحمد النبى الأمين ( صلى  
الله تعالى عليه وسلم ) : « واذا قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول  
الله اليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول ياتى من بعدى  
اسمه أحمد » •

وهكذا نجد النصوص القرآنية الكثيرة التى جاء فيها أن محمدا عليه  
الصلاة والسلام ذكر فى التوراة والانجيل ، وقد أشرنا الى ذكره فى كل  
الديانات القديمة قبل تحريفها ، حتى البراهمة والزرادشية قبل التغيير والتبديل  
فيها •

ويهمنا أن نعرف ذكر التوراة لمحمد عليه الصلاة والسلام •

١٧٠ — وقد وجدنا النصوص فى التوراة حتى بعد تحريفها ، وبعد  
أن نسوا حظا مما ذكروا به تومئ أو تشير باشارة واضحة تكاد تكون عبارة  
لا اشارة — مبشرة بنبى الله تعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،  
واليك ذلك النص الذى يكاد يكون صريحا ، ولكنه نص فى دلالته ، سواء أكان  
بالاشارة أم بالعبارة :

« جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران ( أى مكة المكرمة ) وقد فسر ابن ظفر من كتاب المسلمين فى السيرة الطاهرة ، معنى النص فقال مجيئه من سينا تكليمه لموسى ، وإشراقه من ساعير - وهى جبال فلسطين أنزاله الانجيل على عيسى ، وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ، حيث ولد عيسى عليه الصلاة والسلام ، واستعلن من جبال فاران وهى جبال مكة ، انزال القرآن (١) » .

ونرى من هذا أن الرموز كانت للأماكن ، وبتبيين الرسل الذين بعثوا فيها ، ومجيء الرب بالبداية هو مجيء رسالاته ، فإن الله تعالى لا ينزل بذاته انما تنزل هدايته ، ويجيء أمره ونهييه على السنة رسله ، وقد ذكرت أماكن ثلاثة هى سينا ، وقد جاء من طريقها كليم الله تعالى موسى عليه السلام ومجيء رساله الله تعالى الى فلسطين حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام بالناصرة ، ومن فلسطين أنبعث نور رسالته عليه السلام ، ومجيء رسالة الله من فاران حيث مكة المكرمة زاد الله تعالى نبيها تشريفا وتعظيما ، كانت هى ما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول صاحب كتاب خير البشر فى بيان تبشيريه التوراة بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام :

قرأت فى ترجمة للتوراة لموسى عليه السلام ، جاء فيه ، والله ربك مقيم نبيا من أخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حوريب يوم الاجتماع حين قلت : « لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله تعالى لى . نعم ما قالوا . وسألتهم لهم نبيا من أخوتهم ، واجعل كلامى فى فمه ، فيقول لكم كل شيء ، أمره به وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فانى أنتقم منه » .

ونلاحظ هنا أنه ذكر أن الرسول سيكون من أخوة بنى اسرائيل ، لامنهم ، ولا تكون هذه الأخوة الا من بنى اسماعيل ، أخى اسحاق الأكبر ، فان هؤلاء هم الذين يقال لهم أخوة ، وعيسى ومن قبله داود ، وسليمان وغيرهما ، لا يقال لهم أخوة بنى اسرائيل انما يقال عنهم أبناء اسرائيل ، لأنهم من يعقوب بن اسحاق ، ويقول صاحب كتاب ، خير البشر « قوله أجعل كلامى فى فمه ، واضح فى أن المقصود به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

لأن معناه أن الله تعالى يوحى إليه بكلامه ( أى الله ) فينطق به ، أى يوحى إليه بالقرآن فينطق به « (١) » .

١٧١ — وإذا كانت هذه الاشارات الواضحة فى التوراة ، فان فى الانجيل مثلها ، بل ما هو أكثر وضوحا منها ، فقد ورد التبشير ، البارقليط فى الانجيل ، وان الترجمة الحرفية لهذه الكلمة العبرية هى أحمد ، فهو مطابقة من حيث المعنى التبشير بأحمد ، وقد جاء القرآن الكريم بالذى بشر به عيسى عليه السلام اسمه أحمد ، ان قال سبحانه : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » وقد جاء فى الاناجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ان أجبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب الى أبى فيعطىكم بارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » .

فهذا النص يبين أن الله تعالى سيعث من بعده رسولا هو أحمد ، يقوم بتبليغ رسالة ربه ، كما يقوم عيسى عليه السلام ، وأن شريعته باقية مع الدهر ، أى أنها خالدة لا شريعة بعدها ، وأن صاحبها هو خاتم النبيين .

والتعبير بالأب من تحريف النصارى لمعنى الله بعد أن غيروا وبدلوا فهو مأخوذ من الانجيل بعد أن حرفت الديانة عن موضعها ، ومع ذلك فان كثيرين كانوا يفسرون البنوة بأنها بنوة النعمة والمحبة ، كما يقول اليهود « نحن أبناء الله وأحبأوه » .

وقد جاء فى الأناجيل بعد تحريف الديانة النصرانية « ان هذا القول الذى سمعتموه ليس هو لى بل للأب الذى أرسلنى لكم بهذا ، وأنا معكم ، فأما البارقليط روح القدس الذى يرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شئ ، ويذكركم جميع ما أقول لكم » .

ولعل الغرابة فى أن تسمى رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنها باسم المسيح ، وأنها محرفة بلا ريب ، ومهما يكن فليس المراد بالاسمية أن تكون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم صورة كاملة لدعوة المسيح ، انما المراد الموافقة فيما يكون دعوة للمسيح بالوحدانية ، وأن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، هى ما كان يدعو اليه ، وما يتفق مع قوله ، كما قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ، ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ،

---

(١) راجع السيرة العطرة — للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، وخير البشر لابن ظفر ص ١١ .

كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » وروى أن عيسى عليه السلام قال فى البارقليط الذى أرسل اليكم من عند أبى روح الحق الذى يخرج من الأب فهو يشهد لى ، وأنتم تشهدون لى أيضا لكي نوتكم معى من أول أمرى » وهذا صريح فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام يشهد الكتاب الذى أنزل عليه وهو القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وقد سمي القرآن بحق روح الحق ، وقد سمي كذلك كما قال الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا (١) » •

وجاء فى الأنجيل أيضا : « البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه يسمع ما يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب (٢) » •

وان فى هذا النص وصفا للنبي عليه الصلاة والسلام بعينه من بين الرسل ، وذلك الوصف هو قوله : « ويسوسهم بالحق ، ولا شك أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لم تقتصر على بيان الحقائق الالهية التى بعث بها عليه الصلاة والسلام ، بل ساس الناس لتطبيقها ، فأنشأ دولة ، وطبق النظم القرآنية تطبيقا دقيقا سليما ، وان هذه صفة كاملة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعمله •

وان كلمة البارقليط التى جاءت فى هذه النصوص قال علماء العبرية ان ترجمتها الحرفية كما أسلفنا أحمد ، وهى فى معناها الذى يعرف السر ، والحكمة ، وهو قد بلغ أقصى الحمد لهذا •

١٧٢ — ولقد نقل بعض الكتاب الفضلاء (٣) عبارات من كتب العهد القديم ، عن الزبور ، الذى جاء به داود عليه السلام ، وأشعيا ، وشمعون ، وحزقييل •

(١) ومما جاء فى مزامير داود « اللهم اجعل جاعل السنة يحيا » •

وجاء فيه ، « انه اذا جاءت الرحمة على شفقتك من أجل ذلك أبارك عليك الى الأبد ، فتقلد السيف ، فان بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فان شرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » •

---

(١) راجع السيرة العطرة ونهاية الأرب ج ١٦ ص ١١٠ ، وخير البشر •

(٢) نهاية الأرب ، والسيرة العطرة •

(٣) هو ابن ظفر فى كتابه خير البشر — ص ١٤ ، ٩٦ •

ولاشك أن دلالة هذه النصوص على التبشير بمحمد عليه الصلاة والسلام ليست هذه الإشارة بيّنة ، كبيانها فى النقول السابقة عن توراة موسى ، وأنجيل عيسى عليهما السلام ، ولكنها قد تدل بالافتضاء ، لا بالإشارة المجردة ، لأن الذى أحيا السنة وهى عبادة الله تعالى وحده ، ان هى الطريقة القويمة هـو محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن حرفت النصرانية ، الى انحراف التثليث •

وفى النص كانت الدلالة بالتضمنين أيضا ، ان وصف فيه من يباركه الله تعالى بأن شريعته تقرر بهيبة يمينه ، وان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام تأمر بدفع الباطل بما تحمله اليمين وهى السيف ، ولم تكن شريعة عيسى عليه السلام كذلك ، انما كان يغلب التسامح ، ولم يحمل سيفا ، ولم يدع الحواريين الى حمل السيف ، بل الذى حمل السيف نبي الله داود ، ووضع الباطل تحت الأقدام ، وخر الجبابرة تحت الشريعة الاسلامية فى عهده ، وعهد الحواريين من أصحابه هـو محمد عليه الصلاة والسلام •

ولقد جاء فى الزبور عبارة لعلها أصرح من هذه العبارة فى سلطان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا نصها « فاذا جاز من البحر الى البحر ، ومن عند الأنهار الى منقطع الير ، وخر أهل الجزائر على وجوههم كبهم ولحس أعداؤه التراب ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنه يخلص الضعيف المغلوب البائس ، ويقوى الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرحم المساكين ، ويصلى ، ويبارك عليه فى كل وقت ، ويدوم ذكره الى الأبد » •

وقد كان ذلك الكلام عن رجل يجيء فى المستقبل ولا شك أن هذه الأعمال لم يعملها من داود وسليمان الا محمد سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، فهو ذكر هنا عليه الصلاة والسلام بالوصف ، لا بالاسم كما جاء فى الانجيل •

١٧٣ — وجاء فى كتاب أشعيا عليه السلام قوله : « عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العمور ، والأذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا مشفق (١) بحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبه الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهـو نور الله الذى لا يطفأ ، على كتفيه علامة النبوة » •

---

(١) المشفق فى بنية العبرانيين الحمد •

ويلاحظ على هذه البشارة أن الوصف فيها يكاد يكون عينيا ، لا فى شريعته فقط بل فى أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام ، فهو يذكر أعمال النبى عليه الصلاة والسلام ، وسجاياه ، كأنه رآها ، ثم يصف جسمه فيذكر علامة النبوة بين كتفيه ، وهو خاتم النبوة الذى ذكرناه آنفا .

ثم هو يذكر الاسم النبوى بما يقرب من البارقليط ، فهو يقول مشقح ، ومعناها محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أن معنى البارقليط أحمد وكلاهما من أسمائه عليه الصلاة والسلام .

وجاء فى كتاب شمعون « جاء الله تعالى بالبينات من جبال فاران ، وامتلات السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » .

وهنا تعيين له بالمكان ، فجبال فاران هى جبال مكة ، ولم يكن بعد ابراهيم فى مكة المكرمة وبين جبالها سوى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو تعريف ليس بالاسم ولا بالوصف ، ولكن بتعريف المكان . « ما كان يروج بين العرب من أخبار نبى يرسل » .

١٧٤ — راجت فى البلاد العربية ، وخصوصا حول مكة المكرمة والمدينة المنورة أقوال تذكر أن نبيا يبعث فى هذا الزمان ، وروج ذلك النصرارى الذين كانوا منبئين فى الجزيرة العربية ، وقيم كثيرين منها فى أطرافها ، وكانوا يتناقلونها من الشام فى رحلتهم اليها تجارا ، اذ يرون الرهبان منبئين فى الأديرة ، ويلتقون بهم الفينة بعد الفينة .

واليهود فى المدينة كانوا يذكرون ذلك متصدين به الوثنيين الذين يجاورونهم ، وكانوا يستفتحون به المشركين ، زاعمين أنه سينصره عليهم ، ويؤيد دينهم الذى يذكرون ذلك أخذه من اشارات كتبهم . التى كانت مفسرة عندهم ، حتى صارت علما توارثوه عن أسلافهم ، وهو فى مطوى التركة التى أخذوها عنهم ، ومع أن اليهود عرفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تعالى عليهم ، ليكون العلم حكرا عليهم ، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تعالى وأحبائه ، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيا من أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام سيبعث .

واذا كانت الأثرة هى التى حملتهم على كتمان ما أنزل الله تعالى عن غيرهم ، فالأثرة أيضا هى التى حملتهم على التحدث بخبر النبى المنتظر المكتوب عندهم فى التوراة ، لأنهم كانوا فى حرب مع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم ، فكانوا يذكرون أمر النبى لهم ، لا ليعلنوا الحقائق ، ولكن ليتغلبوا عليهم بما يسمى فى عصرنا الحرب النفسية التى تقارن الحرب المادية ،

لينالوا الفوز والغلب ، وليتم لهم التعالى عليهم ، وإعلان الاستهانة بهم  
ولأنذارهم بأن المستقبل معهم ، وفى ذلك إبقاء بالرعب •

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذكرهم لمن كانوا يجاورونهم أمر النبى  
المنتظر ، فقال الله تعالى : « وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ، فلما  
جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، بثسما اشتروا به أنفسهم  
أن يكفروا بما أنزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فبأعوا بغضب  
على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » •

ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى ، ويظهر أنهم لم يكونوا كنصارى  
أوربا فى الماضى أو الحاضر ، بل كانت فيهم بقية من نصرانية المسيح ، ولقد  
كانوا بعد البعث المسمى أقرب الى المسلمين من اليهود والمشرى ، فقد قال  
تعالى فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا  
ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم  
قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى  
أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا ، فاكثنا مع  
المشاهدين ، ومالنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا  
ربنا مع القوم الصالحين » •

كان ينبعث من بين هؤلاء صوت قوى يخبر بأن نبيا قد أن أوامه ،  
والناس يعيشون فى زمانه ، ويظهر أنهم كانوا من بقايا الموحدين الذين  
لم يثلثوا ، فانه على تعاقب الأزمان كان ثمة موحدون ، وان كانوا قرنا بعد  
قرن ، أن عبارات القرآن الكريم تنبئ عن ذلك فى قصة النصارى الذين حكم  
سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجوار العداوة المستحكمة التى  
أعلنها المشركون ، واليهود الذين كانوا أعداء للناس جميعا •

وانه ليروى التاريخ فى أخباره المتضافرة ، والسيرة الطيبة الطاهرة ،  
أنه لما كان اضطهاد المشرى للمؤمنين عقب مجاهرة النبى عليه الصلاة  
والسلام بدعوة الحق كانت الهجرة الى الحبشة • وقد لقى المسلمون ترحابا ،  
واكراما من ملكهم :

ولقد ثبت أن النجاشى ملكهم كان موحدا ، وأنه يرى فى عيسى ابن مريم  
وأمه ، ما نص عليه القرآن الكريم ، وأنهما لم يكونا الهين من دون الله •

١٧٥ — ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه الى قريش  
وما حول مكة المكرمة ، ولقد وجد أربعة من قريش أنكروا تأثيرا الأوثان  
بالنفع والضرر ، واستنكروا عبادتها وثبت أن هؤلاء الأربعة ، منهم ورقة  
ابن نوفل وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل •

وقد خلصوا نجيا من عبادة الأوثان ، وقد قال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ، ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فانكم والله ما أنتم على شيء » •

وقد دخل المسيحية اثنان منهم هما ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وقد قصد الى قيصر فتنصر ، وكانت له منزلة حسنة عنده •

وأما عبد الله بن ججش ، فقد بقى محيراً ملتبساً عليه ، حتى جاء الاسلام •

وزيد بن عمرو بن نفيل برم بمكة المكرمة وأهلها ، وأخذ يتنقل في بلاد العرب متعرفاً دين إبراهيم ، وأخيراً أخذ ينتظر النبي كما أخبره بعض النصارى ، وفي سيرة ابن هشام ما نصه :

« خرج ( أي زيد بن عمرو ) يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأخبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى الى راهب بميقة من أرض البلقاء (١) كان ينتهي اليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأل عن الحنيفية ، دين إبراهيم ، فقال انك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم ، ولكن قد أطل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، فالحق بها ، فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئاً منهما ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال يريد مكة المكرمة ، حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه •

وقد رثاه رفيقه ورقة بن نوفل (٢) بقصيدة جاء فيها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو انما . تجنبت تنورا من النار حاميا  
يدنيك ريا ليس ريا كمثلته وتركك أوثان الطواغي كما هيا  
وادراكك السدين طلبت ولم تك عن توحيد ربك ساهيا  
فأصبحت في دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا

---

(١) اليفعة : المرتفع من الأرض ، والبلقاء كورة بجوار دمشق •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٢ •



هذا بعض رثاء ورقة بن نوفل فى القصيدة المنسوبة اليه فى أصح الروايات ، وهى تدل على أن ورقة وصاحبه كانا مع انكارهما للوثنية يؤمنان بالبعث ويوم القيامة .

١٧٦ — وان ورقة بعد أن دخل فى النصرانية ، وعلم علمها ، وأسرار كتبها ، ودرس الأديان ، ووازن بين حقائقها كان يعرف أن الزمان الذى كان يعيش فيه هو زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه حكم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى المنتظر ، واستبطأ ظهوره .

• وقد روى فى ذلك ابن اسحاق أن خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة ابن نوفل الذى كان نصرانيا وكان قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطورا الذى ذكر أن أوصاف النبى عليه الصلاة والسلام تبين أنه النبى المنتظر ، فقال لها ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى .

وقد قال فى ذلك قصيدة جاء فيها :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا لهم طالما ما بعث النشيجا  
ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظارى يا خديجا  
سطن المكتين على رجائى حديثك أن أرى منه خروجا  
ويظهر فى البلاد ضياء نور يقوم به البرية أن تموجا  
فيلقى من يحارب به خسارا ويلقى من يسأله فلولجا  
فياليتنى اذا ما كان ذاكم شهدت وكنت أولهم ولوجا (١)

هذا كلام ورقة عندما خبرته ابنة عمه خديجة عن حال محمد بن عبد الله ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) ، وكان ذلك عقب اخبار ميسرة غلامها عندما صاحبه فى رحلته الى الشام فى التجارة فى مال خديجة ، وكان ذلك قبل ان يتم الزواج بينهما ، بل كان والزواج يساور فكرتها ؛ ولم يمتد الى تفكيره هو الا من بعد ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

## علم النبوة عند سلمان الفارسي قبل أن يلقي :

١٧٧ — وان ما تضافرت الصحاح عليه فى قصة اسلام سلمان الفارسي ، وكيف علم بأمر بعث النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يلقاه ، وكان أن لقيه لا غاية له الا أن يعرفه بالأوصاف التى ذكرت له قبل أن يلقاه ، بل قبل أن يبعث صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخلاصة القصة كما جاءت فى الصحاح أن سلمان رضى الله تبارك وتعالى عنه كان فارسيا من أهالى أصبهان ، وكان أبوه دهقان القرية ، وكان أثيرا عند أبيه حريصا عليه ، وقد درس الجوسية حتى كان خادما نارها الذى يوقدها ، ولا يتركها ، وكان أبوه ذا ضيعة عظيمة ٠٠٠ ويقول رضى الله عنه : « فخرجت أريد ضيعة التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبته صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم ، وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى ، فلم أذهب إليها ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت الى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال أى بنى أين كنت ؟ فقلت له يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيته من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ٠ قال ٠ يا بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، ودينك ودين آبائك خير منه ، قلت له كلا والله انه لخير من ديننا ٠ قال فخافنى فى رجلى قيذا ، ثم حبسنى فى بيته » ويظهر أن سلمان استطاع أن يخلص نجيا من قيده ، فقد قال : « بعثت الى النصارى ، فقلت لهم اذا قدم عليكم ركب من الشام ، تجار من النصارى ، فأخبرونى بهم اذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة الى بلادهم فأذنونى بهم ، فلما أرادوا الرجعة ألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل الدين علما ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة ٠ فجئت اليه فقلت له انى قد رغبت فى هذا الدين فأحببت أن أكون معك ، أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك فدخلت ويذكر سلمان أنه كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، ثم يكتنز ما يجمعه لنفسه ولا يعطيه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من المذهب ، وأنه ييغضه بغضا شديدا لصنعه ، ولما مات واجتمع النصارى ليدفنوه ذكر لهم سلمان ما صنع ، ودلهم على مكان كنزه ، فصلبوه ، ورموه بالحجارة ٠

انتقل من بعد ذلك سلمان الى خدمة أسقف صالح ، كان يدأب على

(١) الدهقان هو شيخها العارف بأمرها وأمور زراعتها ٠

العبادة ليلا ونهارا ، فأقام معه زمنا طويلا ، ولما حضرته الوفاة استوصاه سلمان وقال له : « الى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال بنى والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل فالحق به » •

لحق سلمان بصاحبه بالموصل ، فوجده على خير عظيم ، ولما حضرته الوفاة قال له : « الى من توصى بى وبم تأمرنى : قال : يا بنى والله ما أعلم رجلا على ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين (١) » •

ولما ذهب الى رجل نصيبين وحضرته الوفاة دله على رجل بعمورية سافر اليه ، ووجده خير رجل وأقام عنده خير اقامة ، واتجه الى الاكتساب فاكسب بقرات وغنما ، ولما حضرته الوفاة قال له بمن توصى بى وبم تأمرنى • « فقال أى بنى ، والله ما أعلم أحدا أصلح على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأمنه ولكنه أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة الى أرض بين حرتين (٢) بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل » •

وقد شد سلمان رحيله الى وادى القرى ، ثم الى المدينة ، اذ مر به نفر من تجار كلب ، فقال لهم احمولونى الى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه ، فرضوا بهذه الصفقة ، ولكنهم مكروا به وغدروا فما ان بلغوا به وادى القرى حتى ظلموه ، وباعوه على أنه عبد من رجل يهودى ، ولكنه أسلم نفسه لربه الذى طوف فى الآفاق يبتغى الدين الحق الذى يريد أن يعبد الله تعالى على مقتضى شريعته ، وترك العيش الرافغ فى ظل أبيه ، وسار فى المهامه والقفار طالبا الهداية •

رأى النخلات التى وصفها له أسقف عمورية ، وفرح اذ بيع من اليهودى الذى اشتراه الى عم له من بنى قريظة ، فحملة الى المدينة •

وفى هذه الأثناء حيث كان يقيم هو بالمدينة كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه الله تعالى نبيا ، وما كان يعلم سلمان رضى الله تعالى عنه من أمر ذلك شيئا ، لأنه شغله الرق عن أن يتتبع أخبار من بشرت به الكتب ، ونقله الأساقفة ، وتحدث به الرهبان •

---

(١) مدينة فى طريق القوافل من الموصل الى الشام •

(٢) الحرة أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركانى •

وقد هاجر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما هو فى رأس عذق (١) لمالكة يعمل به بعض العمل ، اذ أقبل ابن عم لهذا المالك ، فوقف عليه يسب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، ويقول : « والله انهم الآن لمجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة المكرمة اليوم ، يزعمون أنه نبى » (٢) •

ويستمر سلمان فى قصته ، فيذكر أنه أصابته رعدة حماسة للذهاب الى بقاء حيث سمع أن المجتمعين بقاء فيهم من يقول انه نبى ، وقد بين له أسقف عمورية أن مهاجر النبى المنتظر سيكون بهذه الأرض ، فأخذ الأهبة ، وذهب الى بقاء ومعه مال قليل وهنا يلتقى العيان بالخبر ، لقد أخبر فى غيبة محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) أنه نبى وسلك الفيافى والقفار ليلقاه وهو يعلم بنبئه ، وجرى الحديث بينهما • يختبر به حاله ، لقد رأى المكان ، كما أخبر الأسقف ، ولم يبق الا أن يختبر ، لقد قيل انه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وان بين كتفيه خاتما •

عند اللقاء قال سلمان : « انه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شئ كان عندى للصدقة ، فرايتكم أحق بها من غيركم » •

لم يأكل منها النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه كلوا وأمسك يده « وبهذا تبين الوصف الذى علمه من قبل ، وقال سلمان فى نفسه : هذا واحدة » فأراد أن يختبر أيقبل الهدية ليتكامل الوصف •

جمع شيئاً مما يهدى ، وتحول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وجاءه ، وقال له : « انى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها » فأكل منها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأكل معه أصحابه •

قال سلمان فى نفسه هذه الثانية :

وسلمان علم من وصف أسقف عمورية ، أن بين كتفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبوة ، فأراد أن يعرفه ولم يبق الا ذلك ليستوثق من تحقق الخبر مع الخبر •

---

(١) العذق هو النخلة •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٩ •

يقول رضى الله عنه : « سلمت عليه ( أى على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ) ثم استدرت أنظر الى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ، فلما رأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام استدبرته عرف أنى أستثبت من شىء ، وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره • فنظرت الى الخاتم فعرفته فأقبلت عليه أقبلة ، وأبكى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تحول ، فتحولت ، فجلست بين يديه « (١) •

كان سلمان فى الرق ، فشغله عن أن يلازم النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى انه لم يستطع أن يحضر غزوة بدر ، وأشار عليه النبى من بعد بأن يعقد عقد مكاتبة مع مالك رقبته ، أى يتعهد له بمال أو منفعة يقدمها فى نظير عتقه ، وعاونته الصحابة فى تنفيذ عقده ، وصار من بعد حرا •

١٧٨ — سقنا ذلك الخبر بعد اختصاره ، وهو مع الاختصار طويل ، سقناه لأمرين •

أولهما - كيف يرضى طالب الحق بالتعب فى سبيل طلبه ، هذا شاب صغير يكاد يكون غلاما ، يعيش فى ظل أبيه فى عيش ، رافع ، وهناءة من الرزق يرى كنيسة فيها عباد لا يعبدون النار الذى كان سادنا لها ، فتستهويه عبادتهم ، فيتقدم لأبيه برغبته فى أن يكون نصرانيا فيكبله أبوه بالحديد ، فلا ينتنى ، ويجتهد فى أن يفك أغلاله ، ويلحق بهم فيكون له ما يريد ، ثم يحمل نفسه عناء الانتقال من اقليم الى اقليم حتى يصل الى الحق الذى يريده ويصاب بالرق فيصبر ، ولا ينتنى عن غايته ، ويقبل أن يعيش مظلوما فى قيد الرق صابرا محتسبا ، حتى يصل الى غايته ، وهو التقاؤه بمن يطلبه حتى وجده ، وكان العون من الله فى فك رقبته ، انه العابد الصابر حقا ، من يوم فك قيود أبيه ، فقد فك معها قيود عقله ، ونفسه ، وصار ديانا لله سبحانه وتعالى ، لا يبغي الا رضاه ، واذا كان غادر أباه فقد انتهى الى حضن رسول الحق فاحتضنه هو ، وقال عليه الصلاة والسلام : سلمان منا آل البيت •

الأمر الثانى : وهو الجوهرى فى القضية أن أمر نبى منتظر كان معروفا بين العرب فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو المقصد الأصلى من سوق القصة مع طولها ، فالعرب كانت أسباب العلم برسالة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم علمها طلابها ، والذين صفت نفوسهم وجهلها الأكثرون لعدم الاتجاه الى تعرفها ، ولم يكن عندهم الاتجاه الدينى ليعرفوا ما لم يعرفوا

من شئون الدين فى قابل حياتهم ، حتى جاءهم البشير النذير يقرع بالحجة القاطعة مسامعهم ، ليكون من بعد ذلك العقاب أو الثواب ، قال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » \*

### يهود تخبر عن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) المنتظر :

١٧٩ — قد ذكرنا فيما مضى اشارة الى أن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا من الوثنيين بنبى مرسل يكون لهم ، ويكون على الوثنيين ، ينصر اليهود ، ذكرنا بالاشارة ، ولكن فى هذا المقام لا تغنى الاشارة عن العبارة ، فلا بد من أن نذكر بعض الايضاح ليتبين الباحثون من معرفة أن العصر كانت فيه البيانات الكافية التى تبين أن رسولا من قبل الله تعالى وشيك أن يظهره الله تعالى بينهم مصحوبا بحجته ، مبينا بأياته ودعوته \*

· ولم يكن ذكر النبى عليه الصلاة والسلام لمن عاصروه من الأوس والخزرج فقط ، بل كان من قبل أن تقع الحروب بين اليهود وبينهم \*

فقد ثبت فى التاريخ أن تبعا أبا كريب اليمنى جاء الى يثرب وأحنقه أن بعض أهلها قتل رجلا من رجاله ، فقاتلهم ، وبينما تبع على ذلك من قتالهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة ، وهما عالمان بأصول الديانة اليهودية ومصادرها ، والمخبوء من وثائقها ، وقالوا له : «

« أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبييت الا ما تريد ، حبل بينك وبينها ، ولم تأمن عليك العقوبة » فقال لهما : ولم ذلك : قالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره » (١) \*

ولقد كانت أخبار اليهود بنى يجرى يشيع فى يثرب ، وينتقل الى أهلها طبقة بعد طبقة ، وكان من أسباب مسارعة الأنصار للاستجابة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم بذلك علم بالكتاب أتى اليهم من اليهود ، وقد ذكر قتادة عن رجال قومه ، والسبب فى مسارعتهم الى اجابة النبى عليه الصلاة والسلام الى النصرة والايمان فقال :

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٤ \*

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ \*

« ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله ، وهداه لنا لما كنا نسمع عن جال يهود ، وكنا أهل شرك وأوثان ، وكان عندهم ليس لنا ، وكانت لا تزال فننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا انه قد تقارب ما نبي يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، ما بعث الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله سالى ، وعرفنا مما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه ، فأمنا به كفروا » (١) .

ولم يكن اليهود يذكرون خبر النبي عليه الصلاة والسلام مقتصرين على خبر ، بل يذكر مع ذلك الايمان باليوم الآخر ، والجزاء بالنعيم المقيم ، أو جحيم ، ويظهر أنهم لم يكونوا من الذين ينكرون البعث ، ففيهم من يصدق به ، منهم من يكفر به .

ولقد ذكر ذلك بعض من الأنصار ، وهو سلمة بن سلام ، فقال :

« كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فخرج علينا من بيته ، حتى ف على بنى عبد الأشهل ؛ فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان . جنة والنار ، فقالوا له ويحك ، أو ترى هذا كأثنا : أن الناس يبعثون بعد تهم الى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم !! قال نعم ، والسذى لف به . فقالوا له : ويحك ، فما آية ذلك ! قال نبي مبعوث نحو هذه لاد ، وأشار بيده الى مكة المكرمة واليمن ، فقالوا ومتى نراه ، قال سلمة لى الى وأنا من أحدثهم سنا فقال : « ان يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه » .

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله محمدا رسول ( صلى الله عليه وسلم ) وهو حى بين أظهرنا ، فأمنا به ، وكفروا به بغيا سدا » .

ولقد عرف بعض اليهود وصف النبي عليه الصلاة والسلام وفيه انه ق حلمه جهله ، فهو لا يحقق .

ولقد روى عن عبد الله بن سلام الصحابى أنه قال : لما أراد الله تعالى زيد بن سمية ، قال لم يبق شيء من علامات النبوة الا عرفتها فى وجهه س الله تعالى عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين ، لم أخبرهما منه ،

يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له ، لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله » فذكر قصة اسلافه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا فى ثمرة . قال فلما حل الأجل آتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، وهو فى جنازة مع أصحابه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت يا محمد : ألا تقضىنى حقى ، فوالله علمتكم يا بنى عبد المطلب لطل ، فنظر الى عمر ، وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ، ثم قال : يا عدو الله أتقول لرسول الله عليه الصلاة والسلام ما أسمع ، وتفعل ما أرى ، فوالذى بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينظر الى عمر فى سكوت وتؤدة ، وتبسم ثم قال أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر ، فأسلم » .

١٨٠ — هذه نقول تاريخية ثابتة تبين أن العصر الذى بعث فيه عليه الصلاة والسلام كان عصرا يدور فيه حول نبى يرسل ، وقد كان لهذا الكلام مصدران :

أولهما — ما كان يحاوله الذين أرادوا احياء دين ابراهيم عليه السلام ، فقد كان بعض من أهل مكة المكرمة يؤمنون بضرورة احياء ملة ابراهيم الحنيفية السمحة ، وقد وجدوا بفطرتهم ان الله لا يدع ذرية ابراهيم بورا لا هادى يهديهم ، ولا مرشد يرشدهم ، وقد رأيت من خرجوا على أقوامهم ، واطمأن بعضهم الى النصرانية فدخلوها ، وبعضهم أخذ يطوف فى الأرض حيث يبحث عن عقائد سليمة لا تدخلها الوثنية ، ومات شهيدا فى طلب الحقيقة ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم من بعد بعثته أن الله تعالى سيبعثه أمة وحده ، فرضى الله تعالى عنه .

ثانيهما — الكتب السابقة ، وأقوال الأخبار والرهبان ، وعلماء الأخبار من اليهود والنصارى ، فبحيرا الراهب كان قد لقي محمدا ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) غلاما ، وطبق الأوصاف التى لديه ، ونسطورا الراهب قد لقيه وهو شاب ، وكانت أخبار اللقاءين تذيع وتشيع عند العرب ، وفوق ذلك كان نصارى نجران وغيرهم يذكرون للناس ترقبهم لنبي منتظر ، كانت أوصافه لديهم وكان محمد أكثر ذكرا ، لا أنهم يريدون اعلان حقيقة ، أو ابتغاء هداية ، بل شفاء غيظهم ، واطفاء نار حقدهم أو التماذى فيه ، فقد كانوا يعلنون ذلك عندما تحز فى أجسامهم سيوف الوثنيين ، فيذكرون خبره ، ويقولون سنقتلكم معه ، كما قتل عاد واره .



بهذا انتشر خبر مجيء النبی علیه الصلاة والسلام ، وتوقع المفكرون  
مجیئہ وأن زمانہ قد حان ، فجاء مصدقا لما بین یدیه من الكتب التي لم تحرف ،  
ورحمة للعالمین ، وهاذيا للحق ، ونصیرا له ، وقد أیده الله تعالى بالحجة  
الباهرة •

### أخبار الكهان :

١٨١ — تذكر كتب السيرة أن الكهان قد بشروا بالنبي صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، وقد كان في نيتنا أن نعرض عن ذلك الكلام ، لأنه فتح لباب  
الأوهام في سيرة سيد الأنام ، نبى الحق والعقل وبعث المدارك نحو الحقيقة ،  
من غير أن يسيطر عليها وهم ، أو يتغلغل فيها خرافة ليست قائمة على حكم  
العقل ، أو الخبر الصادق المنقول بأسناد صحيحة •

ولأن هذه الأخبار عن الكهان ليست ثابتة بسند صحيح يطمأن اليه ،  
ولأنه لم يثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يلجأ الى الكهان ،  
أو يطمئن الى أقوالهم ، ولأنه اذا كان الكهان قد قالوا شيئا في البشارة بالنبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صادقة ، فان ذلك قد يكونون علموه من  
الكتب السابقة أو أصحابها ، وقد كانوا قبل البعثة علماء العرب ، وربما  
يكونون قد أخذوا يبيتون ما عندهم في شكل الكهانة ، وفي سجع الكهان الذى  
نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بعثته •

كنا نؤينا ترك الكلام في الكهانة ، لأن الضرر في ذكرها أكبر من  
نفعها •

ولكننا حملنا على الكتابة فيها ٠٠ أولا - لأن بعض كتاب السيرة من  
المحدثين تعرضوا لها مصدقين ، وأن المستشرقين قد اتخذوها ذريعة لربط  
الدعوة المحمدية بالكهان ، ولربط بين القرآن المنزل رحمة للعالمين وسجعهم ،  
ولأن بعض الكاتبين توهم تبعاً لهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان  
يديم السماع للكهان قبل البعثة فوجب التصدى •

١٨٢ — ونبتدىء من الكلام في أخبار الكهان بخبر نسب الى سيف  
ابن ذى يزن الحميرى ، وقيل انه من هواتف الجان فقد جاء في كتاب  
هواتف الجان ، واليها تنسب كهانة الكهان ، جاء في هذا الكتاب ما نصه

بعد أن التقى بعبد المطلب : « أيهم المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم (١) ؟ قال نعم : قال ابن منى ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم : قال « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستنما سهلا ، وملكا مرتجلا ، يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقاتلكم ، وعرب قرابتكم ، قبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم » .

بعد هذا مكثوا شهرا لا يصلون اليه ، ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه ، فأرسل الى عبد المطلب فادنى مجلسه وأخلاه ثم قال : « يا عبد الله انى مفض اليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه ، فأطعكتك طليعة ، فليكن عندك مطويا ، حتى يأذن الله تعالى فيه ، فان الله تعالى بالغ أمره . انى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ورهطك كافة ولك خاصة » .

فقال عبد المطلب مثلك سر وبر ، فما هو فداؤك أهل لو بر زمرا بعد  
زمر

قال سيف بن ذى يزن ساجعا سجع الكهان ! « اذا ولد بتهامة غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة وله به الزعامة الى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب - إبيت اللعن - لقد أتيت بخبر ما أب به وافده ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته اياى ما ازداد به سرورا .

قال ابن ذى يزن ، : « هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد تاه مرارا ؛ والله باعته جهارا ، وجاعل منا أنصارا يعزيهم أوليائه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستريح بهم كرائهم الأرض ، يكسر الاوثان ، ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ، فهذا بخارى ، فهل الملك سار لى بافصاح ، فقد أوضح لى بعض الايضاح .

---

(١) لأن أم عبد المطلب من بنى النجار وأصلهم من اليمن - الزحل كثير العطاء .

قال ابن ذى يزن « والببيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، انك يا عبد المطلب لجده غير كذب » .

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك .

قال عبد المطلب : كان لى ابن ، وكنت به معجبا ، وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه ، أمنة بنت وهب .

فجاءت بغلام سميته محمدا ، ذات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه » .

قال ابن ذى يزن : « ان الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود ، فانهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فانى لست آمن أن تدخل عليهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون الغوائل ، وينصبون له الحبال ، فهم فاعلون أو أبناءهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فانى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك اليك عن غير تقصير لمن معك » (١) .

١٨٣ — هذا كتاب ما فيه بلا ريب حق من حيث البشارة بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولعله ان صدقت النسبة الى سيف بن ذى يزن يكون مصدره ما وصل اليه من علم ، فقد كان نصرانيا متعرفا ، ولم يكن وثنيا أميا ولا يمكننا أن نقول ان ابن ذى يزن من الكهان ، وان وجد الموضوع فى كتاب هواتف الجان ، ويقال ان الكهان كانوا يخاطبون بهواتف الجان ، ونقول ان فيه سجع الكهان ، وان لم يستغفره ، بل كان فيه بعضه ، ولعل هذا من صنيع الكهان ، وقد أرادوا أن يجعلوه من الكهان بعبارات السجع فيه أولا ، وجعله فى كتاب هواتف الجان ثانيا .

وفى الواقع ان الحديث كما ذكر ممن له علم بالكتاب وكان مستقيضا مشهورا .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٣٣٠ .

ومن ذلك ماروى بالاسناد الصحيحة عن بعض المضريين قال :

شارفنا الشام ، ونزلنا على غدير به شجرات ، فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : « ان هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد ، فقلنا نعم : نحن قوم من مضر ، قال من أى مضر ؟ قلنا من خندف . قال أما انه سيبيعث وشيكا نبي خاتم النبيين ، فسارعوا اليه ، وخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فقلنا ما اسمه ؟ قال اسمه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) » ( ١ ) .

وانه بلا ريب نرى هذا الخبر الذى سقناه يتلاقى مع خبر ابن ذى يزن ، بيد أنه لا سجع فيه ، ولا ينسب الى هواتف الجان بل ينسب لراهب من الرهبان نسبه الى ما عندهم من كتب ، لا الى هواتف من الجان .

١٨٤ — فنحن اذا وجدنا فى عبارات الكهان ما يومىء الى ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس من هواتف الجان ، أو من علم الكهان وليس مصدره الكهانة ، ولكنهم علموه مما يجرى على السنة الرهبان ، وما تنطق به كتبهم ؟ وما عرف من علم .

ومن ذلك مثلاً قول سطيح الكاهن : اذا كثرت التلاوة ، وخاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة ، مع غيره .

وقال ابن كثير انه يعنى النبي عليه الصلاة والسلام ، ونرى أولاً - أن النبي ما جاء بالهراوة بل جاء يرد اعتداء الباطل على الحق بالسيف لا بالهراوة . وثانياً - أنه على فرض أن المراد النبي عليه الصلاة والسلام فذلك مما شاع بين العرب من أنه سيكون نبي منتظر ، وأن أهل الكتاب يذكرونه بينهم خاصة ، ويعلنونه عند الاقتضاء للعامة ؟ سواء فى ذلك اليهود والنصارى وان كان اعلان النصر أوضح وأبين ، واليهود يعلنونه عند الشديدة تنزل بهم فى حروبهم مع الوثنيين ، يعلنون مجيء النبي عليه الصلاة والسلام كما جاء فى كتبهم تنبيها لأنفسهم وتخذيلاً لخصومهم وتعلقاً بالرجاء ، وتشفياً من الأعداء بالمستقبل ، فكان السبق لأعدائهم ، والتخلف لهم ، فكان به المال لغيرهم والحال عليهم ، وهم الأخسرون دائماً ان شاء الله .



والشهور ، وفى كل احواله كان كثير التأمل ، يدرس الخالق من خلقه ،  
والمنشئ مما أنشأه •

ولكن كتاب الفرنجة يدعون أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان قبل  
البعثة يتتبع أخبار اليهود ، ويستمع الى ما يتحدث به أحبار اليهود ، ورهبان  
النصارى ، وأنهم يرمون بهذا الى أمرين :

أحدهما : اثبات أن محمدا عليه الصلاة والسلام ما وصل الى ترك  
الأوثان الا بتعاليم اليهود والنصارى ، وأنه ما وصل اليها بمنطقه وفطرته ،  
وبقيا ديانة ابراهيم عليه السلام ، وكأنهم يريدون أن يصوروا ما كان دون  
زيد بن نفيل وورقة بن نوفل ، وقد ثبت أنه كان يكره اللات والعزى وهو فى  
الثانية عشرة من عمره ، وقد ثبت ذلك فى أخبار بحيرا الراهب •

وثانيهما : ادعاء أن القرآن الكريم أخذ أخبار النبيين وقصصهم من  
التوراة والانجيل ، وأن العلم بهذا علم تلق ، وليس بوحى من الله تعالى ، مع  
أنه من الثابت أن قصص الأنبياء فى القرآن هو الصادق الذى لا يمتري فيه ،  
وغيره فيه الفساد والضلال كخبر سكر لوط ، ومواقعة ابنتيه وكزنى داوود  
بامرأة قائد جيشه فهى أكاذيب ليست فى القرآن الكريم •

وقد تبعهم بعض المغترين بهم من الكتاب عن نية حسنة ، ولم يدركوا  
خبينة نفوسهم ، وخبث تفكيرهم •

الا فليتركوهم ، واستنباطهم ، وليتبعوا أخبار النبى عليه الصلاة والسلام  
من كتب السيرة الدقيقة البعيدة عن الأوهام ، وليتركوا اتباع الاستنباط  
الفاسد ، من غير خبر تاريخى يؤيده ، ولا سند صادق يزكيه •

وليعلّموا أن النبى عليه الصلاة والسلام كان بعيدا عن الأحبار والرهبان ،  
وما كان يصدق كهانة الكهان ، ونهى بعد البعثة عن الاستماع الى الكهان ،  
وكان يستنكر سجع الكهان ، ويستنكر تصرف من يحاكيهم •

الْبُعْثَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ





## التجلى الأعظم

١٨٦ — كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين ملتزما أمرين :

أولهما — أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث ، كان كذلك غلاما ، ثم شاديا ، ثم من بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس الا ما يوجبه حق المجتمع عليه ، من عطاء يقدمه لاحتاج ، أو معاونة لمستعين ، أو اغاثة للملهوف ، أو حمل لكل ، أو قرى لضعيف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك . فكان المحتمل للواجبات ، المعتزل ، الذى يؤثر العزلة عن الاندماج فى غمار الناس ، حتى لا يصيبه شئ مما يخبثون به ، لأنه الطاهر الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى مرشحة لحياته الثانية ، وآية على أنه ذلك الرجل الذى يستنكر المنكر ، ولا يفاحش أو يخاصم أو يجادل آية على أنه الرسول المنتظر ، والنبي المرتقب ، وهو فى أحواله فى اختلائه واجتماعه — الأليف المحبوب ، الذى قدرته قريش كلها حق قدره .

الأمر الثانى — أنه قد اتخذ منسكا ينسك فيه وهو غار حراء ، بعد أن أكثر من العبادة ، والعكوف على عبادة الله ، وقد رأى قريشا يعكفون على أصنام لهم .

وان الظاهر من حال قريش الذين استمروا عبادة الأوثان أنه لم يكن فيهم غير الحنفاء — من يتفكرون فى عبادة ، أو يختلون ليعبدوا أوثانهم ، فان ذلك لم يثبت تاريخيا ، ولم تذكر واقعة له تنبئ عن ذلك ، وان ما يحيط بهم ، وما يثبت من حالهم يدل على أنهم لم يعملوا التفكير فى أمر عبادة ، بل كانوا يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم من غير تفكير ولا تدبر ، ولو أن بعضهم كان يعمد الى الاختلاء والاعتزال لكان كثيرون منهم يخرجون عن عبادة الأوثان الى عبادة الديان ، اذ أن تأملا يسيرا كان يخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن ضلال الوثنية الى هداية الوحداية ، ولكنهم قوم ماديون ، يقولون « أن هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ، ويقولون : « ما يهلكنا الا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » .

واذا كان قد جرى على بعض الأقسام أن الاختلاء للعبادة كان نسكا عندهم يعبدون فيه الأوثان وينفردون لذلك ، فانما هو كلام من قوم لا يريدون

بالاسلام الا خبالا ، ولا يريدون بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم علوا ،  
ولا يذكرون فيه قول الحق خالصا ، بل يموهون فيه ويلبسون الحق  
بالباطل .

١٨٧ — كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العبادة ،  
ومن وقت أن اطمأن الى رزقه ، ونظم تجارته فى مال خديجة بأن يعمل غيره  
تحت اشرافه ، ولم يكن ثمة حاجة الى خروجه بنفسه للتجارة ، فلم يذكر أنه  
خرج بنفسه ، بعد خروجه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

وكلما تقدمت به سن الشباب ازداد نسكا واختلاء وانصرافا عن الملاذ  
والشهوات فى غير تحريم الحلال ، أو ابعاد لطيب من طيبات ، بل كان يأكل  
ويشرب فى غير سرف ولا مخيلة ، كما بين فى شريعته التى أرسل بها رحمة  
للعالمين .

وقد اتخذ لنفسه شهرا من أشهر السنة يختلى فيه بغار حراء ، وكان  
حراء نسكا للعرب فى جاهليتهم ، كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير ، فقد  
قال « وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى حراء فى كل عام  
شهرا ينسك فيه ، وكان من نسك قريش فى الجاهلية » (١) أى أنه كان من  
الاماكن التى تعتبرها قريش من النسك فى الجاهلية ، ولعلهم كانوا يضيفونها  
الى نسك الحج ، وقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا خير مكان  
لعبادته ، لأنه لا يطرق طول العام ، ولم يكن كالبيت الحرام ، إذ يطاف بالكعبة  
المشرقة فيه كل يوم ، ويظهر أنه يمضى الزمان قد هجر اتخاذه نسكا ، ولعله  
كان مما أضيف الى مناسك من غير شريعة ابراهيم عليه السلام ، وليس يحث  
هذا ذا جداء فى موضوعنا .

جاءت الصحاح بأنه كان عليه الصلاة والسلام يتحنث ( أى يقعد على  
الحنيفة السمحة ) الليالى ذوات العدد ، وكان يتخذ دائما شهر رمضان من  
كل عام يتزود لذلك ، ويتدبىء بالذهاب الى البيت الحرام يطوف به ، ويتصدق  
بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام ، ثم يذهب الى غار فى جبل حراء ، لم يكن  
فى سفحه ، بل كان أعلى من ذلك . ولا يصل اليه قاصده الا بمرتقى صعب ،  
وليس بالسهل ، وللناظر اليه الآن لا يجد الوصول اليه بغير شق النفس مما يدل  
على أن الله تعالى قد أعطى محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) بسطة

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥

فى الجسم ، وقوة احتمال ، ورغبة صادقة فى العبادة ، لا يقوى عليها الا اولو العزم من العباد .

حتى اذا أتم الشهر وهو رمضان عاد الى بيته ، وقبل أن يأوى الى يمه يمر بالببيت الحرام ، فيطوف ، ويتصدق بما بقى معه من زاد ، ويطعم الطعام مما بقى له ، ثم يأوى الى خديجة زوجته الطاهرة .

وان السياق فى كل الصباح من أخبار السيرة يستفاد منها أنه كان يتزود بالزاد ، ويذهب منفردا ليتم له الاعتكاف بعيدا عن الأهل والصحاب ، ولا يكون الا فى حضرة الحبيب الذى لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى .

هذا هو المستفاد من معنى الاختلاء والاعتكاف ، ولأنه كان يصرح بأنه يغدو صادرا عن أهله فى الشهر ، ويعود دائما الى أهله بعد أن ينقضى الشهر .

ولكن روى عن ابن اسحاق فى سيرته عبارة تفيد أنه كان يذهب الى الغار بأهله ، واليك عبارة ابن اسحاق « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره للكعبة الشريفة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك المشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله » (١) ، وان هذا الكلام يدل على أن الايحاء . وهو أن الليلة التى كانت فيها البعثة النبوية لم يكن أهله معه ، وفيما قبل ذلك كان يكون أهله معه ، إذ أنه يصرح بأنه كان يخرج لجواره ومعه أهله ، ولكن لا تجد هذه العبارة فى غيرها ما نقله ابن اسحاق بل أن معنى الاختلاء والاعتكاف ربما لا يكون متناسقا مع وجود أهله معه ، إذ أن الاعتكاف للعبادة يقتضى الابتعاد عن الأهل ، والاتجاه الى الله تعالى وحده .

ولهذا نحن نميل الى رد ما قاله ابن اسحاق ، وان لم يكن ثمة ما يسوغ لنا أن نقول انه ربما كان يذهب مع أهله ولا يبقون معه ، بل يذهبون فى صحبتته ، ثم يتركونه من بعد فى وحدته وعبادته .

---

(١) سيرة ابن هشام نقلًا عن ابن اسحاق ج ١ ص ٢٣٦ .

١٨٨ — والآن نسوق الخبر ، كما جاء فى صحيح البخارى وغيره  
من صحاح السنة •

يروى البخارى عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى  
الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة  
فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب اليه الخلاء ،  
فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى  
أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق  
وهو فى غار حراء » (١) •

وهذه الرواية التى ساقها البخارى عن حب رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم أقرب الروايات ، وهى أرجحها وأصدقها ، وهى تدل على أمور  
ثلاثة :

أولها — أن الوحي جاء اليه وهو فى غار حراء ، ولم يكن معه أهله ،  
وأنه كان يتزود ، ولم تذكر أنه كان يصاحبه أهله •

وثانيها — أنه كانت تصفو نفسه وروحه ، وتخلص لله •

وثالثها — أن صفاء النفس أدى الى صدق رؤياه •

وهنا يثار أمران :

أولهما — من أى وقت ابتدأت ملازمة الخلوة شهرا من كل عام •

ثانيهما — بأى شئ ابتدأ الوحي ، ونزول الروح القدس عليه صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، أكانت مواجهته له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرؤيا  
الصادقة أم المشاهدة فى الصحو ، لا فى المنام ، لذلك موضع من البيان ،  
نوجزه ولا تفصله •

أما أولهما — وهو من أى وقت ابتدأت خلوته صلى الله تعالى  
عليه وسلم • فانا نقول فى ذلك أنه من المتفق عليه أنه صلى الله تعالى  
عليه وسلم نشأ وهو متجه الى ربه لا يعبد سواه ، وأنه التزم أن يكون  
عابدا من وقت أن بلغ سنا يدرك فيها معنى العبادة ، ويعرف فيها حق الخالق  
على المخلوق ، وقد كان يعبد الله تعالى بالتأمل فى خلقه ، والتدبر فى ملكوته  
واهتدى اليه ، وان لم يهتد ابتداء الى طريق عبادته ، فان ذلك فوق طاقة

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢ •

العقول ، ولا بد فيه من المنقول ، وقد أشرنا الى أنه كان يحاول معرفة ديانة ابراهيم التى كانت بقاياها فى البلاد العربية ، وخصوصا فى مكة المكرمة ، حيث بيت الله الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس ، وبناء ابراهيم بمكة مباركا هدى للعالمين » فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا » •

ورجحنا فى صدر كلامنا أن يكون قد وصل بالصفاء النفسى ، وربما بالرؤيا الصادقة الى صلاة ابراهيم ، فلا عبادة من غير صلاة ، فما دامت هناك عبادة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، صارت رتبة له ، فلا بد أن يكون قد اهتدى لصلاة ابراهيم •

وانه اذا كان قد سار فى طريق التأمل والعبادة ، وفى وسط ذلك الديجور المظلم من عبادة الأوثان ، لابد أن يختلى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) عنهم لينصرف الى ربه ، ولكيلا يكون فى قلبه غيره ، ولكى يعبد ، كأنه يراه ، وقد وصل بقلبه المشرق الى درجة الاحسان ، فالاختلاء اذن كان أمرا لابد منه ، ليكون لله وحده •

ولكن ذلك النظام الرتيب الذى التزمه ، بأن يعبد الله منفردا بعبادته طول العام ، ثم يختلى خلوة العابد شهرا من كل عام ، هو شهر رمضان ، فى أى وقت ابتداء ؟ الظاهر من عبارات الصحاح من الأخبار أن ذلك لم يكن فقط عام البعث المحمدي ، بل ذلك العام اختتم بأن الحق نزل عليه ، وجاءه روح القدس رسولا من عند ربه ، فلا بد أن يكون قبل ذلك النظام الرتيب ، ونحسب أنه قبله بأعوام ، لا نستطيع أن نحدد بها ، وان كان يتسابق الى عقولنا ، أنها مدة لا تقل عن خمس سنين ، من وقت تمام بناء البيت الحرام ، ووضع الحجر الأسود بيده الكريمة ، « وان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » •

١٨٩ — بقى أن ننظر فى الأمر الثانى ، وهو باى شيء ابتداء الوحي ، لقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها « ان الوحي ابتداء بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى الرؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » وان ذلك لا يدل على أن ابتداء أنباء الله تعالى لمحمد ( صلى الله تعالى عليه وسلم ) كان بالرؤيا الصادقة ، ولكنه يدل على أن ابتداء الاشراف الالهى ، والاتصال الربانى كان بالرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصادقة ، وان كانت جزءا من الالهام الالهى ، وليست هى الوحي الذى يقام عليه التكليف بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحي » فليست هى بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام هى الوحي ، وان كانت بالنسبة لإبراهيم عليه السلام كانت وحيا كاملا ،

وبالبناء عليها هم بأن يذبح ولده اسماعيل عليه السلام ، حتى فداه رب العالمين ، كما قال تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » فكانت الرؤيا إنباء •

ان المقزر لدى المؤرخين للسيرة الطاهرة أن الوحي ابتدأ بخطاب روح القدس جبريل عليه السلام ، ولكن جاء فى سيرة ابن اسحاق أن أول خطاب لجبريل لمحمد عليه الصلاة والسلام كان برؤيا صادقة فى المنام ، ثم صحا يحفظها عليه الصلاة والسلام •

فقد جاء فى سيرة ابن هشام : « وجاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءنى وأنا نائم بنمط (١) من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ • قلت ما اقرأ • قال : ففتنى به ، حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال اقرأ فقلت ماذا اقرأ ، ففتنى به • حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال اقرأ قال فقلت ماذا اقرأ ما أقول ذلك الا اقتداء لى أن يعود لى بمثل ما صنع بى • فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » قال فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى ، فكانما كتبت فى قلبى كتابا ، فخرجت حتى اذا كنت فى وسط الجبل ، سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسى الى السماء أنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه ، وما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف عنه وجهى فى أفاق السماء فلا أنظر فى ناحية فيها الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى ، وما أرجع ورأى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكان ، ورجعوا اليها وأنا فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى • »

وانه لا شك ثمة فرق جوهري فى الخبرين :

١٩٠ — فالخبر الذى جاءت به الصحاح يفيد بأن الالتقاء بالأمين جبريل عليه السلام كانت فى صحو لا فى منام ، والثانى يفيد أن الالتقاء كان فى المنام ، لا فى الصحو ، وان كانت رؤيا كأنها الصحو ، لأنه بعد أن استفاق من نومه تذكر كل ما قال لم ينس منه حرفا واحدا ، فكان وحيا بلا ريب ، والاختلاف بين الخبرين فى الرواية لا فى أصل المعنى ، فهما متلاقيان غير متخالفين •

ومع هذا التلاقى فى المعنى ، فان هناك ثمة اختلافا فى الواقعة ، اكانت فى نوم ، أم كانت فى يقظة ، وان الكثيرين من العلماء قالوا ما دام المعنى

---

(١) النمط وعاء •

واحدا فى الروايتين وليستا متعارضتين ، فان التوفيق يكون بتكرار الواقعة ، وقعت فى النوم ، ووقعت فى اليقظة ، فهى قد ابتدأت اللقاءات بين محمد صلى الله عليه وسلم وروح القدس فى المنام ، ثم كانت فى اليقظة والنام ، كان تمهيدا للمجاهرة فى اليقظة .

وقد وفق ذلك التوفيق ابن كثير فى البداية والنهاية وبناءه على أن قول أم المؤمنين فى رواية للبخارى أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة ، فقد قال :

« فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، يقوى ما ذكره ابن اسحاق ، ابن يسار عن عبيد بن عمر الليثي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، فقلت ما أقرأ ، ففتنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى وذكر نحو حديث عائشة سواء ، فكان هذا كالتوطئة ، لما يأتى بعده من اليقظة ، وقد جاء مصرحا بهذا فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى أنه رأى ذلك فى المنام ، ثم جاءه الملك فى اليقظة .

وقد جاء فى كتاب دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهاني أن ذلك شأن الأنبياء جميعا يأتهم الوحي ابتداء فى المنام ، حتى اذا تهيئوا للقاء الوحي عيانا ، جاء اليهم . فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قال : « أن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي » (١) .

وهكذا ننتهى الى حقيقة ثابتة متفقة مع مجموع النقول ، وتتلاقى مع العقول ، وهو أن الالتقاء بالروح بالقدس ابتداء فى المنام ، ثم لما أُلّف محمد ( عليه الصلاة والسلام ) الرؤيا المنامية الصادقة ، ويظهر أنها فى وضوحها وجلالها تشبه رؤية اليقظة اذ كانت تجيء مثل فلق الصبح كما أخبرت أم المؤمنين عائشة ، حتى اذا كان الانس بروح القدس ، وامتلاء النفس بالروحانية كانت المشاهدة فى اليقظة ، لأن ذلك مقام خطير عظيم ، لا تقوى عليه النفوس الا بعد أن تصقل صقلا روحيا .

وقد يقول قائل ان كلام أم المؤمنين عائشة يستفاد منه أن الميل الى الاختلاء للعبادة كان بعد الرؤيا الصادقة ، وقد يوهم ما قلنا ، بأن الصفاء النفسى بالعبادة قد سبق الرؤيا الصادقة .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨

ونقول فى الاجابة عن ذلك بأن الصفاء الروحى كان فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام من يوم مولده ، وهو فى المهد صبيا ؛ فاذا كان عيسى عليه السلام تكلم فى المهد صبيا ، فان محمدا عليه الصلاة والسلام قد أدرك فى المهد صبيا ، وان الصفاء الروحى قد لازمه طول حياته ، فقد كان فى صفاء ولايد أن يستمر الى شبابه الباكر ، ثم الى ما بعده ، فالرؤيا الصادقة كانت من ارهاصات الرسالة ، وكانت من الوحي ، ثم كانت فى المرحلة الأخيرة منها ، وحيا بما يراه من خطاب الوحي بالأمين جبريل ، وهى ما ذكره ابن اسحق \*

واذا كان لنا أن نستفيد من تقديم الرؤيا الصادقة على الخلاء ، فكان تحبيب الخلاء له ثمرة لرؤيا صادقة تكررت حتى كان منه الاختلاء بنفسه \*

ولقد قلنا من قبل انه كان يتعرف البقية من ديانة ابراهيم ليصلى ، ونحن فى هذا الموضوع من بحثنا عثرنا على الضوء الذى نهتدى به فى تعرفه للصلاة على ديانة ابراهيم ، وظننا من قبل احتمال أن يكون ذلك بالرؤيا الصادقة ، وظننا ذلك ظنا ، والآن ندركه راجعا رجحانا يقرب من اليقين ، فضلى الله تعالى على محمد العابد صبيا وكهلا ، ومن الصالحين \*

### التقى بالروح القدس :

١٩١ — روح القدس هو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : « وأيدناه بروح القدس » ، وكما قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » \*

لقد جاء اليه جبريل عليه السلام ، وهو فى غار حراء (١) يتعبد الله تعالى ، حيث علا قلبه الى المقام القدسى ، فارتفع من الأرض ، الى ملكوت

---

(١) غار حراء كهف صغير بأعلى حراء ، وحراء جبل فى الشمال الشرقى من مكة ، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس اليه ، ولا تستأنسون به ، يمشى الماشى فى طريق مدعثر ، لا يصل اليه الا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير معبد الى نحو الساعتين ، فاذا وصل الى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع الى المغار الا فيما يقرب من ساعة ، واذا ارتفع وجده موحشا يحس فيه الداخل برهبة ، وهو أعلى الجبل ، فيزداد المقبل عليه عزلة عن



الله تعالى ، فصارت نفسه صالحة لتلقى نور السماء ، فنزل رسول أمين من رب العالمين ، الى رسول الخلق أجمعين ليحمل رسالة ربه ، ويبلغها للعالمين ، من رب غفور ، وقد توالى النزول .

ولكن متى ابتداء ؟ قالوا انه فى الأربعين من عمر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أشد العمر ، وهى سن النضج فى الروح ، وفى البدن ، وفى العقل ، فهى سن القدرة على الاحتمال ، وقد قال الله تعالى فى هذه السن « حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه » وإن قد بلغ محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم هذه السن ، فقد أوزعه الله سبحانه وتعالى اليه ، وجعله له خالصا ، وقد تهيا لذلك ، وأنشأة صفوة خلقه ، وجعله نبيا رسولا .

كان الالتقاء بالروح القدس على مرتين أولاهما تمهيد لأخراهما ، كانت الأولى ، وهى كاملة ، وان كانت فى منام هو كالصحو ، ان لا يقل عنه وضوحا ، وقد تلقى فيه أول القرآن الكريم فوعى ما وعى ، وحفظ آيات ربه الأولى ، ولما ذهب عنه النوم الصافى كان يحفظ كل ما حفظ ، لا ينسى منه شيئا .

ولما رأى الوجود ببصره ، كما كان فيه ببصيرته التقى بالذى رآه فى منامه ، رآه وهو شهيد ، وقد استأنس بالرؤيا الذى صدفها ، وخاطبه مرة أخرى فى عالم الشهادة ، ولولا أنه قد استأنس به ابتداء فى الرؤيا الصادقة ، لعظمت المشقة عليه ، وهنا فى المرة أدرك أنه ينادى بالرسالة من قبل الله تعالى ، وأنه شرفه بها ، وكان عليه الصلاة والسلام فى هذين اللقاءين محفوفًا بالنور القدسى ، وان كان شديدا على النفس البشرية التى عاشت فى الأرض ، ولو كانت بصفائها متطلعة الى النور الربانى الذى يملأ أطوارها ، ويحيط بثناياها .

=

الناس ، بل عن الأرض وما فيها ، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله ، قد ضيق الله ما بينهما ، وإذا تجاوزهما ، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولا عن العالم عزلة كاملة .

وان اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان ، لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس ، والوحشة من كل شيء الا الأنس بالله وحده ، وكان اختياره بالهام الله تعالى ليكون مقدمة جهاده ، ويعيش فيه حياتين ، أولاهما - رهبة ، والثانية صعبة ، وان كانت نهايتهما سعيدة .

وفى هذا اللقاء النوراني نزل أول القرآن الكريم ، وكانت ليلته ليلة القدر الذى فرق فيها الأمر وأبرم برسالة محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال سبحانه وتعالى : « انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » على كلام فى ذلك سنتصدى لبياناه •

ويقول الرواة ان ذلك كان فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان بعد أربعين سنة من عام الفيل ، وقيل انها كانت الرابعة والعشرين من ذلك الشهر المبارك ، ومهما يكن اختلاف الرواة فى تعيينها فانها كانت فى رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان » على كلام فى ذلك ايضا •

### قلق الزوجة الصالحة :

١٩٣ — بالهام المرأة الصالحة الذكية القلب ، الطاهرة النفس أحست خديجة زوج محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بما فيه زوجها من مشقه ، فانزعجت عليه على غير عادة ، وقد ألقت منه الغيبة فى شهر رمضان ، وكانت هى التى تزوده بزاد المادة ، والله تعالى يزوده بزاد التقوى ، انزعجت ، فأخذت تسأل عنه ، وهى تعلم أنه فى غار حراء ، لأنها أحست أنه فى جهاد روحى ، جهاد من ينزع من الأرض ، ليتصل بالسماء •

وبينا هى قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة إذ هو مقبل قد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فزال قلقها ، وان استعربت حاله — وقالت :

يا أبا القاسم ، أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة المكرمة ، ورجعوا لى •

وقد حدثها بما رأى فى رؤياه ، وما شاهد فى عيانه ، وفؤاده يرجف وهو يقول : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب منه الروح ، وهو يقول « خشيت على نفسى » •

وعندئذ جاء دور الزوجة الرفيقة الصالحة فى القول ، فقالت بمنطق الفطرة ، وهو أن من أحسن لا يجازى الا احسانا ، كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث وتقرى الضيف ، وتحمل الكل

وتكسب المعدم ، وتعين على نوائب الدهر • رأت فى زوجها الأمين الطاهر كل هذا ، وباحساس الفطرة ، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب الا طيبا • ويقول ابن اسحاق ، انها قالت بعد أن علمت الخير ، وقالت ما قالت : أبشر يا بن عم ، واثبت فوالذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » وما قالت ذلك الا وقد تواردت الأخبار بأن نبيا سيبعث فى هذا الزمان •

### الى ورقة بن نوفل :

١٩٣ — لا أدرى أهى فرحة بما توقعته من خير عظيم يجىء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيتها ، أم هى فرحة اللقاء دائما يدفع الى الحركة ، ومهما يكن فقد وجدت منها رغبة الى العمل فى الموضوع الذى طرأ ، وتوقعت منه أن يغير مجرى حياتها ، قامت فجمعت ثيابها ، ثم انطلقت مع محمد ابن عبد الله ( عليه أفضل السلام وأتم السلام ) الى ورقة بن نوفل ، وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله •

واختار النصرانية ، اذ كان يعرف العبرانية ، فدرسها منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية ، ويظهر أنه علمها ديانة وحدانية لا ديانة تثليث ، لأنه دخل عليها ، ولأن نصرانية الشرق التى كانت فى العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع نسطورس الذى أنكر أن يكون المسيح الها أو ابن الله ، اذ كان يعتقد أن عبارة الابن التى وردت فى بعض كتبهم أضلّتهم ، وان ماضى حياته ما كانت تسمح لنا أن نقول انه مثلث ، لأنه ترك عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ، فكيف يعتنق تثليثا غير متصور فى العقل •

لقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التى جاءت فى التوراة والانجيل بالنبى عليه الصلاة والسلام • وهى تبشر برسول اسمه أحمد •

وقد بلغ الشيخوخة فنضج فكره ، وقد جاءت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد • وكان بصره قد كف ، قالت خديجة فى هذا اللقاء بآبن عم اسمع من ابن أخيك فأخبر النبى عليه الصلاة والسلام ورقة بما رأى وعانين : قال ورقة : هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى ، ياليتنى كنت فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا ، اذ يخرجك قومك ، قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متعجبا ، كيف ينطق بالحق ، ويخرجوه ؟ قال : « أو مخرجى هم »

وتلك هى براءة الفطرة ، قبل أن يمرسه الله تعالى بشدائد الدعوة ، وقبل أن يلقى الباطل فى طفواته بالحق فى نوره .

قال ورقة الذى علم أخبار النبيين ، وما لقوا من بأساء وضراء وشدائد : « نعم ( أى هم مخرجوك ) لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك هذا أنصرك نصراً مؤزراً » .

ان هذه كلمة ورقة ، وهى ثمرة الدراسة المبينة لتجارب الأنبياء .

وهنا قد يسأل سائل لماذا ذكرنا موسى عليه السلام ، وهو التوراة ، ولم يذكر الانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، والجواب عن ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بها النبيون من بعد موسى عليه السلام ، وجاء عيسى لحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ رقابهم ، فجاء عيسى لاعلان حقائقها ، وروى عنه أنه قال : « جئت لحياء الناموس » ، ولقد جاء النص فى كتب النصارى أنه يؤخذ بشريعة التوراة ، ما لم يجرى نص فى الانجيل يخالفها .

ولم يكتب الله تعالى للشيخ ورقة بن نوفل أن يحضر المعركة التى قامت بين الحق والباطل ، فلم يلبث أن توفى ولم يحضر الدعوة المحمدية ، ان أنه قد مكث مدة ، حتى أمر محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ، وأن يصعد بما يؤمر .

### فترة غياب روح القدس :

١٩٤ — علم النبى عليه الصلاة والسلام أنه يحمل تكليفا كبيرا ، وأنها منزلة كبيرة يعلو فيها بانسانيته ، فأصبح المرهوب محبوبا مرغوبا ، بعد أن خشى من لقاء روح القدس ، جبريل عليه السلام. صار يتمنى أن يلقاه ، ليلقى أمر الله تعالى ، ويستجيب له ، ويحمل الأمانة التى اختاره الله تعالى لها .

لقد كان يتوقع أنه سيراه بعد أن يعود الى الغار ، لكنه لم يجرى اليه وفتر عنه ، فظن فى نفسه الظنون ، ولعله ظن أن ما اعتراه من خوف فى اللقاء الأول نحى تكليفه القيام برسالة ، ولقد كان حريصا على الاستجابة للدعوة الى الحق ، والحريص على القيام بأمر يستعجله ، ويستبطن غيابه ، ولعله خشى أن يكون ما أخبره به العالم الخبير ورقة بن نوفل لم يصادف الحق ، ولعله تكون الرؤيا التى رآها ، والمشاهدة التى عاينها تشبه مايدعى

للكهان ، وهى أمر يبغضه ، ويستنكره • لعل هذه الخواطر وغيرها أثقلتته ، فاستبطأ الوحي ، وتمناه ، وعلم أنه لا يستقر مرة الا اذا عاد الوحي اليه ، شق ذلك الانقطاع على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خشية على النعمة التى توقع أن ينعم الله تعالى به عليها •

ويقول فى ذلك ابن اسحاق « ثم فتر الوحي فترة من ذلك ، حتى شق عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فأحزنه » •

ذكر البخارى فى صحيحه أنه كان يذهب الى غار حراء ينتظر حيث ينزل عليه الروح القدس ( جبريل ) ويقول فى ذلك « ثم فتر الوحي ، حتى حزن النبي عليه الصلاة والسلام فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلمأ أوفى بذورة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبريل ، فقال يا محمد ، انك رسول الله حقا ، فيسكن جأشه ، وتقر نفسه فيرجع ، فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فاذا أوفى بذورة جبل تبدى له جبريل ، فقال لمثل ذلك » وهكذا حتى انتهت فترة الانقطاع •

وقد جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى ، فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئيت منه فرقا حتى هويت الى الأرض ، فجئت أهلى فقلت زملونى » فأنزل الله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر ، ووبك فكبر ، وثيابك فطهر والرجز فاهجر » ثم حمى الوحي وتتابع (١) •

وان هذا يدل على أن الفترة التى انقطع فيها جبريل عن محمد ابن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) شوقا لأن يعود الوحي ، وان شوقه الى تلقى الوحي بعد هذه الفترة جعله محبوبا مرهوبا ، أو على الأقل لا يكون فزعه منه ، كفزعه الأول الذى كان عقب الرؤيا بالمعاينة لجبريل عليه السلام •

### مدة الفترة :

١٩٥ — لقد اختلفت الروايات فى مدة الفترة التى انقطع فيها ، ما بين رواية تذكرها طويلة ، وأخرى تذكرها قصيرة • فقد جاء فى المواهب

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٦ •

المدنية بلغت ثلاث سنين ، ولا شك أن هذه مدة طويلة نستبعدا ، وإن كانت قد ذكرت في كتب من كتب السيرة ، والسبب في استبعادنا لها - أنها لا تتفق مع كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في مشقة شديدة من تلك الغيبة حتى أنه كان يرتفع الى شواهق الجبال ليتردى من أعلاها ، وكان يتكرر ذلك ، وإن الله تعالى أجل من أن يلقي بمن اختاره رحمة للعالمين يعيش في ذلك القلق والاضطراب تلك المدة الطويلة من غير أن يعرف له غاية ينتهى عندها ، وفوق ذلك ، فإن الاستعداد لأمر خطير لا يستمر تلك المدة الطويلة ، بل هي قد تحمل على النسيان بين اللقائين ، وإن المصادر الأصلية ، والأحاديث لم تذكرها ، فلم يذكرها ابن اسحاق ، ولم يروها البخارى .

ولقد قال السهيلي ان المدة سنتان ونصف ، وقيل انها سنتان ، وقيل فيها مدد مختلفة أقلها ثلاثة أيام وأكثرها أربعون ، وقد روى أن ابن اسحاق جزم بأن الذين قالوا ثلاث سنين أو سنتين قولهم وهم .

وإن الذين قالوا انها ثلاث سنين استندوا الى ما جاء في تاريخ الامام أحمد ، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي أنه قال : « الفترة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين ، وكان يعلمه الكلمة » .

وهذه رواية لا نحسب أنها عالية مما يوجب الريب ، فأولا : تذكر أنها أن اسرافيل هو الذى كان يعلمه في مدة ثلاث السنين ، ولم يثبت ذلك ، بل الثابت أنه من أول تلقى نور السماء اتصل به جبريل الأمين روح القدس ، وثانيا : أن الشعبي تابعى ولم يذكر من الذى نقل له هذا من الصحابة ، وقد أنكره كثير من الرواة ، فقد قال الواقدي أنه لم يكن من الملائكة من قام بالاتصال بالنبي عليه الصلاة والسلام الا جبريل عليه السلام .

وفى الجملة انه بعد ذلك البيان نرى أن تقدير مدة الفترة بالمسنيين أيا كان مقدارها غير معقول ولا مقبول ، وليس له سند صحيح حتى يكون منقولا ، حجه النقل . وإنما الذى نعتقد أن المدة لابد أن تكون فى دائرة الأشهر ، ولعلها خمسة أشهر وبعض ، على ما نشير من بعد .

١٩٦ — الى هنا ذكرنا اللقاء الأول للوحى النبوى ، الذى أفاض الله به تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا ننتهى من هذا الجزء ، وننتقل الى ابتداء التبليغ ، والقيام بعبء الدعوة ، والجهاد فى سبيلها ، من وقت أن صدع بأمرها ، قبل أن نحقق الأمر ، فى ثلاثة أمور تحدث العلماء فى أمرها .

أولها : الشهر الذى نزل فيه الوحي ، أهو رمضان ، وهو ما ذكرته كتب السيرة وما رجحناه وانتهينا اليه ، وسقنا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام الطاهرة عليه ، وكان يصح ألا نذكر سواه ، ولكن لم نرد أن نترك أمرا اختلف فيه العلماء من غير تمحيص ، وبيان الصادق منها ، وقد قيل انه ربيع الأول ، وقيل انه رجب ، فلا بد من ازالة الشبهة من حول الحق الصريح .

ثانيها : أول نزول القرآن الكريم ، أهى آية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » أم هى قوله تعالى : « بإيها المدثر قم فأنذر » . وسننتهى ان شاء الله تعالى بالتوفيق .

ثالثها : أنواع الوحي الذى خوطب به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

### الشهر الذى نزل فيه الوحي :

١٩٧ — جاء فى كتاب ( زاد المعاد فى هدى خير العباد ، للإمام ابن القيم ما نصه :

« لما كمل له أربعون أشرقت عليه أنوار النبوة ، وأكرمه الله تعالى برسالته ، وبعثه الى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوم الاثنين ، واختلف فى شهر المبعث ، فقيل لثمان ماضين من ربيع الأول سنة احدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك فى رمضان ؛ واحتج هؤلاء بقوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » قالوا أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته وأنزل عليه القرآن فى رمضان جملة واحدة فى ليلة القدر الى بيت العزة ، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة ٠٠٠ » .

وان هذا الكلام يستفاد منه بصريح اللفظ أن النبى عليه الصلاة والسلام بعث فى سنة ٤١ من عام الفيل عند الأكثرين ، واذا كان النبى عليه الصلاة والسلام قد ولد باتفاق المؤرخين فى عام الفيل ، فيكون النبى عليه الصلاة والسلام قد بعث بعد أن بلغ الأربعين وتجاوزها بسنة ، ولكن يظهر أن أنوار النبوة كما قال ابن القيم أشرقت عليه قبل أن يبلغ الحادية والأربعين ، وتكون أنوار النبوة سابقة على المبعث ، ببضعة أشهر ، اذ أن كلامه يفيد بصريحه أن أنوار النبوة جاءت فى الأربعين ، لا بعد مرور سنة الأربعين كاملة .

والمشهور الذى عليه الجمهور هو أنه بعث فى سنة الأربعين فى رمضان فى اليوم السابع والعشرين من رمضان ، وهذا هو المشهور ، وهو الراجح ، وقيل فى السابع ، وقيل فى الرابعة والعشرين .

واننا نستطيع التوفيق بين هذه الروايات ، فنقول :

ان أول مجيء الوحي كان فى السابعة والعشرين من رمضان سنة ٤٠ ، ولكن التكليف بالتبليغ كان فى شهر ربيع فى الثامن من ربيع ، ويكون الفارق الزمنى بين الأمرين هو خمسة أشهر ( شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والحرم ، وسبعة أيام من ربيع ) ، أى خمسة أشهر وبعض الشهر ، وان ذلك يهدينا الى مدة الفترة التى انقطع فيها الوحي النبوى ، والتى كانت شاقة ، وقد جاء هذا بالاشارة لا بالمعبرة فى شرح المواهب اللدنية ، فقد جاء فيها ما نصه : « وجمع بين النقلين » أى النقل بأنه بعث فى رمضان ، والنقل الذى يقول انه فى ربيع ، بما ما فى ذلك حديث عائشة « أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة » فيكون نبىء فى الربيع بالرؤيا الصادقة ، ثم أتاه جبريل فى رمضان (١) .

ونرى أن صاحب المواهب نقل عن ابن حجر فى فتح البارى ذلك التوفيق ، ولكننا نوافق فى أصل التوفيق ، ونخالفه فى استنباطه فى النزول بالرؤيا الصادقة كان فى ربيع سنة ٤١ ونزول جبريل كان فى رمضان سنة ٤١ أيضا ، وذلك لأن الذين قالوا ان النزول كان فى رمضان ، قالوا وقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأربعين لا الحادية والأربعين ، وللتوفيق الكامل نقول انه كان فى رمضان سنة ٤٠ كانت الرؤيا الصادقة ، التى أعقبها لقاء جبريل ، وقد ذكره بما رأى وكان تصديقه بالمعاينة فتر الوحي من بعد ذلك فترة شقت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان نزول القرآن الكريم وتتابعه ، وهذا يعطينا بيان مدة الفتر ، الذى ذكرناه ظنا ، ونراه الآن رواية صادقة ، وأنه ملتقى الروايات التى يبدو فيها تضارب ، ولكنه يتكشف بهذا أنه لا تضارب ، بل تلاق بين النصوص .

### أول ما نزل من القرآن الكريم :

١٩٨ — ان السياق الذى ذكرناه آنفا وهو الذى أجمع عليه رواية السيرة ، أن جبريل روح القدس عليه السلام خاطب محمد بن عبد الله ( صلى

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٧ .



الله تعالى عليه وسلم ) بعد رؤياه الصادقة بما جاء فى وحى الرؤية تماما ، فقال له اقرأ ، فقال لا اقرأ ٠٠ الى آخر المذاكرة الروحية بينهما ، التى انتهت بأن نقل عن ربه قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ٠٠٠ » ٠

وإذا كانت هذه من القرآن الكريم ، ومن ينكر ذلك فعليه أن يتوب ، فانها بلا ريب أول القرآن الكريم نزولا ، وإذا كنا قد انتهينا الى أن أول القرآن الكريم نزولا كان فى رمضان ، وأن أول الوحي كان فى رمضان ، فرمضان شهر القرآن الكريم ، كما هو شهر الوحي ، وكما قال الله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ٠

هذه حقائق سائغة ، لا ريب فيها ، ولا اختلاف ، ولا تأثير ريبا ولا خلافا ٠

ولكن الروايات تجيء بما يفيد ظاهرها المعارضة بينها وبين ذلك الحق الصادق الذى لا ريب فيه ، ولا مجال للريب فيه ، ولنذكر بعض هذه الروايات لنبين أنه لا تعارض فى حقيقة الأمر ٠

لقد ثبت فى الصحيحين البخارى ومسلم عن يحيى بن أبى كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن أى القرآن أنزل قبل غيره فقال : « يا أيها المدثر » فقلت : « واقرأ باسم ربك » ، فقال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انى جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت من بين يدي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فلم أر شيئا ، ثم نظرت الى السماء ، فاذا هو على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رعدة ، أو قال وحشة ، فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثرونى فأنزل « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر » وفى رواية أخرى ما يشير بأن هذه الآية ليست الأولى ، وليس ما فيها أن رؤية جبريل روح القدس الأولى ، فقد قالت : فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض (١) فجنيت منه فرقا - الخ ، وهو ذكر لما تضمنه الضمير فى الرواية الأولى التى تقول : « فاذا هو على العرش فى الهواء » ٠

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧ ٠

وان هذا يفيد بلا ويىب أن الوحى جاء ابتداء فى غار حراء ، وفيها نزل :  
« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ثم جاء ثانيا وليس أولا كما توهم أبو سلمة ، فى  
نزل الوحى « يأيها المدثر » \*

وان نظرة فاحصة تبين لنا أن أول القرآن الكريم نزولا هو اقرأ ، كما هو  
الأصل الذى لا مرأى فيه ، ولكن فتر الوحى فترة هى خمسة أشهر وبعض  
الشهر ، ثم جاء فيها الوحى : « يأيها المدثر قم فأنذر ٠٠٠ » وقد انتهينا الى أن  
الفترة ابتدأت بعد أن نزل قوله تعالى « اقرأ » فى رمضان من سنة ٤٠ هـ ،  
وانتهت الفترة فى ربيع سنة ٤١ هـ من عام الفيل \*

والحق أن الروايات غير متضاربة للم تأمل البصير ، فان أول ما نزل  
بالقرآن الكريم لم يكن فيه الأمر بالتبليغ ، بل كان فيه اللقاء بروح القدس ،  
والاعلام بالقرآن الكريم ، وبمغزاه الأول ، وهو تعليم الخلق ، وبيان الحق ،  
وأنه كتاب الله تعالى يقرأ باسمه ويعرف به ذكره ، أما تكليف القيام بالتبليغ ،  
فقد جاء فى قوله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر » \*

والى هذا أشار ابن كثير ، فقال فى الرواية التى جاءت فى البخارى  
عن عبد الرحمن بن أبى سلمة : « لا ينفى هذا تقدم اىحاء جبريل اليه أولا :  
« اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠٠٠ » ثم التقى به جبريل بعد نزول قوله تعالى :  
« يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وتأيابك فطهر ، والرجز فاهجر » ،  
ثم حمى الوحى وتتابع - أى تدارك شيئا بعد شيء - وقام حينئذ رسول الله  
صلى الله تعالى عليه وسلم فى أداء الرسالة أتم القيام ، وشمر عن ساق  
العزم ، ودعا الى الله تعالى القريب والبعيد ، والأحرار والعبيد ، فأمن به حينئذ  
كل لبيب نجيب سعيد ، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد \*

### مراتب الوحى وشكله :

١٩٩ — نتكلم فى هذا الجزء عن البحث عن الوحى الذى كان ينزل  
على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والذى ابتدأ بالرؤيا الصادقة وتتابع ،  
وجاء شيئا فشيئا ، حتى تم القرآن الكريم نزولا ، فى مدى ثلاث وعشرين سنة  
كاملة \*

لقد جاء النص القرآنى يطرق خطاب الله تعالى لأنبيائه ، فقال تعالى :  
« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل  
رسولا » \*

ولا شك أن هذه طرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقه لخطابه ، فمن أى كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونجيب فى هذا المكان ؛ لأننا فى مقام أول نزول الوحي ، فلنسر فى مداه الى نهايته •

يذكر ابن القيم فى كتابه ( زاد المعاد ) أن للوحي سبع مراتب ، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة فى إيجاز ، وربما نجد المقسم لا يشمل ذلك العدد ، لأن بعضها يدخل فى بعضه ، فالحدود فى الأقسام غير فاصلة •

**المرتبة الأولى الرؤيا الصادقة :** وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان البعث المحمدي كانت الرؤيا الصادقة هى أول ما نزل به القرآن الكريم ، كما جاء فى سيرة ابن اسحاق ، ثم تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه السلام ، فكانت مصدقة بالخطاب •

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانا ، كما جاء فى قصة خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام فى قصة الفداء ، اذ قال تعالى حكاية عن قول ابراهيم : « رب هب لى من الصالحين ، وبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه المسعى ، قال يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما ، وتله للجبين ، وناديانه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجى المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم » •

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام ، فهم من هذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه ، فقبل التكليف صابرا ، محتملا ، وهو ابنه البكر ، واستجابة دعوته عليه السلام ، وكان ذلك البلاء المبين حقا ، فقد استجاب للمطلب ابراهيم ، وقبل الاستجابة اسماعيل صابرا ، فكانا من المحسنين ، ونعم الصابرون •

**والمرتبة الثانية ،** عبر عنها ابن القيم بأنها ( ما كان يليقه الملك فى روعه وقلبه ، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هو الوسط بين الله ورسوله ، فهو ينفث فى روح الرسول ، بأمر الله تعالى ، فكان بذلك وحيا ، وكان بطريق الملك ، ولقد مثل له ابن القيم بقوله عليه السلام : « ان روح القدس نفث فى روعى لمن تموت نفس حتى تستكمل رزقها » فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، والفرق بين الوحي بهذا المعنى والوحي بقاء جبريل روح القدس ، أن لقاء جبريل عيانا فى حال المخاطبة ، انما فى هذه الحال ، فاللقاء فى النفس وفى القلب والعقل ، وربما نعد حينئذ أن يكون هذا من ارسال رسول ، ولو كان

بالحام الله تعالى المجرد ، وهو ما نميل اليه اذا استيقن الرسول أن ذلك الهام من الله تعالى ، فانه كلام الله تعالى بالوحي المجرد من غير توسط رسول •

**المترتبة الثالثة :** مخاطبة الملك ، حتى كان يتمثل رجلا ، فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه متمثلا فى رجل يظنه النبى صلى الله عليه وسلم من الانس لا من الملائكة • فقد كان يأتيه فى صورة دحية الكلبي ، كما روى ذلك النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر ، ولقد قيل ان مجيء جبريل على صورة لدحية الكلبي كان بعد بدر ، ويقول ابن القيم وكان دحية رجلا وسيما ، اذ قدم لتجارة خرجت الظعن (١) لتراه ، وان مجيء جبريل فى صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته ، أو ذهبت عنه الروحانية ، انما هو لا يزال روحا ، والذى ظهر به هو ظهور للروح فى صورة جسدية ، ومعانى الملك لا تزال ثابتة قائمة ، ولا يوجد ما يمنع عقلا أن تظهر الروح فى صورة انسان له جسد •

ودحية لا شأن له فى هذا التغير الصورى ، بل هو حى فى جسده يأكل ويشرب ، ويمارس الحياة الانسانية كاملة •

وكون روح القدس جبريل يظهر فى جسد لا يقتضى أن يتحول الجسد الى ملك ، ولا أن يتحول الملك اليه ، وهى روح ليست حيوانية ، ولا ثمرة للحياة الانسانية ، حتى اذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة ، لأنها ليست أمرا عضويا ولكنها روح ملك تفيض فى جسم يخلقه ، أو تظهر فى جسم يخلقه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب الملك غاب معه الجسد الانسانى •

**المترتبة الرابعة :** أنه كان روح القدس جبريل يأتيه مخاطبا له مثل صلصلة الجرس ، ويقول ابن القيم كان أشده عليه ، ويقول فى وصفه ابن القيم : « فلبس به الملك ، حتى ان جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ، اذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه ، حتى كادت ترضها » •

وقد روى البخارى عن زيد : أرسل الله على رسوله ، وفخذه على فخذى ، فثقلت على ، حتى خفت أن ترض فخذى • وقد جاء فى الصحيحين والموطأ عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ، قال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدها

---

(١) الظعن بضم الظاء والعين جمع ظعينة ، وهى المرأة الجميلة •

على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً ،  
ليكلمنى ، فأعنى ما يقول • قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الملك فى اليوم  
الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وأن جبينه ليتفصد عرقاً (١) •

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة ، فإن تلك مراتب روحية لا تسمو  
الى ادراك حقيقتها ، ولكن نحاول أن نتصورها فقط ، من غير تعرفها كاملاً ،  
فلا يعرفها الا من عالجها ، ولم يعالجها الا المصطفون الأخيار الأبرار •

ان الذى فهمناه من ذكر فى هذه الحال أن روح القدس الطاهر يخلط  
بالنبي عليه الصلاة والسلام ويمزج روحه وجسده ، ويخاطبه بصوت قوى  
صارخ ، فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه عليه الصلاة والسلام ،  
ولا يسمعه غيره ، ويحس فى نفسه ، ولا يحس غيره ، ويكلمه بكلام مفهوم ،  
وان كان فى صوت قوى ، وكل ما فيه من خطاب قوى ، ويكون باختلاطه بروح  
النبي ، وبممازجته جسمه محدثاً ثقلاً جسمى ضاعطاً على ما يكون رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالساً عليه ، وان الرسول ليعرف ما يقول ،  
ويحفظه ويعيه ولا يجهله ، حتى ان انفصل عنه لا انفصل الا وقد وعى كل  
ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قدرته ، وعظمت منتته •

وقد روى العسقلانى فى المواهب أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة  
من الوحي •

ومنها روى الطبرانى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب الوحي لرسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان اذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة ، وعرق  
عرقاً شديداً مثل الجمان (٢) ، ثم سرى عنه وكنت أكتب ، وهو يملأ على  
وربما وضع فخذه على فخذي حال الكتابة ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر ،  
حتى أقول لا أمشى على رجلى ، ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر  
عضد ناqqته (٣) •

وذكرت الناقة هنا لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة الوداع فى  
عرفة وهو واقف ، ونزلت آية « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ،  
ورضيت لكم الاسلام ديناً » فى هذا اليوم ، وكان راكباً على الناقة •

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩ •

(٢) الجمان : صغار اللؤلؤ ، والبرجاء الحمى •

(٣) كان الكلام فى نزول آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » لا فى سورة

المائدة •

**المرتبة الخامسة :** قال فيها ابن القيم « أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى اليه ما شاء أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى فى سورة النجم •

يشير الى قوله تعالى : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى » فيفسر ابن القيم تلك الرؤية الروحية بأنها رؤية جبريل بحقيقته ، وهى فيما أحسب رؤية بنور البصيرة ، وبقوة الروح ، لا بنور البصر ، ولا بشكل جسمى ، لأن جبريل روح ، فكيف يراه الا أن يكون محسوسا ، وبذلك لا تفترق هذه الحال عن الرؤية المشخصة مع أنها غيرها •

ولقد قال عبد الله بن مسعود أنه قال : لم ير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل على صورته التى خلق عليها الا مرتين ، أما واحدة فانه سألته أن يريه نفسه ، فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الاسراء عند سدره المنتهى •

**المرتبة السادسة :** ما أوحاه الله تعالى اليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها • ومؤدى كلام ابن القيم أن هذه المرتبة من الوحي هى التلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا بطريق الرؤيا الصادقة فى المنام ، ولا بطريق ملك ، على أى حال من الأحوال كان الملك ، بل عن الله تعالى ، ولا يقتضى ذلك رؤية ، لأنه قد يكون الله يكلم العبد المختار للرسالة من عباده من وراء حجاب ، ليكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤية لذاته للعلية ، فقد سئل عليه الصلاة والسلام : هل رأيت ربك ، « فقال انه نور ، فأنى أراه » وان هذا التفسير الذى اخترناه يتلاقى مع المرتبة السابعة التى سنذكرها ، واذا أردنا التمييز فاننا نقول ان هذه هى من الله مباشرة من غير توسط ، وهو ما كان ليلة المعراج ، فالذى نتصور على مقدار ما يقرر ابن القيم ، أنه ليس بكلام تكلمه رب العالمين ، ولكن وحى مباشر •

**المرتبة السابعة :** هى الكلام من وراء حجاب ، وقد قال فيها ابن القيم : « كلام الله اليه ( أى الى الرسول صلى الله عليه وسلم ) بلا واسطة ملك ، فكلم الله تعالى موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن الكريم ،

وثبوتها لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الاسراء ، وبهذا التفسير يتبين أن السابعة داخلة فى السادسة ، وليست كل واحدة منهما مرتبة قائمة بذاتها (١) .

وفى الحق ان هذه المراتب متداخلة ، والمراتب كلها مذكورة فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب » .

## دعوة الحق

♦ ♦ ٢ — بعد أن فطر الوحي نحو ستة أشهر أو دون ذلك ، قليلا جاء التكليف بالتبليغ ، وتحمل عبء الرسالة الالهية الى الخلق أجمعين ناداه ربه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر ، ولا يكتفى بالتعبد فى غار حراء ، وأن كان ذلك كافيا لتهديب نفسه ، وتصفية روحه ، وأن يكون متصلا بربه خفية وتضرعا ، فانه لا يكفى لرسول أمين ، بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين ، وتكون معه العبادتان . العباداة الفردية بتهديب ذاته وتقوية روحه ، وتوجيه نفسه الى الله وحده الذى لا يغيب عنه شئ فى السماء ولا فى الأرض ، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعوة الحق ودعوة الناس الى الانصراف لعبادة الله وحده ، واصلاح الخلق ، والسير بهم فى المحبة الواضحة التى ليلها كنهارها ، وهذه غاية الرسالة الكبرى التى حملها خاتم النبيين محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) .

أمره الله تعالى بعد أن ناداه النداء المؤكد : « ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » .

تضمنت هذه الآيات الكريمات ، الانذار بالعذاب الشديد ان استمروا ، وبالدعوة الى عبادة الله تعالى ، وتطهير الثياب ظاهرا وباطنا ، وبترك الفساد وهجر الشر ، وعبادة الله تعالى هى السبيل لدفع الشر ، ومنع الأذى ، وفى الجملة هذه الآيات التى تعد أول طلب لتبليغ الدعوة تشتمل على ثلاثة أمور هى خلاصة الدعوة المحمدية ، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية . أولها - الايمان بالعقاب والحساب ، وقد أشار اليه سبحانه وتعالى بالأمر بالانذار ففيه اشارة الى اليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء ان خيرا فخير ، وان شرا

---

(١) المراتب مذكورة فى زاد المعاد ج ١ ص ٢٥ ، وفى المواهب اللدنية وشرحها ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

فشر ، والأمر الثانى تربية النفس الانسانية بالعبادة والصبر ، وتطهير القلوب بالخلوص لله سبحانه وتعالى ، وتكبيره وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى « **وربك فكبر ، وثيابك فطهر** » ، والأمر الثالث — اماطة الأذى عن الجماعة التى يعيش فيها ، ونفعها ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « **والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر** » •

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمة رمزت الى خلاصة الحقائق الاسلامية التى يقام عليها الاسلام ، وهى الوحدةانية والايمان باليوم الآخر وتطهير النفوس ودفع الفساد ، وجلب النفع •

### مراتب الدعوة :

١ • ٢ — ذكر ابن القيم فى زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب :

**الأولى النبوة :** فلا يدعو الى الحق الذى نزل من عند الله تعالى الا نبى وقد اعتبرها ابن القيم المرتبة الأولى ، ونحن لا نعتبرها كذلك ، انما نعتبرها كيان الدعوة ، فلا دعوة الى الايمان برسالة الا من نبى مرسل ، فهى دعامة ، وليست مرتبة يبتدأ بها ، بل هى الأصل ولب الدعوة •

**المرتبة الثانية :** انذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه « **وأئذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** » وقد بدأ النبى عليه الصلاة والسلام دعوة عشيرته ، فدعا بنى عبد مناف وقال لهم ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا ما علمنا منك كذبا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **انى رسول الله اليكم بين يدي عذاب شديد ، وانها للجنة أبدا وللنار أبدا أو كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم** » •

**والمرتبة الثالثة :** انذار قومه ، وقد سلك محمد عليه الصلاة والسلام ، ذلك المنهاج الذى انتقل فيه من الحيز الضيق الى ما هو أوسع ، ثم الى ما هو أعم ، فانتقل من انذار عشيرته الأقربين الى قومه من قريش قريبيهم وبعييدهم •

وقد أئذر عليه الصلاة والسلام فى هذه المرتبة سكان مكة المكرمة وما حولها •

**المرتبة الرابعة :** عبر عنها ابن القيم بقوله ، انذار قوم ما أتاها من نذير من قبله الا كانوا به مؤمنين ، وهؤلاء هم العرب فى الجزيرة العربية قاصيهم



ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر ، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية ، من غير تفرقة بين قريب وبعيد .

**والمرتبة الخامسة :** تبليغ الدعوة الى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم ويكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التى تدافع من هجموا أو حاولوا الهجوم ، أو حاجزوا بين الاسلام ودعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته ، فكان الجهاد ليثبت الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، ومن بعد ذلك يختارون عن بيعة ، فقد قال تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

**وقد سلك النبى عليه الصلاة والسلام تلك المراتب ، وان كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة ان لا تكادان تنفصلان ، والمرتبة الأولى لا تعد مرتبة للدعوة ، ولكنها مرتبة التهيئة لها ، ولعله يريد منها ما كان من نزول قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ... » الى آخر الآيات الكريمات ، التى نزلت فى أول لقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بروح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، الى نهاية الفترة التى قدرناها بما دون ستة الأشهر وتنتهى عند نزول قوله تعالى : « ياأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر » .**

**٢٠٢ —** وقد كانت الدعوة من بعد ذلك خفية ، يلتقى بالأولياء والأصدقاء المقربين ، والصفوة المختارة من أصحاب الأبرار ، وهذه هى المرتبة الثانية .

وانما كانت الدعوة ابتداء خفية لتتكون خلية الاسلام ، وان الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان لأن الجهر يبددها قبل أن تتكون حتى ينمو عودها ويتكون سوقها .

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقى حولها قلوب مؤمنة بها ويتولى من بعد ذلك اعلانها والمجاهرة بها ، ثم لابد من تكوين من يتقدمون الدعوة ، ومثل الدعوة الخفية ، كمثل تكون الجنين فى بطن أمه ، فانه لا يظهر للوجود حيا حياة كاملة ، صالحا لأن يقاوم دواعى الفناء ، والأخذ من عناصر البقاء والتغذى بكل أسباب القوة ، فكذلك الدعوة الى كل فكرة ، تقتضى التدبير الخفى ، ثم الاعلان الجلى .

ولذلك كانت الدعوة الأولى ، ثم كانت المراتب التى تليها •

ولقد يقول الرواة ان الاستخفاء كان نحو ثلاث ، كانوا يستخفون بها فى العبادة والمذاكرة ، وقالوا انها كانت فى دار الأرقم بن أبى الأرقم •

ولكن يجب أن نعلم أن الإستخفاء فى هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة ، فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يعلن ما جاء به من نذير ، وما فى جعبته من تبشير ، ولكن الذى يستخفى به هو إقامة العبادة التى دعا اليها رب العالمين ، ولذلك كان إضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفًا معلنين الاسلام مجابهين المشركين متحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق ، والصبر المستعذب ، وان كان مريرا •

ثم من بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التى تشق الصفوف المشتركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، ان أمر الله تعالى أمرا جازما قاطعا ان قال تعالت كلماته « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » •

وقد أخذ عليه الصلاة والسلام من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين ، ويجادلهم بالقرآن الكريم ، ويصابرهم فى اطمئنان المؤمن بالحق فيما يدعو اليه ، يجادلهم بالقرآن الكريم يتلوه عليهم ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم يتهددون وينذرونه وأهله ، ويقاطعون بنى هاشم ، الى آخر ما سنقرر من بعد •

وبنى هاشم ماعدا أبالهب ومعهم بنو المطلب يسيرون معه صفًا واحدا ابتداء للقرابة عند الأكثرين منهم ولأجل الحق عند غيرهم •

حتى اذا مات أبو طالب الذى على الصوت باسم القرابة والمحبة ، أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يدعو القبائل فى مواسم الحج ، وفى وفودها ، حتى اذا صار للاسلام الكلمة العليا فى الجزيرة العربية فاضت الوحدانية بالنور على من وراء البلاد العربية الى الأقاليم التى تصاقبها اقليما بعد اقليم •

## أول من أسلم

٣٠٢ — اتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى تكوين الخلية الأولى للإسلام ، فاتجه الى الذين يعاشرونه ابتداء ، وكان يعاشره ثلاثة : أولهم أم المؤمنين خديجة ، السكن ، والمواسية ، والحانية ، والرقيقة ، وأم أولاده ، والرفيقة الرعوم ، والثاني على بن أبى طالب ، وقد كان فى كلاءة النبی عليه الصلاة والسلام وكفالته ، وهو له المؤدب والمربى ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، وعند ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام فضل يسار ومال من عمله فى التجارة فى مال خديجة ، وعند العباس عمه مال وفير ، اذ كان من أثرياء قريش .

ولقوة احساس محمد صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه وما عنده من مودة فى القربى ذكر حال عمه للعباس واقتراح أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبى طالب يكفله ، فكان من نصيب محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كرم الله وجهه ، وعندما جاءت الدعوة الاسلامية ، ونزل الوحي الالهى كان على فى العاشرة .

وثالث الثلاثة زيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان عربيا من بنى كلب .

كان الرق قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، اذ قد أخذته جماعة من الفرسان وهو ابن ثمانى سنوات ، وباعوه فى سوق من الأسواق ، وآل أمره الى خديجة أم المؤمنين ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عبدا له على مقتضى ما كان عليه الناس ابان ذاك .

وقد جزع أبوه عليه جزعا شديدا ، وبكى لفقده ، وقد قال فى ذلك شعرا جاء فيه :

بكيت على زيد وما أدرى ما فعل

أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وانى لسائل

أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل

ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة  
فحسبك من الدنيا رجوعك لى بجل (١)  
تذكرنيه الشمس عند طلوعها  
وتعرض ذكراه اذا غربها أقل (٢)  
وان هبت الأرواح هيجن ذكره  
فيأطول ما حزنى عليه وما وجل  
سأعمل نص العيش فى الأرض جاهدا  
ولا أسأم التطواف أو تسأم الابل (٣)  
حياتى أو تأتى على منيتى  
فكل امرئ فان وان غره الأمل (٤)

أخذ يبحث عنه فى طول بلاد العرب ، حتى عثر عليه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة ، ومحمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم عدو الرق بفطرته لم يرد أن يحتجنه عنده غير مختار ، فخيره بين أبيه والمقام عنده ، وقال : ان شئت فاقم عندى ، وان شئت فانطلق مع أبيك •

ولكن الشاب قد اختار له ، فاختر أن يقيم مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يلمح نور النبوة عن الحرية مع أبيه وأله ، ولكن أباه أخذ يلومه ، فقال له : « يا زيد تختر العبودية على أبيك وأمك » فقال ابن الكريم ، « انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا » •

عند ذلك الوفاء أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، وقام الى الملأ من قريش ، فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثا ومورثا •

رأى أبوه ذلك فطابت نفسه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ، فلما إختفى التبنى وقال تعالى فى المتبينين : « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » •

- 
- (١) بجل بمعنى حسم أى حسم الشعر وأنهاه ،  
(٢) الأرواح جمع ريح ، والوجل الخوف •  
(٣) النص السير الكثير الشديد •  
(٤) الشعر فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٨ •

## الاسلام فى بيت النبوة :

٢٠٤ — كان أول الاسلام فى بيت النبوة ، وأول الدعوة كانت فى بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد كان الذين يكونونه ، وبلغوا حد الادراك المميز للحقائق الدينية فى الجملة ، هم هؤلاء الثلاثة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة الوفية الأمانة الحانية على زوجها وثانيهم على بن أبى طالب الذى كان غلاما ، وهو الذى رباه النبى عليه الصلاة والسلام ، وثالثهم المولى المخلص الذى أزال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عنه الرق ، ورفع له شرفه من ذؤابة قريش ، حتى كان يقال زيد ابن محمد حتى ألقى الله تعالى التبنى ، ولكنه ألقاه وزيد شريف بالاسلام والايمان ، وشريف بحريته واحترام نسبه الأصلى ، الذى لم يرنق برق .

لقد آمنت خديجة منذ أن التقى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بروح القدس ، جبريل عليه السلام ، وعاد اليها يرجف فؤاده ، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه رسول هذا الزمان ، وأنه لا نبى بعده .

آمنت به منذ الابتداء ، وكان ايمانها أمنا وسلاما ، فقد كانت هى السكن الذى يأوى الى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة ، وشدة المقاومة ، وكما قال ابن هشام فى سيرته : « وأزرتة على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله تعالى بذلك عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله تعالى عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس » رضى الله تبارك وتعالى عنها .

وانها بذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين ، بل صارت لها منزلة فى الذروة بين نساء العالمين حتى صارت الثالثة بين فضليات النساء فى الخليفة ، وهى مريم العذراء التى خاطبتها الملائكة من السماء ، وبضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضعتها ، فاطمة الزهراء .

وقد أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر الله تعالى نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأن الله تعالى يقرئها السلام ، وروى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يبشر خديجة ببیت من قصب ( والقصب هو اللؤلؤ المجوف ) لا صخب فيه ولا نصب .

انها اقامت بيتا للنبي عليه الصلاة والسلام فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقي في خارجه غبار الصخب ، وعناء النصب ، فكتب الله تعالى لها بيتا فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق ، وفيه الجمال ، فيلتقي فيه جمال المنظر ، بلطف الهدوء بعد اللغوب .

ولقد أحسنت بمنزلتها عند الله تعالى ، وخصوصا عندما أقرأها السلام بذاته الكريمة فقد ردت التحية فقالت مقالة المؤمنة : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » فالتقى الايمان الصادق ، بالتنزيه لله ، فجعلت الرد على جبريل ، أما الله فهو السلام ، وهو واهب السلام ، فتعالت ذاته ، ويقول في التعليق على ردها شارح المواهب اللدنية « هذا من وفور فقهها ، حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق ، وما لا يليق ومع كون هذا ادراكا سليما أقول انه احساس عميق وايمان صادق بالله .

اسلام على :

٢٠٥ — كان على رضى الله تعالى عنه في العاشرة من عمره ، وقد تجاوز سن التمييز الأولى ، وصار له ادراك في المعاني الدينية . وذلك هو نظر علماء الاسلام من بعد . اذ أنهم اتفقوا على صحة اسلام الصبي المميز . واعتبار اسلامه وان اختلفوا في اعتبار رده اذا تقرر اسلامه ابتداء . أو بوراثته للاسلام .

كان على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه في سن التمييز عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام . وفيه نكاء يسبق به أقرانه ومن في سنه ، وهو فوق ذلك في مهبط الوحي ، ومنزل النبوة ، وما لا يصل اليه بالادراك يصل اليه بالحاكاة والقدرة الصالحة ، وقبس النبوة يهديه . ونورها يسطع فيما حوله .

ولقد قالوا انه ابتداء نور الهداية باتخاذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة يقلدها ويحاكيها ، ويتبع أثارها ، ويتقفى مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم .

قال ابن اسحق : « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة المكرمة . وخرج معه على بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر

قومه فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله تعالى أن يمكثا .

ولكن عين أبي طالب كانت تتلفت حول ابنه وابن أخيه وجبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك رمقتهما - وهما يصليان ، فاتجه الى محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا ابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به . فقال : أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم يعثنى الله به رسولا الى العباد ، وأنت أى عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه .

دعاه محمد عليه الصلاة والسلام الى أمرين : الايمان بهذا الدين . وثانيهما اعانة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وقد أجابه فى الثانية ولم يجبه فى الأولى فقد قال له : أى ابن أخى ، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى . وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شيء تكرهه .

هذا ما كان بينه وبين ابن أخيه . وهو ينبىء عن نخوة كريمة . وتعصب لما كان عليه آباؤه تعصبا غير حسن فى ذاته . ولا من مثله فى كبر عقله ، وقوة نفسه . ولكن ذلك ما أراد الله تعالى لحكمة ، ليرى الناس مثلامن أقوياء الرجال ، يكون عظيما فى ذاته ، ويكون مع ذلك مشركا ، فهو عال فى نفسه ، ليس كبيرا فى اعتقاده .

أما ما كان من أمره مع ابنه ، فقد اتجه اليه يقول له : « أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه . فقال له يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته » .

وهنا نجد أبا طالب الحر الكبير فى نفسه فى معاملة ابنه ، كما رأيناه مع ابن أخيه ، فقد قال غير مضيق ولا متزمت ، ولا ضائق الصدر ، أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه .

وروى ابن اسحاق مع ما ذكر رواية فيها زيادة اذ قال :

« ان على بن أبى طالب رضى الله تبارك وتعالى عنه جاء بعد ذلك بيوم أو يومين وهما يصليان أى خديجة والرسول فقال أيا محمد ما هذا ! قال ( النبى عليه الصلاة والسلام ) دين الله تعالى الذى اصطفى لنفسه بعث به رسله ، فادعوك الى الله تعالى وحده لا شريك له ، والى عبادته ، وأن تكفر بالملات والعزى ، فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاصد

أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال عليه الصلاة والسلام له : « يا على إذا لم تسلم ، فاكتم • فمكث على تلك الليسلة ، ثم ان الله أوقع فى قلب على الاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى جاءه ، فقال : « ماذا عرضت على يا محمد فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد ، ففعل على ذلك وأسلم ، ويروى أنه كتم ايمانه عن أبى طالب ، ولكنه لما علم قال له : « وآزر ابن عمك وانصره » •

هذه زيادة ذكرها ابن اسحاق فى رواية أخرى ، وهى لا تتعارض مع الرواية الأولى ، ولكن تزيد عليها ، فمؤداها أن على بن أبى طالب ، كشأن من يكون فى سنه رأى أن يعرض الأمر على أبيه كالشأن فى كل أمر ذى شأن يعرضه الصبى على أبويه قبل أن يقدم عليه ، ثم وقع فى قلبه الايمان بما جاء به ابن عمه ، طيب النفس رضى ، وكان أن تبعه فى صلاته فى شعاب مكة المكرمة •

### أول أسرة فى الاسلام :

٢٠٦ — أسلم من بعد ذلك أو مقارنا لذلك مقارنة زمنية « زيد ابن حارثة ، وهو اختار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام على أبيه واختار أن يعيش فى كنف محمد عليه الصلاة والسلام رقيقا ، على أن يعيش فى أسرته حرا طليقا ، فلابد أن يكون من أول الناس اسلاما ، فانضم الى الأسرة النبوية غير متلكىء ، ولا متلعثم ، ولا مضطرب ، بل دخل مسرعا ، غير متلوم •

اجتمع شمل الأسرة الكريمة على الايمان ، ولازم محمد صلى الله عليه وسلم فى صلاته أم المؤمنين خديجة ، وصفيه المجتبى على بن أبى طالب ، ولقد جاء تاجر زائرا مكة المكرمة ، ولنترك له الكلمة يقص ما رأى :

عن يحيى بن عفيف قال : « جئت زمن الجاهلية الى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب • فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظر الى الكعبة • أقبل شاب ، فرمى ببصره الى السماء • ثم استقبل الكعبة • فقام يستقبلها • فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه • فلم يلبث حتى جاءت امرأة • فقامت خلفهما • فركع الشاب • وركع الغلام والمرأة • فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا • فسجدا معه • فقلت : يا عباس • أمر عظيم • فقال أتدرى من هذا ! فقلت : لا • فقال : هذا محمد بن عبد الله



ابن عبد المطلب ابن أخى • أتدرى من هذا الغلام ؟ قلت : لا • قال : هذا على ابن أبى طالب • أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا أدرى ! قال : هذه خديجة زوج ابن أخى • وهذا حدثنى أن ربك رب السموات والأرض أمر بهذا الذى تراهم عليه • وأيم الله • ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة ، وكانوا الثلاثة المطهرين المسابقين الى الاسلام • ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع •

ويلتظف فى هذه الأخبار الصادقة أن أولئك أسلموا من غير أن يطالبوا بدليل ، بل كانوا المصدقين لما عرفوا من الحق فى ذاته • فأى قلب خال من شوائب الهوى والغرض • يسوى بين الايمان بحجر لا ينفع ولا يضر • والايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى ليس بوالد ولا ولد ، ثم مع ذلك الحق الذى يدرك بأدنى تأمل من قلب سليم — ما عرف به الداعى من خلق صادق • وفضل كبير ، وعقل مدرك سليم ، ثم لا يكون فى كلامه ارتياب مرتاب •

فالذى دفع الى ايمان تلك الأسرة الطيبة ادراك للحق فى ذاته ، وايمان بصدق ربها ، ومن بعد ذلك صفاء فى نفوس أهلها ، وأنى يكون قلب أصفى من قلب أم المؤمنين خديجة ، وعلى بن أبى طالب •

## النور يشرق من بيت النبوة

٢٠٧ — فاض النور من بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانبتق البثق الكبير خارج البيت ، ولكنه لم يكن بعيدا عن محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد ذهب يضىء قلوب أصدقائه ، والذين وصلت نفوسهم بنفسه ، وان لم يكونوا له أقرباء قرابة بعيدة أو قريبة ، ولكنهم كانوا من قبيله وقومه ، ثم كانت آية الله الكبرى أن عارضه أقرباؤه الأذنون ، كأبى لهب ، ولم يتبع دينه أو لم يظهره حتى أحباؤه من ذوى قرباه كأبى طالب الذى رباه ، وكان حبيبا الى نفسه ، وعمه العباس وغيره •

وكانت تلك آية كبيرة تدل على نزاهة الاسلام من أن تقيمه عصبية ، أو يتبع للعصبية ، انما هو دين الله جاء لمحو العصبية الجاهلية ، ولم تكن عموم دعوته فيها أى استجابة لعصبية ، أو موالة قبلية كما سيتبين ذلك فى القصص النبوى ، فلا يقال ان أسرة كانت تطمع فى السلطان • فاستعانت بسلطانها لنبوة كانت فيها • وخصوصا أن بنى هاشم كانت فيهم ریاسات

بالكعبة الشريفة توارثوها كابرا عن كابر ، وكان آخرهم أبو طالب الذى عاصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وإذا كان بنو هاشم لم يكونوا أول الناس اسلاما ، فقد كانوا بلا ريب أولهم نصرة ، وكانوا نصراء النبى عليه الصلاة والسلام عصبية لا اسلاما ، اذ كان ذلك عادة العرب يعيش كل شخص فى حماية عصبية . لا يسلمونه ، ويعدون تسليمه ذلا ، والتهاون فى نصرته قهرا وهوانا ، وخصوصا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان معتدى عليه . وليس معتديا . والايذاء ينصب عليه انصيايا . . .

ومن أجل ثبوت أن معاونتهم له فى شدته كانت عصبية ، أنهم لم يؤازروه بعد أن صار قويا ، بل ان العباس عمه ، وهو الذى كان يعد كبير بنى هاشم بعد أبى طالب خرج مقاتلا فى جيش المشركين فى بدر لجيش محمد عليه الصلاة والسلام ابن أخيه ، وأسر من بين من أسر من المشركين ، ولم يخرججه محمد عليه الصلاة والسلام ، الا بفدية اقتدى بها نفسه .

#### اسلام أبى بكر :

٢٠٨ — لا نريد أن نخوض فى أوليته ، وسبقه فى الاسلام على ابن أبى طالب رضى الله عنه أو سبق على عليه . فذلك مسألة طائفية يثيرها الطائفيون فى الاسلام . فالشيعة يعدون عليا أسبق والأمويون والناصبون (١) يخالفون ومالنا أن نخوض فى ذلك . وكل فريق يذكر أن معه من الصحابة فريقا .

وانما الذى نقرره أن كليهما أسبق الذكور الى الاسلام ، أبو بكر وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين . وعلى فى العاشرة من عمره . لم يبلغ حد المراهقة ، ولكنه كان مميزا فاهما ، أسلم متذكرا متدبرا مدركا ، وقد ذكرنا أن فقهاء المسلمين يعتبرون اسلام الصبى المميز صحيحا وان اختلفوا فى اعتبار رده مستحقة للعقاب .

بادر أبو بكر بالاسلام عندما علم بالبعثة المحمدية ، واسمه عتيق ، أو عبد الكعبة المكرمة ، وسماء النبى عليه الصلاة والسلام عبد الله . وقالوا ان أمه كان لا يعيش لها أولاد ذكور ، فلما رزقته وعاش سمته عتيقا لأنه عتق من

---

(١) الناصبية والناصبون الذين يناصبون عليا وأولاده العدواة .

الموت ، وقيل سمته عبد الكعبة « المكرمة » لأنها نذرت أن تسميه عبد الكعبة • ثم اختار له صديقه محمد ( عليه الصلاة والسلام ) أن يكون عبد الله •

وكان يمتاز من بين قريش ، بأنه عالم بالأنساب ، فكان نسابة العرب ، وكان له علم بأخبار الأولين ، وكان تاجرا معروفا بالأمانة والصدق ، وإن لم يكن كمعرفة محمد ( عليه الصلاة والسلام ) بذلك ، ولعل الأمانة قد سرت من صديقه محمد عليه الصلاة والسلام فقد كانا صديقين وتربين لتوافق مشاربيهما في الجملة ، وإن كان أبو بكر لم تكن عنده نزاهة محمد عليه الصلاة والسلام حبيبه وخليله في البعد عن الأوثان ، فالفرق بينهما كالفرق بين من يصنعه الله تعالى على عينه ليكون رسولا نبيا ، وبين من خلقه الله تعالى صاحبا برا تقيا •

كانت الصحبة تجعلهما كالمتعاشرين في كمال الخلق ، حتى انه عندما بدت ارهاصات النبوة ، وابتدأ البعث ، كانت تسأله خديجة عن صاحبه اذا غاب وهو يحضر اليها عندما تقلق عليه ، وتقول له : « يا عتيق أين ذهب »

يقول الرواة ان أبا بكر أسلم قبل أن يطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان أنه قد كان يتوقع ظهور نبوة صديقه محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه قد سمع كلام ورقة ، وعلم من خديجة حديثه لها ، وكان يوما عند حكيم بن حزام ، ان جاءت مولاة له ، فقالت ان عمك خديجة تقول في هذا اليوم ان زوجها نبي مرسل مثل موسى ، عندئذ أدرك أبو بكر أن ما توقعه قد وقع ، وأن النور أشع ، ولم يبق الا أن يستضيء به ويعشو اليه ، فأنسل الى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأسلم ان طلب اليه النبي عليه الصلاة والسلام ، وما كان طلبا لجاهل • بل كان طلبا ممن عرف ولم ينكر واستسلم وأذعن لله تعالى (١) •

ولذلك روى ابن اسحق في سيرته أنه بلغه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما دعوت أحدا الى الاسلام ، الا كانت عنده كبوة ، ونظر وتردد الا ما كان من أبي بكر ما عكم (٢) عنه حين ذكرت » •

فنفس أبي بكر كانت سائغة الى الاسلام قبل دعوته ، لما رأى من ارهاصات النبوة ، ولما علم من كلام ورقة ، ولأنه كان الصديق الوفى والحبيب الولي لمحمد عليه الصلاة والسلام •

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٠ •

(٢) عكم عنه : أى تردد وفكر وانتظر •

ولقد كان لاشراق نفسه ، ولصفو فؤاده الى الحق ، والاتجاه اليه أنه كان يرى الرؤى التى يكون تأويلها تبشيريه بالايمان .

جاء فى الروض الأنف « من أسباب توفيق الله له ( أى لأبى بكر ) أنه رأى القمر نزل مكة المكرمة ، ثم تفرق على جميع منازلها وبيوتها ، فدخل فى كل بيت منه شعبة ، ثم كان جمعه فى حجره ، فقصها على بعض الكتّابيين ، فعبّر بها له بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه يتبعه فيكون أسعد الناس به ، فلما دعاه صلى الله تعالى عليه وسلم أجاب » .

دخل أبو بكر فى الاسلام فاستأنس به النبى عليه الصلاة والسلام بأبلغ مما كان واشتدت بينهما الصّحة ، فبعد أن كانت الصّحة مبنية على مجرد الاستئناس النفسى والخلقى ، صارت الأنسة بالايمان بالله وحده ، وبالمؤازرة فى شدائد الحياة ، واتخذ محمد بن عبد الله ( عليه الصلاة والسلام ) من مكانة أبى بكر ، وأنس الناس ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق يدعو بها ، فوق ما كان له هو عليه الصلاة والسلام من قوة نفس ، ومكانة عند الله وعند الناس .

#### تتابع المخلصين :

٢٠٩ — باسلام أبى بكر تجاوز الاسلام حجرات بيته ، لقد كان فيها مقصورا على اسلام الثلاثة الذين يعاشرون النبى عليه الصلاة والسلام وهم زوجه الكريمة ، وربيه الأمين على ، وعشيرته الوفى زيد ، ولسنا نذكر فى ذلك ترتيبا ، وان كنا نؤكد فى غير ثلثت ولا موارد أن أولهم باجماع المسلمين الطاهرة التى أزرت النبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، ووقت انبلاج فجر البعثة ، وبعد الأمر بالتبليغ ، وكان فضلها عند الله عظيما .

بعد اسلام أبى بكر تتابع الاسلام فى نفر ممن لهم بالنبى عليه الصلاة والسلام مودة سابقة ، أولهم بالصدىق صداقة ، وكان فيهم استعداد ، كان أول من أسلم بعد بيت النبوة وأبى بكر عثمان بن عفان ، وقد كانت له بالصدىق صداقة ، وله بالنبى محبة ، ويريد أن يتصل به بنسب ، كان يريد أن يكون له صهر ، فانه عندما بلغه أن محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) أنكح ابنته رقية عتبة أصابته حسرة ، ولنترك له الكلمة . فهو يقول :

كنت بفناء الكعبة فقل ان محمدا صلى الله عليه وسلم أنكح عتبة ابنته رقية فدخلتنى حسرة ألا أكون قد سبقته اليها فانصرفت الى منزلى ، لأجد سعدى بنت كريض ، فأخبرتني أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم . . .

وقال أنها حثته على اتباعه ، وإن لم تكن قد ذكرت لمحمد صلى الله عليه وسلم  
اسلامها . ثم قال : « وكان لى مجلس من الصديق ، فأصبت فيه وحده ،  
( فحثه الصديق على الايمان ) قال و امر النبی علیه الصلاة والسلام ومعه  
على ، فقام أبو بكر فصار ، ففقد النبی صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على ،  
فقال أجب الله تعالى الى جنته ، فانى رسول الله تعالى اليك والى جميع خلقه ،  
فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية .

وكان زواجه برقية الأمنية التى كان يتمناها من قبل ، وأصابته حسرة  
لسبق عتبة بن أبى لهب اليها ، وذلك لأن أبا لهب بلغت به الجاهلية العمياء  
أن حمل ابنه على تطليق رقية عندما دعا محمد صلى الله عليه وسلم عشيرته  
للاسلام فوجد عثمان طلبته قد هياها الله تعالى له ، فاجتمع عنده الخير العظيم  
بالاسلام ، ثم بالصهر ، ثم برقية ، فكان ذلك خيرا عظيما .

ثم أسلم من بعد ذلك الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة  
ابن عبيد الله بدعوة أبى بكر . اذ كان ذا قرابة به ، ويظهر أن أولئك جميعا  
كانوا بدعاء أبى بكر ، لأنه كان محببا فى قومه ، وقد ذهبوا جميعا الى النبی  
عليه الصلاة والسلام ، وأعلنوا اسلامهم ومؤازرتهم .

وأسلم من بعد هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله  
ابن عبد الأسد ، وهو زوج أم سلمة التى تزوجها النبی علیه الصلاة والسلام  
بعد موته ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ،  
وعبيد بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذى كان أبوه  
من الحنفيين الذين نفروا من عبادة الأوثان ، وزوجه فاطمة ابنة الخطاب ،  
وهكذا أخذ الجمع يكثر واحدا بعد آخر .

وكانوا يستخفون فى صلاتهم ، وقبل أن نسير فى بقية درجات الدعوة  
والاستجابة نسارع الى الصلاة نبين وقت فرضيتها .

## فرضية الصلاة

٢١ — عندما نزل قوله تعالى : « ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك  
فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .  
كان التكليف لتبليغ الرسالة والدعوة الى أمر الله ودينه ، ولا دين بغير صلاة ،  
بل لابد لكل دين من صلاة ، لأنه لابد لكل دين من عبادة ، ولا عبادة من غير  
الصلاة ، فهى عمود الدين ، وركنه الركين .

ولذلك اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقترانا زمنيا ، لأن الصلاة مقترنة بكل دين اقترانا عمليا .

ولقد قال الرواة أن الصلاة فرضت ركعتين بمجرد البعثة المحمدية ، وكانت تصلى مرتين ، أولاها في الصباح ، والثانية في المساء ، وفرضت ركعتين في كل منهما ، ولقد قال في ذلك المزمى من أصحاب الشافعى رضى الله عنه ، أن الصلاة كانت مفروضة قبل الاسراء ، كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا قول الله تعالى : « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » .

ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها فيما رواه ابن أختها عروة بن الزبير ، فرضت الصلاة ركعتين ، ركعتين ، ثم أيد الله تعالى أنها في الحضر أربعاً وأقرها على فرضها في السفر ركعتين ، وبهذا يتبين أن الصلاة كانت مفروضة من أول الاسلام ، وظاهر المروى أنها فرضت ركعتين ، وفى وقتين اثنتين وهما في العشى والإبكار ، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها .

هذا هو المفروض على الكافة ممن يسلمون ، أما التطوع فبابه مفتوح والنبى مأمور بكثرة الصلاة ، وقد قال تعالى مشيراً الى طلب الصلاة الكثيرة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يأيها المزمى قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، أنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ان ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قيلاً ، ان لك فى النهار سبحاً طويلاً » .

وذكر الزواة أن جبريل روح القدس هو الذى علم النبى عليه الصلاة والسلام الوضوء ، فقد ذكروا أن جبريل عليه السلام نزل عليه ، وهو بأعلى مكة المكرمة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فتبّع الماء ، فتوضأ جبريل ، وعلم النبى عليه الصلاة والسلام بذلك الوضوء قبل الصلاة .

وقد روى كتاب السيرة ذلك الخبر بسند غير متصل ، ولكن روى متصلاً عن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه .

وبهذا يتبين أن الوضوء فرض لكل صلاة ، وكانت فرضيته وهو عليه الصلاة والسلام فى مكة المكرمة ، وقد استمر من بعد ذلك ، وكان والصلاة ركعتان مرتين واستمر وقد صارت أربعاً فى الظهر والعصر والعشاء ، وثلاثاً فى المغرب وركعتان فى الصبح ، وذلك غير السنن على ما هو مبين فى فقه العبادات .

ولكن ذكر العلماء أمرا لا جدوى فيه من حيث العمل ، وهو أن فرضية الصلوات المكتوبة والتي فرضت فى المعراج قبل الهجرة بسنة على ما سنحقق ان شاء الله تعالى ، فقالوا أن الصلوات المكتوبة قد نسخت الاكتفاء بصلاتين ، وأن ذلك ثابت بعمل النبي عليه الصلاة والسلام عملا متواترا ، وانعقد عليه الاجماع ، وصار معلوما من الدين بالضرورة بحيث من ينكره يكون كافرا .

وقد أشار القرآن الكريم الى مواقيت هذه الصلوات الخمس ، فقد قال تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » ، وقد قالوا ان الصلاة الوسطى هى صلاة العصر ، ولا يمنع أن يراد الصلاة المثلى .

وقال تعالى مشيرا الى أوقات الصلوات كلها : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » .

فقد أتى بصلاة الصبح مشيرا بقوله تعالى : « حين تصبحون » وبصلاة العصر مشيرا بقوله تعالى : « وحين تمسون » وبصلاة المغرب والعشاء مشيرا بقوله تعالى « وعشيا » فهما العشاءان ، حتى قال بعض الفقهاء ان وقت المغرب والعشاء واحد ، يصلى أسبقهما أولا ، وثانيهما آخرًا ، وأتى بصلاة الظهر بعبارة تكاد تكون صريحة وهى قوله تعالى : « وحين تظهرون » .

## وأنذر عشيرتك الأقربين

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

٢١١ — دخل عدد من كبار قريش ، وان كان قليلا ، ولكن تسمع الناس بالدعوة المحمدية التى جاءت برسالة الهية ، حتى كان علمها قد سرى سريان النور الى داخل البيوت ، حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش الا علم بالاسلام ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يخاطب من السماء ، فالأخبار فى خفاء وقد تعلم ، وان لم يكن دعاء اليها ، ولم يحرك ذلك عنادا ، ولا خصاما ونزالا ، لأنها ما أصابت اهتماما الا ممن كان لهم صفاء نفسى لم يعكره تعصب ، أو لجاجة فى عناد ، فكان الأمر بين متبع وان كان عدده قليلا ، وغير مهتم ، وان كان كانوا الأكثرين .

وفى هذه الأثناء دخل الضعفاء ، وهم دائما نفوسهم أصفى وأكثر انصافا ، وادراكا ، لأنهم يحسون بالظلم ، ويرجون التغيير ، فاذا جاء نور

يكونون أول من يعيش اليه ، ويذهب في استجابة ضارعة ، مع رجاء الانقاذ ولو في المال ، فما كانت حالهم صالحة لأن تبقى ، ولا يمكن أن يرضى الحق بقاءها ، لأن حالهم شقاء ولا يزيدهم شقاء ايذاء اذا كان الخير مرجوا ، وتغيير الباطل مأمولا ، فصادق يفتح باب الأمل ويفلق باب اليأس ، يكون في رجاء التغيير سلوان وان كانت الحال مؤلة أسيفة •

لذلك دخل الضعفاء والعبيد في الاسلام أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه وخباب بن الارت ، وبلال الحبشى وغيرهم كثير ، والدعوة بينهم ، يستطيعون سماعها ، ويصدقون الاستجابة لها ويستعذبون كل عذاب في سبيلها •

وكانت الاستجابة للدعوة لا تعتمد على معجزة ولا دليل يتحدى به ، بل يرون الحق سائغا ، وهو يدعو الى نفسه وما نزل من القرآن الكريم يستجيبون له ، لأنهم يرونه الحق الواضح ، وفي الداعى وهو محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين ، وانما يقدم الدليل للمرتاب ، ويوضح اذا كان الحق يحتاج الى مقدمات ونتائج ، فان النبى هو الأمين ، وان الذى يسمعون هو القرآن الكريم ، وان الذين استجابوا من الكبراء هم فضلاء الجماعة وأمنائها •

والدعوة تسرى سريان الماء العذب في خفاء العشب الأخضر ، والزهر الأنضر ، ولكن لابد أن تستعلن ليعلمها القريب ، وتكشف في وضوح النهار المشرق ، ويسرى علمها ، فالخفاء مهما يكن لا يخلو من ابهام •

ولذلك لما سرت الدعوة المختفية المتربية في خلية نمائها ، طلب الله تعالى الى رسوله أن يعلنها ، فقال أمرا له : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل اتى برىء بما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم » •

تقدم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وجمع نبى هاشم وبنى عبدمناف ، وغيرهم من بطون قريش ، جمعهم في الصفا ، وقال لهم : أرايتم لو أخبركم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، ثم ساق لهم ما يدعوهم اليه ، ولنترك الكلمة لرواية البخارى في صحيحه : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد قال لما نزلت الآيات « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » صعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادى ، يا بنى فهر ، يا بنى عدى لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبى صلى الله



تعالى عليه وسلم : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا ما جربنا عليك كذبا ، قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فتزل قوله تعالى : « ثبت يدا أبي لهب » ، وهذا يدل على أن كبير المعارضة في تلك الدعوة المباركة هو أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام ، لكيلا يعلم الناس أنها عصبية أسرة أو بطن من قبيلة ، انما هي رسالة الله تعالى الى خلقه .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتک الاقربين » الآيات وقف وقال يا معشر قريش ، اشترؤا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا صافية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال ، لا أغني عنك من الله شيئا . وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري ، وروى مثله الامام أحمد في مسنده .

٢١٢ — ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير : لما أنزل الله تعالى على رسوله « وأنذر عشيرتک الاقربين » اشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وضاق ذرعا ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماته يעדنه ، فقال ما اشتكت شيئا ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ، فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم ، فانه غير مجيبك .

فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين .

فبادرهم أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسك ، وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في هذا المجلس ، وان هذا من حكمة البيان ، فقد بادر أبو لهب بخلق جو عنيف من الاعتراض الشديد ، والانداز والوعيد ، وبذلك يشجع كل معارض ، ولو كان في الأصل مترددا ، فزال التردد الى حال معترضة ، ولذا أجمل قوله الى مجلس آخر ، حتى يزول غبار الاعتراض الذي أثاره أبو لهب .

ويقول ابن الأثير دعاهم مرة ثانية ، ووقف فقال :

« الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأثق به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ثم قال : « ان הראئد لا يكذب أهله ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا ، أو للنار أبدا » .

وفى هذه المرة لم يبادر أبو لهب ، بل بادر أبو طالب حبيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يتبع ، فقال غير موافق ، ولكن يعاون ، وغير متبع ولكن من غير معاداة .

قال أبو طالب : « ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك !! ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير انى أسرهم الى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا ازال أحوطك وأنفعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب » .

ولم يسكت أبو لهب ، ( والباطل لجوج دائما ) بل قال هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم .

فقال أبو طالب ( مصرا ) والله لنمنعنه ما بقينا .

### بين أبى طالب وأبى لهب :

٢١٣ — ان موقف أبى طالب لا يحتاج الى تعليل : لأنه موقف الشفيق على من كفله ومن رياه ، فقد كان كافله بعد جده عبد المطلب واختاره عبد المطلب دون بقية بنيته ، ولم يكن أسنهم ، فكان بمنع للنبي مستجيبا لداعى الشفقة والمحبة ، ومستجيبا لوصية أبيه بأن يحفظه ويحوطه ، فقام بحقها ، حتى بعد أن صار محمد صلى الله عليه وسلم شابا سويا قويا ، ووجد أن الحياطة تكبر بكبر الموصى به فتكون معاونته بعد أن كانت وصاية ، وتكون مدافعة بعد أن كانت رعاية .

انما الذى يحتاج الى تعليل هو موقف أبى لهب فما أعلن ما توجيه القرابة بل ما توجيه العصبية التى تجعله مع محمد صلى الله عليه وسلم عصبته وقريبه القريب ، وأن عليه أن يحميه ، لم بفعل ذلك ، ولم يسكت

مفوضا الأمر الى أبى طالب أخيه ، كما سكت حمزة والعباس ، ولم يكونا قد دخلا فى الاسلام ، لم يفعل ذلك أبو لهب .

ولعلنا لو أشرنا قليلا الى طبيعته ، وما أحيط به لسهل علينا تفسير موقفه ، أو أدركنا فعله لهذا الموقف الذى عادى محمدا عليه الصلاة والسلام وخالف قرابته مسلمهم وكافرهم على سواء .

لقد كان عبد العزى ( أبو لهب ) طبيعة غير طبيعة اخوته ، فاخوته يطلبون السيادة والشرف والعزة بالخلق العربى الصميم ، وهو يطلب المال والدنيا ، وفيه أثره ، وحب الذات ، ومن يكون كذلك يميل دائما الى الابتعاد عما يثير المتاعب ، ويؤثر فى المال ويوجد اضطرابا ، وبذلكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام مقدمة لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها ، فقاومها ، وشدد فى المقاومة ، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر فى أى أمر معنوى ، ولا فى رجاء لنصرتها ، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر فى احساس غيره ، ولا فى معاونته من يحتاج الى معونة طويلة مديدة من أسرته .

وتلك الطبيعة التى لا تريد الا استقرارا لأجل المال ، وما يتصل به من منع تكره تغيير ما كان عليه الآباء ، بل ترغب فى أن تسير الحياة نمطية ، لا تغيير فيها ولا اضطراب .

ولعل هذه الطبيعة هى التى جعلته لا يخرج مع قريش فى غزوة بدر الكبرى ، وخرج العباس وان كان كارها محرجا ، وهناك عامل ثان ، فوق ذلك العامل النفسى ، وهو زوجه أم جميل الأموية أخت أبى سفيان ، فقد كانت عاملا مذكيا لتلك الطبيعة المعاندة ، كانت تكره رسول الله محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة ، والتقى كرههما فى قرن واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر ، ولا ندرى أكان الزواج هو السبب أم كان غيره .

وبهذه الكراهة كانت تحرضه ، وتؤججه اذ تصورت أن نيران العداوة قد تطفئها القرابة ، وعلو شأن محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته وجهاده ، وذكر اسمه فى كل بلدان العرب ، وتجاوز ذلك الى البلدان المصاغبة ، كالرومان والشام ومصر .

ولقد كانت تتردد أخت أبى سفيان فى أن تقرض الشعر نذا للنبي

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتسميه مذمما ولا تسميه محمدا ، فقد قالت  
فى ذلك :

مذمما قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

ولقد تلقى شعرها هذا بالاستضحاك ، وعد ذلك ليس شتما له ، لأنها لم  
تذكر اسمه فى شتمها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « انظروا كيف يصرف  
الله تعالى عنى شتمهم ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد » ،  
وكان فيها مع ذلك صفة السفيهات من النساء ، أنها كانت توشى بالنميمة ،  
فتوقد نيران العداوة ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيها : « ثبت يدا أبى لهب  
وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة  
الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » .

هذا هو أبو لهب ، وهذا هو السر فى عداوته للحق ، ولحمد عليه  
الصلاة والسلام مع قرب رحمه ، ومع أنه سر لولادته وقت أن ولد .

٢١٤ — هذا أبو لهب ، وذلك موقفه من دعوة النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم التى كرهته فيه بعد ود ، أو ان شئت فقل محبته له فى صباه حتى  
بدا ما يتخالف فيه الطبعان ، طبع العم المادى ، وطبع ابن أخيه الروحى الذى  
لا يحرص على المال .

أما أبو طالب ، فلم يكن عدوا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام ،  
وعباراته تومئ بأنه لا يعاندها ، وما عند أبى لهب من صفات تناقضها ،  
صفات أبى طالب توافقها فى أصلها ، فأبو طالب لم يكن أثرا يحب المال ،  
بل كان فيما يبدو من خلق يجعله يميل الى الايثار بالمحبة ، فآثر التعب على  
الراحة فى مناصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما أبو لهب يؤثر  
الدعة والاستقرار على أى صورة كانت ، كان أبو طالب شيخ البطحاء لا يؤثر  
الدعة والاستقرار مع الضيم ، بل يقاوم الضيم راضيا بملاقاة أسباب الارغام  
بقلب صابر قوى .

وبينما كان أبو لهب محبا للمال مؤثرا له على كل شئ من أسباب  
الحياة الكريمة كان أبو طالب يكتفى من المال بالقليل من غير أن يبذل مروءته  
فى سبيل طلبه ، فالمرءة عنده أولى بالطلب من الاستكثار من المال ، ولذلك  
كان محدودا ، ولم يكن مجدودا ، ولكل هذا قبل أبو طالب أن يكون . لحمد  
عليه الصلاة والسلام نصيرا ، لأن الشفقة والمرءة ، والمنصرة العربية  
الكريمة تقاضته ، فاستجاب لسجيته له ، وما وهن ولا استكان ، ولا ولى ، بل  
استمر مناصرا فى كل الشدائد ، حتى قبضه الله تعالى .

وليست الغرابة فى نصرته للنبي عليه الصلاة والسلام ، انما الغرابة فى أنه لم يدخل فيما يدعو اليه !! ذلك تقدير العزيز العليم ، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك دفع لوهم يقوله بعض الواهين ، ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عصبية جاهلية .

ولقد ذكر ابن كثير أنه لو أسلم كما كان يظهر من لحن قوله أنه يميل الى الاسلام ، ان يقول :

لولا الملامة أو حذار سببة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

لو أسلم لكان المشركون له أعداء كما عادوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، وقد كان عندهم من قبل ذلك الأمين المحبوب الذى يسمع قوله ويطمأن الى حكمه ، ولكن أراد الله تعالى أن يبقى على دين قومه ، لى يكون ردا للنبي وعصدا فى وسط المدلهمات ، وقال ابن كثير فى ذلك : « وكان رسول الله أحب خلق الله تعالى اليه ( أى الى أبى طالب ) ، وكان يحنو عليه ، ويحسن اليه ، ويدافع عنه ، ويحامي ، ويخالف قومه فى ذلك مع أنه على دينهم ، وعلى خلتهم ، الا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبيعيا لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، ان لو أسلم أبو طالب ، لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ، ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا اجترءوا عليه ، ولدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء اليه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وقد قسم خلقه أنوعا وأجناسا (١) » .

٢١٥ — كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ابتداء سرية يدعو من يعرف من أصدقائه وأوليائه الذين كانوا كنفسه ، ثم يدعو كل من ذاق بشاشة الاسلام وخالطت نفسه من أصدقائه وأحبابه ، فكانت تصفى اليه الأفئدة طالبة الحق ، بقوة المحبة للخل الوفى ، وللحق البدى ، من دعوة علنية ، ولكن الأمر النوراني لا يخفى طويلا ، فعلم وان كان فى اُضيق دائرة .

٢١٦ — وكان لابد أن يتولى النبي عليه الصلاة والسلام الاعلان ، والجهر ، وكما بدا بدعوة أهل بيت النبوة ، الذين أشرق الوحي عليه ، وهو

بينهم ، فقد أخذ بأمر الله تعالى يعلنه بين ذوى قرابته يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر .

ولعله يبدو بآدى الرأى واضحا جليا أن أكثرهم قد رد من عشيرته ، ولم يستجب الا بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية ، وفاطمة امرأة أبى طالب ، وكان من هذه العشيرة أول من جاهر بالعداوة ، وهو قريبه القريب عمه أبو لهب ، وفى هذا دليل مادى على أن الدعوة ما كانت من انبعاث قبلى ، بل كانت استجابة لدعاء ربانى .

كان اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، اعلانا للعرب أجمعين ، فقد كانت بأعلى الصفا ، وتسامع بها الناس ، وإذا كان الخطاب للعشيرة خاصة ، فقد كان الاعلام لقريش ، ثم اظهارا للنبي بعث رحمة للعالمين ، تسامعت به الركبان ، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة المكرمة من غير أهلها ، وبذلك انتشرت الدعوة المصمدية بتبليغ رسالة ربه الذى كلف رسالة ربه فى غير معاندة للمشركين . ولا مجابهة لهم ، ولا تحد ملتهم .

ولقد كانت تسير فى استخفاء ، كما يسرى الماء العذب فى أرض مغطاة بالأعشاب ، ولكنه يثمر ، وينبت ، وينمى ولو كان مستخفيا ، وكان الذين ارتضوا الاسلام دينا يستخفون بعبادتهم ولا يظهرونها ، ويذهبون الى شعاب مكة المكرمة يصلون فيها ، وما عرف أنهم كانوا يذهبون الى الكعبة الشريفة مجاهرين متحدين ، ولكن كانوا يستخفون بهذه العبادة .

ولقد روى اسلام كثيرين فى ذلك وهم عليه الصحابة الذين بنيت دعوة الاسلام عليهم ، وكانوا الدعامة الأولى فى قواعد البلاغ المسمى .

## فاصدع بما تؤمر

٢١٧ — نزل فى تدرج الدعوة قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر ، فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فكانت هذه الآيات الكريمة دعوة الى أن تبلغ الدعوة أقصى مراتبها ، وأبعد تكليفاتها أثرا فى التكليف ، وتأثيرا فى النفوس .

ومن كتاب المسيرة من يرى أن التكليف الكامل بدعوة الناس أجمعين قد ابتدأ من نزول قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ومن هؤلاء ابن كثير ، فقد قال في نزول هذه الآيات الكريمات ما نصه « بعنوان أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بإبلاغ الرسالة • قال الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع العليم » وقال تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وقال تعالى : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد • أى ان الذى فرض عليك ، وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك الى دار الآخرة ليسالك عن ذلك ، كما قال تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدا (١) •

ونرى من هذا التقرير أن الامام الحافظ بن كثير لا يرى أن ثمة تدرجا فى الدعوة ، وأنه من وقت أن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بإنذار عشيرته الأقربين كانت الدعوة عامة ، وأن الاختصار فى الآية على ذكر العشيرة الأقربين لا يفيد قصر الدعوة فى هذه الآية عليهم ، بل يفيد الابتداء بهم ، أو مواجعتهم ، مع مخاطبة غيرهم ، ولا يفيد قصر الدعوة عليهم ، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الأحمر والأبيض والأسود والعبيد والأحرار •

ونحن نوافق على عموم الرسالة المحمدية ، وأنها ليست بمقصورة على قرابة قريبة أو بعيدة ، ولكن هذا تدرج فى الدعوة والخطاب ، وأن ذلك يتضمن دعوة غيره من المكلفين ، بلا فرق بين قريب وبعيد ، فالجميع مكلفون بالاستجابة من غير تفريق ، ونحسب أن قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك » الخطاب فيها مقصور على العشيرة ، ولذلك لم يدع محمد عليه الصلاة والسلام الى الاجتماع بهم للذى كان فى الصفا غيرهم ، وليس من المعقول أن يكلف العامة بخطاب طائفة من الخاصة ، بل لابد من توجيه الخطاب اليه ، فجاء فى قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » الى آخر الآيات •

ويذكرى هذا ما جاء عن ابن اسحاق ، فقد جاء ما نصه : ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة أن يصدع بما أمر ، وأن يصبر على أذى المشركين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من

(١) البداية والنهاية ، ج ٢ ص ٣٨ •

قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص فى نفر يصلون فى شعاب مكة المكرمة ، اذ ظهر عليهم بعض المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه ، فكان أول دم أريق فى الاسلام (١) .

وقد قال ابن اسحاق فى موضع قبل هذا :

دخل الناس فى الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة المكرمة ، وتحدث به ، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصدع بما جاء به ، وأن ييادى الناس بأمره ، وكانت المدة بين ما أخفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستتر بها الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه - ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه ، ثم قال تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان الدعوة المحمدية فى مدة ثلاث السنين تدرجت فى ثلاث مراحل ، أشار اليها من قبل الامام ابن القيم فى زاد المعاد ان ابتدأت الدعوة من النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن بيت النبوة سرت الى من يتصل بهم من أصدقاء وخلان ، فكان من النبى عليه الصلاة والسلام الى صديقه الأول أبى بكر عتيق بن أبى قحافة ، ومن عتيق سرت الى أصدقائه كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن بيت النبوة سرت الى صافية والزبير ، وغيرهم من عشيرة النبى عليه الصلاة والسلام وأقربائه الأذنين ، وهذه هى مرتبة الدعوة الأولى التى أشار اليها ابن القيم فى ترتيب مراتب الدعوة .

ثم كانت المرتبة الثالثة من بعد ذلك ، وهى مرتبة الدعوة العامة فى قريش ومجاہتهم بدعوة الحق ، من غير أن تكون مقصورة على بيت النبوة ، أو على أقرباء النبى عليه الصلاة والسلام .

وهى فى كل مرتبة لا تقف عند الحدود التى ابتدأت فيها ، بل تسرى الى غيرها ، سريان النور الى الظلام ، وفى مرتبة العشيرة الأقربين خرجت الى قريش كلها ، فما كان يدعو عشيرته من آل عبد المطلب وبنى هاشم فى كن مستور من الأرض ، بل كان يدعوهم جهرة فى غير مواربة .

---

(١) سيرة ابن هشام طبع الحلبي ج ١ ص ٢٦٣ .



٢١٨ — وقد يسأل سائل ، ما الدليل الذى كان يسوقه النبى فى هذه الدعوة ، فقد كان الذى نزل من القرآن الكريم قليلا ، وتوالى نزوله بعد ذلك ، ولم يذكر أن أحدا جادل حول القرآن الكريم ، أو طلب دليلا واستدل به ، فما الذى كان يهديهم الى الاتباع من غير أن تعرف دليلا قسدا ، وبرهانا اتقيم .

والجواب عن ذلك أن الاستجابة كانت للحق فى ذاته ، ولما عرف من تاريخ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان كان الصادق الذى لم يعرف كذبة قط ، والأمين الذى لم يقترب عمل له بريئة قط ، والصفى فى نفسه ، والمحبوب لمكارمه ، والعادل الذى لم يعرف فيه انحراف فكرى ، بل هو المدرك المستقيم الادراك فى كل معاملاته ، وكل ما اتصل به من أعمال .

ثم كان هذا القرآن الكريم الذى ابتداءً يتلوه عليهم ببيانه الذى فاق كل بيان ، وعلا عن أن يتسامى اليه أى انسان ، وان اشراق نفوس هؤلاء ، وحيرتهم فى الأوثان ، ان يرون الأوثان تفقد قوتها فى نفوسهم ، وتتهار مكانتها فى قلوبهم ، وبقايا الأديان السماوية تتورد على عقولهم ، وبعض سنن ابراهيم ومآثره يزاولونها فى حجهم ، وينسبته اليهم يعتزون ويفاخرون ولم تسبق الى نفوسهم نزعة حسد ، أو حقد ، أو منافسة مقيئة ، مما عوق غيرهم .

كانت نفوس الذين اتبعوا الرسول والذين آمنوا معه نفوسا صافية ، وما علاها من غبار الوثنية زال وشيكا ، فكان الحق وحده هو الذى لمع نوره وجذبه اليهم ، فوق ما كان ، مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من بينات . ولقد قسم الباحثون فى أخلاق الناس القلوب عند تلقى الحق ، الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : القريب الى الهداية هو من يقتنع بالحق بمجرد بيانه ، فبيانه وحده يهديهم الى سواء الصراط ، ولا يحتاجون الى دليل غير سراج الحق المزهى ، وأولئك هم الذين ينظرون الى الحق ، وقد خلت قلوبهم من هوى اللذات والشهوات ، فاشترقت بالحكمة وصفت ، فدخل نور الهدى فنتقوا به ، وعملوا به ، وساروا على منهاجه ، وأولئك لا يطالبون حامل الحق الداعى اليه ببرهان يقدمه ، فالحق وحده يحمل فى نفسه دليل صدقه ، ان اشأبت اليه النفوس ، ومن هذا القسم أولئك الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أول الدعوة .

القسم الثانى : قوم امتلأت عقولهم بمعلومات سابقة ، أو اختلطت فى نفوسهم نوازع الحق ، ونوازع الباطل ، وفيهم ادراك يميزون به بين الحق

والباطل ، وأولئك يحتاجون الى دليل ، لينفوا به خبث الفكر الذى خالط قلوبهم ، وأثر فى نفوسهم ، فالبرهان يعينهم ، وينير السبيل لهم ، وذات الحق لا يكفى بيانه لكى يستولى عليهم ، ويسيرهم الى الهدى ، فلا بد من دليل يرجح نوازع الهداية على غيره .

والقسم الثالث قسم غلبت عليه الضلالة ، وغلبت عليه شقوته ، فلا يتبع الحق لذات الحق ، ولا يزهو فى قلبه ، وليس له بصيرة مخصصة فى طلب الحق ، وفى الوقت ذاته قد طمس على بصيرته ، فختم على قلبه ، وكان على ادراكه غشاوة ، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين جعلهم الله أعداء للحق ، وهؤلاء يكون موقفهم معاداة أصحابه ، وموقف أصحابه مدافعتهم ، فلا تكون العلاقة الا ممانعة ، يمنعون الحق من أن ينتشر ، ويمانعهم هؤلاء ليدفعوا الأذى ، ولذلك لا يكون بينهم الا السيف .

ولقد قال الغزالى ان قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » .

وكان المؤمنون الأولون خديجة وأبو بكر وعلى وزيد ، وعثمان والزبير ومن معهم من السابقين الأولين من الصنف الأول ، ثم جاء من بعدهم ، من خاطبهم القرآن الكريم بالاعجاز وتحداهم ، فمنهم من اهتدى وأبصر ، ومنهم من ضل وغوى ، فكان المعتدى الأثيم . وكان الجهاد ، فكانوا أهل السيف ، وما كان لصاحب دعوة خالدة أن يترك الشر يسيطر ، والحق يستخذى .

## استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٢١٩ — استجاب محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ، وبعد أن كان يدعو من يدعو فى مناجاة ، ثم اقتضت الدعوة العلنية على عشيرته الأقربين ، بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشى الأسواق التى حول مكة المكرمة يدعو الى دينه ، وتبليغ رسالة ربه ، غير مدخر جهداً فى الدعوة الى الحق والوحدانية بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، ويقول فى ذلك ابن كثير :

« المقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمر يدعو الى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يردده عن ذلك

رأى ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس فى أنديةهم ، ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ومواقف الحج ، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق فى ذلك شرع سواء ، وتسلب عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء » (١) .

وكان أشدهم اغلاظا عليه عمه عبد العزى ( أبو لهب ) ، وثانيهم عمرو ابن هشام الذى لقبه التاريخ الاسلامى بحق بلقب أبى جهل ، أما الأول فلم يكن منه أذى بدنى أو قولى للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن مبالغة فى مقاومة دعوته ، ولا يكتفى بالقعود عن حمايته ، وأما ثانيهما فقد كان فاجرا فكانت معاندته للنبي عليه الصلاة والسلام فجورا فى القول والعمل ، وللضعفاء اعناتا وبغيا ، وسنخسه بالقول فى حركة الاضطهاد ، والبواغث التى دفعته الى هذا الموقف الذى جره الى ذلك البغى المردول الذى لا يقع من كريم .

وأبو لهب كان موقفه موقف محاربة الدعوة ، فكان يتبع محمدا عليه الصلاة والسلام فى التقائه بالقبائل العربية فى موسم الحج ، فكلما ذهب الى محفل أو ندى يدعو فيه ناكرا ، ودعا السامعين الى ألا يستجيبوا .

روى الامام أحمد عن أبى الزناد عن أبيه ، قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه يقول : انه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا هذا عمه أبو لهب .

روى البيهقى مثل ذلك مع بعض الزيادة عن ربيعة هذا الذى ذكرناه أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى المجاز وهو يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم الى الله ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه ، وهو يقول : « أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم ، قلت من هذا قيل أبو لهب عمه » .

ونرى من هذا أن أبا لهب قبل أن يكون هو المشيط ، ولعله اختار ذلك لنفسه أو اختاره المعارضون للدعوة المحمدية ، فيكون ادعى الى تصديقه ، ان هو قريبه القريب ، فمع أنه أقرب رحما كذبه ، فهذا ترشيح لصدقه عليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٠ .

الصلاة والسلام • وأنساء الحقد والضلال ، أن الحق ذاته له نور ساطع ، لا يحتاج دونه هذا واشباهه ، ولكنه الأقرن يتولد من ضيق العطن ، وغلبه الهوى ، وسيطرة المآرب المادة •

ومهما يكن فقد حمل محمد عليه الصلاة والسلام عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » وتقدم بمن هداهم الله تعالى به من صحب كرام اشتروا الهدى بالضلال ، والحق بالباطل ، واشترى منهم أنفسهم ، فكانوا السابقين ، ولنشر بكلمة الى من سبقوا ، وان كانوا عددا قليلا •

## السابقون السابقون

٢٢ — أشرنا الى سبق الأربعة الكرام خديجة أم المؤمنين ، سكن الرسول التي جعلت بيته روضة الاطمئنان ، ويسكن اليها بعد معاناة عداوة الأعداء ، والمناضلة فى سبيل الله تعالى ، فيجد المواساة ، ويجد القلب الحبيب الودود ، وما أكرم الوداد ، اذ يذهب ببرحاء العداء ، ويجعل الروح والريحان ، بعد ملاقة الكذب والبهتان •

ثم ذكرنا أبا بكر الصديق الولي الوفي ، والصديق الذي خلص قلبه لله تعالى ، واذا كان ابراهيم أبو الأنبياء خليل الله ، فالصديق كبير المصدقين خليل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أشرنا الى أنه ما عتم ان أسلم ، بل انه سعى الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام عندما علم من حكيم بن حزام بأمر ما جرى بين النبي عليه الصلاة والسلام وورقة بن نوفل وزوجه خديجة من مذاكرة فى أمر الرسالة المحمدية •

وذكرنا اسلام على بن أبى طالب الذى صدق ابن عمه بعد تفكير وهو ابن عشر سنين ، وكان قد هم باستشارة أبيه ، ولكنه فكر وقدر وحده فعاد الى ابن عمه يعلمه بايمانه ، فكان المؤمن باقتناع مع الصغر وغضاضة الأهاب •

وذكرنا ايمان زيد بن حارثة الذى اثر جوار محمد عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث على أن يعود الى أبيه وأمه حرا ، فاختار الرق مع محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم على الحرية مع أبيويه ، فجعله محمد صلى الله عليه وسلم الكريم ابنا له وحرا ، فكان وارثا ومورثا •

ثم ان اسلام أبى بكر جعل بعض أصدقائه ومن يالفونه يستأنسون بالاسلام ، فقد كان ألوفاً محبوباً ، قال فيه محمد بن اسحاق : « كان أبو بكر مألفاً لقومه ، محباً سهلاً ، وكان أنسب قریش لقریش ، وأعلم قریش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر • لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يفتشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه فيما بلغنى الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ابن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهم أجمعين » (١) •

وقد قدم هؤلاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخذ أبو بكر بيث الدعوة لأصدقائه وخلائه ، وعارفيه ، ثم ذهب بطائفة أخرى الى النبي عليه الصلاة والسلام منهم عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلم بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم •

أخذ العدد ينمى بفضل الله ، وإخلاص صفوة مختارة ممن صفت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم حتى بلغ العدد ثمانية وثلاثين ، ومنهم نساء دخل الاسلام قلوبهن ، ومنهن أم جميل أخت عمر بن الخطاب ، وزوجها زيد بن نفيل كان من السابقين الأولين •

وقد أراد أبو بكر أن يخرج المسلمون مجاهدين بالدعوة الى الاسلام قبل أن يتكاثر الجمع ، ولكن محمداً عليه الصلاة والسلام صاحب الدعوة والتبليغ رأى التريث ، حتى يكون الجمع أوفر وأكثر عدداً ، لأنه مع العدد غزاة الكثرة النسبية ، وان كانوا فى الحقيقة عدداً قليلاً ، ولكن الصديق مازال بمحمد عليه الصلاة والسلام حتى قبل أن يخرجوا من الاستخفاء الى الاعلان ، ويظهر أن الدعوة قد أعلنت بانذار العشيرة الأقربين ، وتذاكر الناس أمرها ، ولكن يندر فيهم من يتقبلها ، ويكثر فيهم من يعارضها ، ومنهم من لم يعرف لهم موافقة ولا مناواة •

ومهما يكن فقد خرج أبو بكر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام قام بعمل جليل قبل ذلك الخروج فقد انبعث كل رجل الى عشيرته يدعو الى الاسلام فيها ، وخرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الى المسجد الحرام ، ثم قام أبو بكر خطيباً ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

جالس • وقال ابن كثير فى روايته ما نصه : كان أول خطيب دعا الى الله والى رسوله ( أى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ) ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوه فى نواحي المسجد ضربا شديدا ، ووطىء أبو بكر ، وضرب ضربا شديدا (١) •

٢٢١ — بعد ذلك ، وخصوصا بعد اعلان الاسلام فى مخاطبة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب عند الصفا ، أخذ الاسلام ينتشر انتشار الضوء فى الظلام ، فأسلم بنو مظعون من أولاد كعب بن لؤى ، وأسلم عبيدة ابن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن نوفل ، وامراته فاطمة ، أخت عمر ابن الخطاب ، وعمير بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود الهذيلى ، وأسماء بنت أبى بكر — وهكذا غيرهم من أهل مكة الأحرار ، وإن لم يكونوا ذوى مال وذوى رياسة •

ومن الضعفاء ، وقد كانوا أسبق الى الاسلام عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، وهو مولى الأسد اشتراه أبو بكر رضى الله عنه •

ومنهم صهيب بن سنان ، ويقال انه مولى عبد الله بن جدعان ، ويقال انه رومى ، ونسب الى الروم ، لأنه كان أسيرا فى أرض الروم •

ومنهم بلال الحبشى ، وكان مولى لبعض المشركين عذبه ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه •

ومنهم ياسر وعمار ابنه ، وأمه ، وقد كان ياسر من عرب قحطان من مذحج ، وعمار ابنه كان مولى لبنى مخزوم ، لأن أمه سمية كانت مولاة لهم ، فولدته على الرق ، والمولود على الرق يتبع أمه فى رقبها ، ولا يتبع أباه فى حريته ، وكذلك كان نظام الرومان فى الرق الذى سرى الى العرب •

ومنهم خباب بن الأرت ، وغيره من الضعفاء الذين سارعوا الى الاسلام وقد سارعوا الى خير الدنيا وخير الآخرة ، وإذا كانوا قد أودوا ابتداء ، فقد نالوا الخير انتهاء ، وكما قال الله تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » •

وقد دخل الاسلام بيوتا كثيرة فما من بيت الا علم بأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان العدد قليلا في ذاته ، فانه ما خلا بيت من بيوت مكة المكرمة من مسلم ، أو من قلب مال اليه ، وأحس أهل الشرك بأن دولة الأوثان تؤتى من قواعدها ، وأن الأحجار أخذت تفقد سيطرتها . ومن استمر متمسكا فعن أرب يريده باسمها ، لا عن إيمان بها ، فانه كان يكفى أن يدعو محمد صلى الله عليه وسلم الى الحى القيوم الذى لا شريك له ، حتى تزايلت الأوثان عن مكانتها ، وما هو الا تفكير يسير حتى زالت الأوهام ، وصارت أحجارا لا تتجاوز أنها أحجار ، ومن تمسك بها فهو غير مؤمن أو سادر فى غلوائه .

### الاسلام يخرج الى القبائل :

٢٢٢ - من وقت أن أمر الله نبيه بأن يصدع بأمر به ، وقد أخذ يلتقى بالجموع ، فيغشى الأسواق داعيا ، ويدخل النوادي صادعا بأمر ربه ، ويقف فى مناسك الحج داعيا القبائل عندما يجد سميعا ، والآحاد يذاكرهم ، يسألونه فيجيبهم بما يوحى به الله تعالى فى سماحة صاحب الدعوة ، وباشراق نور النبوة حتى أصبح حديث القبائل التى تفد الى بيت الله تعالى حجيجا أو معتمرين ، أو تجارا مضاربين ، ووجد من بين القبائل من صغت أفئدتهم الى الاسلام ، يستمعون دعوته ، ويؤمنون بوحدانيته مدعنين ، ولعل من أدلة وصول الدعوة الى القبائل اسلام أبى ذر الغفارى ، واسلام ضماد من أزد شنوءة .

روى البيهقى فى اسلام أبى ذر الغفارى أنه قال ( أى أبو ذر ) أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن ذلك نتيجة لوقائع سابقة من مقتضاها أن خبر الاسلام سرى الى بنى غفار ، وأن دعوة النبى عليه الصلاة والسلام قومه قد وصلت اليهم فبعثت أبا ذر على البحث عنها ، حتى عرف صدق النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يجيء اليه .

قد روى البخارى بإسناده عن ابن عباس قال : « لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأخيه اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتية الخبر من السماء ، فاسمع

من قوله ، ثم أتنى ، فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه ، ثم رجع الى أبي ذر ، فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاما ما هو بالشعر ، فقال ما شفيتني فأتى المسجد ، والتمس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي حتى أمسى ، فعاد الى مضجعه ، فمر به على فقال : أما أن للرجل أن يعلم منزله فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى اذا كان اليوم الثالث ، فعاد على مثل ذلك فأقام معه ، فقال ألا تحدثني بالذي أقدمك . قال ان أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني قلت فأخبره . . . قال فانه حق ، وأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا أصبحت فاتبعني ، فاني ان رأيت شيئا أخاف عليك قمت كائن أريق الماء ، وان مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل معه ، وسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتك امرى » فقال والذي بعثك بالحق لأصرحن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فضربوه ، حتى أضجعوه (١) .

فاتى العباس ، فأكب عليه ، فقال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار ، وأنها طريق تجارتكم الى الشام ، فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه ، وأثاروا عليه فأكب العباس ثانيا .

ومن هذا نرى أن الاسلام قد أخذ يذيع نبؤه خارج مكة المكرمة ، ويقول الرواة ان غفار أسلمت تابعة أبا ذر ، ولم يكن أمر الاسلام ليصل فقط الى من هم على مقربة من مكة المكرمة ، بل وصل خبره الى أزد شنوءة فأسلم رجل منهم اسمه ضماد كما أشرنا .

وضماد هذا كان رجلا يقول للعرب أنه يرقى من به مس من جنون أو سحر ، فيشفى ، فأراد سفهاء مكة المكرمة ، أن يحسنوا النكاية بمحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء سفهاء من مكة المكرمة ، ودعوه ليعرضوا عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالوا له انه مجنون .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٤ .



جاء ضماد فقال أين هذا الرجل الذى تقولون عنه انه مجنون لعل الله تعالى أن يشفيه على يدي .

لقى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال له انى أرقى من هذه الرياح ، وان الله يشفى على يدي من شاء فسلم الى .

فقال محمد صلى الله عليه وسلم : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » ثلاث مرات .

قال ضماد متأثرا وقد فتح الله قلبه للإيمان «والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فسلم يدك أبايعك على الاسلام ، فبايعه على الاسلام . ويرى أنه عندما سمع كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له أعد على كلماتك هؤلاء فقد بلغن السحر » .

تلك كانت أحوال من يدخلون فى الاسلام ، كانوا فرادى ولم يكونوا جماعات الا ما قيل عن بنى غفار ، وكانوا قليلا ولكنهم كانوا يزدون ولا ينقصون ، وكانوا من بيوت مختلفة ، وشعب متفرقة ، وتجاوزوا حيزات مكة المكرمة فماذا تصنع قريش ؟

## المنافاة

٣٢٣ — توقع ورقة بن نوفل معركة تقوم بين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقومه بسبب ما أوحى الله تعالى والقيام بأداء الرسالة التى كلفه ربه أن يقوم بها ، لأنه ما من أحد جاء قومه بمثل ما جاء الا عودى ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم كريما عند قومه ، حبيبا اليهم يالفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة المكرمة مخالفين ، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين ومعادين ، ومضطهدين فى الجملة لمن اتبعوه .

وذلك لأنهم فوجئوا بهذه الدعوة الى الحق ، ولم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والمفاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الانكار ما لم يكن ثمة أمر متوقع يقع .

وان أمر رسول الله يجيىء فى بنى ابراهيم وكان ذكره خارج مكة المكرمة ، ولم يكن يتردد كثيرا بين أهلها ، وأهلها قوم ماديون ، لا يعينهم الا أمر التجارة ، وأمر الحج ، ولعل الحج لا يعينهم الا لما يعلنون به من شرف بين العرب ، واستعلاء عليهم ، وشعور بأن العرب لهم تبع ، وهم السادة فى بلاد تصعب السيادة فيها ، وبين أقوام لا يعترفون برياسة الا ما يكون من قبل ذلك البيت المعظم ، الذى كرمه الله تعالى ، وجعله حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شىء .

ولا يهمهم من جوار البيت الا ذلك الشرف الذى يكتسبونه من الجوار وأنه محل تجارة العرب ، كما هو محل نسكهم ، وأمنهم ، اذ الناس فى خوف وتقاتل ، فكانوا بالاقامة فى البيت آمنين من ناحية المال اذ هو سبيل تجارتهم ، وهو مأمنهم ، كما قال الله تعالى : « لا يلاف قريش ، ايلافهم ، رحلة الشتاء وال الصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وأمنهم من خوف » .

واذا كانت المفاجأة التى لم يكونوا متوقعين لها قد دفعتهم الى المبادرة بالانكار ، فقد ساروا فى طريقه ، وانتقلوا من الانكار الى الاستنكار ، وهو مرتبة أعلى من الانكار المجرد ، لأن الانكار المجرد أمر سلبى ، قد يجيىء من بعده الايمان اذا جاء الدليل ، أما الاستنكار فهو عمل ايجابى معناه أنه ينكر الحق ، ويستنكر الدعوة اليه ، ثم اندفعوا من بعد الاستنكار إلى المناوأة ، وكل ذلك من المفاجأة ، وقد تدفع المناوأة الى الجحود ، ويدفع الجحود الى الكفر ثم الايذاء .

٢٢٤ — والدعوة المحمدية التى فوجئوا بها هى تغيير لما هم عليه ، ألفوا عبادة الأوثان من غير ايمان قوى بها ، ولكن كانت عباراتهم تتلوى بتقديسها يتوهمون فيها أواما ، وبسيطرة هذه الأوهام يشركونها فى عبادة الله تعالى ، وهم يعلمون أن الله تعالى خالق السموات والأرض .

والذين يميلون الى المال ، ومجرد الاستعلاء بين الناس لا يحبون التغيير بل يحبون الحياة الرتيبة السهلة التى لا تبديل فيها ، ولا انقلاب ولا تقلب فى المذاهب والأفكار ، وليس فيهم شاغل بهذا ، ولذلك كان جوابهم عندما يدعوهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ، ويحكى سبحانه وتعالى عنهم فيقول تعالت كلماته : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » .

ألفوا الشرك ، ولم يألّفوا التوحيد ، ولو كان الحق ساطعا ، والبرهان قائما ، واستمسكوا بالأصنام ، وهم لا يؤمنون بها ، يحطمونها ويعبدونها ، ويغيرون حجرا بحجر ، وإن كانت الأسماء لا تتغير ، ولكنهم لا يتركونها الى غير ما يألّفون ، ولقد توقعوا ما عرفوا من أخلاق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ومن معاملاته أنه سيدعوهم الى تحريم الخمر ، وهم يعاقرونها ، لأنه لم يذقها فى الجاهلية ، وقد جاء القرآن الكريم بأنها ليست رزقا حسنا « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فجعل الرزق الحسن مقابلا للسكر ، فكانت اشارة الى قبحه ، والربا كان جزءا من تجارتهم ، وعلموا من تجارة محمد-صلى الله عليه وسلم أنه لا يزاوله ولا يرتضيه ، والقرآن الكريم يتلى بينهم بالاشارة الى تحريمه ، اذ يقول سبحانه : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » \*

فدل هذا بصريح العبارة أن هذا الدين الجديد الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام عليهم سيزعج الربويين الذين يستغلون أموالهم بالربا ، يدفعونه دينا ويأكلون من ثمرات تجارة غيرهم ربا ، وكان فيهم كبراء أثروا من هذا الباب ، وحسبوه كالبيع ، وقالوا « انما البيع مثل الربا » \*

وهكذا حسبوا أن ذلك الدين سيقرب عامة أمورهم ، فعاجلوه بالانكار ، ولقد صور هذا الحال جعفر بن أبى طالب فى حديثه مع النجاشي ، واليك القصة كما جاءت فى الصحاح فى المجاورة بين مهاجرة الحبشة ، ولسانهم الناطق جعفر \*

### قال النجاشي :

« ما دينكم ؟ أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا . قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا لا ، فعلى دين قومكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما دينكم ؟ قالوا الاسلام . قال : فما الاسلام ؟ قالوا : نعبد الله لا نشرك به شيئا . قال من جاءكم بهذا ؟ قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا ، قد عرفنا وجهه ونسبه ، بعثه الله تعالى إلينا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، فأمرنا بالبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة ، ونهانا أن نعبد الأوثان ، وأمرنا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فصدقناه وعرفنا كلام الله تعالى ، وعلمنا أن الذى جاء به هو من عند الله ، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ، وعادوا النبى الصادق وكذبوه ، وأرادوا قتله ، وأرادونا على عبادات الأوثان ، ففررنا اليك بديننا ودمائنا من قومنا » \*

هذا الكلام يصور بعض التصوير التغيير الذى رأوه فى عاداتهم ،  
فتجربوا لمناواته ، وأخذ الطريق عليه ان استطاعوا •

٢٢٥ — ومما دفع الى مبادرتهم بالانكار غرابة الأمر فى ذاته  
عليهم ، ما كانوا يؤمنون بأن هناك يوما آخر يحاسب فيه المحسن على احسانه  
والسئىء على اساءته ، وأنها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، ولقد أكد ذلك النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وقف لينذر قومه بعد أن أمره ربه ، فقد  
جاء فى تلك الخطبة تأكيد لليوم الآخر ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أنهم  
عنه غافلون « والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون  
بالاحسان احسانا ، وبالشر شرا ، وانها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، وانكم لأول  
من انذر بين يدي عذاب شديد » •

. ان المشركين من العرب كانوا قوما ماديين لا يؤمنون الا بالحس ، يعرفون  
الله ، ولكن يصورون حجارة ليعبدوها فلا يعبدونه سبحانه ، وهو غيب عنهم ،  
فكان كل هذا غريبا ، ومن يستغرب من غير دليل ، ينكر ، ثم يستنكر من غير دليل  
أيضا ، ولقد حكى الله تعالى عنهم فى انكار اليوم الآخر وما يكون : « وان تعجب  
فعجب قولهم ، انذا كنا ترابا ، اننا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ،  
وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » •

ويقول سبحانه وتعالى فى استغرابهم الخلق من جديد : « وضرب لنا  
مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول  
مرة وهو بكل خلق عليم » •

ولجهلهم بالنبوات أثار عجبهم ، والغرابة فى نفوسهم أن جاءهم بالرسالة  
عن الله تعالى رجل منهم يدعو الى الله سبحانه ، ولو كانوا يعلمون أن الرسول  
لا يكون الا رجلا يمشى بين الناس ما ثار عجبهم لكونه رجلا ، ولقد قال قائلهم  
فى الدعوة الى التمسك بالحجارة : « وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على  
آلهتكم ، أن هذا لشئ يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق ،  
أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب » ،  
وهكذا كانت من أسباب غرابتهم بشرية الرسول ، لأنهم أميون لم يعرفوا  
الرسالة ، ولم يدركوها من قبل •

ولقد قال الله تعالى عنهم : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى  
فى الأسواق ، لو أنزل اليه ملك ، فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون  
له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحورا » •

فجهلهم بالنبوات والرسائل ، وعدم وجود أنبياء بينهم علموا منهم رسالات الله تعالى الى خلقه ، وأن الرسل قوم من البشر ، جعلهم يستغربون أن يكون الرسول بشرا سويا يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وإذا كان الأمر غريبا عليهم ، فقد كان حقا عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ، ويستأنسوا بنور النبوة ، ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران .

٢٢٦ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الدعوة التي تسوى بين الغنى والفقير ، وتوجب حقا للفقير فى مال الغنى — قد مس كبرياءهم وهز مراكزهم هذا عنيفا ، وأحسوا بالأرض تميد من تحتهم اذ أن ذوى الأنساب منهم يستعلون بأنسابهم ، ويحسبون أنهم الأشراف وحدهم ، والناس دونهم ، وهم الأعلون وغيرهم الأدنى ، فكان لابد أن يقاوموا ذلك الداعى الجديد الذى يقول بلسان المقال وبلسان الفعل « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع ، ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصى ، ولو كان شريفا قرشيا » فهو يأخذ بنواصى الأقوياء ليضعها بجوار رءوس الضعفاء ، وقد لحوا ذلك فى أتباعه ، فقد رأوا أبا بكر نسابة العرب ومألف قريش ، يكون بجوار بلال وعبيد أبى بكر نفسه ، لا يفرق بينهما الا فضل الايمان ، فهو مقياس الشرف والضعف ، والاكبار والاصغار .

بلا شك هذه مبادئ اجتماعية لا يقبلها شرفاء مكة المكرمة ورؤساؤها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لابد مننفذها ، لأنه كان ينفذها قبل أن يكون نبيا رسولا ، فكيف لا ينفذها ، وقد نزل الوحي عليه ، وجعلها هو نظاما واجب الاتباع ، من لم ينفذه ان لم يعاقب اليوم ، فالنار الموقدة تلتقاه يوم القيامة ، ويلقى به فى السعير .

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ، وابتدأ الأقوياء الذين دخلوا فى الاسلام يعاملون الرقيق ، كما يعاملون الأحرار .

اذن لابد من مقاومة ذلك التيار الذى جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه ، حتى ينمو ، ويستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدي قريش من شرف وهمى ، وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن فى بنيانه .

ثم انهم كانوا الرؤساء الأعلون ، ولهم شبه سلطان ، وانه اذا ذاع دين محمد عليه الصلاة والسلام ، وصار السلطان للحق وحده ، وحكمت المساواة ، وذهبت المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان ، ويسلب كل ما لهم

من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف وتالك ينهدم بين أيديهم ، لأنهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية اسماعيل وضئىء ابراهيم وها هو ذا يدعو الى ديانة ابراهيم ، ويقول فى غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، فأنى يكون لهم من بعد ذلك ، لابد اذن من اقتلاع دعوة محمد عليه الصلاة والسلام من جذورها ، والقضاء عليها فى مهدها •

ثم ان بعض الكبراء منهم كانوا ينفسون على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ويتساءلون لماذا كانت له تلك المنزلة علينا ، ونحن أولى بها منه •

وقد ذكر ذلك الوليد بن المغيرة ، وادعى أنه أولى بالنبوة وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، ومثل ذلك عروة بن مسعود الثقفى ، ونزل فيهما قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسرا عليها يتكئون وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » •

٢٢٧ — وفوق ما ذكرنا كله — العصبية العربية الجاهلية التى كانت مستمكة فى النفس العربية يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فالعرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بنى قصى ما لهم من مكانة • وبنو قصى وغيرهم ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم رياستهم للعرب ، وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ، فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ، وعبد المطلب أخذها عن هاشم ، وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب •

فالدعوة الاسلامية تعرضت لعداوة من عادوا قصيا ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبنى هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام الذى اشتهر فى الاسلام باسم أبى جهل ، وهو به جدير • فقد كان فرعون هذه الأمة ، وان لم يكن فرعون فى مثل سفهه وحنقه ورعونته •

لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبى جهل فناداه بكنته أبى الحكم قائلا له : « هلم الى الله والى رسوله أدعوك الى ، فقال أبو جهل :

يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهمتنا ، هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ،  
فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقوله حق لاتبعتك ، \*

مناقشة هادئة ، كلها حكمة من محمد عليه الصلاة والسلام ، اذ أنه  
يناديه بكنيته يا أبا الحكم ، وهى عجرة من جانب عمرو بن هشام ( أبى جهل )  
فبينما النبى عليه الصلاة والسلام يناديه بكنيته ، لا يناديه بمثلها ، بل يقول  
فى جفوة يا محمد \*

وليس هذا هو المهم ، انما المهم أنه قال لمحدثه بعد انصراف النبى  
صلى الله تعالى عليه وسلم \*

« والله انى لأعلم أن ما يقول حق ، لكن يمنعنى شيء ، ان بنى قصى  
قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية : فقلنا نعم ، ثم  
قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا نعم ، ثم أطعموا  
وأطعمنا ، حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبى ، والله لا أقبل ، (١) » \*

كانت قبائل قريش تأخذ على بنى قصى أنهم جمعوا فى أيديهم الحجابة  
للبيت الحرام ، والقيام على شئونه ، وذلك شرف ليس فوقه شرف ، وسقاية  
الحجيج ، وذلك يذيع ذكركم ويعلن اسمهم ، والندوة ، وهى شورى العرب ،  
فكانوا بذلك رؤساءهم وهم الذين يحملون لواء قريش ، وهذا كله اشارة  
للعرب عليهم ، ثم انحدرت هذه المناقشة الى معاداة الحق الذى يأتى به أولاد  
قصى ، وبنو هاشم على رأسهم ، وقد ورثوا عنه بعض ما أخذه من قريش \*

واذا كانت قريش كلها تنفس على بنى قصى ما أخذوا أو يحسدونهم  
فبنو عبد مناف ، كانوا من بينهم يختصمون بالحق عليهم لأنهم الذين ورثوا  
شرف قصى ، وما كان معه ، ولقد ظهر ذلك على لسان فرعون هذه الامة  
أبى جهل \*

لقد سمعوا القرآن الكريم سرا ، وكانوا هم الأعداء الذين قد أصيبوا  
بلدد الخصومة ، ثم تذاكروا بعد السماع وقد تأثروا ، وقد قال أحدهم  
لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال حانقا : « ماذا  
سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا  
فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ،

قالوا منا نبى يأتية الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدق (١) .

وإذا كان أبو جهل يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو فى معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التى تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه ، بل تدركه ، ولا تدعن له ، وترضى بالردىء الوبىء عن الحق المصادق المرىء .

٣٢٨ — نسوق هذه الأمور ، لا لنبرر بها ذلك الموقف الجاهلى الذى وقفه أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو ان شئت فقل خصومه الذين حاربوه وأعنتوه فى الخصومة والمعاندة ، ثم عادوه ، وكانوا شياطين الانس الذين ذكروا فى القرآن الكريم على أن الله تعالى يجعل لكل نبى يبعثه عددا من شياطين الانس ، ليكتب الله تعالى له ثواب الجهاد والمصابرة .

ولكن سقناه لنعلل الوقائع بأقرب أسبابها ، ولكى تزول كل غرابة فى معاداتهم للحق ، وقد بدا وضحه ، وليعرف الباحث البواعث الحقيقية لتلك اللجاجة فى العداوة التى ذهبت بهم الى الايذاء ، وأسرفوا بها فى القول ، وأثاروا نيران البغضاء ، والواقع أن البغضاء للدين كانت مستكنة فى نفوسهم ، واستيقظت بقوة دعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

وان اسناد الأمور لأسبابها لا يعد تبريرا لها ، ولكن يكون تبينا للوقائع ، وان الأسباب فى ذاتها اثم ، والاثم لا يولد الا اثما ، والملاجاة لا تولد الا فجورا واثاما .

لقد يعجب الناس كيف يمارى أولئك وفيهم عقل فى الوجدانية ، ويجادلون فى الله تعالى وهم يعلمونه ، وهو شديد المحال ، كيف يقف أمثال الوليد بن المغيرة وهو من أنكباء العرب ، والنضير بن الحارث موقف المعارضة ، وفيهم ادراك سليم ، ولكن عميت عليهم الأمور بسبب ما ذكرنا فكانوا فى حيرة بين ماضى ألفوه ، وألفوا معه الدعة والمال والجاه والسيطرة ، وحاضر قد أدركوه ، ورأوا نور الحق الذى ساروا فيه ، ولكن ما ان يبرق عليهم نوره ويمشوا فيه ، حتى تكون غاشية المال ، وغاشية الجاه ، وغاشية الاستعلاء ، وغاشية التعصب القبلى المردى .

ومنهم من كان يرد النور الى قلبه رويدا رويدا ، فكان فى وسط ذلك الأتون من العداوة نور يهدى الى التى هى أحسن ، والله عليم بذات الصدور

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٦ طبعة الحلبي .



## تلقى الناس للدعوة

٢٢٩ — تلقى الناس فى مكة المكرمة دعوة النبى عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلنها على الصفا ، مخاطبا عشيرته الأقربين أولا ، ثم مخاطبا العرب أجمعين ثانيا ، حين صدع بأمر ربه ، تلقوها مشدوهين لغربة الجديد ، فقسم صفى قلبه إليها ، وأولئك السابقون الأولون الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل دعوته ، ومعاونة النبى عليه الصلاة والسلام فى تبليغ رسالته ، ونشرها فى الأرض ومجاورتها الأقطار من بعده •

وكان من هؤلاء الضعفاء الذين حرموا السلطان ومتعة الحياة ، ورأوا فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أملا مرجى فى الآخرة وإن لم يكونوا فى حال مرضية البقاء ، بل هى مرجوة الانهاء ، فأوجد فيها الاسلام الأمل فى انهاءها ، فسارعوا إليها ، وذاقوا العذاب فى سبيلها ، فصبروا من غير انزعاج أو ارتداد ، بل مضوا فى الطريق حاملين البؤس والبأساء ، فى جلد وصبر وإيمان ، وقد مكن الله تعالى لهم ، ووفاهم صبرهم « وانما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » •

والقسم الثانى أعلن العداوة للنبى منذ ابتدائها ، وشنوا غارة على الذين يؤمنون ، وعلى رأس هؤلاء أبو لهب عم النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء من ذهبت غلوائهم فى العداوة ، ولجأجتهم فى الخصومة الى أيداء المؤمنين ، وتعذيب الضعفاء من العبيد والفقراء ، ومن لا حول لهم ولا طول من عشيرة تحميمهم ، وعزة من النفر يدافعون عنهم ، وكثير ممن دخلوا فى الاسلام كانوا على ذلك النحو ، إذ لم يجدوا جوارا من أحد يدفع عنهم الأذى وعلى رأس المؤذنين أبو جهل •

والقسم الثالث وسط بين هؤلاء ، فلم يعتنق الاسلام ، ولم يكن من السابقين الأولين ، بل وقف وقفة المنتظر ، أو وقفة من رد الدعوة من غير معادة ، ولا مناوأة ، وكان من هؤلاء أكثر بنى هاشم ، وبعض بنى أمية ، وبعض القرشيين ، وكان فى كل عشيرة بعض من هؤلاء ، كما كان فى كل عشيرة بعض ممن أسلم •

ومن هذا القسم من كان يشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فيدخل فى صفوف المسلمين مجاهدا صابرا ، متحملا الأذى ، وأقله السخرية والاستهزاء ، فقد كان الاسلام ينمو من هؤلاء ، بل إنه كان ينمو أيضا من المعذبين المؤذنين ، وحسبنا عمر بن الخطاب ، كان من المؤذنين ، حتى هم فيما يقول الرواة بقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن تداركته رحمة الله تعالى ،

فشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فكان له عزا ، وكتب الله تعالى الحق على قلبه ولسانه .

أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ، ولا يننى عن دعوته ، ولا يلين ولا يخفف من دعوته الاعراض مهما يكن مقدار المعرضين ولا الأذى ينزل به ويكبراء صحابته ، ولا الاضطهاد يشتد على ضعفاء أتباعه ، ولكنه يأسى ويحزن على ما ينزل بهم ويواسيهم ويدعوهم الى الصبر ، ويصبر هو ليتأسوا به ، ويعينهم بالمال ان احتاجوا ، ويعينهم كبار الذين آمنوا على فك رقابهم .

وكلما ازداد عدد المؤمنين ، ازداد الأذى وازدادت المعارضة ، فانه كلما قوى الحق ونما أهله ، يئس المخالفون من أن يطفئوا نور الله تعالى الذى انبثق فى مكة المكرمة ، ولكن بواذر اليأس كانت تزيده حجة ولجاجة فى الباطل ، وكل يسير فى طريق التمسك بالباطل ، ففريق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون سوط عذاب يستمرون فى غيهم يعمهون ، والذين ارتضوا المعارضة من غير ايداء ، والمقاومة من غير اعنات لمن جاءوا بالدين الجديد ، ساروا فى طريقهم ومنهاجهم ، يدعون النبي عليه الصلاة والسلام لأن يكف عن دعوته ، ويحادلونه ، ويعرضون عليه ما يرونه مغريا بالاعراض عن دعوته ، على حسب تفكيرهم ، وعلى مقتضى ما يسول لهم شيطان المادة .

٢٣ — ويذكر الأكثرون من الرواة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يلقي منهم مسألة ، ودفاعا عن عقائدهم بالتى هى أحسن ، أو عدم اهتمام بعضهم بمقاومته عندما كان يدعو من غير أن يذكر ألتهتهم بسوء ، أو يسفه أحلامهم ، وأحلام آبائهم ، فلما أخذ يسب ألتهتهم ، ويسفه أحلامهم ، انتقلوا الى مقاومة عنيفة ، أخذت صورة الايداء فى بعضهم والاستنكار المرير من بعض آخر ، ثم تطورت الأمور الى العداوة والاغراء بالبغضاء وقطع الأرحام الموصولة .

وفى الحق اننا لا نرى فارقا زمنيا ، بل نجد أن دعوة التوحيد وتحريم عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ابتدأت منذ جاء عليه الصلاة والسلام ومنذ أعلن عشيرته باستنكار عبادة الأصنام ، فقال عقب الانذار بالبراءة منهم ان عصوا ، فقال الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الاقربين وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى يرى مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم » .

وجاء مثل ذلك عند الأمر بالجهر بالدعوة ، وإعلان قریش خاصة والعرب عامة ، إذ قال الله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، أنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الهة أخرى ، فسوف يعلمون » .

وإذا كنا لانجد فارقا زمنيا يحد ما بين الدعوتين ، وإذا كانت الآيات التي نزلت في أول الدعوة بمكة المكرمة تتشابه في معانيها من ناحية الأوثان مع الآيات التي نزلت في آخر مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة ، فإن من الحق علينا أن نقول أننا لا نجد تفريقا بين حال لم تذكر فيها أوثانهم بسوء ، وحال قد ذكرت فيها بسوء .

وأن الذي نجده أو نظنه ظنا أن مقاومتهم ابتدأت بحال دهشة مما فوجئوا به ، وتساؤل فيما بينهم ، ما شأن هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام وهم بين من علم أن محمدا عليه الصلاة والسلام دعا إلى هذه الدعوة ، وبين متشكك في نسبة القول إليه ، وبينما هم يتساءلون كانت الدعوة تسرى في الأوساط ، وتجد لها من بينهم مصدقين ما بين سادة وعبيد ، وأشراف وضعاف ، فتنبهوا حينئذ للمقاومة ، لأمر وجدوه جدا لا هزل فيه ، وقويا لا ضعف يعتريه ، وإذا كان الذين يتبعونه قليلا ، فهم يزيدون وسيكونون كثيرا ، ولابد أن يأخذوا الأهبة لمداغة هذا الواقع ، وهو لا يزال نباتا ، قبل أن يستغلظ سوقه .

٢٣١ — وعلى ذلك نقرر أن المقاومة كانت تتزايد في الشدة كلما تزايدت الدعوة عموما ، وتكاثر المستجيبون لها ، فهم كلما رأوها تنمى ولو قليلا يحسون بالخطر شديدا ، وكلما أحسوا بالخطر ازدادوا لجاجة وعنفًا ، لأنهم يرون الخطر على سيادتهم ، ونظمهم الاجتماعية ، والأرض تنهار من تحتهم شيئا فشيئا ، فتزداد المقاومة بصورها المختلفة ، وكل يعمل على شاكلته ، وعلى الطريقة التي يرضاها خلقه ، وفريق بالأيذاء ، وفريق بالاستهزاء ، وفريق بالشكوى لأبى طالب حاميه ، ويتلاقى الجميع على أمر يكون متلاقيا مع كل طبائعهم . . . وهكذا .

وإن اعتراضهم أخذ ثلاث صور ، . الصورة الأولى محاولة حمل النبي عليه الصلاة والسلام على ترك الدعوة التي يقوم بها ، وينشر الاسلام عن طريقها ويحارب الوثنية بكل ضروبها .

الصورة الثانية - المجادلة ومحاولة إخراج النبي عليه الصلاة والسلام بمطالب هي غير معقولة في ذاتها ، بقصد تعجيزه ، وإظهار عجزه أمام الناس أجمعين عسى أن يكون في ذلك صد الناس عنه .

الصورة الثالثة - الايذاء فى صورته المختلفة ، بالاىذاء الفعلى الآحادى للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة ، وللمذين يؤمنون من الناس ، ولم يخلص منهم كبرائهم ، ووقع شديد على ضعفائهم ، ثم كان من ذلك ايذاء جماعى ، أنزل من قريش كلها على بنى هاشم كلهم واخوانهم بنى المطلب ، وقد تلقوا جميعا مقاطعة قريش لهم ، ولم يقبل دنية الافتراق عن أسرته الا أبو لهب ، أما الباقر فحملوه صابرين مشاركين معاونين ، واستوى فى ذلك مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب على سواء .

وقد لوحظ أن الايذاء كان يجعل الايمان يذيع وينمو ، لأن الناس تنفطر نفوسهم لألم المتألمين ، ويدفع حمية الذين لهم صلة بمن يؤذون ، فتدفع المروءة الى مشاركتهم فى سبب الايذاء تحديا ومقاومة لذلك الشر ، فقد دفع الايذاء للنبي عليه الصلاة والسلام حمزة بن عبد المطلب لأن يعلن اسلامه ، ثم يعلن ايمانه ، كما سنبين ان شاء الله تعالى فى اسلام حمزة .

وقد يكون اندفاع المؤذى فى ايذائه مفرطا فيه دافعا لأن ينفطر قلبه ، فيجد سبيلا للايمان ، كما كان الشأن فى ايمان عمر بن الخطاب ، فقد كان الدم الذى انبثق من شج اخته ايذاء لها على ايمانها سببا فى أن فتح الله تعالى قلبه لأنه استمع الى الآيات التى تتلى ، فرحمه الله تعالت كلمته بأن فتح صدره للايمان فأمن .

وكان الايذاء سببا فى الهجرة الى الحبشة ، وفى الهجرة اليها شاع اسم الاسلام فى ربوعها وان لم يتبعه الا ملكها . وسنذكر بعون الله تعالى تلك الصور المختلفة للمقاومة بعد أن نتكلم فى درجات الدعوة ؛ والجهر بها .

## الذين استجابوا لله وللرسول

٢٣٢ — سرى الاسلام الى النفوس من أول نزوله ، واذا كان الذين سارعوا الى الدخول فيه عددا قليلا ، فذلك شأن كل دعوة تعتمد على الحق المجرد ، فانها تدخل فى قلوب الجماعات فى ريث من غير تعجل ، ولا انسياق من غير تفكر وتدبر ، ولكنها ان كانت صارت كالجبال .

وقد يقول قائل ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت ثورة فكرية واعتقادية واجتماعية واقتصادية وانسانية بشكل عام ، ومن شأن الثورات أن تجتذب الجماهير فتندفع فى نصرتها والأخذ بها ، ونقول فى الاجابة عن ذلك ان ما أتى محمد عليه الصلاة والسلام كان فى نتيجته وغايته أعظم ثورة

انسانية رآها التاريخ الانسانى ، فى نتيجتها وثمراتها وغاياتها ، لا فى وقائعها وأشكالها ، فان الثورات الجامحة انفعالات للجماهير ، تكون كأنفعال الأشخاص لا تلبث أن تنطفئ ، اذ ذلك شأن الانفعالات دائما ، لا فرق بين أن تكون فى الآحاد وأن تكون فى الجماعات ، واعتبر ذلك بالثورات الأوروبية ، فأعظمها مظهرا الثورة الفرنسية ، انفعلت بها فرنسا انفعالة شديدة ، ثم لم تلبث حتى أخذت تأكل نفسها ، وكثرت ثورات زعمائها على أنفسهم جماعة بعد جماعة حتى رسبت فى آخر الأمر فى حكم يشبه حكم القياصرة ، كما كان فى عهد نابليون الذى نال الكمثرى فيها بعد أن نضجت .

أما دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت نابعة من أحكام المنطق وأحكام العقل ، والامداد الالهى بروح القدس ، وما كانت انفعالة ، بل كانت نفوسا مطمئنة راضية مرضية آمنت بالحق وأخذت به ، دخلها الايمان ولم يخرج منها . وهذا يكون من شأنه الدوام والاستقرار فى النفوس التى يدخلها ، فاذا أشرق فيها فهو اشراق لا ينطفئ ، فلا يشبه نار الهش من الأخطاب الذى ينطفئ بأقل الرياح ، بل يشبه الماء العميق البعيد الغور الذى لا تهزه الرياح ، فلا تعيث به الأهواء .

لذلك كان الذين يدخلون قليلا قليلا من غير طفرة ، وانتقال انفعالى .

٢٣٣ — ولقد اختبرت قلوبهم من أول دخولهم — لقد ابتدأ الاسلام يسرى كالنور فى الظلام ، فأشرقت به قلوب مؤمنة ، فدخلها واستقر بها فى وسط لاجاة الشرك وعوجاء أهله ، أسلم قوم مؤمنون ، ولكن منعوا من أن يقيموا شعائر دينهم ، فكانوا ابتداء لا يصلون فى المسجد الحرام ، بل كانوا يذهبون للصلاة فى شعاب مكة المكرمة مستخفين بدينهم ، لا يجهرون بقراءة القرآن الكريم بين ظهرانيهم ، ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك ، ومكانته بين قريش مكانته ، وجاء أبو جهل الذى اشتهر بذلك الاسم فى الاسلام واستحقه بعمله ، وقال فى تبجح ظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام : « ألم أنهك يا محمد عن الصلاة هنا ، فلم يلتفت اليه النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه يعلم أن أدب الاسلام أنه اذا مر بالمغو مر كريما ولم يلتفت .

وكان المسلمون الأولون لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من الرسول دينهم ، بل كانوا يجتمعون خفية فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، قالوا انه يجتمع فى هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر رضى الله تبارك وتعالى عليه وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط ، فقد كان ثمة عبيد آمنوا ، وكانوا فى مهنة مالكى رقابهم ، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه ، ويكره على الخروج منه .

ومن المؤمنين من كان يؤمن ، ويخفى إيمانه عن أهله : أبيه وأمه وأخيه فرارا بدينه من أن يفن بملام أو تعذيب ، فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل فى الاسلام ، يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر ، ثم ينتقل الأمر من اللوم الى التعذيب ، ان استرسلوا فى غوايتهم ، ولم يكن ما يمنعهم من رحم شفيقة ، أو قوة عزيمة ممن منحه الله تعالى الايمان ، واعتصم ببرد اليقين .

ولم يكن المسلمون يجهرون بقراءة القرآن الكريم خوف الأذى الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت دعوته وتبليغ رسالة ربه توجبان عليه أن يجهر مهما يكن الأذى الذى ينزل به . فان الله تعالى عاصمه من الناس ، وما كانت قریش تستطيع دفعه ، بل انهم كانوا يتناهون فيما بينهم الا يسمعه ، ولكنهم يذهبون خفية ليسمعه ، يذهب كل واحد مختفيا عن جماعته ، ثم يلتقون فى الاستماع اليه ، وقد تناهوا ، ولكن كل واحد خالف ما اتفق عليه معهم ، ويحسب أنه المخالف وحده ، واذا هم جميعا مختلفون ، واذا هم جميعا ناقضون لما اتفقوا :

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن الكريم بعد النبى عليه الصلاة والسلام ، يروى ابن اسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا والله ما سمعت قریش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعونه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا أسمعهم ، قالوا انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من العدم اذا أرادوه . فقال دعونى ، فان الله تعالى سيمنعنى ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقریش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا صوته .

« بسم الله الرحمن الرحيم : الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » ثم استقبلها يقرؤها . قال فتأملوه فجعلوا يقولون ماذا قليل ابن أم عبد ، ثم قالوا انه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له هذا الذى خشينا عليك ، فقال ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأعاودنهم بمثلها غدا ، قالوا حسبك حسبك قد أسمعتم ما يكرهون .

أولها : الاستخفاء بالعبادة الا ما كان من أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان حريصا على أن يجهر بصلاته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وأن يجهر بالقرآن الكريم ما وسعه ذلك ، غير ممتنع ، ولا متردد ، لأن الأمر جاء اليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهر أن المشركين ، وان كانوا يتضايقون من ذلك ، لم يكونوا يمنعون ، وان حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعون ، فكانوا يعمدون الى الاستهزاء به أنا وايدائه أنا ؛ والاعراض عنه دائما ، وفي كل وقت ، لأنهم قد جعلوا في قلوبهم وقرا ، فلا يستمعون وقد كان المشركون يشتمون في أذاهم .

الأمر الثاني : أن الأذى الذي كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينهه من عزمهم ، ولم يضعف أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر في قراءته ، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ما شاء الله تعالى أن يبلغه ، غير ملق اهتماما الى ضربهم .

وان حال الايذاء في اثناء قراءته يصور حال المؤمنين مع ايذاء الكافرين ، ومع الايمان استمروا في الايذاء ، واستمر الاسلام في ازدياد .

الأمر الثالث : أن المشركين كانوا يسمعون القرآن الكريم من النبي صلى الله عليه وسلم يتميز غيظهم ، وان كان الغيظ ثابتا ، اذ يتبعه ايذاء أحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عندما يسمعون من غيره ، لأنهم بذلك يعلمون سريان الدعوة ، وزيادة الأتباع حينما بعد حين ، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن الكريم ، بل انه منه ، ومن نمو عدد المستجيبين ، فالأمر اذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية ، وينذر أعداءه بالعاقبة المريرة .

## اسلام حمزة

٢٣٥ — ويلاحظ أن الأذى لم يمنع الاستجابة للدعوة ، بل زيادتها ، ومن المؤمنين الذين كان لهم في الاسلام قدم ثابتة من كان الايذاء هو السبب الواضح في اسلامهم .

ولنذكر في هذا المقام اسلام حمزة بن عبد المطلب ، ولنذكر قصته كاملة كما رواها ابن اسحاق :

قال ابن اسحاق : « حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الصفا فأذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك ٠٠٠ فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يظوف بالبيت ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قریش الا وقف ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قریش ٠ وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ( التي سمعت سب أبى جهل ) قالت له يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفا من أبى الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالسا ، فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة ٠ فخرج يسعى ؛ ولم يقف على أحد عامدا لأبى جهل اذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال أتتشمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على ان استطعت ، فقام رجال من بنى مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمار ، فاني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » (١) .

وفيما ذكره ابن اسحاق هنا ما يومه بأنه أعلن اسلامه ، وكان ذلك الاعلان هو دخوله في الايمان ، ولكن ذكر في البداية عن ابن اسحاق أيضا أن حمزة اذ أعلن ذلك أنه اتبع محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كان ينطق بها الا عن حمية العصبية ، ولكنه فكر بعد ذلك في مخرج منها ، أو سير في طريق الايمان ، ولتنقل لك حديثه في نفسه كما جاء على لسانه ، وكما نقل ابن اسحاق :

« أقبل حمزة على نفسه ، وقال ما صنعت ، اللهم ان كان خيرا ، فاجعل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا ٠ فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان ، حتى أصبح ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا بن أخى ، انى قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلى على ما لا أدري ما هو !! أرشد أم هو غي شديد ، فحدثني حديثا ، فقد اشتبهت يا بن أخى أن تحدثني ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه عليه



وسلم ، فذكره ووعظه ، وخوفه وبشره • فالقى الله تعالى فى قلبه الايمان بما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : أشهد أنك الصديق ، فأظهر يا بن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلمت السماء وانى على دينى الأول ، فكان حمزة ممن أعز به الدين • وروى البيهقى مثل ذلك (١) •

ويظهر من هذا الكلام ، وما قبله أن حمزة رضى الله تبارك وتعالى عنه كانت له نزعة دينية كانت على الباطل ، ثم كانت على الحق • كان فى جاهليته ، اذا جاء من صيده وقنصه لا يغشى ناديا الا اذا طاف بالبيت ، والمتدين فى طبعه ان رأى وضح الحق سار فيه ولصدق ادراكه عندما أعلن الاسلام فى غضبة عنيفة قوية ، أراد أن يمعن النظر فيما عرض له من حال ؟ أخرج منها ، وما السبيل أم يمشى ، فاحترته حيرة ، كانت هادية موجهة ، ان هداه الله تعالى الى الاسلام •

## اسلام عمر

٢٣٦ — كان الاسلام ينمو ويزيد ، واذا كان قد ابتداء بالضعفاء ، وقل فيه الكبراء فقد أخذ عدد الأقوياء يكبر ، وان كان العدد فى ذاته لا يزال قليلا ، قد دخل أقوياء ، يرفعون العبء قليلا عن الضعفاء •

دخل أولا حمزة ، ولأول مرة فى تاريخ الاسلام يضرب أبو جهل فوق رأسه حتى يشج ، ويثور له بعض قبيله ، فيتصدى لهم رجل قوى الشكيمة عزيز الجانب ، حتى يتعلم أبو جهل الحكمة ساعة من زمان ، فيدعوهم الى أن يتركوا حمزة ، ولعله دعاهم الى أن يقوا أنفسهم شر ضربات حمزة •

لم يذكر كتاب السيرة تاريخ اسلام حمزة ، وان ادعى بعضهم أنه كان قريبا من اسلام عمر أى أن اسلام عمر كان بعده بقليل ، واسلام عمر كان فى السنة السادسة من البعثة ! لأنه كان بعد الهجرة الى الحبشة • وان كتاب السيرة كانوا يعنون بذكر الوقائع بروايات صحيحة ، وان كانوا لا يذكرون تاريخها الا اذا اقترنت بواقعة مشهورة ، كما اقترنت واقعة خروج المؤمنين هاربين بدينهم الى الحبشة بايمان عمر بن الخطاب •

كان عمر فاروق الاسلام شديدا على المسلمين قبل اسلامه ، لا يجد سبيلا

لايذائهم الا سلكه ، ولكنه فى طبيعته ادراك صحيح ان ضل يرشده ، وفيه طبع رحيم ان قسا ، فظهر الألم يؤذيه ذلك كما يؤذى من نزل به .

ولعل أقوى حادثة هزته ، أنه رأى المؤمنين يهاجرون فرارا بدينهم من ايدائه هو وأشبابه ، فلفته هذه الهجرة عما كان فيه من غى ، وما عليه المؤمنون من رشاد .

روى ابن اسحاق عن بعض اللاتى أخذن الأهبة للهجرة وهى أم عبد الله ابن خثعمة أنه رآها عمر بن الخطاب ، فسألها عن مخرجها . فقال أسفا : انه للانطلاق يا أم عبد الله . قالت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، أذيتمونا ، وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا ، فقال صحبكم الله ، قالت ورأيت والله فيه رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أخذنا فيما رأى خروجنا ، فجاء عامر ابنها ، فقالت له : لو رأيت عمرا أنفا ورقته ، وحزنه علينا ، قال أطمعت فى اسلامه قلت نعم ، قال لا يسلم الا اذا أسلم حمار الخطاب ، وما قال ذلك الا يأسا لما كان يرى من غلظته .

ومن هنا يستفاد أن عمر رضى الله عنه كلما رأى فريقا من قومه يخرج فرارا بدينه من ظلمهم يناله ألم ، والعدالة فى طبعه ، وان كان التعصب لما عليه أبأوه وأجداده فى جنب منه .

ويظهر أن ذلك الألم من خروج بعض قومه مقهورين لم يمنعه من انزال بعض الأذى لمن يعلم اسلامه من أهل بيته وذوى قرابته ، ولقد هزته أخرى ففتحت قلبه للاسلام ؟

وخلصته أن فاطمة بنت الخطاب أخته قد أسلمت هى وزوجها ، وأخفيا اسلامهما خشية بطشه ، وبطش نوى قريتهما ، وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله ، وكان ثلاثتهم يستخفون ، ويتلون القرآن الكريم فى منزل سعيد بن زيد زوج فاطمة ، وكان خباب بن الارت يجيء اليها ويقرؤها القرآن الكريم ، فخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه ، وهم قريب من أريعين ما بين رجال ونساء ، فلقبه بعض قريش ، فقال له أين تريد يا عمر ؟ فقال له : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله ، فقال له والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركىك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم . قال وأى أهل بيتى ، قال أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله تابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

ولا تناقض بين هذين خبر أم عبد الله ، لأنه عندما رق للذين يهاجرون لم يكن رقه رغبة للإسلام ، ولكن كان ألما لفراق قومه ، وسولت له نفسه غير المؤمنة ، بأن محمدا صلى الله عليه وسلم سبب ذلك الفراق ، وكان يتنازعه حال من الايمان ، ووسوسة من الكفر .

ذهب عمر الى أخته ، وكان يستخفى فى بيتها ثلاثة صاحبها الذى آمن وزوجها ، وخاباب يعلم الجميع القرآن الكريم ، ومعه صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب فى مخدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ قال له ما سمعت شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت انكما أتبعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها ، فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا ، وأمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأونها أنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً . فلما قال ذلك قالت له أخته : انا نخشاك عليها ! قال لا تخافى ، وحلف بالله ليردنها اذا قرأها . فلما قال ذلك طمعت أخته فى اسلامه ، فقالت له يا أختى انك نجس على شركك ، وانه لا يمسيها الا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانى سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فوالله الله يا عمر . . . . فقال عمر عند ذلك : فدلنى يا خباب على محمد صلى الله عليه وسلم حتى آتية فأسلم . فقال له خباب هو فى بيت عند الصفا فى نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوحشه ، ثم ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه معه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر من خلل الباب ، فراه متوحشاً سيفه ، فرجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع ، فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزه بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان يريد خيراً بذلناه له ، وان كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

حتى لقيه فى الحجرّة ، فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذة جبذة شديدة وقال ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أدرى حتى ينزل الله بك قارعة •

فقال عمر يا رسول الله جئت لك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن عمر قد أسلم •

وانك لترى أن عمر بن الخطاب جاء اسلامه من نبع قلب يؤمن بالعدل ، ويؤمن بالرحم ، وان كان قد غشاهما غشاء من مألوف الجاهلية وما كان عليه قومه ، دفعته عصبية قبل أن يدرك الاسلام لأن يناوىء محمد بن عبد الله ، إذ أنه توهم أن ذلك يفرق كلمتهم ، ويذهب بمكانتهم عند العرب ، وهو فى هذا مخطىء ، فتفرق بسبب نور الحق بين مؤمن وكافر خبر من اجماع على باطل ، وذلك ما خفى على عمر ابتداء ، وأشفق على الذين يخرجون من أرضهم من قومه ، ثم كان التنبية الشارع عندما رأى الدم يسيل من أخته ، فزالته عنه الغشاوة ، فكان عمر الشقيق العادل المنرك إذ أزال الله تعالى عنه غشاوة الباطل •

## بين عهدين

٢٣٧ — كان اسلام حمزة ، ومن بعده اسلام عمر ابتداء عهد جديد للاسلام كان المسلمون فى الأول مستضعفين يرامون بالسوء ، ولا يدفعون للمسيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما ، ولا مراعاة لحسن جوار ، أو لمودة ، أو لقربى ، بل يسومونهم العذاب ، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا ، وذو المروءات من المشركين ان تابوا عن الأذى فالأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة فى ايذاء عبد أو ضعيف ، أو من لا يملك ردا •

ولما أسلم حمزة ابتداء كبير الأندال فيهم أبو جهل يحسن بالضربات تقمع رأسه ، وبالدم يسيل منه ، فان تخفف له نصرأ من قومه خشى من المعركة ، وأن يكون ابتداؤها هذا وهو يخاف نهايتها ، كشأن كل من يكون ناقص المروءة ، يستعدى على الضعفاء ، ويخاف الأقوياء •

فلما أسلم عمر ، كانت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالاسلام • واستعلانه بعد استخفافه • ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين ، بعد أن كانوا فرادى متفرقين •

التقى عمر عند اسلامه فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم فى الصفا ، وعدد المسلمين تقارب الأربعين ، فقام عمر رضى الله عنه ، فقال يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق ، ويظهروا دينهم ، وهم على الباطل •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انا قليل وقد رأيت ما لقينا •

قال عمر ، والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه أنادى بالكفر ، الا أظهرت فيه الايمان ، ثم خرج فطاف بالببيت ، ثم مر بقريش ، وهى تنتظره ، وقد تسامعوا باسلامه ، فقال أبو جهل : يزعم فلان أنك صبوت ، فقال جاهرا ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فوثب المشركون اليه يريدون أن يصرعوه ، وكان على رأسهم عتبة بن ربيعة الذى كان البا على المسلمين ، وكان قد صرع أبا بكر وضربه ، حتى أثخنه ، فكأنه كان طلبه عمر ، فوثب عمر عليه ، وصرعه ، وبرك عليه كما يبرك البكر الراغى وجعل يضربه ، وأدخل أصبعه فى عينيه ، فجعل عتبة يصيح ، ففتحى الناس ، فقام عمر عنه ، فاشتقى للمسلمين عامة ولأبى بكر خاصة •

وكان عمر رضى الله تعالى عنه حفيبا بالآ لا يضرب الا إشراف قريش ليعرفوا حرارة الضربات فصك وجوههم صك الجنادل ، فما كان فى هذه المعركة التى أثارها يدنو منه شريف الا أخذ به بالضرب الشديد حتى أمجز الناس ، ثم أتبع المجالس التى كان يجلس فيها ، فيظهر الايمان (١) ، فيلاقونه ويذيقهم من اساءاتهم كؤوسا •

عاد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المسلمون يدعوه الى أن يظهروا مجتمعين ، وألا يبقوا متفرقين ، فجمعوا وخرجوا ليصلوا فى الكعبة الشريفة مجتمعين ، وساروا على صفين على رأس أحدهما حمزة أسد الله وسيد الشهداء ، وعلى رأس الثانى عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهم •

وتحدوا بجموعهم قريشا أن تمنعهم ، ولم يجدوا جوابا لهذا التحدى العملى ، لأن أبا جهل داعية الشر تذكر قوس حمزة تقمع رأسه ، وتذكر عتبة ابن ربيعة صرع عمر ، ووضع أصابعه فى عينيه •

ظهر الاسلام ، فظهر النور ، وسارت الركبان ، بما اعتز به الاسلام ، واتخذل الشرك ، وتحول الاضطهاد من الآحاد الى الجماعات على ما سنبين

فى الاضطهاد ، الذى نُؤجل الكلام فيه ، لأنه استمر طول مدة الدعوة فى مكة المكرمة ، وانتهى بالهجرة •

وأخذ المشركون أن يسلكوا ثلاثة مسالك مع الاضطهاد :

اولها : محاولة استمالة النبى عليه الصلاة والسلام ليمنعوه من الجهر بدعوته •

وثانيها : مجادلته لاعجازه أو اظهار ضعفه فى زعمه •

وثالثها : الشكوى منه لعمه أبى طالب •

## محاولة كفه عنهم بالاستمالة

٢٣٨ — يئس الكفار من النبى عليه الصلاة والسلام ، أدوا انصاره فقتلوا ، وأذوه وتهكموا به فما نالوا ، وكلما زادوا إيذاء سرى الايمان فى القلوب ، فبايذائهم للنبى صلى الله عليه وسلم هدى الله حمزة للايمان فكان البا عليهم ، وبسبب إيذاء عمر لختنه ولأخته ، ولرؤيته المؤمنين يهاجرون رق قلبه ، فأمن ، وكان ايمانه كارثة كرت الله سبحانه وتعالى بها الشرك وأهله ، فكان القوة الفارقة بين استخفاء المسلمين ، وعلان الاسلام ، والمجاهرة بالعبادة ، واظهار صوت الحق يزن فى جوف المسجد الحرام •

واذا كانوا هم يؤذون فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسالم ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يقطع ، ولا يكف عن الدعوة ، بل انه يآلم لألمهم ، ويواسيهم فى أزماتهم •

حتى انه نزل بأهل مكة المكرمة قحط ، فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بانزال المطر ، فنزل ، ويظهر أن ذلك كان فى الفترة التى عاشها النبى عليه الصلاة والسلام بين أهل مكة المكرمة بعد وفاة أبى طالب الى أن هاجر ، ولذلك روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن استجابت دعوته ود لو كان أبو طالب حيا ، رجاء ايمانه ، ورجاء أن يعلم أن دينه أى محمدا صلى الله عليه

وسلم خير لقومه • ويروى أن هذا الاستقاء كان ومحمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فقال لو أدرك أبو طالب هذا الاستقاء ونصره (١) •

ولقد كان من المشركين من يعترهم ما يفيد قبول ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أو على الأقل عدم المبادرة بتكذيبه والتريث في ذلك ، حتى ينظر اتعم دعوته ، وتستجاب ، أم تضعف وترد •

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا - أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم • وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه • وقلتم مجنون وما هو بمجنون ، فما هو

---

(١) المذكور في رؤية أبي طالب لاستقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رآه في حياة عبد المطلب ، روى أن رقية بنت أبي أصفى بن هاشم قالت : « تتابع على قريش سنو جذب ، قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينما أنا راقدة اللهم ••• إذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل : يا معشر قريش ان هذا النبي المبعوث منكم ، هذا ابان نجومه ، فجها بالحاء والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طوالا أبيض أشم العرنين ••• ألا فليحضر هو وولده ، وليدلف اليه من كل بطن رجل ••• وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ، وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، فليدع الرجل وليؤمن القوم ••• قالت فأصبحت مذعورة قد قف جلدى ووله عقلى واقتصصت رؤياى ••• فقالوا هو شبيه الحمد : وعبد المطلب ، فتتابع عند قريش ، وانفض اليه الناس من كل بطن رجل فمسوا واستلموا وطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدقون حوله ما ان يدرك سعيهم • مهلة ، حتى قرروا بذروة الجبل ، واستكفوا جنبابه فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ، ثم قال : « اللهم ساد الخلّة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخل وهذه عبدائك واماؤك •• يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن عليهم غيثا مغدقا ، فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى بثجيجه » هذا ما جاء في الروض الأنف ، والله أعلم بصدق الرواية •

بخنقه ، ولا رسو سنه ، ولا تخليطه يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » (١) .

### لقاء أهل مكة المكرمة به لاستمالته :

٢٣٩ — عن جابر بن عبد الله فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليات هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا فيما بينهم ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة ، فندبوه لذلك ، وقالوا له أنت يا أبا الوليد ، وكان بينهم سييدا حلما ، ويروى أنه هو الذى عرض عليهم أن يذهب للقاء النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لهم : يامعشر قريش : ألا أقوم الى هذا الرجل ، فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، ويكف عنا :

قالوا : بلى يا أبا الوليد .

وسواء أكان هو الذى انتدب لهذا أم ندبوه فقد ذهب الى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعرض عليه ما يظنه كافا له عن متابعة الدعوة الى الحق .

قال عتبة : يا بن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشطر فى العشيرة ، والكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفقت به أحلامهم ، وعبت ألثتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آياتهم ، فاسمع منى حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضا .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قل يا أبا الوليد اسمع .

قال ربيعة : يا بن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك .

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ .



وان كان هذا الذى يأتيك رؤيا تراه ، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يتداوى منه •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن فرغ عتبة : « أفرغت يا أبا الوليد » قال : نعم •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اسمع منى • قال أفلعل ، فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » ومضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأها مرتلا تاليا •

لما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليها ليسمع منها ، حتى انتهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى آية السجدة فى السورة ، فسجدها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت • قال الرسول فأنت وذاك •

ثم قام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلسوا اليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد •

قال عتبة : ورائى أنى والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله : ما هو بالشعر ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها لى : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ؛ وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا غير مجيبين نصيحته : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه •

قال الناصح ، وكان فى ذلك الوقت أمينا فى نصحه : « هذا رأى ، فاصنعوا ما بدا لكم » (١) •

• ٢٤ — أعجزهم الايذاء المستمر عن أن يحولوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الايمان ، بل أن التعذيب الشديد ، والايلام المستمر كان يزيد المؤمنين ايمانا ، واستمساکا بما يعتقدون ، وترتب على الايذاء أن آمن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٦٤ •

مثل حمزة وعمر كما ذكرنا ، وأخذ المؤمنون يردون الايذاء بمثله • فعرف أبو جهل كيف يكون شج الرأس من القوى العادل لمثله الفاجر ، وألهم عمر رضى الله عنه القوى ، كيف يكون الضرب للشرير العصى •

أخذوا يجربون من ذلك طريق العلاج باللين ، وعرض ما يحسبون أنه يقرب النبي اليهم من غير أن يتقربوا هم من الايمان ، عرضوا عليهم ما يلين أمثالهم ، وما هو منطقهم ، عرضوا عليه الشرف فيهم ليكون السيد المطاع ، وعرضوا عليه الملك ليكون ملكهم ، وعرضوا عليه الأموال ليكون أكثرهم مالا ، فلما رفض كل هذا ، ولا يحسبون أن يرفضه الا من يكون قد أيف عقله ، وذلك بمنطقهم المادى الذى لا يحسبون العلو فيه الا بالمال والسيادة والملك ، عرضوا عليه أن يعرضوه على نطس الأطباء ليعالجوه ولكنه بدل أن يجيب بلا أو نعم ، تلا عليهم القرآن الكريم ليعلموا أن ما عنده خير مما يقدمون ، بل لا يعد ما يقدمونه شيئا مذكورا بجوار ما عنده وهو خير وأبقى •

ضاقت ذرعا بمحمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، وزيادتهم أنا بعد أن ، عالجه بالاضطهاد فما أجدى ، وعالجه برشوة المال والسيادة فما أجدى فماذا هم صانعون ، لم يبق الا أن يدخلوا معه فى جدل لبيبين عجزه أمام الناس ، فلا يزيد أتباعه •

## جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٤١ — أعادوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عرض ما عرضه عتبه ، ولكنهم فى هذه المرة يعرضونه مجتمعين توثيقا لارادتهم ، ورغبة فى الأعداء ثم يجادلونه بعد الرفض •

اجتمع المأ من المعاندين له عليه الصلاة والسلام من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه •

• فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك •

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بدء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم •

قالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قببح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتىك رثيا من الجن ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك •

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما بى ما تقولون ، ماجئتمكم بما جئت أطلب أموالكم ، والشرف فيكم ؛ ولا الملك عليكم ، ولكن بعثى الله اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ، ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربهى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ماجئتمكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة • وان تردوا على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » •

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا ، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، ولييسر لنا بلادنا ؛ وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فان فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك ؛ وعرفنا منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا ، كما تقول •

مؤدى هذا الكلام أنهم يطلبون آيات أخرى ، والله عليم بالقلوب ، فقد جاء عيسى لأمثالهم بما هو أشد من ذلك ، من احياء الموتى وبراء الأكمه ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يختار أنبياءه وهو أعلم بمن يؤيد رسالته •

قال لهم رسول الله رادا عليهم قولهم ، وما بهذا بعثت ، انما جئتمكم من عند الله بما بعثنى به ، فقد بلغتمكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على ، أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم •

قالوا فان لم تفعل هذا فخذ لنفسك ، فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك نبتغى ؛ فانك تقوم فى الأسواق ، وتلتمس المعاش ، كما نلتمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم •

قال لهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ما جئتكم فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر حتى يحكم الله بيننا .

قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء ، كما زعمت أن ربك أن يشاء فعل ، فاننا لا نؤمن بك الا أن تفعل .

قال لهم الرسول الصادق الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم : « ذلك الى ربي ان شاء فعل بكم ذلك » .

قالوا يا محمد ما علم ربك أننا سنجلس معك ونسالك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم اليك ، ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا اذا لم نقبل ما جئتنا به ، فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليماة يُقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، اما والله لا نتركك وما فعلت بنا ، حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائل منهم نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال قائل منهم : « لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا » .

تقاولوا طالبين آيات حسية ، ومستعجلين العذاب ، ثم قال عبد الله ابن أبى أمية ابن المغيرة ابن عمة عاتكة بنت عبد المطلب « يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله ، ثم سألك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب ، فوالله لا أومن لك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى منه وأنا أنظر ، حتى تأتيتها وتأتى معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول : « وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك » (١) .

٢٤٢ — طلبوا ما طلبوا لا ليؤمنوا ، ولكن ليخرجوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليعلنوا قوة جدالهم ، وهم قوم خصمون كما قال الله تعالى ، ولعل الذى يفصح حقيقة نياتهم قول الهاشمي ابن عاتكة بنت عبد المطلب : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك ، فكانه يصرح بأن التكذيب سابق

---

(١) راجع ابن جرير فى تفسير سورة الاسراء ، وابن كثير كذلك ، وراجع سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير .

للدليل ، وانه راكز فى النفوس لا يخرج منها ، حتى بعد تلك الآيات التى طلبوها ، قلو استجيب ما زادوا الا اعناتا ، وكانوا كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » •

ومطالبهم التى قدمت كانت للتعنت لا طلبا للدليل ، فان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق واضح فى ذاته ، تبعه مؤمنون لما فيه من الحق ، وقد صحبه الدليل الذى يثبت أنه من عند الله قرآنا غير ذى عوج يهدى الضال ، ويرشد السارى فى الظلام ، وهو المصباح المزهى ، الذى يعجز العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله • ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » •

وخلاصة هذه المطالب أنهم :

١ - يطلبون أدلة مادية ، طلبوا منه أن يوسع عليهم أرضهم ، وأن يبعث أمواتهم •

٢ - وطلبوا أن يبعث لهم ملكا يشهد لنبوته •

٣ - وطلبوا منه أن يجعل أرضهم القاحلة جنات ، وفيها كنوز ، وفيها قصور من ذهب وفضة ، واتهموه كذبا بأنه يعلمه رجل من اليمامة •

٤ - وطلبوا أن يسقط عليهم من السماء كسفا •

٥ - وطلبوا منه أن يحضر سلما يرقى فيه الى السماء ، وأن ينزل ومعه كتاب فى قرطاس •

طلبوا ذلك لا ليؤمنوا ولكن ليحرجوه عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا طلاب ايمان ما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء ، لأن ذلك يبيدهم ، ولا ايمان بعد هذا الانزال •

ولقد كان صادقا عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بعد أن طلب ما طلب أنه لم يعد بالايمان أن جاء بما طلب ، بل ختم القول بأنه لا يظن أنه سيصدق أن جاء •

وان النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلب إلى الله تعالى أن يجيبهم فيما طلبوا ، بل رد طلبهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم ان أجيبوا ولم يؤمنوا ، فإلهلاك كما هلك عاد وثمود ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن شريعته باقية خالدة ، وأن لها معجزة خالدة باقية بخلودها ، فلا تناسبها معجزة تحدث ثم تنتهي .

وقد حدثوا أنهم لما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام تلك الأسئلة وطلبوا تلك المطالب أوحى « ان شئت أن تستأنى بهم وان شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كذبوا هلكوا كما أهلك من قبلهم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أستأنى بهم » .

ولقد روى أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن لك ، قال عليه الصلاة والسلام وتفعلون ذلك ، قالوا نعم ، فدعا ، فأتى جبريل فقال : « ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة ، قال الرعوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه بل التوبة والرحمة » .

وان مطالبهم والرد عليها قد سجلها القرآن الكريم فقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« وقالوا لمن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتينا بالهـ والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » .

وقد أشار سبحانه وتعالى الى هذه المطالب في آيات أخرى ، وبين أنهم لو جاءتهم لا يؤمنون ، فقال تعالى كلماته : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالصق لما جاءهم فسوف يأتهم انباء ما كانوا به يستهزئون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

طلبوا كل هذا لا ليؤمنوا ، فقد سبق القول بالكفر ، وإذا سبق الاعتقاد الباطل في أمر ، فإن كل الاتجاهات لاثبات هذا البطلان ، بالسلب إذا لم يأت لهم الدليل الذي يريدونه ، وبالإيجاب بالانكار وعدم الاقرار ، فإن التعنت لا تزيده قوة الدليل الا اصرارا ، وكثرة الأدلة الا لجاجة في الانكار .

وان الله تعالى قد اختار لهم القرآن دليلا ، ليعطيهم فرصة للتفكير ، وهو يخاطبهم في آن الدعوة ، وقد تتولد التوبة والغفران . أما الأدلة الحسية ، فإنها تجيء دفعة ، فاما العقاب واما الايمان ، وفي الماضي عبرة فما جاءت آية من نوع ما يطلبون الا كانت النتيجة هلاكاً ولم تكن اذعانا ، لأنهم ما كانوا ليذعنوا بالحق ، بل قد سبق الكذب ، وقد قال تعالى يشير الى ذلك : « وما متعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا » .

٢٤٣ — ما كانت هذه الأسئلة ، الا لاطهار النبي عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، وإذا ظهر عجزه في زعمهم اتخذوا من ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه ، وللوقوف ضد ينبوع الايمان الذي يسرى ، ولا ينقطع ، ولكن هل تحقق ما أرادوا ، لقد ثبت بذلك صدقه ، وأنه لا يريد الا الحق ، والاتباع يزدون ولا بنقصون ولا يرتد أحد ، بل يزدادون ايمانا . وانهم يحيلون موضع الجدل آيات ، والقضية توحيد أو تعدد . فهل يجادلون في الله ، وهو شديد الحال .

## الاستعانة بأهل الكتاب

٢٤٤ — سبق المشركون الى الانكار ، فكذبوا بالحق لما جاءهم ، وسدوا مداخل الايمان الى قلوبهم ، والناس رجلان رجل يدرك الحق بعقله وقلبه فيدركه بمجرد سماعه ، وهذا يطلب الدليل ليطمئن قلبه ، وليزداد ايمانا ، فالدليل لا ينشئ الايمان في قلبه ولكنه يزيده تثبيتاً — هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا » .

وآخر يسارع الى الكفر ، ويسابق بالانكار ، فيكون قلبه أغلف قد سدت مداخل الايمان ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » ، وأولئك لا يطلبون الدليل ليسيروا في نوره ، بل يطلبونه ليعجزوا من يخاصمهم ، وينحرف بهم القول ، وانظر ما قاله تعالى في شأن عتاة المشركين الذين كانوا يقاومون النبي عليه الصلاة

والسلام ، فهو يقول تعالت كلماته : « واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ، وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » \*

أحس المشركون بعد المطالب التي قدموها أن أحدا لم يفقد الثقة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل كانت دليلا على حمقهم ، وانهواهم في هاوية من التفكير ليس معها رشاد ، ان كيف الدليل الذي لو نفذ لمااتوا قبل أن يستجيبوا ، كانزال مطر من حجارة أو عذاب اليم \*

عجزوا عن الاستدلال الذي كشف جهالتهم ، تعمدوا الى الاستدلال الاضافى بالاستعانة بأهل الكتاب عساهم أن يعينوهم ، على وقف التيار العذب الذي يدخل به الناس في الايمان \*

٢٤٥ — روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط الى أحبار يهود بالمدينة فقالوا سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله : انهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء \*

خرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالوا انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا \*

فقاتلت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول ، فروا فيه رأيكم :

(أ) سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب \*

(ب) وسلوه عن رجل طواف : طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه \*

(ج) وسلوه عن الروح ما هي \*

فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، وان لم يخبركم ، فانه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم \*



فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا :

يا معشر قريش قد جنناكم بما يفصل ما بينكم وبين محمد : قد أمرنا  
أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها ، فجاءوا رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم فسألوه عما أمر أحبار يهود •

ويظهر أنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيردهم  
بتكرار دعوة الحق لهم كما فعل أول الأمر • ولكن خاب ظنهم • فقد أمهلهم ،  
ولم يردهم ، لأن ذلك مما يمكن أن تشمل معجزته الكبرى ، وهى القرآن الكريم ،  
ولذا وعدمه بالاجابة ان أجلوه ، لأنه يتكلم من عند الله ، فلا علم له الا من عند  
الله العلى القدير • فقال لهم : أخبركم غدا بما سألتهم عنه ، ولم يستثن أى لم  
يعلق الاجابة على مشيئة الله تعالى •

انصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمس عشرة  
ليلة ، لا يحدث له فى ذلك وحى ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة المكرمة  
وقالوا وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا فيها  
بشيء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكث  
الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة المكرمة : ثم جاء جبريل •

لماذا تأخر الوحى هذه المدة ، ونجيب عن ذلك بجوابين :

أولهما : أنه لم يستثن عندما قرر أنه سيجيب غدا ، فلم يقل ان شاء الله  
تعالى : « ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن شاء » •

وثانيهما : أن مجيء الاجابة بعد طول انتظارها ، وارجاقهم نحوها ،  
واشاعتهم عجز محمد عليه الصلاة والسلام عن الاجابة ، تكون للاجابة فائدة  
أنها تكون أوقع ، ان تكون فى وقت الحاجة اليها ، فيكون فيها فضل تمكين فى  
النفس ، ويكون التحدى أشد تثبيتا فى النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم فى  
نحرهم ، ان يكونون قد تقاولوا فى ذلك ، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا  
بين يديه عجز محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتكون دعوة التصديق للنبي  
عليه الصلاة والسلام •

وفوق ما تقدم فى الأمرين ان التأخير يدل على أن محمدا عليه الصلاة  
والسلام لا يأتى بهذا الكتاب من عنده ، وانما يأتية عن الله تعالى علام الغيوب  
الذى يعلم ما خلق وهو السميع البصير •

٢٤٦ — أجيئوا عن الأسئلة الثلاثة — أجيئوا عن السؤال الأول بأن أولئك الفتية هم أهل الكهف الذين ذكروا فى السورة التى سميت بأسمائهم — ولننقل جزءا من هذه السورة ، فقد قال تعالت كلماته :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه الها لقد قلنا إذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا ياتون عليهم بسلطان بين ، فمن أضلم ممن افترى على الله كذبا ، وإن اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فآووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ۝ ۱۰۰ » الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى :

« واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا » ۰

هذه اجابة السؤال الأول ، وهو شطر من سورة الكهف ، وتلاوته تسمعهم القرآن الكريم ، واسماعهم القرآن الكريم فى ذاته دعوة الى الحق ، والى صراط مستقيم ، وتلاوته يدركوا معنى الاعجاز ۰

وأما الاجابة عن السؤال الثانى ، وهو الرجل الطواف ، فقد جاءت فى آخر سورة الكهف ، ان يقول تعالت كلماته « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سبيبا ، فأتبع سبيبا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس ، وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب ، واما أن تتخذ فيهم حسنا ۰ قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ۰ واما من آمن وعمل صالحا ، فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سبيبا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لا يكادون يفقهون قولا » الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى : « وتركنسا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور ، فجمعناهم جمعا » ۰

وكانت الاجابة عن السؤال الثالث فى سورة الاسراء بقوله تعالى :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » •

جاءت الردود آيات تتلى ويسمعا كل الذين اُرجفوا بعجز محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديهم ، فقرءوها ، أو سمعوها ، فكانت تتلى فيهم فى ضمن ما يتلوه النبى عليه الصلاة والسلام عليهم ، ولا شك أن لذلك أثرا قويا فيهم • وفيمن علم أمر المحاجة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى مقدمه ما سرى فيهم من روح القرآن الكريم ودلائل اعجازه ، فهل آمنوا ؟ من المؤكد زادوا ايمانا بعد ذلك •

## اسماعهم القرآن الكريم

٢٤٧ — عندما ذهب عتبة بن ربيعة يتودد للنبي صلى الله عليه وسلم باسم قريش ، وعرض عليه السيادة فيهم ، أو الملك ، أو المال الوفير ، أو أن يحضروا له طبيبا يعالجه من الرئى ان كان عنده رئى ، فقرأ عليه النبي عليه الصلاة والسلام بعد مجاوبة ترد ما يعرضون قوله تعالى : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم \*\*\* » الى آخر الآيات ، فأتى أصحابه ، فقال لهم : « يا قوم أطيعون فى هذا الأمر اليوم ، واعصوني فيما بعد ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ، ما سمعت أذنائى كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه » •

كان المشركون حريصين على أن يستمعوا للقرآن الكريم بعد أن عرفوا تأثيره ، لا ليؤمنوا ، ولكن ليعرفوه ، وليعدوا العدة ، ولأن بعضهم مع عناده ، وجحوده واصراره كان يخاف تهديده وانذاره ، بل كان يخاف مجرد تهديد من النبي صلى الله عليه وسلم •

يروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبى جهل « يا أبا الحكم فوالله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيرا » فأخذ التهديد قلبه المتحجر ولأنه لحظة من الزمان ، فقال متلظفا مع النبي صلى الله عليه وسلم : « بئسما تعدنى يا ابن أخى من نبوتك » •

ونراه أحسن الخطاب بذكر رابطة وثيقة من القرب فى القبيلة ، وذلك مالم يؤلف من قبل •

كان كبراء قريش يجذبهم القرآن الكريم لاستماعه ، وان لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة ، فقال لقريش فى وصفه « ان له لحلاوة ، وان عليه

لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ما يقول هذا بشر » ولقد نفى أن يكون شعرا ، ودفعته لحاجته فى الإنكار الى أن يقول إنه سحر ، وإن لم يرض بذلك الوصف للقرآن الكريم ابتداء .

وإذا كان المؤمنون قد جذبهم القرآن الكريم ومحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإخلاصهم ، وإشراق قلوبهم بالإيمان ، فالمشركون لعلمهم ببليغ القول ، وشغفهم به ، قد شغفهم القرآن الكريم ، ولكن حالت بينهم وبين الإيمان ظلمات اعترت قلوبهم ، « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » .

ولقد شغفوا بسماع القرآن الكريم ، لا فرق بين صغير وكبير ، والصغير يؤمن والمتعنت لا يزيده السماع إلا كفرا واعتاتا ، فإن قوة الدليل تملأ قلب المخلص إيمانا ، وقلب الحقود الحسود كفرانا ، ولجاجة ، وكلما لج فى عناده زاد بغضا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، والمستجيبين لها .

٢٤٨ — ولقد روى ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل عمرو بن هشام والأخنس بن شريق بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلأوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو راكم بعض سفهائكم ، لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا كان الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

وقد تعاهدوا على ذلك ، وقد قال الله فيهم : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

وكانوا بعد سماع القرآن الكريم يتذاكرون فيما بينهم ما سمعوا ، فقد سأل الأخنس بن شريق الثقفى أبا سفيان عن رأيه فيما سمع ، فقال : « أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . وقال الأخنس ، وأنا كذلك ، وذهب الأخنس من عند

أبى سفيان ، وأتى أبا جهل فقال يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمن ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن أبدا ، ولا نصدقه • وقد نقلنا ذلك الجزء من قول أبى جهل •

٢٤٩ — والمقصود من ذلك الخبر أنهم كانوا ينجذبون نحو سماع القرآن الكريم ، كما يتجه الى السماع والتلاوة المؤمنون ، بيد أن الفرق بينهما ، كالفرق بين من يستمع طالبا الحق مدعنا له ، ومن يطلب غير الحق ، ولكن يجذبه اليه حلاوته وطلاوته •

ولذلك ما كانوا يؤمنون ، وكأن الله تعالى مقلب القلوب جذبهم اليه ليعرفوا البينات ، والأدلة القائمة ليهتدوا ، فان كفروا من بعد ذلك فعن بينة وسماع ، ومعرفة بالدليل ، ثم الاعراض •

وقد كان الاعراض شأن من كتب عليهم الضلال ، ولا معذرة لهم لأنهم اشتروا الضلالة ، ورغبوا عن الهداية ، ومع أنهم كانوا يتهافتون على سماعه فى جنح الليل البهيم ، وكلما تواعدوا ألا يفعلوا نكثوا فى عهودهم كان النبی عليه الصلاة والسلام اذا تلا عليهم القرآن الكريم جهارا ، نهارا استهزءوا ، ولم ينصتوا خشية أن يكثر أتباع النبی عليه الصلاة والسلام ، وكانت دعوته شجا فى عيونهم ، وغصة فى حلوهم •

قال ابن اسحاق كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا تلا عليهم القرآن الكريم ودعاهم اليه ، قالوا يهزءون ، قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون •

فحكى الله تعالى عنهم قولهم : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ؛ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أبنابهم نفورا ، نحن أعلم بما يستمعون به ان يستمعون اليك ، واذا هم نجوى ان يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعبدنا قل الذى فطركم أول مرة » •

وهذه الآيات الكريمة مع ما ذكر من حرص عتاة الكفار على سماع القرآن الكريم يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن القرآن الكريم كان يجذبهم الى الاستماع اليه ، لما فيه من بلاغة تجذب أهل البيان لاستماعه وتعرف منزلته ، وبهذا يدركون الفرق بين كلامهم وكلامه ، ويذكرون الفرق بين البيان البشرى ، وكلام رب العالمين حجة الله تعالى البالغة الى يوم الدين ، وإذا كانت الآيات الحسية تبهرهم وتقرع أسماعهم ، فيراها أكثرهم بينة ، فكذلك تلك الآية المعنوية تجذب قلوبهم وتسترعى أسماعهم ، فيعلم بها الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، وبذلك تقوم الحجة ، وتقوم البينة ، ولا حجة لهم فى الجهل ، ولا فى الاعتذار .

ثانيها : أنهم مع عدم المطالبة بأن يأتوا بمثله قد أحسوا بالعجز عن أن يأتوا بمثله ، كما رأوا فيه من بيان لا يصلون اليها ، وروعة بلاغة لم يستمعوا اليها ، حتى يقول قائلهم ، وقد استمر على كفره وضلاله : « انه يعلو ولا يعلا عليه ، ما يقول هذا بشر ، فهم أذعنوا لبلاغته ، ولم يذعنوا لدعوته ، فاستحبوا الكفر على الايمان ، مع قيام الدلائل .

ثالثها : ان انكارهم سبق الرغبة فى طلب الحقيقة ، ومن كان كذلك لا يهديه دليل ، ولا تقنعه حجة ، لأنه حينئذ لا يطلب حقا ، فلا يحاول أن يتعرف الطريق الذى يتأدى به الى الايمان ، لأن من سلك طريقا معوجا غير موصل الى المطلوب للحق ، لا يصل اليه ، وكلما أمعن فيه بعد عن الهداية وكلما أوغل ازداد نكرا ، ومهما يناديه رائد الحق لا يستمع اليه ، لأنه بعد عنه ، وان يسمع لا يكون جواب من قلبه .

ومن سلك الطريق المستقيم وصل الى الحق ، لأن الأمارات والظواهر هادية قائمة ، والطريق المستقيم هو الاخلاص فى طلب الحق غير مربد قلبه بهوى أو شهوة ، أو أثرة ماحقة للخير مغلفة على النفس أبوابه .

## الايذاء والفتنة

٢٥٠ — منذ جاءت الدعوة المحمدية ، وقد حاول أهل العصبية الجاهلية الذين ينفون على البيت الهاشمى مكانته ، والذين من دأبهم أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله ، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات ، وتحريم الطيبات من الرزق ، وقد حاول كل أولئك مجتمعين ومنفردين الوقوف فى وجهها ، وهى تنمو وتزيد ، تسعى قدما ، ولا تتأخر . وإذا كان السير بطيئا ،

فهو متواصل من غير وناء ولا قصور ، وكلما انبجج نوره واتسعت دائرته ، ظنوا أنها دعوة قابلة للانطفاء ، فحاولوا اطفاءها ، بالحيلة والعرض الذى يشبه الرشوة ، فما أجدى ذلك فتيلا ، وحاولوا الاعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهم خاسئين وقامت الحجة عليهم ، حاولوا أن يهوشوا على القرآن الكريم وهو يتلى ، وتعاهدوا أن يلغوا فى القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم يتلو .

حاولوا كل هذا ، ولم يجد شئ منه ؛ والاسلام سائر فى طريقه ، وان كانت العقبات ، فهي لا تعوق السير ، وان أبطاته ؛ رلم يجدوا سبيلا الا الى أمرين :

أحدهما : الايذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة ، ولمن أثر السلام والعافية ، وهذب قلبه الايمان فاعتقد أن الايمان يوجب عليه الصبر على البلاء ، ولا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها ، وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه صديقه أبو بكر ، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة ولا عشيرة لهم .

ثانيهما : الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليه الصلاة والسلام وهو أبو طالب ، لأنه عمه الذى كفله صبغيرا وهو رأس بنى هاشم وهو الذى يحميه كبيرا .

فلما لم يجدوا واحدا من الأمرين زادوا فى الايذاء وجعلوه جماعيا ، ولم يجعلوه أحاديا فقط ، ووجدوا بنى هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام يحميه بأئمة العشيرة ، الا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لهيا فى جهنم وهو أبو لهب ، فقد كفر بالله ، وكفر بالقراية ، وكفر بالحمية ، حمية العشيرة والنصرة ، وأسلم ابن أخيه ، فضل ضلالا بعيدا .

### ايذاء الضعفاء :

٢٥٩ — قال ابن اسحاق : انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، وبرمضاء مكة المكرمة اذا أشد الحر ، ممن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يثبت ويعصمه الله تعالى منهم .

وقد كان المؤمنون الصادقون يعينون العبيد من المؤمنين الذين سارعوا الى الايمان فى أول الدعوة ، ويعينون الفقراء ليصابروا الذين يؤذونهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل كل ما كان يملكه من مال هو وزوجه خديجة لهؤلاء الضعفاء ، وابتدأ محمد عليه الصلاة والسلام يخرج من المال والنشب ، لكيلا يحاجزه عن الدعوة حاجز ، وليكون ما عنده عون لأهل الايمان المستضعفين منهم •

اذن لقي العبيد أشد العنت عندما اعتنقوا دين الحرية •

### بلال رضى الله عنه واخوانه :

٢٥٢ — كان من أول الناس اسلاما بلال بن رباح ، كان رقيقا عند أمية بن خلف ، كان يخرججه عند الظهيرة فى الحر الشديد فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة المكرمة • ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ؛ ثم يقول له لا تزال على ذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعيد اللات والعزى ، فيحتمل البلاء على أن يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يعود الى الشرك ، فيقول ملهوها : أحد - أحد - ؛ وتأويلها الله أحد • يلفظها فى عجلة لشدة البلاء ، وللمسارعة باثبات الصبر ، وعدم الاستجابة لما يطلبونه ، ولو لاقى أشق البلاء •

ولكن ذا المروءة المؤمن مر عليه وهو فى هذا العذاب ، فكان له غوثا - وهو أبو بكر الصديق ، عتيق النار ومعتق أهل الايمان • فقال لأمية : ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين ، حتى متى ؟

قال أمية : أنت الذى أفسدته فأنتقذه مما ترى •

قال الرجل الكريم أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به •

قال أمية : قد قبلت ، وحسب أن صفقته رابحة ، لأنه أخذ عبدا قويا هو أملك لعنانه •

وأخذ أبو بكر بلالا فرحا بما أعطاه الله تعالى وأعتقه ، وكان مؤذن الاسلام من بعد •

وقد أعتق أبو بكر مع بلال ستة آخرين • فكانت العدة سبعة •



وهؤلاء الذين من الله تعالى عليهم بالحرية فداء لهم من العذاب على يد  
أبى بكر صديق هذه الأمة .

عامر بن فهيرة الذى كان فى الجهاد فى غزوة بدر وغزوة أحد ،  
وأم عبيس ، وزنبرة النهديّة وبنّتها ؛ وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمر  
بهما وقد بعثتهما سيدهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا .  
فقال أبو بكر رضى الله عنه حلى ( أى تحللى من يمينك ) .

فقال له حل أنت ، أفسدتها ، فأعتقهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت بكذا وكذا . قال أبو بكر قد أخذتهما ، وهما حرتان ، أرجعا  
اليها طحينها .

قالتا رضى الله عنهما : أونفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده اليها ؟ قال  
الصديق : وذلك لكما ان شئتما .

ومر بجارية وكان عمر فى أيام شركه يعذبها لتترك الاسلام ، فيضربها  
حتى يمل . فيتركها ملالة لا شفقة . فابتاعها أبو بكر وأعتقها (١) .

ولما كثر عتقاؤه ومعاونته للضعفاء . قال له أبو قحافة أبوه ، وكان  
لا يزال على الشرك يا بنى : انى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت  
ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ، ويقومون دونك .

قال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبت انما أريد ما أريد الله عز وجل .

ويروى أنه نزلت فيه هذه الآيات : « فأما من أعطى واتقى وصدق  
بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى  
فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا  
للآخرة والأولى فأنذرتم نارا تلقى ، لا يصلها الا الأشقى الذى كذب وتولى ،  
وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى  
الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

---

(١) أخبار عتق هؤلاء بعمل الصدق أخذناه من سيرة ابن هشام ج ١  
ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

آل ياسر رضى الله عنهم وغيرهم :

٢٥٣ — هو بيت أسلم كله ، وآمن بالله سبحانه وتعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق • فرأس الأسرة ياسر ، وهو أبو عمار ، عذب ، وأمه سمية ، عذبت ؛ وذهب الفجور بأبى جهل الى أن يضربها برمح فى بطنها فماتت • فكانت أول شهيد فى الاسلام مات فداء لدينه •

وحمل عمار أشد العذاب ، وقبله طيبا راضيا ، ولقد مر به النبى عليه الصلاة والسلام وهو يئذب ، فقال صبرا أبا اليقظان • ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بن ياسر •

وكان آل مخزوم يعذبونهم اذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة المكرمة ، وقد مر النبى عليه الصلاة والسلام بهم ، وهم يعذبون • فقال عليه الصلاة والسلام صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة •

ولقد كانوا أحيانا ينالون منهم حتى يفتنوه عن دينهم ، فينطقون بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب ، ولقد شددوا العذاب على عمار ، وما تركوه حتى نال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فبين له عليه الصلاة والسلام أن لا مؤاخذه على من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان •

ولقد ذكر سعيد بن جببر أنه سأل عبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعذبون به فى ترك دينهم ، قال : نعم أنهم كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة • وحتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله • فيقول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم •

ويقول ابن كثير : « وفى مثل هذا أنزل الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، أولئك هم المغفلون ، لا جرم أنهم فى الآخرة

هم الخاسرون » فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ ، أجازنا الله تعالى من ذلك بسنوله وقوته ، (١) .

### التهديد بالتشنيع :

٢٥٤ — تفننوا فى الايذاء ، فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذون بالتعذيب ، والضرب الشديد ، ولقد بلغت النذالة بأبى جهل اللعين أن يضرب امرأة بالرمح فى موضع عفتها ، حتى ماتت ، من غير أى تحرج من أدب انسانى ، أو عروبة نبيلة ، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه ، أو تمنعه .

ومن كان له عشيرة أخذوه بالتشنيع عليه ، وكان يتولى ذلك أبو جهل سفيهم . وشيخ أرذلهم ، وقد حكى ابن اسحاق فى سيرته ذلك ، فقال : « كان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال له تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال ، والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به » (٢) .

ولقد كان الكافرون من كبرائهم اذا أسلم واحد منهم ، لم يمنعوا أمثال أبى جهل من لومهم . وان كانوا يمنعونه وأشباهه من قتلهم ، حتى لا تأخذهم معرة عصبية جاهلية .

لقد أسلم رجال ، فأراد بنو مخزوم قبيل أبى جهل ، أن يلوموهم على الطريقة التى أشرنا اليها من تسفيه أحلامهم ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهم وأذنوا ، قالوا انا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا ، فانا نأمن بذلك غيرهم .

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حين أسلم أخوه فى النفر الذين أشرنا اليهم ، فقال لهم : هذا لكم فعلكم به فعاتبوه ، واياكم ونفسه ، احذروا على

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ .

نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجلا ، فقالوا فى أنفسهم اللهم اللعنة ، فوالله لو أصيب فى أيدينا لقتل أشرفنا رجلا ، فتركوه ، ونزعوا عنه « (١) » .

ومن كان له دين لا يعطونه ، ويمطلونه اذا أسلم ، بل لا يؤدون الدين .

ومن هؤلاء خباب بن الأرت ، كانوا يعذبونه ، وينزلون به الأذى لأنه لم يكن ذا عشيرة تحميه ، ومع ذلك كانوا يحاربونه فى صناعته ، فلا يعطونه أجر ما صنع .

روى البخارى عن خباب بن الأرت قال « كنت رجلا قينا (٢) » . فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أقتاضاه ، فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ، حتى تموت ثم تبعث ، قال فانى اذا مت ثم بعثت جئتني ولى ثم مال وولد . فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « أفرأيت الذى كفر بأياتنا ، وقال لأوتين ما لا وولدا اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ونثره ما يقنول ويأتينا فردا » .

### مصافحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٢٥٥ — كان النبى عليه الصلاة والسلام يلقى فى قلوبهم ببيان أن الايمان يوجب تحمل المشاق ، وأن ثواب الآخرة ثمنه تحمل ما يقتضيه الحق فى الدنيا ، وبيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلى ايمانهم ويظهر صبرهم .

روى البخارى عن خباب بن الأرت أنه قال : « أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة الشريفة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ؛ فقعد ؛ وهو محمر وجهه . فقال : قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من

---

(١) الكتاب المذكور

(٢) القين الحداد .

صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله عز وجل ٠٠٠ ولكنكم تستعجلون ، ٠

شكا المؤمنون الى النبي عليه الصلاة والسلام من حر الرضاء ، واستنصروا فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فلا ايمان من غير صبر ، وكأنه ينبئهم بما أنبأ القرآن الكريم من بعد ، وهو أن الجنة جزاء الصبر ، وأنه لا بد من الابتلاء : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب » ٠

هذا ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لو دعا عليهم لاجتثهم الله تعالى من فوق الأرض ، وما وجدت للاسلام أحدا تحمل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام من بعدهم ، ولذلك كانت اجابة النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبره بأن الله يطبق عليهم الأخشيين ( جبلى مكة ) قال خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام : « انى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى » وقد حقق الله تعالى رجاءه ، فكان منهم من يعبد الله تعالى ، بل كان منهم من حمل السيف مجاهدا فى سبيل الله ، وكان من أصلابهم من حملوا النور ، الى مشارق الأرض ومغاربها ٠

### الاذى ينزل بشخص النبي عليه الصلاة والسلام :

٢٥٦ — لقد كان لأذى الضعفاء أنين ، وشكوى ، وسمع النبي عليه الصلاة والسلام أنينهم ، فكان له ألما ممضا ، وشكوا اليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة ، وما كان ليكون نبي الرحمة اذا لم يذق من الكأس الدهاق من الآلام التى يتجرعونها ، وما كان ليدعو الى المساواة فى السراء والضراء ، اذا لم يشاركهم فيهما ٠

كان بنو هاشم يمنعونهم من أن يقتل ، ولكنهم ما كانوا ليمنعوه من أن يسفه ويستهزأ به ويؤذى بغير القتل ، بل كان يتجرأ على ذلك سفهاؤهم من أمثال أبى جهل ، بل من أمثال عمه أبى لهب الذى سلب ابنه اللعين ابن اللعين من أن يتغل فى وجه النبي عليه الصلاة والسلام فى حضرة كبير البطحاء أبى طالب الكريم ابن الكريم ٠

وانه يروى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص ، قال : « بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة الشريفة

اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه ، حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا قوله تعالى : « اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبيانات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

بل ان أبا جهل لعنه الله ليرمى فرث الجذور عليه ، وهو يصلى صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والنبي ساجد فتجىء فاطمة الزهراء وهى صغيرة ، فتلقيه عن ظهر أبيها وهى تلعنهم .

وان الفجر ليصل بأبى جهل اللعين الى أن يهم بقتل النبي عليه الصلاة والسلام غير عابىء بأن يتحرك بنو هاشم للأخذ بثأره ، وأنه لن ينجو من يد أبى طالب وسيف الله حمزة ، فيجتمعوا فى ثأره ، وان تفرقوا فى اتباعه فى دينه ، ولكنه الحقد الدفين يعمى ويصم ، فلا يفكر الأحق فى مغبة عمله ، ولكن يفكر فقط فى شفاء غيظ نفسه الذى لا يكظمه .

حدث ابن اسحاق بسنده أن أبا جهل شيخ السفهاء من قريش وقف بينهم يقول :

يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ؛ وانى أعاهد الله لأجلس له غدا بججر ؛ فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . . . فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم . فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده . . . وقام اليه رجال من قريش فقالوا ما بك يا أبا الحكم ، قال : قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ؛ فهم أن يأكلنى » (١) .

---

(١) الهامة الرأس والقصرة الرقبة - راجع الخبر فى البداية والنهاية

لابن كثير ج ٣ ص ٤٣ .

وقد روى مثل ذلك البيهقي والامام أحمد . وان كان ماروى عن أحمد موجزا عن ذلك .

### مهابة محمد عليه الصلاة والسلام :

٢٥٧ — هذا بعض ايداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المشركين ، دع استهزأهم اذا سار أو تكلم ، ودع رميهم له بأنه ساحر ومجنون ، ودع معاندتهم له ، وهو يدعو القبائل الى الاسلام ، فهل كان ذلك سببه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن المهيب ، وأنه كان الهزيل الذى يجترأ عليه ؟ .

والجواب عن ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان المهيب فى شخصه ، والقوى فى ذات نفسه ، والذى آتاه الله تعالى القوة الانسانية الكاملة ، فهو المهورب المحبوب الذى لم يرد أن يكون مرهوبا ، وان أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغفرون بالكرماء ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام كريما ، ولم يرد أن يكون مخوفا مفزعا ، بل أراد أن يكون أليفا قريبا دانيا ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهبهم .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يفرض الرهبة فى قلوب المشركين ان كان لذلك موضع ، ولنذكر موضعين كانت فيهما مهابة الرسول فاصلة ، قاطعة حاسمة :

**أولهما :** ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : « رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أعلامنا وشم أباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا منه على أمر عظيم . فبينما هم فى ذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل بمشى ، حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت فى وجهه ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها فقال لهم : أنسمعون معشر قريش ، أما الذى نفسى بيده لقد حننكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنا على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرقوه ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول .

ان هذا الذى أفزعهم عزمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذتهم الدهشة ، وأرعبتهم الهيبة ، وإذا كانوا بعد ذلك تكاتفوا واعتزموا أن يؤذوه فى مكانه هذا ، فان هذا لا يمنع تأثير مهابته فيهم ، وما استطاعوا لها ردا الا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، واصرار على مقاومة الهيبة ، ولو أرادها فى الثانية لكان أفزع لهم ، وأروع ، ولكنه كان يميل الى اللين دائما •

**الثانى :** ما كان فى قصة الاراشى ، فقد قدم رجل من اراش بابل له الى مكة المكرمة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشى ، حتى وقف ينادى فى قريش ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد ، فقال الاراشى : « يامعشر قريش من رجل يعدينى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى •

فقال من بالمجلس من قريش مستهزئين بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ترى ذلك الجالس ، مشيرين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما يعلمون من عداوة أبى جهل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذهب اليه فهو يعديك عليه » •

أقبل الاراشى حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فذكر له ذلك ، فقام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم العظيم معتزما انصاف الغريب ، ولا سلطان معه الا شخصه ، وعون الله تعالى •

فلما رأى المجلس القرشى المشرك قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ماذا يصنع •

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاء الى دار أبى جهل ، فطرق الباب طرقة من اعتزم أن يملأ ارادته على هذا الطاغوت الفاجر •

قال من هذا ؟ قال محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، فاخرج •

خرج اليه وما فى وجهه قطرة دم ، وقد انتقع لونه •

قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزمة مرهبة لمثل أبى جهل : أعط هذا الرجل حقه •

قال الطاغوت المتخاضل : لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه •



انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أحق الله الحق ، بهيبة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال للاراشى الحق لشائك • أقبل الاراشى على المجلس الذى وقف يدعو ناديه لينصروه ، فقال عن النبى عليه الصلاة والسلام جزاه الله خيرا فقد أخذت الذى لى •

وقال الرجل الذى أرسلوه مراقبا للمواقعة : « رأيت عجبا ، والله ما هو الا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه » •

جاء أبو جهل فقالوا له : « ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال ويحكم ، والله ما ان طرق على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته وأثنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلنى » •

**لماذا لم يرهيبهم صلى الله عليه وسلم بهيبته :**

٢٥٨ — لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون مقاومة كأبى بكر وعثمان وجعفر بن أبى طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينالون الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يقاومون بها •

ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة بطش ، ويذيقهم الكأس الكؤسا ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ، لأنهم يتوقعون منه المقاومة ، ولا يأمنون مغبتها ، فقد علم ذلك أبو جهل اللئيم بموضعها من رأسه ، ولم ينالوا بالأذى عمر بن الخطاب الذى شوه وجوههم ، وأرغم معاطسهم ، وطاح بهم مجتمعين ، ولم ينالوا بالأذى لذلك ، فقد كانوا يخافونه ويرهبونه •

وما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، دون عمر مهابة ، بل أعلى من ذلك كثيرا ، ولا دون حمزة قوة نفس ، ولا قوة بدن ولكنهم نالوا منه ، فلماذا لم يستخدم مهابته وقوة نفسه وشخصه ، مثل ما أجاز له عمر وعمه حمزة ، اذن لارعوى مثل أبى جهل فى نذالته ، ولكنه لم يفعل ، وتحمل الأذى فى سبيل الدعوة ولم يرهب ولم يفزع ، بل رضى بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء •

وان ذلك هو عمل النبوة ، انه عليه الصلاة والسلام ما جاء مسيطرا ، ولكن جاء مبلغا ، وما جاء متحكما • ولكن جاء داعيا مقنعا ، فلو استخدم

هيئته وأظهر الرهبة لاتبعة الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ، ولبدأ النفاق فى الذين يجيبون دعوته ، وليس الدين بقائم على المنافقين غير المؤمنين •

ان الرسول الأمين يريد مؤمنين يدخلون فى الاسلام رغبا لا رهبا ، ولا يكون عن خوف أيا كانت صورة الخوف • ان الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاء ليحملة الذين شاهدوا وعابنوا الى الأخلاف من بعده ، لأنه دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ، فلا بد أن يحملة مؤمنون لا مجرد تابعين • ولا يكون ذلك الا اذا كان الايمان القوى الذى يصبر صاحبه ويصابر فى خضرة النبو عليه الصلاة والسلام ، وينزل به البلاء فى حضرته فيحس عليه الصلاة والسلام بقوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة فى مشارق الأرض ومغاربها •

ان الذين يدخلون فى الاسلام بهيئة النبو عليه الصلاة والسلام سرعان ما يتركونه اذا غاب عنهم ، واعتبر ذلك بحال المؤمنين فى المدينة فانه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لأهل الايمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا فى الاسلام تابعين غير مؤمنين ايمان الصابرين المصابرين •

وكان من المسلمين بالاتباع بالايمان المجاهد الصابر ، وكان منهم الأعراب الذين ساروا مع القوى ، وقال فيهم الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله تعالى أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن » وان ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعا فى دعوته متطامنا لمن يخاطبهم ، ليس فظا ولا غليظ القلب ، ولا مرهبا ولا مفزعا •

وان تطامن النبو عليه الصلاة والسلام كما جراً عليه الأقوياء الذين يؤذون الحق اذا بدا وضحه المبين ، قد قرب اليه الضعفاء وبهم كانت الدعوة الاولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم •

وان تطامن النبو عليه الصلاة والسلام والاعتداء عليه قرب بعض الأقوياء ولم يبعدهم • ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لأنهم يرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان يسمح لأحد أن يؤذيه الا لطيب نفس ، فيكون الايذاء جاذبا للأنظار مستترعا للذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الأحرار ، فيدعهم ذلك الى التفكير فى الذى

يدعو اليه من غير تمييز لهم ، ويكفى ذلك للدخول فى الاسلام مناصرا غير محارب ولا ، جامل .

من أجل ذلك ولأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتأتى للأمور بيسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف .

## الهجرة الى الحبشة

٢٥٩ — عدد الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وتابعوه فى الصبر على الأذى يزيد ويكثر ، ولم يقتصر على الضعفاء . بل دخل فيهم أشراف من مكة المكرمة ، وبتزايد العدد يتزايد الاضطهاد ويكثر ويتنوع . فمن اذى بالأيدي والسيوط ، واللقاء فى الرمضاء فى الحرور ، ومن أفعال لا تصدر الا عن السفهاء الأذال . كما فعل أبو جهل مع النبی عليه الصلاة والسلام وغيره ، ومن استهزاء وسخرية ، ومن منع من العبادة . ويجدون فى نوى الكرامات مرتعا خصيبا للنيل من كراماتهم .

أصبح الايذاء عاما ولا مناص من التخلص منه ، وهم بمكة المكرمة وما حولها فلابد من الهجرة « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » والى أى أرض يهاجرون .

لابد من أرض تتوافر فيها الحرية ، وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش . ولهم مكانة فى القبائل ، وتكون تحت سلطان حاكم فيه طيبة لا يؤذى ولا يمكن أحدا من الايذاء . حتى يكونوا فى بعد عن الاضطهاد واحتماله .

وذلك فى أرض الحبشة . فهى بعيدة عن سطوة قريش . وهى لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من قبائل . وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر ، فأشار النبی عليه الصلاة والسلام بالهجرة اليه . وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه وقد رأى البلاء ينزل بهم . وهو لا يقدر على منعه عنهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

كانت أول زمرة من الهجرة الى الحبشة فى السنة الخامسة من مبعث النبی صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولا شك أن الهجرة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى ، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أزهقوا بها عسرا ، وهذه الثمرة هي التعريف بالاسلام ، وبالمبادئ الاسلامية ، فقد وقف جعفر بن أبى طالب المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي يبين الحقائق الاسلامية ، وما يدعو اليه دين الوحدانية من صلة الأرحام ، والحث على مكارم الأخلاق ، وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المغرقة . وقد نقلنا ذلك من قبل .

وهناك ثمرة أخرى أن الهجرة الى الحبشة تعرف النصارى بالاسلام ، وما قاله فى عيسى عليه السلام . فهي تزرع الاسلام فى أرض غير أرض مكة وتباينها ، كما أن الهجرة من بعد ذلك الى المدينة كان فيها تعريف اليهود بالاسلام ودعوتهم اليه . فأسلم من أسلم وكفر وقاوم وعاند من كفر : « من اهتدى فلفسه ، ومن ضل فائما يضل عليها » .

وقد هاجروا زمرا ، وكان فى أول زمرة عثمان بن عفان ومعه رقية بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والتي تزوجها ذو النورين عثمان بن عفان بعد أن تركها وأختها ابنا أبى لهب اللعين ، وكانت عدة الزمرة الأولى نحو عشرة من الرجال والنساء ، ثم توالى الهجرة بعد ذلك .

ويقول ابن اسحاق : كان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين سوى ابنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين .

وقد ناقش هذا الرقم ابن كثير ، وانتهى الى أن الشك فى كون الزائد عن الثمانين ثلاثة ، وروى عن الامام أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نبلى نحوا من ثمانين (١) » .

٢٦٠ — وأبو بكر لم يكن من الذين هاجروا ، ولكن قدر الله تعالى شرف الهجرة فى صحبة أكرم خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه كما روى ابن اسحاق والبخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت « حين ضاقت عليه ( أبى بكر ) مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى تظاهر قريش على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة فأذن له ، فخرج رضى الله تعالى عنه مهاجرا الى الحبشة ، حتى اذا سار من مكة يوما — أو يومين —

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٦٩ .

لقيه ابن الدغنة أخو بنى الحارث بن أبي بكر ، وهو سيد الأحابيش ، فقال الى أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجنى قومي ، وأذننى وضيقوا على . قال ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، أرجع فانك فى جوارى . فرجع معه ، حتى اذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش انى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد الا بخير . فكفوا عنه .

أقام أبو بكر فى منزله ، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلى فيه ، وكان رفيقا ، اذا قرأ القرآن الكريم استبكى ، فيقف عليه الصبيان ، والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فيمشى رجال قريش الى ابن الدغنة ، فقالوا يا بن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، وله هيبة ، ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فآته فمره بأن يدخل بيته فليصنع ما شاء .

فمشى ابن الدغنة اليه ، فقال يا أبا بكر انى لم أجرك لتؤذى قومك ، وقد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال أبو بكر أوارد عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال فاردد على جوارى . قال : قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة . فقال يا معشر قريش : ان ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم « (١) » .

رضى أبو بكر بالبقاء فى العذاب أو الايذاء ، وهو يصلى مجاهرا بصلاته أمام داره ، أو فى فنائها غير معتمد الا على الله تعالى ، ورضى بأن يكون قريبا من النبى متعرضا لما يتعرض له عليه الصلاة والسلام ، مطمئنا الى الأذى راضيا بذلك الجوار الكريم .

#### متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء :

٢٦١ — سافر أولئك المهاجرون الى أرض الحبشة فرارا بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والاستهزاء والسخرية ، فوجدوا حاكما طيبا ، أكرم مئواهم ، وتركهم فى أرضه أحرارا مطمئنين ، ولقد رقى أبو طالب لفراق ابنه جعفر ، وما نزل بالمسلمين من أبناء مكة حتى فروا ، فأرسل الى النجاشى يوصيه بهم .

---

(١) روى هذا الخبر البخارى فى صحيحه .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل اليه كتابا يشير فيه الى البر بهم ويأمر بالاسلام معا ، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام كما جاء فى رواية البيهقى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الذجاشى الأصحم ملكه ،  
الحبشة :

سلام عليك ، فأنى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح (١) الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت ببعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه •

وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، رانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والاسلام على من اتبع الهدى » •

هذا كتاب فيه متابعة لأمرين :

أولهما - أنه يدعو الى الاسلام ، فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والرجل المناسب ، وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق مزدلفا ، لأن العادل يستمع الى الحق ، وهو يكون ممن يستمعون الى الحق فيتبعون أحسنه ، وقد استجاب لدعائه ، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وقد أجاب دعوة النبي عليه الصلاة والسلام الى الاسلام وكتب اليه عليه الصلاة والسلام للمسلم يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) من النجاشى الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، لا اله الا هو الذى هدانى الى الاسلام فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض ان عيسى ( عليه السلام ) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين وأرسلت اليك بأريحا بن الأصحم

---

(١) كان خلقه بنفخة من روح القدس جبريل ، وولد بكلمته •

ابن أبجر ، فانى لا أملك الا نفسى ، وان شئت أن أتيك فعلت يا رسول الله ، فانى أشهد أن ما تقول حق ، •

ونرى من هذا أنه أرسل ابنه فى وفد من الحبشة للالتقاء بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله ،

الأمر الثانى - هو متابعتة العطف على الذين هاجروا ، فقد دعاه عليه الصلاة والسلام الى الاحسان اليهم فى اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوى السلطان •

وانه لفرط محبته عليه الصلاة والسلام للذين هاجروا ، ولاحساسه بوجوب الموفاء ، وشكر من يستحق الثناء ، والمقابلة الحسنة بمثلها على الأقل فان النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاء الوفد الذى بعثه ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته بنفسه ، فقد روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة قال : « قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال انهم كانوا لأصحابى مكرمين ، وانى أحب أن أكافئهم » •

٢٦٢ — هذه متابعة لأصحابه الذين هاجروا الى النجاشى ، وهى متابعة الرحيم الحانى الذى يريد الاطمئنان على أصحابه الذين هاجروا الى تلك الأرض النائية ، ومازال بملكهم حتى صار فى صفهم ، وطابت اقامتهم ، وكرمهم تكريم الأخوة ، لا تكريم العادل فقط •

هذه متابعة الأولياء ، أما متابعة الأعداء ، فقد كانت على النقيض من ذلك ، لم يكتفوا بأن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، بل أرادوا النكاية بهم ، وأن يجعلوا المهجر يلفظهم ، كما لفظوهم لأنهم رأوهم ينشرون الاسلام ويمدون ظلاله الوارمة ، فدفعتهم العصبية الجاهلية لأن يفسدوا عليهم طيب الاقامة ، والقرار ، واستقامة أمورهم ، فأرسلوا من يحاول افساد النجاشى عليهم •

قال ابن اسحاق : لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسام قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين الى النجاشى فيردهم عايهم ، ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من الأرض التى

اطمانوا بها ، وآمنوا فيها ، فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص (١) ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشي ليغروه بها .

ولقد أزعج المهاجرين الأبرار . روى عن أم سلمة أنها قالت : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا اتئتموا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين ، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة . فجمعوا أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم . فخرجنا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار (٢) .

لقد نفذ الرسولان ما أوصاهما به قومهم ، وقدموا لكل بطريق هديته وذكروا عند اعطاء كل واحد هديته ، أنه جاء اليهم غلمان من سفهاءهم في زعمهم ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم ، فإذا تكلم الملك فيهم فاشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلوا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فوعدهم البطارقة بما طلبوا .

مهدوا للقاء الملك ذلك التمهيد القائم على رشوة البطارقة ، ثم التقوا بالنجاشي ، وقدموا هداياهم قبل أن يتكلموا ، ثم تكلموا في غيبة المهاجرين ، فقالوا :

« أيها الملك انه قد ضوى (٣) الى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم اليهم ، فهم أعلوا (٣) بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه . »

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٤ .

(٢) ضوى معناها لجأ .

(٣) أي أبصرهم .



عندئذ تكلم البطارقة ، وحركت الهدايا لهواتهم ، فقالوا : صدقا ،  
أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ،  
ليرداهم الى بلادهم •

أحس النجاشي بالحملة الباطلة ، فرد الكيد ردا حاسما وقال : لا أسلمهم  
إليهم ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى ،  
حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولون  
أسلمتهم إليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهن منهما ،  
وأحسننت جوارهم ما جاوروني •

ذلك هو القول الحق من حاكم عادل ، ثم أرسل الى أصحاب رسول الله  
ليواجههم الرجالان ، جاءوا ، ودعا الأساقفة •

قال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى  
دينى ( وكان لا يزال نصرانيا ) ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد  
الأصنام ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى  
منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه ،  
وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن  
وأبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة  
وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن  
الفواحش وقول الزور • فعدد عليه أمور الاسلام • ثم قال : فصدقناه وآمنا  
به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا  
وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا  
وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان • وأن نستحل ما كنا نستحل  
من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا  
خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا إلا  
نظلم عندك •

قال النجاشي - متعرقا دارسا - : هل معك مما جاء به عن الله شيء (١) •

قال له جعفر نعم • فقال له النجاشي هات ما عندك • فقرأ عليه صدرا من  
كهيص •

---

(١) الخبر بطوله روته أم المؤمنين أم سلمة ، وقد تصرفنا فى بعض  
الكلمات تصرفا لا يخرج الخبر عن الفاظه •

تأثر النجاشي من وضوح الحقائق بين يديه ، وكان فيما قرأه خبر زكريا وما وهبه الله تعالى من يحيى ، ثم جاء فى حمل مريم ان جاء الملك ، وقال لها انى رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ٠٠٠ ثم ولادة عيسى عليه السلام ٠٠ ان النجاشي كان مؤمنا يدرك الحق اذا ألقى عليه ، وكان عدلا . وكان صادق النظر لایمانه وعدله . فبكى من فرط تأثره ، وادراكه الحق حتى اخضلت لحيته ، وقالوا ان أساقفته وافقته ابتداء حين سمعوا ما تلى عليهم .

قال النجاشي : انه والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم قال للاثنيين اللذين بعثهما القرشسيون ، انطلقا ، فوالله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون .

٢٦٣ — هذه هى الجولة الأولى فى الكيد الذى يكيد الباطل لأهل الحق ، وقد كانت النتيجة احقاق الحق ، ولكن عمرو بن العاص لا يقف عند الهزيمة الأولى فى الكيد ، فهو واسع الباع فيه ، فكانت المجابوة بينه وبين صاحبه الذى هو أنقى نفسا .

قال عمرو لصاحبه : والله لأتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له صاحبه : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا .

قال عمرو الماكر : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

جاء الغد ، والتقى عمرو بالنجاشي ، ومعه صاحبه عبد الله بن ربيعة .

قال عمرو : أيها الملك ، انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم وقد وقعوا فى حيرة وخوف ، فقال بعضهم ما تقولون فى عيسى بن مريم ، ولكن الذين تحصلوا اذى قومهم على استعداد لأن يتحملوا غيره ، ولذا قالوا مصممين : نقول والله ما قال نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا على النجاشي قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول .

عندما سمع النجاشي هذا ضرب بيده على الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

والبطارقة حاضرون فتنافروا حوله حين قال ما قال : فقال وان نخرتم  
والله •

ثم التفت الى المسلمين من أصحاب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم فقال ما معناه : اذهبوا فأنتم الآمنون ، من سبكم غرم ، من سبكم  
غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى أذيت رجلا منكم •

انتصر النجاشى الهمام للحق وأهله - ودخل فى الاسلام - كما تدل  
على ذلك مكاتبتة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم التى نقلناها من قبل ، وقد  
رد على قريش هديتها ، كما رد مكيدتها فى قومها وعشيرتها •

ولكن الهدية فعلت فعلها فى البطارقة ، ويظهر أنهم بعد اسلامه تأمروا  
مع بعض رجال الحبشة ، فخرج عليه رجل منهم فكان المسلمون فى فزع ،  
وتقول السيدة أم المؤمنين أم سلمة : « فوالله ما عدنا حزنا أحرزنا قط كان  
أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى ،  
فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرفه » •

٢٦٤ — استقام الأمر للمهاجرين فى الحبشة ، ولم يذكر التاريخ  
وقد أخرجت أم سلمة والزبير بن العوام الذى كان من المهاجرين ، وقد  
عاد الزبير يحمل البشرى بانتصار النجاشى على خصمه ، ففرح المهاجرون  
فرحة ما فرحوا مثلها •

أكانوا يتولون عملا فيها أم كانوا فى ضيافة النجاشى ، لم يذكر التاريخ شيئا  
من ذلك ، لأن مؤرخى السيرة النبوية الطاهرة ما كانوا يعنون الا بحال  
المسلمين • وحال الاسلام ، وتحمل المسلمين للأذى فى سبيل عقيدتهم ،  
يفصلون فى ذلك ما يشاء طالب الحقيقة أن يعرفه ، ولكنهم ما كانوا يعنون  
بالأعمال المادية من صناعة ومكاسب ! ولكن أردنا أن نعرف ما طواه التاريخ  
ولم يذكره ، نتعرفه من صور الرجال الذين هاجروا ، فلا بد أن نتصور من  
صورهم أحوالهم •

لقد كان من بينهم ذو النورين عثمان التقى الطاهر ، وهو مع ذلك التاجر  
الماهر ، وقد خرج ومعه بعض ماله غالبا ، وما كان ليرك عمله فى التجارة  
حتى تاكل النفقة ماله ، ولم يثبت فى التاريخ أنهم كانوا فى ضيافة النجاشى ،  
لأنهم كانوا يتزايدون فى الهجرة ولا ينقصون ، وإذا كان لابد من فرض فى  
هذا ، فهو اننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسبة التى تدر  
عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير اسراف ، ولا تقتير •

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا :

أولهما - أن يكونوا قد قاموا بما يكسبهم القوت ، ولا يعيشون كلا على غيرهم فليس ذلك من مكارم الأخلاق فى الاسلام .

ثانيهما - أن نفرض التعاون الكامل بينهم ، يعين غنيهم فقيرهم ، والقادر منهم العاجز ، وإذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فإن التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها فى أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا ، وبحكم الحاجة اليه ثانيا ، وبحكم الخلق الاسلامى الذى يوجب التراحم والتعاطف ثالثا ، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان فى مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم ، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين واعتاقهم من غير من ولا أذى .

### خدیعة :

٢٦٥ — خديعة أو انخداع على حسب تقدير الأسباب .

لقد فشل الرسولان اللذان ذهبا الى النجاشى ليحرضاه بالهدية الرشوية ، وبالقول المعسول ، وبالايقاع المفسد فى أن يحمله على اخراج من حلوا فى داره ، واستظلوا بعدالته ، وخرجا مذمومين مدحورين .

ولكن أحدهما عمرو بن العاص داهية قریش وماكرها ، أشاع المشائعات بأن قریشا آمنت بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن هذه المشائعات تجاوزت أصدائها ، حتى وصلت الى المؤمنین فى هجرتهم بالحبشة ، فاطمأن الى صدقها بعض المهاجرين ، وظاهر القلب ينخدع ، وقد خدع ابليس من قبل أبانا آدم الطاهر .

عاد من عاد منهم حاسبين صدق الاشاعة ، وكانت عدتهم نحو ثلاثة وثلاثين ، ولكنهم ما ان شارفوا مكة حتى وجدوا الأذى والاستهزاء والسخرية تستقبلهم ، فمنهم من دخل فى حوار بعض كبراء المشركين ، ومنهم من استقبل الأذى صابرا ، ومنهم من حبسه ذور قرابته .

واستطاع الماكرون بذلك أن يعيدوا بعض المهاجرين اليهم ليتحكموا فيهم ، ولكن لم تتم بغيتهم ، لأنه بقيت الكثرة فى أرض الحبشة لم تغتر بهذه الاشاعة الكاذبة التى دفعتها فرية خبيثة مأكرة .

وقد يقول قائل : هل لك من سند يؤيد فرض الاشاعة ، وخصوصا انه تذكر أسباب لهذه الاشاعة غير ما ذكرت وبينت ، وهي قصة المشركين مع النبی صلى الله تعالى عليه وسلم عندما مجد اللات والعزى كما يزعمون وكما جاء فى صحيح البخارى .

ونحن نجيب عن ذلك بما تقتضيه الفروض التاريخية من تعليل لأسباب الوقائع باقترانها بالوقائع الزمنية التى قارنتها ، لقد كانت تلك الشائعة الغربية وكانت فى أعقاب واقعة حقيقية ثبتت ، وهى طرد النجاشى الرسولین اللذين جاءا ليحملاه على الايقاع بالمؤمنين ليخرجهم ، ويستمكنوا من رقابهم ، وحریاتهم ، وليفتنوه عن دينهم ، ويفسدوا رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعقل بلا ريب يربط بروابط منطقية بين الأمرين ، كما اقترنا فى الزمن .

ولا يمكننا أن نفرض السبب الذى يذكره مؤرخو السيرة ، وهو سجود النبی عليه الصلاة والسلام للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ولا بد أن نعرج عليه بالقول ، ولو كانت الرواية فى كتب الحديث ، ونبين استحالة قبوله .

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه فى بيان سبب الاشاعة :

« كان له سبب ، وهو ما ثبت فى الصحيح وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حبس يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه : ( والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ) يقرؤها عليهم ، حتى ختمها وسجد ، وسجد من هناك من المسلمین والمشركين والجن والانس ، وكان لذلك سبب ذكره المفسرون عند قوله تعالى : ( وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنىلقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ) وذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحا . لئلا يسمعها من لا يضعها فى مواضعها . الا أن أصل القصة فى الصحيح . قال البخارى : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبی صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس » . انفرد به البخارى دون مسلم ، وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى اسحاق سمعت الأسود عن عبد الله قال قرأ النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنجم بمكة ، فسجد فيها وسجد من معه غير

شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته ، وقال يكفينى هذا ...  
رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وروى مثله أحمد فى سنده » (١) .

اننا نقرر أن تلك القصة مكذوبة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك لما يأتى :

أولا : أن مقتضاه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقرأ قوله تعالى : « أفرايتم امالات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » زاد بتأثير الشيطان تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى ، فلما أتم السورة تلاوة ووصل الى قوله تعالى : « أقمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ، وانتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوه » سجد سجدة التلاوة فسجدوا معه .

وذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لأن الشيطان لا يتسلط على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى شأن التنزيل والقرآن الكريم ، والا جاء الشك الباطل فى شأن القرآن الكريم ، وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل ، والزيادة ، وتجويز أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مبلغ الرسالة قد اعتراه خرف ، وابتعاد عن مؤداه ، وذلك باطل فما يؤدى اليه باطل بلا ريب .

وثانيا : أن هذه الأخبار لم يسند فيها القول الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن كلها مراسلات ، فلا يلتفت اليها .

وثالثا : أن الذين يقولون هذا القول يسندونه الى تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا نمنىلقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان فى أمنيته ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » فزعموا أنه ألقى فى أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم زيادة تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى » ثم نسخت تلك الزيادة التى ألقاها الشيطان فى أمنيته وأحكم الآيات ، وذلك من شأنه أن يشكك فى أصل القرآن الكريم ، ويبنى عليه المفترون قرونهم ان فى القرآن الكريم زيادة ونقصا ، وذلك قول قائله كافر ، لأنه ينكر ما جاء به القرآن الكريم من أنه محفوظ الى يوم القيامة تصديقا لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

وقد يقول قائل ، وكيف نفسر قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » ٠٠٠ نقول ان التمنى هو ما يتعلق بما يتمناه الانسان بمقتضى غريزته ، فالأنبياء ليسوا معصومين بمجرد غريزتهم من التمنى ، ولكن الشيطان يجيء من جهة الأمانى ، ويزين الأهواء ويحسنها ، فينسخ الله تعالى أى يزيله من قلب النبي عليه الصلاة والسلام ويحكم سبحانه وتعالى آياته الظاهرة والباطنة على النبوة والرسالة والحق ، وبذلك تنزه قلوبهم ٠

وقد يقال وماذا نصنع فى الروايات التى قد رويت عن البخارى كما ذكر ابن الأثير ، ونحن نقول انها رواية أمر يستحيل على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمين ، ومثل هذه الرواية ترد مهما يكن الراوى ، أنقول ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سحر ، وزاد فى القرآن الكريم ما يكون شركا ، والرواية مهما تكن رواية آحاد ، ولو طبقنا قاعدة الشافعى الذى يقرر فيها أن من ينكر حديث خبر الآحاد ، أو خبر الخاصة لا يقال له تب أى لا يكفر ، فكان المؤدى أن نكون بين أمرين أحدهما أن ننكره ولا نكفر ، والثانى أن نقول ما يشكك فى الرسالة والقرآن الكريم فنكفر ! ان الاحتياط لديننا ، ولقرآن ربنا ، وعصمة نبينا أن ننكر نسبة تلك الأخبار لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحتها ، ونؤمن بالقرآن الكريم والنبي عليه الصلاة والسلام بل أن نؤمن بالله تعالى ٠

واننا ننتهى من هذا الى أن نقرر أن سبب اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليس هو تلك الرواية غير الصادقة التى تفتن الناس عن دينهم ، وتشككهم فى القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم ٠

انما السبب مما استنبطناه من سياق التاريخ وارتباط وقائعه واقترائها وهو اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليعود الذين فروا بدينهم ، فينالهم المشركون بأيديهم وألسنتهم ٠

## النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر فى مكة المكرمة

٢٦٦ — نعود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرى جهاده بالمصابرة ولنرى ما تفعله قريش معه ، ومع بنى هاشم الذين أبت مروعتهم أن يسلموا محمدا لقريش يؤذونه أو يقتلونه أو يحبسونه ، وأبو طالب كبيرهم واقف كالطود يحمى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويأبى أن يتركه ، وخديجة فى البيت تواسيه ، فيعود اليها مكدودا من قومه ، ويخرج من عندها مجددا عزمه ، وقد خلع وعثاء النضال ليجدد النضال ، ويتقدم ثابت القدم قوى الارادة ، وقد تزود منها ومن عمه بزاز اليناس بالتأييد ، ومن الله تعالى بالنصرة .

وقريش قد بالغت فى الايذاء ولكنها تحس بأن الأرض تميد من تحتها وقد ازداد عنادها وازدادت لجاجتها وعنفوانها كلما رأوا دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تجد مستجيبا ، وخصوصا أن بعض الأقوياء ذوى الشكيمة قد دخلوا فى الدين الجديد ، فقد دخل عمر فى السنة التى كانت فيها الهجرة الى الحبشة .

وهم فى هذه الشديدة التى وضعوا أنفسهم فيها عدوانا وظلما أرادوا أن يسكتوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن طريق عمه الذى لا يزال على دينهم وهو شيخ البطحاء ، ولهم عليه حق الرعاية ، كما لابن أخيه عليه حق الحماية .

### لقاؤهم بأبى طالب :

٢٦٧ — دبروا أمرهم ، وجمعوا ممن لهم مكانة فيهم وفدا ذهب الى أبى طالب بعد أن رأوا أنه لا يجيبهم فرادى فأرادوا أن يذهبوا اليه جماعة ، والرسول سائر فى طريقه ، لا يعوقه عائق من أذى أو استهزاء أو سفاهة حمقاهم ، فهو ماض فى الطريق الذى رسمه الله تعالى له يدعو بالتي هى أحسن ، من غير أن ينكص على عقبيه ، لذلك تركوه مليا فلم يجادلوه ، وإن كان الأذى مستمرا ؟



ذهب وفداهم الى أبى طالب ، فقال قائلهم :

يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آللهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه وضلل  
أحلامنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن  
عليه من خلافه ، فنكفيكه •

فقال لهم أبو طالب الكيس قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا  
عنه •

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماض على ما هو عليه ، يظهر  
دين الله تعالى من غير مواناة ولا تقصير ، والمسلمون يزدون ، ولا يقلون  
والأمر قد خرج الى القبائل والى الحبشة •

ازداد غيظهم ، واشتد الأمر عليهم بسبب حقدهم ، وتضاغنوا فيما  
بينهم ، وتذامروا ، وتحاضوا على وجوب إيذائهم ، ورأى أهل الروية منهم  
أن يذهبوا الى أبى طالب مرة أخرى ، ولكن بوجه أعنف ، ولسان أجف •

اجتمعوا فقال قائلهم : « يا أبا طالب ان لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ،  
وانا قد استأثيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا  
من شتم أبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آللهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك  
فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين •

فى هذه المرة كان التهديد لأبى طالب باعلان عداوتهم ، وقد أزالوا كل  
المحجز فى القول ، ولم يراعوا سناً ولا شيخوخة ، ولا شرف منزلة كما ذكروا  
فى الأولى ، ولا شك أن تغير لهجة القول كان له أثر فى نفس أبى طالب ،  
وأحس بضيق فى الأمر ، وان لم يتبرم من حماية حبيبه ابن أخيه محمد صلى  
الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يعرض عليه ما أصابه من ضيق ، ويشركه  
فى أمر قومه الذى تفاقم ، فقال له :

يا بن أخى ان قومك قد جاءونى ، فقالوا كذا وكذا فأبى على وعلى  
نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق •

لم تضعف عزيمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد من الله تعالى والذى  
لا يرجو النصر الا منه ، وان كان يرغب فى أن يشعر بأنه فى عزة من أهله ،  
تألم ، لا خوفاً من الأذى ، ولكن لظنه تخلف عمه الحبيب عن نصرته ، وهو  
فى ميدان الجهاد والمناضلة ان ظن أنه خاذله ومسلمه ، وعلم أنه ضعف عن  
نصرته •

الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدرك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر فبكى ثم قام ، وما كان استعباره ضعفا ، ولكن لأنه يرجو من عمه وحببيه ألا يسلمه ولا يخذله •

أدرك أبو طالب الكريم أنه أسرف على ابن أخيه فى ذكر ما كان من قول وفد قريش ، وأنه كرثه بذلك • فلما ولى ناداه : أقبل يا بن أخى ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب العظيم اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا •

تواردت الأخبار على قريش ، وعلموا أنه لا سبيل لأن يصلوا الى محمد عليه الصلاة والسلام ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه وأبو طالب مانعه ، ولكن حيلهم لم تنته ، والرغبة ولو آثمة لا تسكت عند الصدام ، ففكروا ، وانتهوا الى أمر غريب ، وإن لم يكن ظاهر الغرابة عند العرب فى جاهليتهم •

ذلك أن التبنى بكل ضروبه كان أمرا معروفا عند العرب ، أخذوه من جيرانهم الرومان ، فكان من الممكن تبادل الأبناء ، ويمكن تبادل الاخوة ، وأبناء الاخوة فى نظرهم •

ذهبوا الى أبى طالب يعرضون عليه أن يسلمهم ابن أخيه فى نظير أن يعطوه فتى من قريش يكون ابن أخيه بدل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن المحبة سلعة تقبل المبادلة ، والانتقال من شخص ليحل محله شخص آخر •

قال قائلهم لأبى طالب الجليل : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش ، وأجمله ، فخذ ، فلك عقله ونصره (١) ، واتخذ ولدًا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامنا ، ونقتله ، فانما هو رجل برجل •

لا شك أنها فكرة سخيفة يعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويأخذ ولدهم ليحميه ، ولقد سارع اليهم الرجل العظيم ليبدى سخفها •

قال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطون ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيك ابن أخى لتقتلوه ، هذا والله ما لا يكون أبدا •

---

(١) العقل يدفع الدية أى يدفع عنك الدية ، وتدفع عنه ، وينصرک وتنصره •

قومك ، وجهدوا على التخلص . فقال أبو طالب للمطعم لاثما أو عاتبا :  
يا مطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم  
على ، فاصنع ما بدا لك .

وان القوم قد اشتدوا في ذلك ، وكما قال ابن كثير : حقب الأمر ،  
وحميت الحرب ، وتناذب القوم ، ونادى بعضهم بعضا (١) .

٢٦٨ — لقد صار أبو طالب في أمر مرير ، وشدة من قومه ، وهو  
لا يريد أن يتخلى عن ابن أخيه مهما تكن الأحوال ، ومهما تكن الشديدة ،  
فشيخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شيء في سبيل مروءته وهمته ،  
وعزمته الهاشمية ، ولقد أدنى ذلك مؤقتا أبا لهب إلى أخيه رحمة به وشفقة  
عليه ، فغضب على قريش لأنها أخرجت شيخها ، وجعلته من الأمر في عسر ،  
وخصوصا أنه أراد أن يجعل ابن اخته أبا سلمة في جواره ، كما أن محمدا  
في حمايته ، فقالوا يا أبا طالب : أنت منعت ابن أخيك محمدا ( عليه الصلاة  
والسلام ) فمالك ولصاحبك ( أي أبا سلمة ) تمنعه ، فقال : انه استجار بي ،  
وهو ابن أختي ، وان أنا ان لم أمنع ابن أختي لا أمنع ابن أختي .

أخذت الحمية أبا لهب من طول المضايقة لأخيه فقال مهددا :

يا معشر قريش ، أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه  
في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام فيه ، حتى  
يبلغ ما أراد .

كان أبو لهب في صفهم ، وخشوا أن ينحاز إلى محمد ( صلى الله تعالى  
عليه وسلم ) كما انحاز أخ له من قبل فدخل في الاسلام وهو حمزة بسبب  
ما فعله أبو جهل مع محمد عليه الصلاة والسلام .

ولذا سارعوا إلى ارضائه فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ،  
وكان لهم ولها وناصرا .

بهذه الوقفة القوية طمع أبو طالب أن يكون معه في نصرته لمحمد عليه  
الصلاة والسلام ، لتكون الأسرة كلها في حماية أفضلها وأكرمها ، ولكن هذه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٨ .

الوثبة كانت ومضة برق لم تزل أن انطفأت ، أو كانت كقدر من الماء لا يكفى لانطفاء الحقد والغيط ، واستمر أبو لهب فى لهب ، فقد استمر فى عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام ، ومولاته لأعدائه يشترك فى قتلهم وايدائهم ، لا تحركه مروءة ، ولا شفقة على ابن أخيه ، ولا أخيه الشيخ •

## المقاطعة

٢٦٩ — برمت قريش بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبرمت بنى هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصوصا أبا طالب الذى ضاعت عنده الحيل والتهديدات ، وهو مرتفع شامخ كالطود تنسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور فى عزيمته •

ولما وصل بهم الأمر الى هذا الحد ، اعتزموا الشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يبالون أبا طالب ، وبنى هاشم معه •

علم أبو طالب بما بيتوا وما دبوا فنادى بنى عبد مناف أن يناصروه فى منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجبه من بنى عبد مناف الا بنو المطلب الذين كانوا مع بنى هاشم جاهلية واسلاما ، وبنو هاشم مع أبى طالب الا أبا لهب الذى أبى الا أن يكون مع قريش فى غلوائها وفيما أرادت بآبن أخيه ، ولنترك الكلمة لما روى عن الزهرى :

« ان المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علانية • فلما رأى أبو طالب جمع بنى المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شعبهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله • فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فممنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله ايمانا و يقينا • فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش • فأجمعوا الا يجالسوهم ، ولا يبائعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • وكتبوا فى مكرهم صحيفة ، وعهدوا ومواثيق ، الا يقبلوا من بنى هاشم صلحا ابدا ، ولا يأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للمقتل » •

« لبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركوا لهم طعاما يقدم مكة المكرمة ، ولا يبعوا الا بادروهم اليه فاشبتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

« وكان أبو طالب اذا أخذ الناس مضاجعهم - أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاضطجع على فراشه ، حتى يُرى ذلك من أراد به مكرا واغتialا له » .

« وكان أحيانا يأمر أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه » .

وهكذا كان العم العظيم يحتاط للغيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فينيمه فى منامته ، متعرضا للغيلة بدله وهو الشيخ الفانى ويفير مكان الرسول من وقت لآخر ، فيجعل مكانه بعض بنيه هو أو اخوته أو بنى عمه من بنى المطلب أو غيره ، وبدون ذلك كان يفى للعصبية ، ولكنها الشفقة والمحبة والرفقة التى ألقاها الله تعالى فى قلب أبى طالب العظيم .

اشتد البلاء على المؤمنين ، وبنى هاشم وبنى المطلب ، حتى كان الأطفال يتضاغون من شدة الجوع ، وقد كانت المقاطعة كما روى ابن اسحاق كاملة ، فقد كانت تشمل المناكحة ، لا ينكحونهم ، ولا ينكحون منهم .

**الأرضة تمنع اسم الله تعالى من مواشيهم :**

٢٧٠ — مكث بنو هاشم وبنى المطلب وعلى رأسهم أبو طالب ، والنبي عليه الصلاة والسلام معهم فى هذه القطيعة ثلاث سنين دابا ، وهم يرون صبيانهم يعرضهم الجوع ، ولكن الكبار لا يذهب بهم الفزع ، فيستجيروا لأنفسهم أو أن يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فألقى الله تعالى بالصبر فى قلب المؤمن والكافر معا .

**ولقد أظهر الله تعالى آياته فى أمرين :**

أولهما : أن الأرضة جاءت وأكلت كل كلمة فيها اسم الله تعالى أو صفاته التى عاهدوا الله تعالى عليه أن تكون القطيعة دائمة ، وكان الله تعالى ألهم الأرضة أن تعلمهم أن اسم الله تعالى لا يصح أن يكون فى وثيقة ظلم وفسق

عن أمر ربهم ، وقد أطلع الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الصادق المصدق على ما فعلته الأرضة بالهام من رب العالمين ، تعالت قدرته ، وعظمت منته •

الأمر الثاني : أنه تشققت الرحمة من قلوب هؤلاء الذين تعاهدوا على الظلم والعدوان ، كما تتفجر الأنهار من بعض الأحجار ، فانه على رأس السنين الثلاث التي مرت ببني هاشم تلاوم رجال من بطون قريش ، من بني عبد مناف ، وقصى ، ورجال من قريش ، قد ولدوا من نساء من بني هاشم ، رأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم على نقض الصحيفة ، والبراءة مما جاء فيها ، وقيل انها كانت معلقة بسقف البيت •

بيننا هذا التفكير قد سيطر على الملأ من قريش قد ذهب أبو طالب اليهم يخبرهم بأن الأرضة أخلت من صحيفتهم اسم الله ، وأبقت فيها الظلم والفسق الذى دونوه ، وتعاهدوا عليه •

انطلق الرجل العظيم أبو طالب ، ومعه العصابة من بني عبد المطلب ، فقال فى جمع حافل من قريش :

قد حدثت أمور بينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فعله أن يكون بيننا وبينكم صلح •

فطمعوا أن يسلم بنو هاشم محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأتوا بالصحيفة معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيدفع اليهم ، فوضعوها بين أيديهم ، وقال قائلهم :

قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا الى أمر يجمع قومكم ، فانما قطع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطرا لهلكة قومكم •

فقال أبو طالب انما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف ، ان ابن أخى أخبرنى ، ولم يكذبنى أن الله برىء من هذه الصحيفة ، ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك غدركم ، وقضيتكم ايانا • وتظاهركم علينا بالظلم ، فان كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال ، فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبدا ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، وان كان الذى قاله باطلا رفعناه اليكم ، فقتلتموه أو استحييتم •

قالوا رضينا بالذى تقول ، وكأنهم فهموا أن النتيجة أن يسلمهم لوثوقهم من صحيفتهم •

فتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال الصادق المصدق ، وسنبنين بعض الصحيفة من البيان ، ومن دعا اليه ولم يذعنوا للحق اذ جاءتهم بيناته ، بل أصروا على الكفر والعناد ، وقالوا مقالة الكفر ، وقالوا ان هذا الا سحر من صاحبكم وارتكسوا ، وعادوا بشر مما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فزادتهم الآية كفرا •

فقال قائل للنفر من بنى عبد المطلب الذين كانوا فى صحبة أبى طالب : ان غيرنا أولى بالكذب والسحر ، فكيف ترون ، فاننا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى الجبت والسحر ، ولولا انكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم ، وهى فى أيديكم ، طمس ما كان فيها من الحنث ، وما كان من اسم الله ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟

كانت كلمات أبى طالب ومن معه من أسرته ان لم تكن قد شفت قلوبهم لقبول الحق ، فقد شقت صفوفهم التى كانت مجمعة على الباطل • فظهر النفر من بنى قصى وبنى عبد مناف ، وغيرهما وكانوا قد تلاوموا من قبل على الصحيفة وأمرها ، وفيهم من كانت الصحيفة عنده ، وجأهروا بما فى نفوسهم وقالوا حاسمين قاطعين ، غير مترددين ، ولا ناكسين • قالوا فى حزم ، نحن براء مما فى هذه الصحيفة •

وقال أبو جهل الخبيث فى ذات نفسه ، والضال فى فكره وعقله ، وهذا أمر قضى لبلىل (١) •

٢٧١ — وان النتيجة التى تستخلص من هذه القصة أن قريشا بلغت بهم لاجاة الكفر أن يحاولوا قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يندفعوا فى ذلك ، لا ينظرون فيه الى عاقبة من تصدى بنى هاشم لهم ، للأخذ بثأره منهم ، ولعله كان قد ابتدأ التفكير عندهم فى تفرق دمه فى القبائل ، بحيث يضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يكون لبنى هاشم قبل بالثأر فيقبلوا وتتم الراحة لهم فى زعمهم ، اذ يستأصلون الدعوة من جذورها ، اذ يقتلون صاحبها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يستقبل ذلك التدبير اللئيم استقبال من يستعين بالله ، ولا يستعين بغيره •

ولكن عمه العظيم يحمل العبء ، ويتحمل الأذى ، ويحاول وقاء محمد عليه الصلاة والسلام بكل الأسباب ، حتى انه ينيمه فى مضجعه متحملاً

---

١ (١) أخذ ملخص القصة من كتاب سيرة ابن هشام ، ج ١ ومن كتاب البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ وما فيها •

ما وراء ذلك ويستعد لفدائه بنفسه ، وهو لا يزال على دينهم • ولم يخرج الى الدين الجديد ، وان كان يظهر أنه فى دخيلة نفسه كان يعتقد صحته وقد بدا ذلك فى بعض شعره •

وانه يبدو من نهاية القصة أنه كان فى قريش من تألم من الأمر الذى نزل باخوانهم ، ولعله كان فيهم ميل لتصديق محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك دخل الأكثرون منهم من بعد فى الاسلام •

وان نهاية الخبر تدل على أن بعض قريش ، وان دخلوا فى الحلف طائعين كانوا لنتائج كارهين ، فلم يستطيعوا تحمل نتائج ما عقدوا عليه حلفهم بعد أن رأوه واقعا ، وأنهم كانوا يرونه تهديدا ، ولا يرونه أمرا صالحا للنفاد ، وقد عظم عليهم عندما رأوه نافذا •

ولقد كان منهم من يرسل الطعام سرا ، ومن يعلم ذلك من ذوى الصلة منهم لا يستكره •

يروى فى ذلك أن حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخى خديجة ذهب ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة بنت خويلد وهى عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل ، وقال أذهب الى بنى هاشم ، والله لا تذهب أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة •

عندما قال أبو جهل ذلك تعرض له أبو البختري بن هشام بن الحارث ابن أسد وقال له مالك وله فقال يحمل الطعام الى بنى هاشم • فقال له أبو البختري منكرا عليه فعله : طعام كان لعمته عذبه بعثت به اليه أتمنعه رجل يأتيا بطعامها ، خل سبيل الرجل •

أبى أبو جهل أن يخلى سبيل حكيم بن حزام ، وتلاعنا ، وقال كل من صاحبه •

لم يكن لأبى جهل أن يعامل الا بالضرب ، فأخذ أبو البختري لحي بغير ، فضربه وشجه ، ووطئه ووطئا شديدا •

وحمزة بن عبد المطلب يرى ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبنى هاشم فيشمتون بهم ، وهكذا كانت الأطعمة تذهب اليهم وكان من كتاب الصحيفة من لم يرض بتنفيذها وكان يرجو انهاءها ، ولكن ذلك لم يمنع المشقة الشديدة التى لقيها بنو هاشم وبنو المطلب من قومهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم أشدهم مشقة واحتمالا •



## الرسول صلى الله عليه وسلم مستمر فى دعوته

٢٧٢ — اذا كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول عليه الصلاة والسلام وأسرته أسباب العيش السهل ، وضيق عليهم السبل فى الرزق ، فانها لم تمنعه من دعوته ، فهو قائم بالليل والاقامة فى ضيق الرزق ، ولكنه ليس برما ولا متمللا ، مادام يستجيب لأمر الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فأعرض عنهم واستمر فى دعايته ، والله تعالى يمدده بالعون والتأييد بنصره ، فهو فى أئس من ربه ، وإن كان فى وحشة من قومه ، ولكن شعاره دائما : « اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون » « وانى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى » . والجدل مستمر بينه وبين أحادهم يدعوهم الى الحق ، فيصدون بالباطل .

ولقد وصل التهافت بأبى جهل أن يكفر بملته كلها ، فيسب الله تعالى ، وفى ديانتهم أن الله هو خالق السموات والأرض وان كانوا يشركون الأنداد معه ، لقد قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن الهك » ولأن أبا جهل ومن على شاكلته لا دين لهم الا العصبية الجاهلية ، ولا يؤمنون بشيء لا يتوقع منه أن يسب الله تعالى ولكنه سبه فنزل النهى عن سب الأحجار والأوثان ، وتكون الدعوة الى التوحيد المجرد ، وبطلان عبادة الأوثان ، فقال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » .

ولقد كان منهم من يحسب أنه يحاكي القرآن الكريم ، فيأتى بقصص من أخبار الفرس وحروبهم يسلى الناس عن القرآن الكريم ويبعدهم ، ثم يقول للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا قوم والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه الا أساطير الأولين أكتبها ، كما أكتبها ، فيحكى عنهم رب العالمين قولهم ، ويرده عليهم بالقرآن الكريم يتلى ، فيقول الله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين ، أكتبها فهي تملى عليه بكثرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السس فى السموات والأرض انه كان غفورا رحيفا ، وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » .

هم يكذبون القرآن الكريم ، ويعبثون بحقائقه ، وهم الذين يفرون من سماعه ، فاذا تهكموا عليه انتظروا ما يقال فى تهكمهم فيهم القرآن الكريم على مسامعهم ، ولا يستطيعون منه فرارا ، ولا ينفكون عن سماعه .

ومنهم من كان يحسب أنه يناقض معانى القرآن الكريم بحقائق من الأديان السابقة أو بما حسبه كذلك • ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس بينهم ، ويتلقى مجاللتهم ، ويدعوهم بالتى هى أحسن ، غير مدخر بابا من أبواب الاقتناع بالحق الا سلكه ، يروى ابن اسحاق فى السيرة ما يأتى :

جلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغنا يوما مع الوليد ابن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أقحمه ، ثم تلا قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير ، وهم لا يسمعون » •

ثم قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزبيرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم • فقال عبد الله بن الزبيرى : أما والله لو وجدته فخصمته ، فسلوا محمدا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول ابن الزبيرى ، ورأوا أنه قد احتج وخصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحكيم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فى النار • فنزل قوله تعالى : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيستها ، وهم فيما اشتتهت أنفسهم خالدون » أى عيسى وعزير ومن عبد من الأبحار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى • ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم يأمره يعلمون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » •

وقال تعالى فى اعجاب المشركين بقول ابن الزبيرى : « وما ضرب ابن مريم مثلا ، اذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون » •

٢٧٣ — ان هذه الأخبار التي كان فى القرآن الكريم رد عليها ، تدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن هؤلاء كانوا يجادلون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم كانوا يستعينون بما عند غيرهم من علوم ، كانوا يذهبون الى اليهود يستعينون بهم يسألونهم أن يدلوا بشيء يحتجون به على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد لقنوهم الأسئلة عن أهل الكهف وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، ونزل القرآن الكريم بما فيه اشباع النفوس طالبة الحق المريدة له ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل أصروا اصرارا ، وأنفضوا رءوسهم علوا واستكبارا •

وهم أولاء الآن يدرسون أخبارا من الديانات ، مع أنهم أميون ، لم يكن لهم كتاب يقرءونه ولا علم دونوه ، ومع ذلك حاولوا أن يعرفوا شيئا مما عند اليهود والنصارى ، لا ليؤمنوا به ، أو ليستعينوا به لمعرفة الحق والوصول اليه ، بل ليجادلوا ويختصموا النبى عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كشف الله تعالى حالهم • يقول تعالت كلماته مبينا أنهم لا يريدون ايمانا بل يريدون اعناتا ، فقال تعالى : « وقالوا آللهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك الا جدلا ، بل هم قوم خصمون » أى يريدون أن يلتمسوا الحجة من أى ناحية •

ثانيها : أنهم كانوا يعتقدون فى ذات أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق ، وأن القرآن الكريم هو الذى لا يحاكى ، ولكنهم يمارون فى الحق بعد ظهوره ، ولذلك ما كانوا يسكتون ، عند افحامهم ، أو افحام بعضهم بل انهم اذا أفحموا بحثوا عما هو أشد لجاجة ، وأقوى محاجة فى الظاهر ، ولذلك لما أفحم النصر بن الحارث بين أيديهم لم يسلموا بالحق ، وقد بدت بيناته ، بل قالوا معاندين وما قام وما قعد ، حتى جاء ابن الزبيرى ، فأتى بما يظنه مفحما لمحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان سبيلا لمعرفة الحق ، ان أرادوا رشادا ، ولكن ما أرادوه •

ثالثها : أنه فى أثناء الحصار والمقاطعة والقطيعة ، ما ونى محمد عليه الصلاة والسلام عن دعوته حتى يئسوا هم ، ولم ييأس هو ومن معه من المؤمنين الأشداء الأقوياء ، ولو كانوا المعذبين المضطهدين •

وانه فى أثناء ذلك ما ونى ، وما ضعف ، ولا استكان ، ولا وهنت نفسه •

وان ابن اسحق قد أتى بأخبار كثيرة عن النبى عليه الصلاة والسلام مع قومه ، وقد أفرغوا من الأذى كل ما فى جعبتهم من سهام مريشة ، ممزقة جارحة ، ولقد قال ابن كثير فى تاريخه بعد ذكر أخبار المجادلة :

كل هذه القصص ذكرها ابن اسحاق معترضا بها بين تعاقد قريش على بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة ، وحصرهم اياهم فى الشعب ، وبين نقض الصحيفة ، وما كان من أمرها وهى أمور مناسبة لهذا الوقت ، ولهذا قال الشافعى رحمه الله تعالى : « من أراد المغازى فهو عيال على ابن اسحاق » .

اذن ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ، مواصل دعوته ، صادع بأمر ربه لا ينئ ولا يقصر ، فما نهضت من عزمته المقاطعة ، ولا ارادة الجوع والعري ، بل استمر ، وهو يقول فى قوة وعزم : « أنا النذير العريان » .

واذا كانت قريش قد بلغت أقصى الايذاء ، وانتقلت من الايذاء الآحادى الى الايذاء الجماعى ، ومن ايذاء المؤمنين وحدهم ، الى ايذائهم مع من يوالونهم من أقارب ، وأولياء ونصراء ، اذا كانت قد بلغت ذلك ، فمحمد عليه الصلاة والسلام لم يعبأ ، لأنه مؤيد من رب العالمين .

## سعى فى نقض الصحيفة

٣٧٤ — أقصى درجات الشدة قد يفضى الى نوع من المشفقة ، فان المظلوم الصابر الداعى الى الحق الذى لا يوجد سبب لانزال الظلم الصارخ به قد يفتح ينابيع من الشفقة ، وقد تنفتح هذه الينابيع من نفس الظالم أو من باشر الظلم .

لقد ظلمت قريش أبناء عمومتها من نبي هاشم وبنى المطلب الذين ارتضوا أن يقاسموا بنى عمومته من ذرية هاشم ضراءهم ، لأنه كان ينالهم شرفهم ، فالزموا أنفسهم بمقاسمتهم الضر ، كما انتفعوا من شرف هذه العمومة .

واننا لا نفرض أن قريشا كلها قد أجمعت على القطيعة من مداخل شعورها ، فما انقطعت كل المودات ، وما زالت كل الصلات ، واذا كان قد دعا داع فى وقت المباغضة ، والمخالفة والحفاظ المخطئ على ما كان عليه الآباء ، فاستجابوا أو جلم تحت تأثير الحمية الوثنية حمية الجاهلية ، فليس معنى ذلك أنهم صغت قلوبهم جميعا الى الداعى الأثيم ، بل ربما أجاب من أجاب بظاهر من القول ، أو تحت تأثير فورة قد تتبدد ، ويبقى الصافى بعدها أو فى حال نسيان لأصل المدة الموصولة ، والمحبة الرابطة ، وإن اختلفت النحلة ، وتباعد الاعتقاد ، فالصلات تقرب البعيد ، وتمنع الجفوة المستمرة .

وان تلك القطيعة فطرت قلوبا مشفقة نحو الاسلام ، وأوضحت ظلم الباطل لأهل الحق ، وأنهم اذا أعياهم البرهان ، بالغوا فى الاعنات ، وان الناس فى البلاد العربية ان يتسامعون بهذه القطيعة سيتعرفون سببها ، ويتذكرون أمرها ، ويحكمون بالشطط على مرتكبيها ، فتشيع حقيقة الاسلام ويفشو بين الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يننى عن بيان ، وتلاوة القرآن الكريم المشرق بنوره وحججه ، وشرف نسبته الى الله تعالى الذى يخاطب به الخليقة وينادى به الفطرة المستقيمة •

لذلك لابد من نقض الصحيفة ، لأنها لم تؤد الى غرض مقصود ، ولو كان مثل غرض أبى جهل ، ولم تمنع الدعوة من أن تذيب بين العرب الأذنين منهم والبعيدين عنهم ، فكلما كانت محاولة كتم الدعوة ، كان بزوغها وظهورها ، وانبثاق معيניה ، واشراق نورها •

٢٧٥ — أشرنا الى أنه يبدو من حقائق الأمور ، ودخائل النفوس ، وبعض مظاهرها أنه لم تكن الموافقة على القطيعة الجماعية كاملة ، واذا كانت بظاهر من العمل ، فالقلوب لا تؤيدها ، ولا تعاضدها •

وقد قصصنا عليك أيها القارئ الكريم قصة حكيم بن حزام الذى كان يذهب بالببر الى عمته خديجة وزوجها الطاهر ومن معه من بنى هاشم واعترض أبى جهل عليه ، وتصدى أبى البختري لأبى جهل يلومه على أن منع حكيم من أن يوصل القمح لعمته ، قتالحميا ، وأخذ أبى البختري لحا بغير وأعمله فى رأس أبى جهل حتى شجبه •

ويظهر أنه كان يقع ذلك من القرشيين ، انعطافا على المظلومين ، واكراما للقراية ، ويقول فى ذلك ابن اسحاق : « ولم يبيل أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث ••• وكان ذا شرف فى قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى بالبعير ، وينو هاشم وينو المطلب فى الشعب — ليلاقد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ قم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب ، ثم يأتى به قد أوقره ، فيفعل مثل ذلك » •

وهكذا يتكرر منه العمل ، ويتكرر منه التزويد ، وهذا لا يدل على خيانة عهد ، فليس للأثمين عهد يراعى ، ولكنه كان استجابة لصلة القرابة ، واحساسا بظلم تلك المفعلة التى فعلها قومه •

واذا كان لهشام هذا ذلك الشرف الذى كان يعاون به المحاصرين من قومه ، فانه صاحب الفضل الأول فى ترتيب نقض الصحيفة ، من جانب

المشركين ، وقد ذكرنا من قبل كيف أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن الأرضة أكلت ما فيه اسم الله وعهده ، وأبقت لهم اثمهم البغيض ، وكيف انتهت بنقضها ، ولكن الآن نبين كيف ابتداء الانتقاص فى مجموعهم •

تولى هذا العمل ابتداء هشام بن عمرو بن الحارث ، ولنذكر ترتيبه الحكيم ، كما جاء فى البداية والنهاية •

مشى هشام الى زهير بن أمية بن المغيرة ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : أقدر رضىيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتتكج النساء ، وأحوالك حيث علمت لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله لو كانوا أحوال أبى الحكم بن هشام ( أى أبى جهل ) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ، ما أجابك اليه أبدا •

قال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمتم فى نقضها •

قال هشام : لقد وجدت رجلا • قال من هو ؟ قال أنا ، قال هشام : ابغنا ثالثا •

ذهب هشام الكريم الى المطعم بن عدى ، فقال يامطعم أقدر رضىيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتهموهم من هذا لتجدنهم اليها منكم سراعا • قال : ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد • قال قد وجدت ثانيا ، قال فمن هو ؟ قال أنا ، قال ابغنا ثالثا • قال قد فعلت • قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، قال ابغنا رابعا • فذهب هشام الى أبى البختري ( صاحب اللها التى ضرب بها أبى جهل ) ابن هشام ، فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ، فقال وهل تجد أحدا يعين على هذا ؟ قال نعم • قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى وأنا معك • قال ابغنا خامسا •

ذهب هشام الى زمعة بن الأسود • فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم • فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعو اليه من أحد • قال نعم •

اجتمع أولئك الخمسة الكرام ، واتعدوا بأعلى مكة • وتعاقدوا على الدعوة لنقض الصحيفة ، ووقف زهير ، فكان أول المتكلمين كما كان أول الداعين •

تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة •

قال أبو جهل : والله لا تشق •

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها ، حين كتبت •

قال أبو البختري : صدق زمعة ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به •

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها •

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان •

٢٧٦ — من هذا الكلام يستفاد أن كبار الذين لا ضغن عندهم على بنى هاشم ، وإن لم يدعوا لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا راضين بهذه القطيعة ، التي لم يكن لها جدوى إلا إشارة العطف على محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته ودعوته وإنما كانوا مورطين •

ولقد جرت هذه المناقشة وأبو طالب العظيم مستمع وجالس في ناحية من المسجد ، كأن القول لا يهمه ، وكأنه المعنى بالأذى هو وعشير من أمثال اللئيم أبي جهل ، والمعنى بالمودعة من كرام قومه •

ولكنه عندما وجد القوم قد اعتزم خيارهم الأمر ، وأرادوا قطعها ، قال لهم مقالة الحق التي أخبره بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

يا معشر قريش إن ابن أخى قد أخبرنى بأن الأرضة أكلت الظلم والقطيعة والبهتان ، ولم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتته فهل إلى صحيفتكم ، فإن كانت كما قال ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عندها ، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخى •

عندئذ نقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبي جهل وأشباهه •

## نقض الصحيفة فعلا

٢٧٧ — نقضت الصحيفة المشئومة ، ولا شك أنه فى وسط الجاهلية العمياء وجد بصر رجح داعى المروءة ، وصلة الرحم ، وأكثرهم كانوا ذوى نسب أو صهر بنى هاشم أو قرب نسب من البطون ، أو سبب الأنكحة ، ومنهم من حركتهم المروءة والنخوة ، واحترام الأرومة ، وترجيح الشرف مع اختلاف الدين على الضعف بسببه ، وقاوموا نذالة أبى جهل ، ودقوا أنفه ، وقال قائلهم لو كان فيهم ذو رحم بأبى جهل ما ارتضى تلك القطيعة •

وقد قدر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لذوى المروءات مروءتهم ، وأكثرهم دخل فى الاسلام وحسن اسلامه ، وكان خيرا فى جاهليته وخيرا فى اسلامه فاجتمعت له الحسنيين ، ونال الشرفين شرف الهمة والمروءة وشرف الايمان •

ومنهم من لم يدخل فى الاسلام ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف له مروءته ، وقدرها له ، حق قدرها •

ومن هؤلاء أبو البختري فهو الذى ضرب أباه جهل بلحا البعير ووطئه وطاً شديدا عندما منع حكيم بن حزم من توصيل القمح لخديجة وزوجها خاصة وبنى هاشم عامة •

وأبو البختري هذا كان أحد الخمسة الذين نادوا حول الكعبة المشرفة بوجوب خرق الصحيفة ونقض ما فيها ، وأصر على ذلك اصرارا جعل أباه جهل وأشباهه يخرجون مذمومين مدحوريين •

عرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تلك السابقة المكرمة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لا ينسى السابقات المكرمات ، واعتزام أن يجزيه على موقفه الجزاء الوفور ، فالوفساء خلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وخلق الاسلام •

ولقد كان يتمنى عليه الصلاة والسلام أن يسلم ، ليكون كاخوانه الذين أسلموا ، ونالوا الحسنيين ولكنه لم يسلم ، بل استمر على شركه ، وبلغه عليه الصلاة والسلام أنه خرج مقاتلا فى صفوف المشركين فى غزوة بدر الكبرى ، فأوصى المسلمين ألا يقتله أحد منهم إذا لقيه وتمكن منه • فلقبه أحد المجاهدين ومعه صاحب له من المشركين ، فذكر له وصية النبى عليه الصلاة



والسلام ، فدفعته مروءته أيضا الى ألا ينفرد بالنجاة ، ويقتل صاحبه ، فقال  
اما نقتل معا ، واما أن ننجو معا ، فالمجاهدين قتلهما معا ، وليته لم يفعل •

انى أحسب أنه خالف وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أمر ألا  
يتعرض له وألا يقتله وما كان ثمة من مانع من أن ينجهما ، بل انى أحسب أنه  
كان من المستحسن أن ينجيهما • لأن الاسلام ينهى عن القتل الا للضرورة وقد  
كانت مندرجة ، ونحسب أنه لو عاش لكان من المؤمنين ، فخير قريش فى  
الجاهلية خيارهم فى الاسلام ان آمنوا ، وان فى نفسى حسكة تشك قلبى اذا  
تذكرت أن أبا البختري قتلته السيوف الاسلامية بغير ارادة النبي صلى الله  
تعالى عليه وسلم •

### انطلاق الدعوة الاسلامية :

٢٧٨ — كانت تلك القطيعة التى أحدثتها النفس الوثنية الحانقة  
سببا فى ذبوع الاسلام ، وأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

فقد رأى العرب مقاطعة قريش لذوايتها من بنى هاشم ، وهم يجيئون الى  
مكة المكرمة حاجين ومعتمرين ومتجرين يغشون الأسواق ويجدون سادة  
العرب ممنوعين من غشيانها ، والدعوة الى مقاطعتهم قائمة على قدم وساق ،  
فلا بد أن يسألوا لم كان هذا ، وأن يتعرفوا دعوة الحق ، وما ينادى به محمد  
عليه الصلاة والسلام ، فتصل الى أسماعهم ، فمنهم من يؤمن ، ومنهم من  
يستمر فى ضلاله •

ولذلك كانت هذه المقاطعة سببا فى أن تسمع العرب بالاسلام ودعوته  
وأن تصل الدعوة المحمدية الى القبائل فى أماكنهم ، فمن اهتدى فقد اهتدى  
لنفسه ، ودعا غيره بالهداية ، ومن لم يؤمن تحدث مع غيره بما كفر به ، فتكون  
الدعوة قد علم بها من ارتضاها ، ومن لم يرتضها ، لقد حملها جميعهم ، ورب  
حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه •

جاء الناس الى مكة المكرمة يستمعون الى النبي صلى الله عليه وسلم ،  
ممن صفت قلوبهم للإيمان ، وقريش لهم بالمرصاد يحاولون أن يصدوهم عن  
سبيل الله تعالى ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا •

وأولئك الذين وضع الله تعالى فى قلوبهم الميل الى الاسلام يسيرون الى  
الحق لا يعوقهم عائق ، ولا يردهم راد ، ولنذكر لك قصة رجل حاول أن يدخل  
فى الاسلام بناء على ما سمع فى القبائل من أخبار محمد عليه الصلاة والسلام

ودعوته الى الوحدةانية ، وما معه من كتاب أوحى به يتلوه عليهم ، ويروونه عجباً لم يكونوا قد سمعوا مثله ، ولا قريباً منه ، وقريش تترصد الرجل وأمثاله الذين يجيئون الى الرسول يستمعون اليه ، وتحاول تنفيرهم منه ، فلا ينفرون ، بل يزيدون رغبة وامعانا فى الطلب .

وهذا الرجل الطفيل بن عمرو الدوسى ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً فى قبيلة دوس ، وكان قد قدم مكة المكرمة ، فاجتمع به كبراء المشركين من قريش ، وحذروه من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهروه أن يجتمع به ويستمتع اليه .

وما زالوا به حتى اقتنع بالآ يستمع ، وحشا أذنه قطناً لكيلا يسمع ، ولكنه غدا الى الكعبة الشريفة ، قرأى على البغثة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاول لما أوصاه رجال قريش ألا يسمع ، ولكنه بما وهب الله تعالى رسوله الأمين من طيبة طاهرة تجذب اليه القلوب الصافية أبى الا أن يسمع بعض ما يقرأ به عليه الصلاة والسلام ، ولنترك الكلمة للرجل ليخبر عن نفسه ، فالقول قوله فى شأنها ، والاخبار عنها ، قال رضى الله عنه : قلت فى نفسى ، واكثل أُمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعننى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وان كان فبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فدخلت عليه ، فقلت يا محمد ( صلى الله عليه وسلم ) انّ قومك قالوا الى كذا وكذا . فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سدوا أذنى بكرسف ( قطن ) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعنى قولك فسمعت قولاً حسناً ، فاعرض على أمرك . فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا على القرآن الكريم ، فلا والله ما سمعت قولاً أحسن منه ، ولا أمراً أعدل ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

وكان الطفيل هذا رجلاً مسموع الكلمة فى قومه شريفاً بينهم لم يعرف بقول الزور ولا الباطل فدعاهم الى الاسلام ، فأسلموا طائعين ، وكانت دوس على الاسلام الى أن جاء عصر الجهاد بالسيف ، فجاهدت مع المجاهدين حاربت المشركين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وحاربت المرتدين من بعده ، وكان لها قدم ثابتة فى الاسلام .

ولم يجد منع قريش ، فالنور لا يقع فى قبضة أحد ، بل انه يسرى شعاعاً مضيئاً هادياً مهما تكن الظلمات المتكاثفة ، هذا الرجل الأول الذى جعلناه مثلاً لشيوع أمر الرسالة المحمدية بعد القطيعة وفى أثنائها ، فكان كل ما عمل ضد

محمد عليه الصلاة والسلام ، وما قام به يكون فى نتيجته خيرا لدعوة التوحيد ، ونداء الحق المبين .

من هذه القصة وأشباهاها ، وانها لكثيرة تجد ان الاسلام أخذ يسرى الى الجزيرة العربية قاصيها ودانيها ، والنبي عليه الصلاة والسلام قطب دعوة التوحيد مقيم فى مكة المكرمة مثنى العرب أجمعين ، لا يسكت ولا ينى ، بل يستمر فى دعوة الحق ، يستمع اليه الضعفاء وبعض الأقوياء ويقوم بينهم بصلواته يجهر بها ولا يخافت ، والمشركون يستهزئون ظاهرا ، وهم مأخوذون بها باطنا ، يقدر حملتها على الشرك الذى يستمسكون به ويلاحون عنه بظاهر من عصبية ، وحقد وحسدا ، لا ايمانا و يقينا ، ولكنهم قوم فى ذات أنفسهم مترددون ، والمترددون يثير حنقهم وغضبهم المستيقنون المؤمنون ، وكذلك كانت المعركة بين حق لا تح مبين ، وباطل متردد فى ذاته .

## عام الحزن

٢٧٩ — هذه تسمية رسول الله صلى الله عليه وسلم للعام الذى توفى فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبد المطلب ، وأم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها ، وقد كانت أبر زوج لأكرم زوج ، فسمى النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك العام عام الحزن ، لأنه فقد فيه حبيبين ، ولم ير بعد موتهما من يعوضه عنهما من ذوى قرابته وصهره •

فقد كانا يواسيانه ، ويشدان أزره ، ويمنعان عنه الأذى أن يؤثر فى نفسه ، ويرى فيهما المثابة الى الاطمئنان والسكن ، فأبو طالب ينصره ، ويذود عنه ، ويتحمل الأذى فى سبيل مرضاته ، ويعمل على أن تقر عينه دائما ، وقريش تضايق العم الشيخ فيتحمل ضيق قومه على أن يكون منه ما يجعل ابن أخيه فى ضيق ، ويتحمل الملامة هو على أن توجه ملامة لابن أخيه ، وأشهد كل قارئ لسيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما وجد أب أحنى على ولده من أبى طالب على ابن أخيه ، وهو يخالفه فيما يدعو اليه ، ولا يستجيب لما ينادى به ، كما يقولون خشية سبة قريش ، وإن ذلك الأمر يعلمه الله تعالى ، وهو فى جملة يتعلق بالدعوة المحمدية الموحدة ، وتخفيف الأذى عن النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن آمن معه •

ونحسب أن أبا طالب لو آمن بالدعوة المحمدية كما آمن حمزه ، وعلى عثمان ، وغيرهم من بنى عبد مناف ما استطاع أن يذود عن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما زاد عنهم ، ولا أن يصد قريشا كما صدهم ، إذ أنهم يدخلونه فى ضمن من يناوئون ، وحينئذ يفقد سلطانه الكامل على البطحاء إذ ينكرون سيادته ، فلا يستطيع أن يكفكف حداثهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان الأمر فى ذلك ، وهو على دينهم ظاهرا ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى •

ولو أن لنا أن نأخذ بالقرائن أو بالأمارات على ما يستكن فى القلوب ، لقلنا انه مؤمن ، وليس بكافر ، ولكن يعارض هذه الظواهر أنه دعى الى الإيمان بالقول فلم يستجب ، ومهما يكن فهو فى الحالين عظيم حتى فى شركه •

هذه اشارات الى ما كان من أبى طالب فى حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى انه عليه الصلاة والسلام ليقول : ان قريشا ما نالت منى فى حياة أبى طالب ما نالته من بعده •

وأما خديجة أم المؤمنين ، والزوجة الحانية كالأم أو أشد ، فقد كانت السكن إذا ابلهت الأمور ، ولقى من مناوأة قومه أشد ما يلقى داع الى الحق ، يشتد الكفر وتشتد العداوة ، ثم يعود الى بيته مجهوداً مشنوءاً ، فيلقى الزوج البرة ، ولسان حالها يقول له ، كما قالت أولا : « والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ، فيطمئن قواده وتسكن جوارحه ، وتقر نفسه الجائشة » .

وان عاطفة الزوج المخلصة تلهما بأطيب القول وأحكمه فى أشد الأوقات التى تتضافر فيها أسباب الضيق النفسى والقلق ، وهى بحق التى تسمى السكن ، وكما قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

هذا العام كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، كما يحقق الرواة ، وهو قبل فرض الصلوات الخمس ، كما يقول المحققون ، وهو بناء على ذلك قبل الاسراء والمعراج ، ولذلك ذكرنا عام الحزن قبلهما ، للترتيب الزمنى أولا - ولأن الاسراء والمعراج ، كانا لمواساة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم وأنسه بربه ، ولأنهما فيما يظهر لنا فيهما اذهاب للوحشة التى نالت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام الكريم بفقد حبيبين . فبين الله تعالى بهذا الاسراء أن الله هو الحبيب الأعظم ، وهو الحامى وحده ولا حماية لأحد تقارب أو تدانى حمايته .

وان الأكثرين ممن كتبوا فى السيرة النبوية يقدسون الكلام فى الاسراء والمعراج ، لأن فيهما تكميلا لبيان الفرائض الاسلامية التى تتعلق بالتوحيد وهى الصلاة .

ويقول فى ذلك ابن كثير فى تاريخه الكبير : « قال البيهقى ، وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، عام خرجوا من الشعب ، وان خديجة توفيت قبل أبى طالب بـ خمس وثلاثين ليلة : وروى عن الزهري أنه قال : توفيت خديجة بمكة المكرمة قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وقيل قبل أن تفرض الصلاة ٥٠٠ قلت مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وكان الأنسب أن نذكر وفاة أبى طالب وخديجة قبل الاسراء كما ذكر البيهقى وغير واحد .

## أبو طالب ، وإيمانه

٢٨٠ — مما لا شك فيه ، ولا يمارى فيه مؤمن أن أبا طالب كان له موقف فى الدعوة الإسلامية ، وهو موقف من يحمى الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الضيق فى سبيله ، وقد رضى أن يعيش ممنوعا ، هو وبنو هاشم وبنو المطلب ، مضيقا عليهم فى الرزق ، وكل أسباب الحياة ، وذلك عندما قاطعه قومه هو وبنو هاشم ، ومن انضم اليهم من بنى عبد مناف ، واستوى فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وعلى رأسهم كبيرهم أبو طالب ، وقد كان المحرك لهم .

وكما كان منه هذا الموقف المشرف الرافع للحق لم يدخل فى دين الله ، أو على الأقل لم يدخل فى دين الله ظاهرا ، واستمر على ذلك ، لا يدخل فيما يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يمتنع عن الدفاع .

والقارىء لسيرته يعتقد أن ذلك لمجرد العصبية الجاهلية ، ولفرط محبته لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن المحبة كانت هى الدافع لا للعصبية وحدها .

فما كان ليرضى أن يفضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أن يكون منه ما لا تقر به عين حبيبه وابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهنا يرد سؤال وهو ، أ مات أبو طالب بعد هذا البلاء فى حماية الدعوة الإسلامية على الشرك ، ولم يخالط الايمان بشاشة قلبه ؟ .

يقول اخواننا الشيعة انه مات مؤمنا ، وأن الله تعالى أجرى على لسانه كلمة الحق ، لا اله الا الله محمد رسول الله . . ولهم فى ذلك روايات أسندت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول جماعة أهل السنة ، ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقه والحديث أنه مات على الشرك ، وأنه من أهل النار ، وأن الله تعالى يخفف عنه عذاب جهنم ، فيكون فى ضحضاح من النار .

ويردون كلام الأولين بأنه من فرط التشيع لعلى ، فقد جرهم هذا التشيع لعلى الى أن يحكموا بإيمان أبيه أبى طالب ، ثم يذكرون ضعفا فى اسناد الأخبار التى روت اسلامه ، ونطقه بالشهادتين ، ويذكرون أن الأخبار

الصحيح ذكرت أنه ما نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ،  
ويذكرون أنه في الخبر الذي صح عندهم عن النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم ذكر أنه يكون في ضحضاح من النار ، وأن ذلك استجابة لدعوة النبي  
صلى الله تعالى عليه وسلم بالتخفيف عنه . لما كان له من مناصرة له عليه  
الصلاة والسلام .

وانه من الحق علينا أن نذكر أمره عندما حضرته الوفاة .

٢٨١ — ونقول ان كتب الصحيح من السنة كما تذكر أن النبي صلى  
الله تعالى عليه وسلم كان في خوف من نتيجة مرضه ، كان مشركو قريش  
في فزع من موته ، لأنه كما كان حاميا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان  
كهفا لقريش يشكون أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، ليرجو أن  
يخفف عنهم ، ولنترك كلمة للمؤرخ المحدث الحافظ بن كثير في كتابه البداية  
والنهاية (١) .

« قال ابن اسحاق : ولما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله قالت  
قريش بعضها لبعض : ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في القبائل  
فانطلقوا بنا الى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعظه ، فانا والله  
لا نأمن أن يبتزونا أمرنا . قال ابن اسحاق ، وحدثنا العباس عن عبد الله  
ابن معبد ، عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبي طالب وكلموه ،  
وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعمر بن هشام  
( أبو جهل ) وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشrafهم  
فقالوا :

يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا  
عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ لنا ، وخذ له منا ،  
ليكف عنا ، ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ، ولندعه ودينه .

فبعث اليه أبو طالب فجاءه ، فقال يا بن أخي ، هؤلاء أشراف قومك قد  
اجتمعوا اليك ، ليعطوك وليأخذوا . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها  
العجم . فقال عمرو بن هشام ( أبو جهل ) : نعم وأبيك وعشر كلمات . ثم

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٧ - بتصرف قليل فيه تقديم وتأخير  
مناسبه ، ليتسقى المنقول .

قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة الها واحدا • ان أمرك لعجيب ، ثم قال بعضهم لبعض ، انه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا •

فقال أبو طالب : والله يابن أخى ما رأيته سألته شططا ، فطمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فجعل يقول له : « أى عم ، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » فلما رأى حرص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يا بن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى قتلته جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها الا لأسرك بها ، فلما تقارب من أبى طالب الموت • نظر العباس اليه يحرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه •••

قال العباس : يابن أخى ، لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم أسمع » (١) •

هذا الخبر ، يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن قريشا ترى فى بقاء أبى طالب ضمانا لأمنهم ، واتصالهم بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم للتأثير فيه بعمه شيخ مكة المكرمة •

ثانيها : عظم محبة أبى طالب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه ينطق بها محبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثالثها : أن الرواية تدل على أنه يصدق دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك من ناحيتين :

أولاهما : أنه قال : « ما رأيته سألته شططا » أى أنه سألهم معقولا ، وهو : لا اله الا الله •

والثانية : أنها تدل على أن أبا طالب نطق بكلمة الايمان ، كما قال العباس ، وقد رد الذين أنكروا ايمان أبى طالب :



أولا : بأن السند فيه تجهيل ، لأنه قال عن بعض أهله ، فلم يعرف من الراوى ، وما حاله •

وثانيا : بأن الامام أحمد روى هذا السياق ، ولم يذكر كلمة العباس ، وكذلك الترمذى والنسائى وابن جرير •

وروى البخارى فى سياق هذا الخبر أن عمرو بن هشام ( أبا جهل ) وعبد الله بن أمية ، عندما سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أن يقول لا اله الا الله ، قال له : يا أبا طالب أترغب عن ملة : عبد المطلب ، فلم يزاالا يكلمانه ، حتى قال آخر ما تكلم به : « على ملة عبد المطلب » •

وهكذا غيرها من روايات الصحاح تدل على أنه لم يقبلها ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » •

٢٨٢ — وان الذى ننتهى اليه أن هناك أموراً ثلاثة ، تحققت منها اثنتان ، والثالثة موضع نظر :

الأولى : أن أبا طالب حامى على الاسلام ، بالدفاع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالدفاع عن المسلمين ، وما قاله من المدح لدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والثناء عليها ، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة فى أشعاره ، وما تضمنه كلامه من العيب والتنقيص لمن خالف وكذبه بتلك العبارات الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التى لا تدانى ولا تسامى ، ولا يمكن عربياً مقاربتها ولا معارضتها ، وهو فى ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد (١) •

الثانية - ثبت أنه عندما حضرته الوفاة كان يزكى مطالب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ما عرف عنه بعد الدعوة المحمدية أن زكى الأوثان قط ، ولا فضل تقديسهم عن دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه تحمل الأذى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويضاف الى ذلك هذه المحبة الظاهرة ، والشفقة الظاهرة التى كانت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

الثالثة - النطق بكلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » فقد جاءت رواية بأنه نطق بها ، وقالها ، وهذه رويت عن العباس ، وتناول بعضهم على مقامه ، فقال انه قالها قبل أن يسلم ، وكان القائل يرمى العباس بالكذب ، قبل الاسلام ، ومعاذ الله أن يكذب العباس بن عبد المطلب ، ولو قبل اسلامه ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٦ •

لأنه من ذؤابة قريش وأشرافهم ، والعربى لا يكذب ، وانظر الى ما رواه البخارى عن محادثة هرتل ملك الروم مع أبى سفيان ، فقد صدقه القول عن النبى عليه الصلاة والسلام وبينهما عداوة قال : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » فهل يعد العباس أقل من أبى سفيان شرفا وهمة ؟ كلا انه القرشى الهاشمى ، وعم النبى عليه الصلاة والسلام قبل الاسلام وبعده .

٢٨٣ — واننا ننتهى من هذا العرض الذى تحرينا فيه صدق التلخيص أن أبا طالب لم يكن مكذبا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مقاوما معاندا ، فهل كان من المسلمين ؟

ويقول ابن كثير فى هذا : « وهو فى هذا كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه » (١) .

وكأنه بهذا يشبهه بعلم اليهود بالنبى صلى الله عليه وسلم ان كانوا كما قال الله تبارك وتعالى عنهم : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لم يذعنوا لما يقتضى علمهم ، فهم يعلمون ولا يذعنون » .

وانى أسمح لنفسى أن أخالف الحافظ بن كثير فى قوله هذا ، أو انطباقه على أبى طالب ، وأحسبه هو قد وجد فارقا بين معرفته لله تعالى ولدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام واليهود ، وأقول ان علم أبى طالب قد صحبه ما يدل على التصديق والاذعان ، فهو علم مقترن باليقين والاذعان ، كما دلت عباراته ، وكما دافع عن الاسلام ، فاذا كان ثمة نقص بالنسبة لأبى طالب . فهو أنه لم ينطق بموجب التصديق والاذعان ، وانى لذلك أقول انه لا يمكن أن يكون مشركا قط .

أولا : لأنه استنكر أقوال قريش وأيد دعوة التوحيد .

وثانيا : لأنه دافع عن التوحيد وأهله ، وتلقى الأذى كما تلقى المؤمنون الصادقون .

وثالثا : لأنه صرح بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد .

وان وجد من يتردد فى ادخاله فى زمرة المسلمين ، ولو كانوا ضعافا ، فأننا لا نتردد فى اخراجه من زمرة المشركين ، واذا كان قد نسب اليه ، انه قال وهو فى سكرات الموت : على ملة عبد المطلب استجابة لأحد الأشياخ من

---

(١) الكتاب المذكور .

قريش ، فاتا لا نحسب أن هذه الكلمة تعارض كل ما كان منه من دفاع عن الاسلام ، وتصريحات كثيرة له بأن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام صادقة راشدة ، قالها وهو صحيح معافى . ونختم كلامنا فى هذا بما قاله الحافظ بن كثير فى أبى طالب فقد قال رضى الله عنه :

« أبو طالب كان يصد الناس عن أذية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن أصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقدر الله تعالى له الايمان ، لما له تعالى فى ذلك من الحكمة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغة الدافعة التى يجب الايمان بها والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله تعالى عنه من الاستغفار للمشركين ، لاستغفرنا لأبى طالب وترحمنا عليه » (١) .:

ونحن نقول فيما استنبطنا ، انه ليس بمشرك قط ، لأن المشرك من يعبد الأصنام ، ويشركها مع الله تعالى ، وأفعاله وأقواله ، ومواقفه تدل أنه يرى عبادة الأصنام ويرأها أمرا باطلا ، ولذلك أميل الى أن أستغفر له ، ان كنت من أهل هذا المقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلا ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ، وما تخفى الأنفس .

## خديجة رضى الله عنها

٢٨٤ — كانت خديجة هى الفقيد الثانية التى أدخل موتها الحزن فى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قطعة من نفسها ، وهى التى أذهبت عنه الرعب يوم جاءها يرجف فؤاده من أول لقاء بالوحى الالهى ، وهى التى كانت تأسو جراح قلبه ، كلما لقي من قومه صدودا وأذى ، وهى التى شاركتة فى حمل ضرائه ، وكانت لها المنزلة الأولى بين نسائه .

ولكانتها فى نفسه لم يتزوج فى حياتها غيرها قط معها ، ولكن تزوج من بعدها ، وعدد الأزواج ، وكان الحل لمقاصد ، ليس منها الشهوة ، بل ليؤلف بينه وبين قبائل العرب وليولى أصحابه المحبة ، ويدينهم منه وليؤوى أزواج من يموتون من أصحابه . أو يقتلون ، ويتركون أزواجهم من غير عائل يعولهم ليتحقق بالعمل قوله عليه الصلاة والسلام : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا ، فالى ، وعلى » .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٦ - الكتاب المذكور ص ١٢٧ .

وانها لعظم منزلتها من النبی علیه الصلاة والسلام ، وفى الاسلام ،  
بشرت ببیت فی الجنة من قصب :

روى البخارى بسنده عن أبی هريرة قال : « أتى جبریل الى رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت باناء ،  
فيه ادم - أو طعام أو شراب - فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ،  
ومنى ، وبشرها ببیت فی الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » والقصب  
المراد به اللؤلؤ .

وقد قال السهيلي « انما بشرها ببیت فی الجنة من قصب يعنى قصب  
اللؤلؤ ، لأنها حازت قصب السبق الى الايمان ، ولا صخب فيه ولا نصب ،  
لأنها لم ترفع صوتها على النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ولم تتبعه فی الدهر ،  
فلم تصخب عليه يوما ، ولا آذته أبدا » .

ولقد كان يذكرها دائما بالخير ، يحب من كانت تحبه ، ويواد من كانت  
توده ، حتى كان ذكرها الدائم يثير غيرة بعض نساءه ، حتى لقد قالت أم المؤمنين  
عائشة : « ما غرت من امرأة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما غرت من  
خديجة ، لما كنت أسمع يذكروها ، وأمره الله تعالى أن يبشرها ببیت فی الجنة  
من قصب ، وان كان ليذبح الشاة فيهدى فى خلائلها منها ما يسعهن (١) » .

وكان مع ذكرها يكرم ذكرها ، ومن يذكره بها ، ولقد استأذنت عليه  
هالة بنت خويلد أختها ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح ، فقال : « اللهم  
هالة » .

وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « كان النبی  
صلى الله تعالى عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء فغرت  
يوما ، فقلت : « ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيرا منها ،  
قال ما أبدلنى خيرا منها ، وقد آمنت بى اذ كفر بى الناس ، وصدقتنى اذ كذبتنى  
الناس ، وأستنى بمالها ، اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها اذ حرمنى  
أولاد النساء » .

وواضح أن ذلك قبل أن يهب الله تعالى له ابراهيم من مارية القبطية .

واننا نرى من هذا الكلام كله مكانة أم المؤمنين خديجة فى نفس النبی  
صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف كانت المواسى ، اذا ادلهمت الأمور ،

واشتد البلاء ، وكيف كانت المؤنس اذا استوحش من الناس ، وكيف كانت الهداة والسكن اذا ارتاع من هول ما يفعل الناس ، فكان حقا عليه الصلاة والسلام أن يسمى عام وفاتها ووفاة عمه الكريم عام الحزن ، وقد فقد فيه الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى .

وقد مات أبو طالب قبل خديجة على أصح الروايات ، وقيل كانت وفاته قبلها بثلاث ليال ، ويذكر بعض الرواة أن وفاتها كانت قبل وفاته بنحو من خمس وثلاثين ليلة ، وأن المراجع أن وفاته كانت قبل وفاتها ، ومهما يكن الأمر فى المقدم والمؤخر ، فان وفاتهما أورثت حزنا شديدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

## ما كان بعد موت أبى طالب

٢٨٥ — قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ما نالت منى قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » ولقد لزم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى .

ثم لما خرج وياشر الدعوة وبلغ رسالة ربه ، كلبت عليه قريش ، حتى كانوا يؤذونه فى بيته ، فكان جيرانه جيران سوء ، ومنهم أبو جهل ، والحكم ابن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن معيط وعدى بن الحمراء ، وابن الأصداء الهزلى ، وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى .

وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال . « بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل . أياكم يقوم الى سلا (١) جزور بنى فلان ، فيأخذ فيضعه بين كتفى محمد اذا سجد ، فانبعث أشقى القوم . فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا نائم أنظر والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه . حتى ذهب انسان فأخبر فاطمة ، فجاءت ، وهى جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، رفع رأسه ، ثم دعا عليهم ، وكان اذا دعا ، دعا ثلاثا وإذا سأل ، سأل ثلاثا ، ثم قال . اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما

---

(١) السبلا ، ما بر خلاص الناقة ، وهى الجزور .

سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم بأبى جهل ابن هشام ، وعقبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وأمّية ابن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، فوالذى بعث محمدا « عليه الصلاة والسلام » بالحق ، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر » \*  
اشتد أذى قريش للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن أكثر الأذى الذى نال شخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعد وفاة أبى طالب \*

ولقد قال ابن كثير فى ذلك :

« وعندى أن غالب ما روى مما تقدم من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه ، وهو يصلى كما رواه ابن مسعود ٠٠ وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو ابن العاص من خذلقهم له صلى الله تعالى عليه وسلم خنقا شديدا وكذلك عزم أبى جهل ٠٠ لعنه الله على أن يطا عنقه وهو يصلى فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك - ذلك كله كان بعد وفاة أبى طالب والله أعلم ، فذكره هاهنا أشبهه وأنسب » \*

وان هذا الكلام له وجهته ، وعلى ذلك نذكر أن أذى المشركين أخذ دورين \*

**الدور الأول :** ما كان قبل وفاة أبى طالب ، وقد كان أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بالاستهزاء والسخرية والسب ، ولا ينالون منه بغير السنتهم ، ويقوم بذلك سفهاؤهم كآبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) وعقبة ابن أبى معيط ، وغيرهما من سفهاء القوم \*

وكان مع ذلك التعذيب والايذاء البدنى للضعفاء ، وغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى الى الهجرة الى الحبشة مرتين ، وكان فيهم كبراء كجعفر بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، ولعل هجرتهم كانت لأذى القول والسخرية والاستهزاء \*

**الدور الثانى :** كان بعد وفاة أبى طالب ، وهنا اشتد الأذى ، وكان الاعتداء بالقول والفعل حتى اضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أن يطلب الجوار ليدخل مكة المكرمة ، فأجاره مطعم بن عدى \*

واذا كان قد فقد حماية أبى طالب ، فقد عوضه الله تعالى بحمايته \*

## حماية الله تعالى

٢٨٦ — روى البخارى بسنده عن ابن عباس ، قال : « مر أبو جهل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى ، فقال ألم أنك أن تصلى يا محمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا منى ، فانتهره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله الله تعالى : « فليدع ناديه سندعو الزبانية » ، والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب .

وروى ابن جرير الطبري بسنده عن أبي هريرة : هل يعفر محمد عليه الصلاة والسلام وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم : قال فواللث والعرى عندما رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه بالتراب ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى ليظاً على رقبته ، فما فجنهم منه الا وهو ينكض على عقبه ، ويتقى بيديه فليل له : مالك !! قال ان بينى وبينه خندقا من نار وهولا وأجنة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة » .

ولقد حدث عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه جرت بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومشركى مكة المكرمة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يدعوهم الى الله تعالى ، ويبين لهم أن الأحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها لا تغنى من الله تعالى شيئا ، ثم غادر مكانهم ، فقام أبو جهل بن هشام فقال :

« يا معشر قريش ، ان قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، وانى اعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ، فاذا سجد فى صلاته ، فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ، ثم جلس لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينتظر ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت قبلته للشام ، فكان اذا صلى ، صلى بين الركنين الأسود واليماني ، فجعل الكعبة الشريفة بينه وبين الشام فقام يصلى .

وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون . فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتقل ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقا لونه ، مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه .

منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته  
ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن ياكلنى » •

هذه أخبار رواة ثقات بأسناد صحيحة قوية ، وإذا كان فى بعض  
أسنادها ضعف فالقوى يرفع الضعيف وحسبنا رواية القوى •

ونحن نرجع ما رآه ابن كثير من أن ذلك بعد وفاة أبى طالب ، وإن كتب  
السيرة والأحاديث التى رويت بأسناد صحيحة لا تذكر زمان الوقائع ، ولكن  
تعنى بصدق الوقائع بروايتها عن ثقات أثبات ، وإذا كان الزمان غير ثابت ،  
فمن حق المؤرخ الفاحص أن يذكر الأحداث مرتبطة بما يناسبها ، وهو الوقت  
الذى خلا فيه النبى صلى الله عليه وسلم من نصرة النسيب القريب الذى ألهمه  
الله تعالى المحبة والذود عن نبيه ، ولو كان فى أكثر حياته لم يعلن اتباع  
النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا قبضه الله تعالى اليه ، كانت النصرة لله  
تعالى وحده الذى لم يضيع عبده ورسوله ساعة من زمان •

## المهابة مع المحبة

٢٨٧ — كانت حماية الله تعالى لرسالته التى بلغها محمد صلى الله  
تعالى عليه وسلم قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر فى أوقاتها  
حيث كان الأذى يشدد ، والاستهزاء يكثر ، فيذكرهم الله تعالى بأنه لم يترك  
نبيه لسخريتهم واستهزائهم ، فتظهر المهابة الرادعة القاطعة فى وسط  
سخريتهم ، وتطاولهم على مقام النبوة •

ولنذكر فى ذلك واقعتين تبينتا فيهما مهابة محمد صلى الله تعالى عليه  
وسلم التى ألقاها الله تعالى عليه مع محبته ورحمته •

**الأولى :** قصة الأراشى ، وخلاصتها كما روى محمد بن اسحاق بسنده  
عن عبد الملك بن أبى سفيان الثقفى قال : قدم رجل من أراش بابل له الى مكة  
المكرمة ، فابتاعها أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشى حتى وقف  
على نادى قريش ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام جالس فى ناحية  
المسجد فقال :

يا معشر قريش هل من رجل يعدينى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب  
وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟



فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة ، اذهب اليه فهو يعديك عليه .

فاقبل الاراشى ، حتى وقف على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر ذلك له . فقام معه ، فلما رآوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه ف ضرب عليه بابه . فقال من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج اليه ، وما فى وجهه قطرة دم ، وقد امتقع لونه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أعط الرجل حقه . قال لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للرجل : ارحل لشأنك ، فاقبل الاراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، قد أخذت الذى لى .

جاءوا الى الرجل الذى بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت ؟ قال عجا من العجب ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ، فقال أعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه ، فدخل فأخرج اليه حقه .

لم يلبث أن جاء أبو جهل الى المجلس ، فقالوا : ويلك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت . فقال ويحكم ، والله ما هو أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملتئ رعبا ، فخرجت اليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ، ولا أنيابيه لفحل قط ، فوالله لئن أبيت لأكلنى .

وإن هذه الواقعة تدل أولا على هبة النبى صلى الله عليه وسلم يستعين بها إذا أراد فى إقامة حق وخفض باطل ، ولا يستعين بها فى الدعوة الى الله تعالى دائما ، حتى يكون دائما رعوفا رحيفا ، والرافة تلين القلوب ، والهيبة اذا استخدمت باستمرار أرهقتها ، وأرهبتها ، والرسالة تستدعى تأليف القلوب دائما واللين دائما ، ولقد قال الله تعالى « فيما رحمة من الله لذت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وتدل ثانيا : على أن أشد الناس سفها ، وتهجما على الناس ، واستهانة بحقوقهم ، وهى فى وسط الجموع هو أشدهم خوفا ، وهلعا وفزعا اذا انفرد فهو جبان رعديد ، اذا لاقى خصمه وجها لوجه ، وانك لترى الذين يبالغون فى الايذاء من الحكام وغيرهم أشدهم فزعا ، اذا أحسوا بأنهم مرام مقصود ، وانفردوا . فالتهم من فرط الاندفاع ، وهو لا يتنافى مع اللجبن ، بل انه يلازمه اذا لافى الأقوياء .

البيهقي بسنده عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت من قریش قريشا أصابت النبی صلى الله تعالى عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوة ؟ فقال رأيتهم ، وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم أباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا معه على أمر عظيم •

قال : فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن • ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتھا فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها • فقال : « أستمعون يا معشر قریش ، أما الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح » •

فأخذت للقوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنه على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه ، حتى انه ليقول : « انصرف أبى القاسم راشدا فما كنت بجهول » •

انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وأنا معهم ( أى عبد الله بن عمرو ) قال بعضهم لبعض : نكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا بدأكم بما تكرهون تركتموه •

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول : كذا ، وكذا ، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « نعم أنا الذى أقول ذلك » ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه ، وقام أبو بكر دونه ويقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لأكبر ما رأيت قريشا بلغت منه قط (١) •

وان هذه الواقعة تدل أيضا على هيبة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطاقته النفسية ، ولا ينافى هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من اثم ، فان الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ، ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها ، فقد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٦ •

لقوة فى المرة الأولى • وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء ،  
ويلقى فى قلوبهم الرعب ، فأنثر ذلك فى نفوسهم ، ولما استرجعوا أنفاسهم ،  
واستردوا تفكيرهم الأثم بعد الصدمة التى أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ، ثم  
كانت تلك الحركة التى أخذ فيها بعضهم بمجامع رداءه ، وأن ذلك لا ينافى  
الهيبة التى كانت للنبي صلى الله عليه وسلم عندما يعتزم القول والقاء  
المجابهة فى القلب •

ولننزل عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم الى من دونه •

فقد كان عمر رضى الله عنه من ذوى الهيبة ، ولم تمنع هيئته تدبير  
اغتياله ، وعلى كان على قدر من الهيبة عظيم ، بل كان المهوب المرهوب ، ولذلك  
لما دبروا قتله • انتدب له اثنان أنفسهما ، وغذى السيف بالسهم شهرا ومع  
ذلك لم تمنع هذه الهيبة ، وتلك الرهبة ، التدبير والاقدام •

وهكذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما  
منع به شر الأشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس ، وعزم صدق •

## محمد عليه الصلاة والسلام فى الطائف

٢٨٨ — ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة المكرمة  
من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وإيذاء له ولأصحابه ، وقد بلغ الدعوة فيهم ،  
وكلبوا عليه ، ولكن دعوته عامة ، وليست لقريش وحدهم بل هى للناس  
أجمعين ، وقد علمها أهل مكة المكرمة ، وقاوموها ما استطاعوا الى ذلك  
سبيلا ، والله فى ذلك حكمة ، ولو كانوا أول من يطيعه لقليل انهم يريدون بذلك  
السلطان على الناس •

لقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم فى سبيل توسيع نطاق الدعوة الى  
الطائف التى تقرب من مكة المكرمة ، ولها من القوة والسلطان والثروة من  
الثمار والتجارة ما لمكة المكرمة ، وربما يرى فيهم نصرة لم يرها من قريش •

وله فى الطائف نوع رحم ، لأنه رضع فى بنى سعد ، وهم قرييون من  
الطائف ، ففيهم مرضعه ، وحواضنه ، وذلك فوق القرب النسبى ، فقد كان  
بينها وبين مكة المكرمة نحو ١٢٠ ( عشرين ومائة ) ميل ، وذلك ليس ببعيد  
فى الشقة فى عرف أهل البلاد الصحراوية •

ذهب الى الطائف فى أخريات شوال من السنة العاشرة ، ذهب الى الطائف ليس لمجرد اشتداد قربه منه كما تذكر كتب السيرة ، ولكن ذلك قد يكون بعض الأسباب ، وليس اقواها ، وانما لذلك ، ولأنه اعتراه ما يشبه اليأس من ايمان قريش ، أو من بقى منهم ، وما كان له أن يضرب فى حديد بارد ، أو أن يقصر دعوته عليهم ، وقد غلب عليهم الجدل بالباطل من غير أن يتجهوا الى الاقتناع ، فلا يشغل نفسه بهم ، واتجه الى بلد غير بعيد ، وهو الطائف ، يرجو منهم الاتباع ، ومن وراء الاتباع النصرة .

ذهب صلى الله عليه وسلم الى الطائف سعيا على قدميه مع أن المسافة كما قلنا تبلغ نحو عشرين ومائة ميل ، ولم يكن معه الا مولاة زيد بن حارثة الذى أعتقه من قبل ، وقد صار له حبيبيا ودودا ، فلم يكن له خادما ، بل كان معينا ، وقد ذهب راجلا كما ذكر ، قيل لأنه لم يرد أن يعلم أحد بذهابه ، وقد يكون ذلك بعض السبب ، ولكن نقول انه كان يجاهد فى سبيل الدعوة ، ويبلغ به الجهد والجهاد أقصاهما .

قال ابن اسحاق فى سيرته بسنده لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشrafهم ، وهم اخوة ثلاثة • عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير ، وابن عوف بن عقدة بن عوف بن ثقيف « (١) » .

التقى بهؤلاء الذين كانوا يعدون من أشrafهم ، لمكانة أبيهم فى ثقيف •

وقد كانت هذه الرحلة النبوية الى ثقيف غير محققة الاستجابة ، ولكنها كانت جهادا فى سبيل الدعوة من صاحبها • ولنذكر لك المجاورة التى كانت بين النبى عليه الصلاة والسلام ومن تحدث اليهم من أولاد عمرو بن عمير •

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أولاد عمرو بن عمير • فدعاهم الى الله تعالى • وبما جاءهم له من نصرته عليه الصلاة والسلام • والقيام معه على من خالفه من قومه ، فأجابوه بنكر من القول •

قال أحدهم : وهو يمرط ثياب الكعبة الشريفة ، ( أى انه ينزع كساء الكعبة ) ان كان الله تعالى أرسل النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) ينزع ثياب الكعبة الشريفة وكأنه يسخر بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعلق على

وقال الثانى : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !! وكأنه يستتكر أن يكون هو الرسول عليه الصلاة والسلام •

وقال ثالثهم : لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك •

كان الرد كله تهكما واستهزاء ، فرأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا استجابة منهم ، ويئس منهم وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى •

وإذا كانوا غير مستجيبين لدعوة الله تعالى فإنه قد يكون فيهم مرعة • فرأى عليه الصلاة والسلام أن يخفوا مجيئه اليهم ، وكره أن يبلغ قومه فيدثرهم أى يثيرهم ، ولكنهم للؤمهم لم يخفوا أمره ، بل أعلنوه ، بل أغروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونونه ويتصيحون به ، حتى اجتمع الناس عليه •

وقد روى موسى بن عقبة أنه قعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموه ، فمضى ، وهما يسيلان دما « (١) •

عاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة الشاقة لقوم لئام ، لم ينوقوا معنى المروءة ، ولم يعرفوا للكرامة الانسانية فى أى صورة من الصور الأدمية •

أشد البلاء ما يثير عطف العدو للودود ، وقد أثار ما فعل أولئك اللئام عطف ابني ربيعة عتبة وشيبة اللذين اشتركا من قبل فى إيذاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم • فقد كان لهما بستان قريب من الطائف ، قد آوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى ظل شجرة من أشجاره •

لقد تحركت الرحم فى ابني ربيعة ، فبعثا غلاما لهما يقال له عداس بقطف من العنب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتبلغ به ، وذلك من الكرم القرشى •

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٦ •

## عداس والنبي صلى الله عليه وسلم :

٢٨٩ — كان عداس نصرانيا ، فذهب بالقطف الذى كان فى طبق ، وقدمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فابتدأ صلى الله تعالى عليه وسلم أكله بقوله : « باسم الله » فنظر اليه عداس ، وتفحص فى وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد • فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أى البلاد أنت عداس وما دينك ؟ قال نصرانى ، ومن أهل نيتوى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟! فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبيا وأنا نبي •

أكب عداس بن مالك على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه •

رأى ابنا ربيعة ما كان من الفتى النصرانى • فلم يلن ذلك قلبهما للإسلام ، فقال أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك •

لما عاد اليهما عداس قالاه : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ !

قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شئ خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه الا نبي •

قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فدينك خير من دينه •

كانت العاطفة الكريمة ، ومعها ذلك الضلال المبين ، وان كان الحق واضحا ، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فكان الطغيان ، وكان الكفران وكان الضلال •

## دعاء ، وعفو ، وإجارة :

٣٩٠ — أحس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالجفوة ، ومرارة الأذى من هؤلاء اللؤماء ، وبما أرادوا له من مهانة ، فلم يجد مثابة

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ، أن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

دعاء منبعث من نفس مكلومة ولكنها راضية ، لأنها تقوم بأعظم دعوة فى الوجود ، فيهبون فى سبيلها كل أمر مهما يكن عنيفاً ، وكل شديدة مهما تكن بالغة ، فهو يقبل ما قدره الله تعالى وما يرضاه ، ولا يهمه الا غضب الله تعالى عليه ومادونه يهبون .

استجاب الله تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام ، وبين له أنه معه ، وقد ثبت فى الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال ما لقيت من قومك ٠٠٠ ان عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ٠٠ فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فاذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى ، فقال ٠ « ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم نادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قد بعثنى الله ، ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثنى اليك ربك لتأمرنى ما شئت ، ان شئت فأطبق عليهم الأخشبين ( جبلين بمكة المكرمة ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) .

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه ، وقد ذكر فى دعائه ضعف قوته ، فبين الله تعالى بأنه يضع فى يده كل القوى ، وأنه لا يمكن أن يهبون عند الناس ، والله تعالى معه ، وأنه لم يتركه لعدو ، ولا ولى ، بل ان أمره عليه الصلاة والسلام الى الله سبحانه . وهو القاهر فوق عباده . فمن كان مع الله تعالى لا يهبون أبداً .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٧ .

## سماع الحق له :

٣٩١ — كان النبی صلی الله تعالى علیه وسلم حفيا بأن يتبع الناس دعوة الحق ، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأوثان ، وكما قال الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : « لعلك يا خضع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ولقد شكوا أن قومه لا يتبعون ، وأن غيرهم كمثلهم ، فبين الله تعالى أنه إذا كان الذين اتبعوه من قومه عددا قليلا ، فإن له أتباعا من الحق ، فبين الله تعالى أن بعض الجن قد استمعوا ، واستجابوا ولم يكفروا فقال تعالى مخبرا عن سماعهم فيما يروى الرواة بعد خروجه من الطائف ، وما نزل به ، قال الله سبحانه وتعالى : « وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق ، والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيئوا داعى الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب اليم ، ومن لا يجب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » \*

وقال الله تعالى فى سورة الجن : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشده فأمتنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيها على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » \*

والجن كما تدل ظواهر القرآن الكريم وما روى من أخبار عن النبی صلی الله تعالى علیه وسلم جنس يقابل الانسان ، فليس الجن من الأناسى ، ولا يتفق مع القرآن الكريم قول من يقول أنهم طائفة من الناس غيبوا فى الأرض ، أو بعدوا فيها . ولقد أخطأ وجانب الصواب من يقول أنهم الأنصار فذلك كلام باطل بالبداهة ، ولكن تبع الغربيين بعض الذين ليس لهم استقلال فكرى أمام ما يقوله الغربيون ، وليست عندهم طاقة يستطيعون بها تمييز ما هو حق وما هو باطل ، وما هو خطأ وما هو صواب .

ان كل عبارات القرآن الكريم تصرح بأنهم جنس مقابل للانسان ، وآيات الكتاب الكريم فى ذلك كثيرة ، من ذلك قوله الله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعا ، يا معشر الجن ، قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ، ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ، ان ربك حكيم عليم ، وكذلك تولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، يا معشر الجن والانسان ، ألم ياتكم رسل منكم



وان هذه الآيات الكريمات تدل بصريحها على أن الجن جنس ، والانس جنس آخر .

ويقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

واقرا قوله الله تعالى : « يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان » .

وأنا نأخذ من صريح هذه النصوص اختلاف الجنسين ، فليس الانس من الجن ، ولا الجن من الانس ، وان الواجب أن نأخذ بظواهر الألفاظ الا اذا قام الدليل على أن الكلام على ظاهره مناقض لحقيقة شرعية قد علمت من الدين بالضرورة ، أو أمر عقلي مستحيل مخالفته .

وأولئك الذين يريدون أن يخرجوا لفظ الجن عن ظاهره في القرآن الكريم هم من أولئك الذين لا يفكرون في غير المحسوس ، فلا يؤمنون الا بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، وهو الركن الأول للإيمان ، ولذلك كان أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » وفيصل التفرقة بين الايمان والزندقة الايمان بالغيب .

وبعد ذلك نتساءل ما حقيقة الجن ؟ والجواب عن ذلك أننا نميل الى ما يقرره المسلمون . وهو أن الجن من نار ، واعتمدوا في ذلك على نص القرآن الكريم ، لا على الأوهام ، وذلك لأن الله تعالى قال عن ابليس اللعين « كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ولما أبى واستكبر ولم يسجد لأدم ، قال فيما حكى الله سبحانه وتعالى عنه : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وبالتقاء النصين الكريمين يثبت أن ابليس بصريح اللفظ كان من الجن ، وأن الجن خلق من نار .

هذا ما يدل عليه صريح القرآن الكريم .

وان سماع الجن وايمان بعضهم تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه بيان أنه اذا كان قد بطؤت الاجابة في الانس فقد سارعت الجن الى الاجابة « فلا تأس على القوم الفاسقين » .

## فى جوار المطعم بن عدى

٢٩٢ — كان لابد أن يعود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة مهبط الوحى ، ومجتمع العرب فى موسم الحج ، لأن الخطه التى رسمها وابتدأ بها فى الطائف تقتضى العودة الى مكة المكرمة ، وتلك الخطه أن يتصل بالقبائل العربيه فى أثناء اجتماع وفود القبائل فى الحج الى بيت الله الحرام .

هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرجوع الى مكة المكرمة ، وهو عند حراء ، وكان معه زيد بن حارثة الذى صحبه فى هذه السفرة فخشى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب بالآ يرجع الا فى جوار أحد من سادة مكة المكرمة المشركين ، حتى لا يضر .

فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند مشورته ، فأرسل الى الأخنس بن شريق أن يجيره بمكة المكرمة . فقال انه حليف قريش لا يجير على صحيحها .

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى سهيل بن عمرو ليجيره ، فقال : ان بنى عامر بن عامر بن لؤى لا تجير على كعب بن لؤى .

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى المطعم بن عدى ليجيره ، فقال للرسول نعم ، قل له فليأت ، فذهب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبات عنده تلك الليلة .

ثم لما أصبح الصبح خرج معه وبنوه ستة — أو سبعة — على اختلاف الرواية — متقلدو السيوف جميعا ، فدخلوا المسجد ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : طف . واحتبى هو وأولاده بحبائل سيوفهم فى المطاف .

ابن عبد مناف ، وأقبل على مطعم بن عدى فقال أمجير أم تابع ؟ قال : بل مجير ، فقال اذن لا تخف •

وكان أبا سفيان بهذا السؤال يشير الى أنه ان كان تابعا فهو حرب مع النبي عليه الصلاة والسلام ينال أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن كان مجيرا فانه تحفظ ذمته ، لأنه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة •

ومن هذا تعرف حكمة الله تعالى في أن أبا طالب لم يعلن اسلامه مع حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه لو أعلن الاسلام لحاربوه مع من أذوا من أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يرفعوا فيهم الا ولا ذمة •

## انشقاق القمر

٢٩٣ — قلنا ان الأمور التي كانت بعد الدعاء المحمدى كانت استجابة لهذا الدعاء وإبعادا للوحشة عن قلبه الطاهر ، فمجيء تلك الجبال كان لإشعاره عليه الصلاة والسلام بالقوة ، وقد شكّا ضعف قوته ، وسماع الجن للقرآن الكريم وإيمان بعضهم كان لا يناسبه عليه الصلاة والسلام بكثرة الأتباع ، ثم كان تسهيل الجوار ليدخل مكة المكرمة ويكمل دعوته ، فيه اثبات سعة الحيلة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، هداه الله تعالى إليها لكي يذهب بقلّة حيلته التي شكّاها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانت من بعد ذلك الآيات الحسية ، التي كان منها انشقاق القمر ، والاسراء والمعراج . لبيان أن الله تعالى لم يتركه « ما ودعك ربك وما قلى » .

وقد ذكرنا أن كتاب السيرة لم يذكر الأخبار مرتبة بترتيب الوقائع ، وقد ذكرنا انشقاق القمر بعد الاسراء والمعراج ، ونحن قد رجحنا كما رجح ابن كثير أن الاسراء كان بعد وفاة أبى طالب وخديجة أم المؤمنين رضى الله عنهما ، إذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، والصلوات لم تفرض خمسا الا فى المعراج .

وقد ذكر بعد المعراج انشقاق القمر ، وإن المناسبة تزكى ذلك الترتيب فإن ذلك تقوية للاستدلال على صحة الرسالة ، وإن كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعده عليه الصلاة والسلام المعجزة .

ولندخل من بعد للموضوع ، وهو انشقاق القمر . لقد قال الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشقق القمر » ، ويقول فى ذلك ابن كثير : « وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك فى زمنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر أن شاء الله تعالى . وبه الثقة وعليه التكلان ، ويذكر من بعد ذلك الحافظ الحجة ابن كثير الأخبار الصحاح الواردة فى ذلك .

وقبل أن نختار من هذه الصحاح ما نراه أوضح من غيره دلالة ، نقول ان انشقاق القمر ثبت بلفظ الماضى مما يدل على حكاية الواقع ، لا ذكر المتوقع ، فإن اللفظ القرآنى يؤخذ بظاهره ما لم توجد قرينة من حقيقة ثبتت بالاجماع

والعلم الضروري ، أو من قضايا العقل المبنوثة التي لا مجال للريب فيها ، أما تأويل القرآن الكريم ، وإخراجه عن ظاهره باستبعاد بعض ذوى العقول المأقونة أو المتأثرة بالمألوف بين الناس ، وتنكر ما عداه ، ولا تعلم أن هناك قوة مغيرة محدثة منشئة هي قدرة الله تعالى وإرادته التي توجب الايمان بالله تعالى فعال لما يريد ، مختار فيما يفعل ، وأنه وحده خالق كل شيء ، خلق الأسباب والمسببات ، لا توجب إرادته أسبابا عادية « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » •

وعلى ذلك نقرر أنه وقع فى الماضى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن قول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » عبر عن انشقاق القمر بلفظ الماضى الدال على الوقوع فى زمن مضى ، وتخريجها على أن الماضى أريد به المضارع ، وأنه سينشق ، تخريج للفظ بغير ظاهره الذى دل عليه القرآن الكريم بظاهره لا بد له من مسوغ يوجب ذلك التخريج ، ويكون قرينة دالة على أن اللفظ أريد به غير ظاهره •

٢٩٤ — هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن الكريم ، وهو فى ذاته حجة دالة على الوقوع لا يحتاج الى حجة أخرى تؤيده فهو يؤيد غيره ، ولا يستمد التأييد من غيره ، ولكن السنة تبين لنا كيف وقع لا أصل الوقوع ، فنحن نرجع الى السنة لبيان شكل الوقوع •

لقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الوقوع ، أو شكل الوقوع يثبت بعدة طرق عن كثيرين من الصحابة ، فروى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجبير بن مطعم ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم أجمعين •

روى البخارى ومسلم أن أهل مكة المكرمة سألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم آية فانشق القمر ، فانشق القمر بمكة المكرمة مرتين ، وفى رواية لمسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة المكرمة سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، رواه البخارى ، وزادت روايته حتى رأوا حراء بينهما •

وبذلك تفسر كلمة مرتين بأنه صار فرقتين •

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد ، وقالوا ان كان سحرنا ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البخارى عن ابن عباس ، قال ان القمر انشق فى زمان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال البخارى قد مضى ذلك كان قبل الهجرة ، انشق القمر ، حتى رأوا شقيه •

ويقول ابن عباس فيما روى عنه أبو نعيم بسنده : « اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ••• ونظروا وهم فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، نصفاً على أبى قبيس ، ونصفاً على قيقعان ، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا وكانت ليلة بدر ، فأمسى القمر قد شق نصفاً على أبى قبيس ، ونصفاً على قيقعان » •

وهكذا تضافرت الروايات ، وهذا بعضها يدل على أن القمر شق ، وكان شقين ، وكان القمر بدراً ، وعينت بعض الروايات أنه كان فى الليلة الرابعة عشرة ، وليس لأحد أن يشك فى هذه الروايات التى يسند بعضها بعضاً ، حتى ادعى ابن كثير أن أخبار انشقاق القمر فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت حد التواتر ، وأنه لم يعد ثمة مسأغ لمستريب ، ولا مجال للتكذيب ، وخصوصاً أن الأصل ثابت بظاهر القرآن الكريم ، والأحاديث مبينة لشكل الوقوع ، لا لأصل الانشقاق ، فانه ثابت بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذين ينكرون يستغربون ثم يؤولون ، ان كان للايمان بالقرآن الكريم بقية فى قلوبهم •

٢٩٥ — ان الذين يستغربون ، ثم ينكرون ، ويؤولون ان كانوا مسلمين يردون أن ذلك لو حصل وهو أمر كونه لكان مرثياً فى كل بقاع العالم • ولم يختص العرب برؤيته ، بل تعم ولا تخص ، وقد ردد ذلك المنصارى من كتاب المشرقيات ونقله عنهم الذين يتعرفون أمور الاسلام من هؤلاء •

ونقول لعلماء الغرب الذين يشككون فى القرآن الكريم • لقد صدقتم ما هو أشد من ذلك غرابة ، فان الأناجيل التى يصدقونها ، ويؤمنون بكل ما فيها يقولون فى ميلاد المسيح عليه السلام انه علم ميلاده عند المجوس بنجم أعلمه ، وأنهم جاءوا من بلادهم ، والنجم يسير أمامهم ، حتى علموا مكانه عن طريق النجوم ، فهل كان الناس قدروا ذلك ، كما تطالبون المسلمين بأن يثبتوا أن الناس جميعاً قد رأوا انشقاق القمر ، والا فهم فى حل من أن يكذبوا القرآن الكريم : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً » •

ومع ذلك فأننا نقبل الاعتراض ، وإن كانوا غير مخلصين ، ولا مؤمنين بما يقولون • ونقول فى رده أن العرب المشركين عندما رأوا القمر قد انشق ، لم يؤمنوا وقالوا سحرنا محمد – وحكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقد قال الله تعالى فى واقعة انشقاق القمر : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر » •

وبعضهم أراد أن يتعرف ، وانتهى تعرفه بأن الناس الذين علموا أمره من غير المقيمين قد رأوه منشقا • فقد روى الامام أحمد ، والشيخان البخارى ومسلم عن ابن مسعود : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا انظروا ما يأتىكم به السفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البيهقى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضا ، فقد قال : انشق القمر بمكة المكرمة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش لأهل مكة المكرمة : هذا سحر سحركم به ابن أبى كبشة ، انظروا السفار ، إن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم ، فهو سحر سحركم به ، قال فسئل السفار ومن قدموا من كل جهة ، فقالوا رأينا •

من هذه الصحاح يتبين أن الرؤية كانت عامة ، ولم تكن مختصة بأقليم ولا ببلد ، وقد تحرى أهل الفحص والنظر فرأوا أن قد رؤى فى كل الأماكن التى كانت تجاورهم • أو أتى فيهم السفر بخبره ، فدل هذا على أن الرؤية كانت عامة ، والقرآن الكريم صادق وأخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صادقة من كل الوجوه ولا سبيل لانكارهم بتوهم متوهم ، أو استغراب مستغرب ، فأمارات الصدق قائمة بينة ، ولا يرد الأمر البين بتوهم واهم ، أو استغراب مستغرب ، أو انكار كافر جحد •

وفوق ذلك ، فانه جاءت الأخبار بأن انشقاق القمر قد رؤى فى الهند ، قال المؤرخ ابن كثير :

ومع ذلك فقد شوهد ذلك فى كثير من بقاع الأرض • ويقال : انه أرخ بذلك فى بعض بلاد الهند • وبنى بناء فى تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر (١) •

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٠ •

## الاسراء والمعراج

٢٩٦ — كان الاسراء فى السنة التى كانت قبل الهجرة ، وروى البيهقى عن ابن شهاب الزهري أنه كان فى السنة التى قبل الهجرة ، وروى الحاكم أن الاسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا .

واختلف على ذلك فى الشهر الذى أسرى به فيه ، فالسدى قال انه فى نى القعدة ، والزهرى قال فى ربيع الأول .

وروى عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج الى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وفى رواية أن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب ، ويقول ابن كثير : « وقد اختاره الحافظ بن سرور المقدسى ، وقد أورد حديثا لا يصح سنده كما ذكرنا فى فضائل شهر رجب ، وأن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم . ومن الناس من يزعم أن الاسراء كان فى أول ليلة جمعة من شهر رجب ، وهى ليلة الرغائب التى أحدثت فيها الصلاة المشهورة ، ولا أصل لذلك ، والله أعلم .

وقد جاء فى نهاية الأرب أن الاسراء كان فى ليلة السبت ، ليلة سبع عشرة من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أسرى صلى الله تعالى عليه وسلم به وسنه احدى وخمسون سنة وتسعة أشهر !!

وننتهى من هذا الى أن علماء السيرة النبوية مختلفون فى تعيين اليوم الذى كان فيه الاسراء ، ولكن الواقعة ثابتة . وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الطائف ، وردهم له الرد المنكر ، وأن كونها فى ليلة السابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصح سنده فى نظر الحافظ المحدث ابن كثير ، وقال من بعد ذكره : والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ ، أو تلقوه بالقبول ، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده ، بل نقبله ، ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين .



واتفقت الروايات أيضا على أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة على الأقل ، ويظهر أنها كانت فى السنة التى قبل الهجرة فى ثلثها الأول أو الأخير والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الاسراء كان بعد انشقاق القمر .

٢٩٧ — وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الاسراء والمعراج ، وتعيين الله تعالى لزمانها ، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، يضع الأمور بموازينها وفى أوقاتها ، وأجلها المعلوم ، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى ، فهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة فى السماء أو فى الأرض .

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ضراسته بالدعاء الذى دعا ربه غب خروجه من الطائف ، شكا ضعف قوته ، فأمدّه الله تعالى بالقوة ، وقلة الحيلة فأمدّه بحسن التدبير لدخول مكة المكرمة أمنا مطمئنا ، وأيده بأية حسية من نوع ما يطلبون ، وإذا كانوا لم يستجيبوا لداعى الله تعالى ، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل ، ولو كان حسيا ، فقالوا سحرنا ، مع أن انشقاق القمر رآته الركبان فى أسفارها ، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى فى المعراج ، سواء أقلنا ان لقاءه بالله تعالى ، كان بالروح فى الرؤيا ، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (١) ٠٩

لقد أحس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين ، خديجة العطوف ، وأبو طالب الشفيق . فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، وحياطته أكرم ، وإن عنايته بك وبرسالتك هى التى ستبلغك أمرك ، وتحقق لك شأوك ، وتصل بك الى غايتك ، وهو المهيمن الرؤوف الرحيم ، لذلك كان الاسراء ، ومن بعده عروجه الى السماء .

٢٩٨ — والآن ننقل الى الآيات الكريمات التى صرحت بالاسراء ، ثم كانت الإشارة الواضحة الى المعراج ، قال الله تعالى : « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من

(١) السيرة العطرة للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، ونهاية الأرب ج ١٦

ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

آياتنا • انه هو السميع البصير » • فى هذا النص الاسراء صريحا ، وكانت  
الاشارة الى المعراج بقوله تعالى : « لثويه من آياتنا » •

وقال الله تعالى : « واذ قلنا لك : ان ربك احاط بالناس ، وما جعلنا الرؤيا  
التي اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما  
يزيدهم الا طغيانا كبيرا » فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هى المعراج •

وقال الله تعالى فى سورة النجم : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم  
وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ،  
نو مرة فاستوى ، وهو بالافق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو  
أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على  
ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى  
السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » •  
ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى المعراج ، وان ذلك لواضح ، واذنا  
كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج الى السموات العلما فان الاشارات  
واضحة تكاد تكون تصريحيا ، والاشارات الواضحة فى قوة الدلالة تكون  
كالألفاظ الصريحة •

وقد قال بعض علماء السيرة ان الاسراء بالنبى صلى الله تعالى عليه  
وسلم ابتداء من شعب أبى طالب ، وان كان السند فى ذلك صحيحا ، فانه يشير  
الى أن أبا طالب قد مات ، وأن مهمته قد انتهت ، وأن الله تعالى وهو الباقي  
الدائم • الأول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة فى  
الشدائد — ولكن الثابت فى البخارى أنه ابتداء من الحطيم بالمسجد الحرام •

### الاسراء بالجسم :

٢٩٩ — ان ظاهر الآية القرآنية التى أثبتت الاسراء وهى قوله تعالى :  
« سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » أن الاسراء كان بالجسد  
والروح ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال أسرى بعبده ، والعبد هو الروح  
والجسد ، ومادام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل ، فانه يجب الأخذ به ،  
فانه من المقررات أن الألفاظ تفسر بظاهرها الا اذا لم يمكن حملها على الظاهر  
لمعارض ، ولا معارض •

وفوق ذلك فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الاسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارْتَد من ارتد ، ويقول فى ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة « انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة ، فأصبح يخبر قريشا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس \* وارْتَدت طائفة بعد اسلامها ، وبادر الصديق الى التصديق ، وذكر أن الصديق سألته عن صفة بيت المقدس ، وقال انى لأصدقته فى خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقته فى بيت المقدس ، فيومئذ سمي أبو بكر الصديق .

وانه روى أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على غير لقريش فند بعير لهم نافرا ، فأرشداهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانه ، وقد أخبروا أهل مكة المكرمة بذلك (١) .

وانه روى أن أهل مكة المكرمة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى اخبارهم ، والاستدلال على صدقه : « وآية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسن الدابة (٢) فندلهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت ، حتى اذا كنت بصحنان مررت بعير بنى فلان \* فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء ، قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (٣) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غاررتان ، احدهما سوداء ، والأخرى برقاء ، فابتدر القوم الثنية \* وسألهم عن الاناء وعن العير فأخبروهم ، كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان هذا كله يدل على أن الاسراء كان بالروح والجسد ، فانه تلاقى مع المارين بين مكة المكرمة والشام وأخبر عن التلاقى ، وصدق خبره عليه الصلاة والسلام ، واذا كانت بعض هذه الروايات فى اسنادها كلام ، فان بعضها يقوى الآخر ، ونص القرآن الكريم ظاهر فى تأييد الدعوى ، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل .

ولو كان الاسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق ، ولبادر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باخبارهم الى أن ذلك رؤيا فى المنام ، أو هذا وحى أوحى به اليه .

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) هى البراق الذى سنذكر الروايات عنه من بعد .

(٣) هو مكان .

ولقد كان بجوار هذا القول الذى تنطق به الآية الكريمة قول آخر ،  
روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق  
رضى الله عنه وروى أيضا عن معاوية بن أبى سفيان ، وقد كان أبان ذلك هو  
وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة ، ولكن لعله نقل عن غيره ممن  
شاهدوا ، وعاینوا ، كما نقلت عائشة عن غيرها ، وما كانت فى ذلك إلا بان  
قد زفت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن  
أبيها الصديق ، واحتج بقول عائشة هذا ، وقد أثر عن النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة .

ولكن الخبر عنها يحمل فى نفسه ما يوهم عدم صدقه عنها ، ففيه :  
أنها قالت : « لم تفقد بدنه » وأن ذلك يوهم أنها كانت معه فى ميبت واحد ،  
مع اجماع المؤرخين والمحدثين على أنه لم يبن بها الا فى المدينة .

وقد استدل أصحاب هذا القول بما روى الحسن البصرى عن أن قول  
الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك الا فتنة للناس » وقالوا ان الرؤيا  
هى ما كان فى ليلة المعراج ، والرؤيا هى ما يكون فى المنام ، كما حكى عن  
سيدنا يعقوب : أنه قال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه فى المنام :  
« لا تقصص رؤياك على اخوتك » .

وجاء فى كتاب البصائر للفيروزباده : « الرؤيا ما رأيته فى منامك ،  
والجمع رؤى كهدى ، وقد تخفف الهمزة من الرؤيا ، فيقال بالواو » (١) وهذا  
وغيره نصوص صريحة فى أن الرؤيا منامية .

ولكن أهى كانت فى الاسراء أم كانت فى المعراج ؟ ان رواية الحسن  
رضى الله عنه تقول : هى ما كان فى ليلة المعراج ، نعم ان الليلة كانت واحدة ،  
ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه فى المعراج  
لا فى الاسراء .

ويستدل أصحاب هذا القول ، وهو أن الاسراء كان بالروح بحديث  
البخارى عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٣ ص ١٧٧ .

وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبيل أن يوحى إليه ، وهو نائم فى المسجد الحرام . فقال أولهم أيهم هو ، قال أوسطهم هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم . فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، ولم يكلموه حتى احتملوا فوضعوه عند زمزم ، فتولاه منهم جبريل . . . والحديث طويل وقال فى آخره واستيقظ وهو فى المسجد الحرام ، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا إشكال فيه .

ونرى أن فيه اشكالا ، لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى إليه ، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الاسراء والمعراج ، ولعلها كانت اذا صحت الرواية فى موضوع آخر .

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للاسراء وأنه يوفق بينها بأن الاسراء كان مرتين : احدهما بالروح والأخرى بالجسد والروح .

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض ، بل الأدلة على أن الاسراء كان بالجسد والروح هى التى لا ريب فيها ، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوى .

ولذا نرى أن الاسراء كان بالجسد والروح ، ولا نجد فيما استدل به ما يدل على أنه كان بالروح فقط ، وإن الآية : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » لا نرى أن موضوعها هو الاسراء ، بل ان موضوعها هو المعراج .

ولا غرابة فى أن ينقل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة الى بيت المقدس وأن يعود به فى ليلة واحدة ، فان هذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى ، لأن المسافات فى الزمان والمكان ، انما هى بالنسبة للعبيد ، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شيء ، وهو خالق الأماكن والازمان .

### المعراج بالروح :

٣٠٠ — ان الأكثرين من العلماء على أن المعراج كالاسراء كان بالجسد والروح ، وأخذوا ذلك من ظواهر الأحاديث الصحيحة التى روتها السنة ، ففيها التصريح بأنه لقى آدم فى سماء ، وإبراهيم فى مثلها ، وإدريس وعيسى ويحيى وموسى ، وهذه الظواهر أثروا الأخذ بها .

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقال فريق منهم أنه رأى ربه وخاطبه ، وكان ذلك تكريما له لمخاطبة الله سبحانه وتعالى اختص به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريبا له ، وهو فوق المذكور فى قول الله سبحانه وتعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، او من وراء حجاب • او يرسل رسولا » وليس من هذه الثلاثة رؤية الله سبحانه وتعالى ، وتلقى الرسول منه مباشرة من غير حجاب •

وقد رأى ذلك الرأى الامام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الأشعري وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبى ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه : « قلت يا رسول الله هل رأيت ربك ، فقال عليه الصلاة والسلام انه نور أنى أراه ، وفى رواية رأيت نورا •

والذين قالوا ان الاسراء كان بالروح وفى رؤيا صادقة قالوا ذلك فى المعراج ، بل هو أولى ، فالرحلة كلها كانت رؤيا صادقة ، وقد بينا القول فى أدلة هذا الرأى بالنسبة للاسراء من قول •

وقد انضم اليهم غيرهم ممن يرون أن الاسراء كان بالجسد والروح ، فمنهم من قال ان المعراج كان بالروح وليس فى الموضوع نص قرأنى يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح ، حتى لا يكون مناص من اتباعه أو تأويله ، بل نجد اللفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح ، وبالظاهر المتبادر ، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا •

ولننظر فى الآيات الكريمات الدالة على المعراج :

دلالة آية الاسراء على المعراج بالاشارة لا بالعبارة ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى « لنريه من آياتنا » فتلك الآيات التى أراها الله عبده هى المعراج وامامة الأنبياء السابقين •

والآيات الأخرى التى دلت على المعراج ، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج الا بالاشارات البيانية ، ولننظر فيها عبارة عبارة ، وكلها من السمو البيانى فى المكان الأمثل الذى لا يصل اليه بيان قط •

« علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى » فقد قالوا انه جبريل عليه السلام ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى ، فتعليمه لا يكون بالتلقين بل يكون بالارشاد والايحاء •

وقوله سبحانه وتعالى : « وهو بالأنفق الأعلى » يراد جبريل عليه السلام « ثم دنا فتدلى » أى نزل وقرب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « فأوحى الى عبده ما أوحى » عن طريق جبريل ، « ولقد رآه نزلة أخرى » وهو جبريل أيضا وقوله سبحانه وتعالى « ما كذب الفؤاد ما رأى » تومىء الى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره ، وقوله سبحانه وتعالى : « ما زأغ البصر وما طغى » أى ما كل وما تجاوز حده ، والنفى فيه ما قد يكون لأنه لم تكن رؤية بالبصر . حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده ، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطنى ، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه ، ويزيع بأن يكل ويميل ، ويلقى فى النفس ما لم ير .

واننا عند هذا النظر الفاحص ننتهى الى أن الاسراء اذا كان بالجسد والروح ، فإن المعراج كان بالروح فقط ، وأنه كان رؤيا صادقة ، وقد اتجهنا الى ترجيح ذلك لما يأتى :

(أ) أنه ذكر فى المعراج أنه التقى بالأنبياء آدم وإبراهيم وموسى ويحيى ، وغيرهم ، والباقي منهم هو أرواحهم ، وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور ، وفرض أنه بعثها ثم أفناها فرض بعيد لم يذكر فى حديث من الأحاديث ، ولا خبر من الأخبار ، ولو ضعيفا ، وكل فرض فى أمر غيبى لادليل عليه من المنقول فهو رد على قائله الا أن يكون أمرا يؤدى اليه البرهان العقلى ، ولا يوجد شيء لا من المنقول ولا المعقول يقرر إعادة أجسام الأنبياء الكرام أحياء ، ثم أعادتها الى الفناء .

(ب) ان العبارات القرآنية الكريمة الواردة فى المعراج تومىء بل تصرح بأن الأمر فى هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الادراك لم يكن بالحس ، بل كان بالقلب والفؤاد ، فالله تعالى يقول : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ، أفتمارونه على ما يرى » فالحديث القرآنى كله كان فى اثبات رؤية الفؤاد ، وأنه لاتجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذى لا يكذب ، وذلك لا يتحقق الا بأن تكون الرؤية روحية ، لأن رؤية القلب لا تكون الا روحية ، وأنه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفى ، لا بالايجاب ، وقد بينا مؤدى النفى فى هذا .

(ج) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه ، والرؤية القلبية ممكنة باستحضار عظمتة ، وبالسبحات الروحية المتجهة الى الله سبحانه وتعالى وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه فى حديث أبى ذر الغفارى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام فى اجابة سؤال الصحابى الجليل أبى ذر : « أنه نور ، فأنى أراه » .

واننا لا نتعرض فى ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة ، أو غير ممكنة ، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور ، وذهاب أهل الجنة اليها ، وابقاء أهل النار فيها ، فان الكلام فيها غير الكلام فى الدنيا ، ونحن نحس ونرى ، فان كانت رؤية الله تعالى الآن فهى بالعين الفانية ، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية ، والله أعلم كيف يرى •

وننتهى من هذا الى تقرير حقيقتين نراهما :

الأولى : أن الاسراء كان بالجسد والروح بظواهر النصوص المثبتة ، ولا معارض لها •

الثانية : أن المعراج كان بالروح فقط لعدم وجود الأدلة المثبتة انه كان بالجسد والروح من القرآن الكريم ، ولوجود المعارض من النقل والفعل •

والآن نعود الى قصة الاسراء والمعراج كما هى فى الصحاح على أن نفس الألفاظ على ضوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما •

## الاسراء والمعراج فى صحاح السنة

٣٠١ — كان من الممكن أن نقف بالنسبة للاسراء والمعراج عند هذا الذى قررناه ، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر فى المعراج انه بالروح •

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الاسراء ثم العروج ، نختار منها رواية البخارى •

روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ، وربما قال فى الحجر — مضجعا إذ أتانى آت ، وسمعتة يقول : فشق ما بين هذه الى هذه ، فقلت ( أى الرواي ) للجارود وهو الى جنبى ماذا يعنى به ، قال من نقرة شعره الى شعرته ، وسمعتة يقول من قصه الى شعرته • فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء ايماننا فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد ••• ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود ، وهو البراق : قال أنس نعم • يضع خطوة عند أقصى



طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بى جبرائيل ، حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ! قال محمد قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به • فنعم المجيء جاء • ففتح ، فلما خلصت فاذا آدم ، فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال مرحبا بالابن الصالح ، والنبي الصالح ، ثم صعد بى الى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل من هذا قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء • ففتح ، فلما خلصت ، اذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهما فردا ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بى الى السماء الثالثة • فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قال ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف • قال هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بى الى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت اذا ادريس ، قيل فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا ، بالأخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قال نعم ، قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا بهارون ، قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح ، والنبي الصالح • ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد • قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال أبكى ، لأن غلاما ما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتى •

ثم صعد بى الى السماء السابعة ، فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قيل ومن معك ؟ قال محمد • قيل أوقد بعث اليه ؟ قال نعم • قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت ، اذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح •



ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء اماما كان عند مقدمه الى المسجد الأقصى ، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الامامة كانت وهو يعرج الى السموات  
العلا •

واختار ابن كثير فى تاريخه أن امامته عليه الصلاة والسلام للأنبياء كانت بعد أن نزل من العروج ، ويقول فى ذلك •

« وهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما ، عند رجوعه من الحضرة الالهية العظيمة ، كما هى عادة الوافدين ، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه اليه ، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل : هذا فلان فسلم عليه ، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج الى تعرفه بهم مرة ثانية ، ومما يدل على ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام « فلما حانت الصلاة أممتهم ، ولم يجئ وقت اذ ذاك الا صلاة الفجر ، فتقدمهم اماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل » (١) •

وان هذا الكلام يدل على أن امامة النبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء كانت بعد أن تنزل من الأفق الأعلى ، وان المعراج كما انتهينا كان بالروح ، وكانت رؤيا صادقة •

هذه قصة الاسراء والمعراج ، كما نص عليها فى القرآن الكريم ، وكما جاءت بها السنة الصحيحة ، وقد ذكرناها بشئ من الاطناب ، لكثرة الكلام حولها ، ولاختلاف الروايات ، فكان لابد من أن نصفى القول فيها •  
وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق العادات الحسية التى كانت فى حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما تحدى بما يتناسب خلود شريعته ، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الأجيال كلها الى يوم الدين ، وهو القرآن الكريم •

## انتشار الاسلام فى البلاد العربية

٢٠٣ — اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة الوحى ، ومنزل الدعوة الاسلامية الأولى ، لأنها مطمع أنظار العرب ، ولأنها مثابة الناس وأمنهم ، فهي تعد مصدر المعرفة العربية على قدر ما عند العرب ، وبها حج بيت الله الحرام ، وبها ملتقى العرب فى موسمه ، وبها أسواق الأدب ، والمتاع ، وفى موسم الحج يلتقى العرب من كل فج عميق ، وفى الأسواق التى تقام فى الموسم يتبارى الشعراء والخطباء فى عكاظ ، وذى مجاز ومجنة .

وإذا كانت مكة المكرمة لها تلك المكانة فى بلاد العرب ، فإن كل ما يكون فيها من أحداث تنتقل أخباره الى بلاد العرب ، فإذا كانت الأحداث منها رسالة رسول يدعو الى هدم الأوثان وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، فإنه لابد أن يسير بخبرها الركبان .

ومن العرب من لا يعيرها اهتماما ، ومنهم من يلتفت اليها ، ويهتم لها ، معاندا مع العاندين ، أو طالبا للحق ، فيبتغيه .

وكذلك كان الأمر ، فإن أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته الى الحق ، والى صراط مستقيم كانت تتجاوب أصدائها فى البلاد العربية ، ومن العرب من كان يجىء الى مكة المكرمة متعرفا أمر ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته ، ويدرسها ، كما فعل أكتهم بن صيفى حكيم العرب ، إذ أرسل بنيه الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما يدعو اليه ، فلما حضروا وسألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : تلا عليهم قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قال : انه ان لم يكن ديننا فهو خلق الناس أمر حسن ، يا بنى كونوا فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا .

وقد أسلم أبو ذر الغفارى بهذا العلم العام الذى شهرت به دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكذلك أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو ، فقد أسلم إذ جاءه الخبر بدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان رجلا شريفا شاكرا ، وقد

حضر الى مكة المكرمة ليتعرف خبره وما يدعو اليه ، ولنتركه يقص علينا قصة ايمانه ، اذ يحدث أنه قدم مكة المكرمة ، فمشى اليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا ( أى ظلمنا ) وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله سحر ، يفرق بين الرجل وبين بنيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وانما يخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

ويقول الطفيل : « فوالله ما زالوا حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا خوفا من أن يبلغنى شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . فغدوت الى المسجد . فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة الشريفة ، فقامت منه قريبا . فأبى الله تعالى الا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا . فقلت فى نفسى : وأثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته .

لما انصرف النبى عليه الصلاة والسلام من صلاته الى بيته تبعه الطفيل وقد مال الى الاسلام فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

« يا محمد ، ان قومك قد قالوا كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعنى قولا ، فسمعتة قولا حسنا فأعرض على أمرك . قال فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا على القرآن الكريم ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله : انى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع اليهم وداعيهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً عليهم فيما أدعوهم اليه .

عاد طفيل الى قومه يدعوهم الى الاسلام الذى انبعث نوره من مكة المكرمة ، زاد الله البيت الحرام تكريما وتعظيما » .

**وفد نصارى نجران :**

٣٠٣ — وممن أسلموا عندما علموا دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وفد نجران وهم عشرون رجلا ، أى قريب من ذلك من النصارى ، عندما

علموا أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الحبشة ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقول :

قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى انديتهم حول الكعبة الشريفة . فلما فرغوا من مسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن الكريم ، فلما سمعوا القرآن الكريم فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

لما قاموا عنه مؤمنين اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا قولاً اثماً ، قالوا لهم : خبيكم الله من ركب ، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبا أحقق منكم ، أو كما قالوا « فقالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نال أنفسنا خيراً » .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خبر هؤلاء فى القرآن الكريم مبيناً له بالإشارة فى وصف عام لبعض أهل الكتاب ، فقال الله تعالى : « الذين أتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، انه الحق من ربنا ، انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدعون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ، انك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ونحن أعلم بالمهتدين » .

وقد رجح الأكثر أن هذه الآيات نزلت فى نصارى نجران الذين ذكرنا لك الخبر عنهم ، ولم تكن الآيات فى النجاشى وأتباعه ، ويقول ابن اسحاق ان الذى نزل فى النجاشى وأصحابه من النصارى هو ما جاء فى سورة المائدة ، ان يقول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة الذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وانهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدفء مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع

الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فاتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » .

## عرض الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على القبائل

٤٠٣ — يئس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يؤمن قومه في هذا الوقت ، ورحمة الله تعالى قد تحملهم على الايمان ، ولكن بعد أدوار من الزمان والأحوال ، فإذا كان قد يئس من ايمانهم في ذلك الايمان ، فهو لم يئأس من ايمانهم بعد تعاقب الأحداث ، لأن الله تعالى لم يقل له ، كما قال لنوح عليه السلام : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » .

وإذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد من قومه الا الأذى في هذه الجولة ، فانه وجد في بعض الذين يفدون الى الحج ، أو يفدون اليه من يجد قول الحق الى قلوبهم سبيلا ، وقد رأينا كيف كان نور الاسلام ينبعث خارج مكة المكرمة فيجىء آحاد من القبائل العربية ، ويستمعون القرآن الكريم ، وهم ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فإذا تلى عليهم القرآن الكريم خروا لله ساجدين ، ثم يدعون من بعد أقوامهم .

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتقدم الى القبائل في موسم الحج يدعومهم في منازلهم التي ينزلونها في منى يذهب اليهم ، قبيلة قبيلة ، يدعومهم الى الحق ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، وقد أحست قريش بذلك ، فأنبرى الذين يلجون في عداوة الحق ليصدوا عن سبيل الله ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأبو لهب ، فكانا يتحريان أن يتبعاها ، وإن يدعو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله تعالى بقوله : « يأيتها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » يتصدى أبو جهل أو أبو لهب ، وهما يتناوبان ، فيقول : « يا بني فلان ، ان هذا انما يدعوك الى أن تسلكوا الملات والعزى من أعناقكم ، الى ما جاء من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » .

وهكذا كانت الدعوة المحمدية تأخذ طريقها ، والذين يصدون عن سبيل الله يدعثرونها ، ولكن نور الحق لا تطفئه الضلالة ، ولا تعمى عنه الأبصار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائم على الدعوة ، اتبعوه أو فارقوه ، وربما

«وجد غفلة عن اتباعه ، فانتهزها ، ومهما يكن مقدار الاستجابة ، فان اعلام الناس بعقيدة التوحيد ينبه الأذهان الى التفكير فى الأوثان ، ومجرد التفكير فيها يحبطها » .

ولقد روى عن ابن شهاب الزهري أنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويخاطب أشراغهم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك الا أن يؤروه ويمنعوه ، ويقول « لاأكره أحدا على شئ » ، من رضى منكم بالذى أدعو اليه ، فذلك ، ومن كرهه ، لمأكرهه ، انما أريد أن تحرزوني ( أى تمنعوني ) فيما يراد لى من القتل ، حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله تعالى لى ، ولن صحبنى بما شاء » .

ونرى من هذا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم بالحكمة ، فهو يأتيهم من قبل ما شهر عن العرب بحبهم للنجدة ، ولا يأتيهم ابتداء بمحاربة تدينهم ، كما قال الله تعالى « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وكان أكثر الجماعات لا يحبون دعوة الحق ، ومنهم من يحسن الرد ، ومنهم من كان يقول : الحق بقومك ، ولكن بعض الآحاد كانت تصغى أفئدتهم ، وان لم يستطع الكثيرون أن يخرجوا من ربقة ما هم عليه دفعة واحدة .

### جماعات تقبل الوحدانية :

٣٠٥ — ومع الصدود من الجماعات ، والصد من بعض الآحاد ، والميل من آخر كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا فى الاتجاه الى القبائل فى موسم الحج ، وهو يتوسم الناس ، ويتعرف الوجوه والأشراف ومعه أبو بكر الصديق ، وهو من أعلم الناس بأحوال العرب .

وكان بجوار القبائل التى أعرضت ، كانت جماعات قد أقبلت على الاستماع ، وبدأت منها الاستجابة ، حتى كانت قبيلتا الأوس والخزرج ، على ما سنبين ، ولنذكر لك خبرا عن بعض الجماعات التى مالت ابتداء ، قبل اللقاء : بأهل يثرب ، وسنجد فى كلامهم مجاوبة تدل على قدرتهم على المتعة ، وقوة تفكيرهم .

روى أبو نعيم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صحب فى إحدى مرات عرضه نفسه الكريمة على القبائل على بن أبى طالب وأبا بكر رضى الله تعالى



عنهما ، وكان بين أبى بكر ، وبين قبيلة من شيبان بن ثعلبة صلة ومودة ، ثم جرى بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حديث طويل :

قال أبو بكر مخاطبا القوم : ممن القوم : قالوا من بنى شيبان بن ثعلبة •

فالتفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بأبى أنت وأمى .  
ليس بعد هؤلاء من عز فى قومهم ، وهؤلاء غرر فى قومهم ، وغرر الناس ،  
وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ؛ والمثنى بن حارثة ،  
والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس الى أبى بكر مجلسا مفروق بن عمرو .  
وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا فقال له أبو بكر كيف العدد فيكم •

فقال له مفروق بن عمرو ، انا لنزيد على ألف ، ولن تغلب من قلة •

فقال له أبو بكر : فكيف المنعة فيكم •

فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد •

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم •

فقال مفروق : انا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على  
الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا ،  
لعلك أخو قريش ( أى النبى صلى الله عليه وسلم ) مخاطبا له •

فقال أبو بكر ان كان قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم  
فها هو ذا •

فقال مفروق بلغنا أنه يقول ذلك ، ثم التفت الى رسول الله صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وقام أبو بكر يظله ثوبه • فقال رسول الله صلى  
الله تعالى عليه وسلم :

ادعوكم الى شهادة ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله .  
وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله تعالى الذى أمرنى به ، فان قريشا  
تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله  
هو الغنى الحميد •

فقال مفروق : والى ما تدعو أيضا يا أخا قريش •

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالأولدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلکم وصاکم به ، لعلمکم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتم هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلکم وصاکم به لعلمکم تذکرون ، وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ، ذلکم وصاکم به لعلمکم تتقون » •

فقال مفروق ، والى من تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان كلامهم لعرفناه •

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذئى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلمکم تذکرون » •

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ولقد أساء قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة ، فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا •

فقال هانىء : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، وصدقت قولك • وانى أرى ان تركنا ديننا ، واتبعناك على ديتك لمجلس جلسته الينا •• لم نتفكر فى أمرک ، وننظر فى عاقبة ما تدعو اليه — زلة فى الرأى ، وطيشة فى العقل ، وقلة نظر فى العاقبة ، وانما تكون الذلة فى العجلة ، وان من ورأئنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا •

فقال المثنى ! قد سمعت مقاتلك ، واستحسننت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلسته الينا ، وانا انما نزلنا بين حيزين : أحدهما اليمامة ، والآخر السماوة •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هذان الحيزان •

فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف البر ، وأرض العرب ، وأما الآخر

فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : لا تحدث صوتا ولا تؤوى محدثا ، ولعل الأمر الذى تدعوننا إليه مما يكرهه الملوك . فأما ما كان مما يلى العرب ، فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان يلى بلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ؛ فان أردت أن تنصرف ونمتنعك مما يلى العرب فعلنا .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أسأتم الرد ، اذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه .

ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مخاطبا لهم : « أرايتم ، ان لم تلبثوا ، الا يسيرا ، حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، ويغريكم بنابهم اتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك : « اللهم ان ذلك لك يا أخا قريش » .

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا » ثم نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابضا على يدي أبى بكر .

ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر . هذا حديث غريب جدا ، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ، ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، وفصاحة العرب « (١) » .

وفى الخبر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنبأ لهم أنهم سينتصرون على فارس قريبا ، وقد انتصروا فعلا ، وأعلن ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال لأصحابه : « احمدا الله كثيرا ، فقد ظفر أبناء ربيعة بأهل فارس » وأن هذا الخبر الطويل يدل على أمور :

(أ) منها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دائبا على بث الدعوة بين القبائل فى موسم الحج ، سواء أكانوا من القبائل المتاخمة لفارس ، أم المتاخمة للروم فى الشام ، وأنه كان يلقى تأييدا على حسب البعد .

(ب) ومنها - أنه كما كان يلقى صدودا ، كان يلقى أيضا حسن تفهم ، وإن كان ثمة تمرد ، ومنشؤه أنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه ليغيروا بمجرد مجلس .

ومنها - أن المنافسة وحب السيطرة بالشرف ، هى التى أضلت قريشاً  
وحيث لا تكون منافسة يكون التدبر والتفكير .

ومنها تنبؤ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون باذن الله تعالى  
وعلمه .

### ما بين الروم والفرس :

٣٠٦ — ولناسبة ما تنبأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هزيمة  
الفرس فى جوار البلاد العربية ، ووقوع الأمر كالنبا نذكر تنبأ القرآن الكريم  
المنزل من رب العالمين من غلبة الفرس للروم ، وأن الفرس سيغلبون من بعد  
فى قول الله تعالى : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم  
سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون  
بنصر الله » .

ولقد ذكر علماء السيرة والمؤرخون أن كسرى قائد الفرس الى قتال  
الروم ، فانتصروا عليهم ، وهم من عبدة النير ؛ فهم كعبدة الأوثان ، ويصدران  
عن ضلال واحد ، فكان المشركون يعتزون بهذا النصر ، أنهم لا محالة  
سينتصرون على المسلمين ، لأنهم أميون ، وليسوا أهل كتاب ، والمسلمون أهل  
كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، فكانت المفاخرة ممن يقاربونهم ، ويستطيلون  
بهم للإيهام بأنهم سينتصرون على المسلمين ، فنزل قول الله تعالى : « ألم غلبت  
الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم ٠٠ » . الى آخر الآيات الكريمة .

وقد قال بعض المشركين ان الروم لن يغلبوا ، وقال له أبو بكر الصديق  
سيغلبون فى بضع سنين فتراها على عدد من الابل ، فى تسع سنين ، ان انتصر  
الروم فيها خسر الشرك الرهان ، وان لم ينتصر الروم فيما كان أبو بكر عليه  
أن يدفع ما تراها عليه .

وقد انتصر الروم فى هذه المدة ، فكان الرهان لأبى بكر ، ويظهر أن  
ذلك النصر كان بعد أن هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة .

والحافظ ابن كثير يذكر فى هذه ذلك الخبر ، فيقول :

« المشهور أن كسرى غزاه ( أى هرقل ) بنفسه فى بلاده ، فنهزه ، وكسره ،  
حتى لم يبق معه ( أى هرقل ) الا مدينة القسطنطينية ، فحاصرها كسرى مدة

طويلة ، حتى ضاقت عليه ٠٠ ولم يقدر على فتح البلد ٠ لحصانتها ، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم ( أى الروم ) الميرة من هنالك ٠ فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة فطلب من كسرى أن يقلع من يواده ، على مال يصلحه عليه ، ويشترط ما شاء فأجابته الى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ، وجواهر ، وأقمشة ، وجوار ، وخدام ، وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، وهمه أن عنده جميع ما طلب ؛ ٠٠٠ وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج الى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ٠

فخرج من القسطنطينية فى جيش متوسط ٠٠٠ وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فذهب قيصر من فوره وسار مسرعا ، حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فيها فسادا وقتلا فى رجالها ، ومن كان بها من المقاتلة . وقد كان أكثرهم مع كسرى ٠٠ ولم يزل يقتل ، حتى انتهى الى المدائن ، وفيها كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه ، وحلق رأس ولده ، وأركبه على حمار ، وبعث من الأساورة من قومه شى غاية الهوان والذلة ، وكتب الى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ ٠٠٠٠

أصاب العمى كسرى ، واشتد حنقه على البلد ( القسطنطينية ) فجد فى حصارهم فلم يقدر على شىء ٠

عاد كسرى الى بلده بعد أن حزب بمكيدة قيصر مكيدة بعد مكيدة ، وبذلك غلب الفرس فى أذى الأرض كما غلبوا الروم من قبل ، والله الأمر من قبل ومن بعد ( ١ ) ٠

وقد ذكر ذلك الخبر فى هذا المقام ، لأن ذكره امتداد لما انتصر به بنو شيبان على كسرى ، كما تنبأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسنا مقحمين له فى غير موضعه ، لأن وقائعه كانت قبل الهجرة ، وامتدت الى ما بعدها ، ولأنه إيدان بنصر الاسلام فى فارس من بعد ٠

ولنعد بعد ذلك الى التقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان قبل الهجرة من تمهيد لها ٠

## التقاؤه صلى الله عليه وسلم بالأوس والخزرج

٣٠٧ — أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل كما أسلفنا من القول ، وما علم فى موسم الحج أن ملأ من قبيل قد جاء الى مكة المكرمة الاعرض عليه الدعوة الاسلامية ، والى التوحيد ، والايمان بالله ، وبأنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الله وما علم بوجود كبير فى قومه يقول فيتبع الا عرض الاسلام عليه .

وقد التقى بكثيرين من شمال البلاد العربية وجنوبها ممن جاؤوا الروم ، وممن جاؤوا الفرس ، وعقب أن لقى من ربيعة التى تجاوز فارس من رأى فيهم من اشراف العرب من كان فيهم نخوة ، ومعرفة وادراك الواجب التقى ببعض رجال من يثرب ، التقى أولا بجماعات منهم ، ثم كان الاتفاق على التأييد والنصرة بعد الاتباع على الايمان ، وهدى من الله سبحانه وتعالى .

وكانت يثرب بأحوالها ، وما فيها الأرض التى تقبل الدعوة المحمدية ، ذلك لأن أهلها كان اليهود يحاربونهم ولم يكونوا معهم على وفاق . كشأن اليهود حيثما كانوا ، وأينما ثقفوا ، وكان أهل المدينة وثنيين ، واليهود أهل كتاب ، فكانوا يذكرون لهم أنه الآن نبى مبعوث ينصر اليهود على الوثنيين ، وكما قال الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » وبذلك كانت بين أيديهم معرفة للنبوة ، وادراك للمبعثة المحمدية .

وفوق ذلك كان أهل يثرب ينتمون الى قبيلة الأوس والخزرج ، وكان الخلاف بينهم شديدا ، وكانوا يتقاتلون ، وربما كان خلافهم بعمل يهودى ، كشأنهم فى تفريق الجماعات ، والمقاء بذور الفتنة فى أى مجتمع يعيشون فى ظله . فكان التناحر بين الأوس والخزرج قبيلتى يثرب مستمرة ، والحرب تقع من وقت لآخر ، وفيهم من يهم بالاستئصار بقريش على الآخرين ، فكانوا فى حاجة أو نصرة من الخارج ، ولتوالى التناحر ، وكانوا يرحبون بمن يؤلف بينهم ، فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الجامع بينهم ، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم ، كما قال الله تعالى : « واذكروا اذ كنتم اعداء ، فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » .

## ابتداء الاتصال بأهل يثرب :

٣٠٨ — ابتداء الاتصال بأهل يثرب من الأوس والخزرج بالاتحاد ،  
ثم سار في طريق النمو ، حتى صار الاتصال بالجماعات ، ثم كانت البيعة ،  
وتكررت مرتين .

١ يروى ابن اسحاق أنه قدم سويد بن الصامت وهو من بنى عوف مكة المكرمة  
حاجا ، وكان رجلا شريفا ، ونسبه رفيعا يسمى في قومه الكامل ، لجلده  
وشرفه ، وكان شاعرا وله صوت مسموع في قومه .

فتصدى له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع به ، فالتقى به  
ودعاه الى الاسلام . فكانت بينهما مجاوبة لأنه لم يكن أعرابيا ليس على علم ،  
بل كان على علم يمهده العلم بالنبوءات .

دعاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال سويد : فلعل الذي معك  
مثل الذي معي . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما الذي معك ؟  
قال مجلة لقمان - يعنى حكمة لقمان - فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم : أعرضها على . فعرضها عليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم : « ان هذا الكلام حسن : والذي معي أفضل منه ، هذا قرآن أنزله الله  
تعالى على هدى ونور . ثم تلا صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن الكريم ،  
ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه وقال : ان هذا القول حسن . ثم انصرف  
عنه الى المدينة ، وقدم على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج . وكان قتله قبل  
واقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج .

ولقد كان رجال من قومه يقولون انا لنراه قتل مسلما ، وان مقدمات  
الاسلام كانت منه في لقائه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان قال في  
القرآن الكريم : « ان هذا القول حسن » وهذا يدل على أن قلبه قد فتح للإيمان ،  
وان كان وصف القرآن الكريم أعلى من ذلك ، ولقد جاء من بعد ذلك جماعات  
من الأوس على رأسهم أئس بن رافع ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم  
من الخزرج ، أي ليعقدوا حلفا مع قريش لينصروهم من الخزرج .

سمع بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائماهم ، فجلس اليهم ،  
فقال ، هل لكم في خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟ فقال لهم : « أنا رسول  
الله تعالى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل  
على الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن الكريم .

وكان فيهم شاب مدرك وهو اياس بن معاذ ، فقال لهم : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له • فنهرو رئيس الجماعة وقال له : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا • فصمت اياس بن معاذ ، وعادوا الى المدينة ، ثم مات اياس ، وقد قال من حضر موته من قومه انهم لم يزالوا يسمعون يهلل الله ويكبره ويسبحه ويحمده ، فما كانوا يشكون في أنه مات مسلما ، وان الله تعالى قد أثار بصيرته ، وأعطاه الله نفسا طيبة تدرك الحق عند أول سماعه ، وتؤمن به انه خلصت لله تعالى •

## يوم بعث :

٣٠٩ — بعث موضع بالمدينة المنورة ، تقاتل فيه الأوس والخزرج ، وكانت بينهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج ، وكبرائهم ، ولم يبق كما يقول ابن كثير من شيوخهم الا القليل ، فعضت الحرب عضا شديدا بنابها ، وكان ذلك غب عودة الأوس من مكة المكرمة ، وعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه عليهم ، وأجاب به شاب منهم ، ونفرو رئيس الوفد •

وان الشدة في كثير من الأحيان توجد في القلب نورا ، وكأن الأحياء في تناحرهم يحدث من التحامهم نور يضيء كالنور الذي يحدث من احتكاك شيئين أحدهما موجب والآخر سالب •

فقد كانت واقعة بعث هذه بعد دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعية أهل يثرب للتفكير فيما جاء به عليه الصلاة والسلام ، وعندهم معرفة عارضة بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه كان ابتداء لدخول الناس من يثرب فيه جماعات ، بعد أن كانوا يدخلون أحادا •

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يوم بعث يوما قدمه الله تعالى لرسوله » • قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، وقد افترق ملوهم ، وقتل سرائهم •

لقد اكتووا بنار الحرب ، ومن اكتوى بها ، طلب برد السلام والاطمئنان ، وفتح قلبه لنعمة الله تعالى •



## بدء اسلام الأنصار

٣١ — قلنا ان دخول الاسلام يثرب بالآحاد ، يدخلون فيه فرادى ثم جاء من بعد ذلك من يدخلون فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا •

وان أولئك الآحاد كانوا يذكرون نعمة الاسلام فى عشايرهم ، قيسئناسون به ، ولم تكن لهم بأسرة النبى عليه الصلاة والسلام عداوة ، حجبته المنافسة ، أو الحسد ، أو أثارها الحقد على بيته الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدت بينهم معرفة الحق • وموجبات اتباعه ، من غير أن تكون المواقع التى تصد عن سبيل الله تعالى ، والتى تغلف القلوب بغلاف من العداوة والبغضاء ، فتمنع نور الحق من أن يدخل إليها ، فينيها •

فى الموسم الذى كان عقب بعثت والنبى عليه الصلاة والسلام يعرض الاسلام على القبائل بمضى ، يذهب الى منازلهم بها ، فى هذا الموسم التقى برهط من الخزرج ، قال ابن اسحاق فى سيرته : « فقال لهم : من أنتم • قالوا نفر من الخزرج • قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا لا ، قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله تعالى ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم ، القرآن الكريم ، وكان مما صنع الله تعالى بهم فى الاسلام أن يهود كانت معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا غزوههم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شئ قالوا ان نبينا مبعوثا الآن ، قد أظلم زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم مثل قتل عاد وارم ، وكان عندهم علم بذلك كما قرر القرآن الكريم •

وان النفر الذين جاءوا من قبل ، وذاقوا بشاشة الاسلام ، قد أوجدوا بينهم الفكرة الاسلامية ، فلما كلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرهط ودعاهم الى الله ، تذاكروا فيما بينهم كلام اليهود •

قال بعضهم لبعض : « يا قوم : تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه » •

لذلك أجابوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دعاهم اليه ، وصدقوا به ، وأرادوا أن يسود الاسلام بينهم ، وأن يستتب الحق قومهم ، وأن يكون الاسلام طريق الخير لهم ، فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« أنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، ولعل

أن يجمعهم الله تعالى عليك ، فلا رجل أعز منك » وهكذا أجابوا داعى الله  
وقد ذكرت كتب السيرة أسماء هذا الرهط من الخزرج (١) .

واختلفت الروايات ، أكانوا ستة أم كانوا ثمانية ، وكلهم من الخزرج ،  
ولكن من الروايات ما ذكر فيها أنه كان من الأوس أبو الهيثم .

ومهما يكن ، فقد كان أولئك وفد الخير والحق والصدق ، فما ان  
انصرفوا عائدين الى يثرب ، حتى أخذوا يذكرون رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم ويدعون بدعوته ، حتى عمت وفشت ، وتذاكر بها أهل يثرب ، ومنهم  
من استجابوا لدعوة الحق ، لمجرد ذكرها ، ولم يطلبوا برهاناً ، لأنها دعوة الى  
التوحيد ، وهى فى ذاتها صادقة ، وكانوا يعلمون بها ، ان يؤمنون بأن الله  
تعالى خالق السموات والأرض وحده ، وما كانوا جاهلين بالله تعالى ، بل كان  
فيهم بقية من ملة إبراهيم ، واليهود بينهم يذكرون لهم أن رسولا فى مكة المكرمة  
قد بعث ، فكانت الدعوة الى الله تعالى مستجابة لا مراء فيها .

فشاء الاسلام فى المدينة ، قبل أن يقدم اليها النبى صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، وقبل أن يرسل مبعوثاً ، يعلمهم الاسلام ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ،  
حتى ان ابن اسحق يقول بسنده المتصل ، لم يبق من دور الأنصار الا وفيها  
ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلموه جميعاً ، وعلموا دعوته  
اجمالاً ، وتهيئوا البيعة .

## العقبة الأولى أو البيعة الأولى

٣١١ — تجاوزت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب وتذاكروها  
مذاكرة من لا يتنازعون فى شرف تمسه أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن  
تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صغت أفئدتهم اليه ، ومن يرجون من الاستجابة  
زوال الفرقة التى تقسمهم ، وتجعلهم فى حرب مستمر ، وفوق كل ذلك يريدون  
أن يستعلوا بها على اليهود الذى كانوا يستفتحون عليهم بأن النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون اليه ، لأنهم  
يسارعون فى الحق ، ولا ييغون سواء .

(١) هذا السياق التاريخى فى السيرة لابن هشام ، والبداية والنهاية  
لابن كثير ، والسهيلى وابن نعيم وصحاح السنة .

فلما كان موسم الحج الذى أعقب موسم اللقاء الأول ، وكان التفاهم الذى رجوا فيه الخير والأمن والسلام فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الموسم جاء اثنا عشر نقيباً من الأوس والخزرج ، لا لأداء الحج فقط بل لهذا ، وللقاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستجيبيين له ، لما قد عاقدوا العهد على لقاءه ، واعطائه به الموائيق عن أنفسهم ومن وراءهم ممن بعثوهم نقباء ، يتحدثون باسمهم ، ويقدمون العهود والموائيق عنهم .

وقد روى عن عبادة بن الصامت أنه قال : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً لبيابنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وكانت هذه البيعة بياناً للمشرع الإسلامى فى العلاقات الاجتماعية ، والأسرية ، وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها ، وهى جزء من الإسلام على عقيدة التوحيد ، والعبادات ، على أساس هذه العقيدة .

وقد ذكر عبادة بن الصامت نص هذه المبيعة ، فقال : « لبيعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فإن وفيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم شيئاً فأخذتم بحدّه فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمرکم الى الله تعالى ، أن شاء عذب وإن شاء غفر . ولقد قال الحافظ ابن كثير ، أن هذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن شهاب الزهري . ونرى أن هذه المبيعة كانت لبيان بعض التكاليفات الإسلامية التى لا اختلاف فيها ، وما كانت للأيواء والنصرة ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد قرر الهجرة اليهم ، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك ، أو الأيحاء به ، ولأنه لا يأخذ بعهد النصر ، قبل عهد الايمان ، فما كان عهدهم عهد جوار ، ولكن عهد تأييد ، ومحاربة دون الإسلام ، ولا تكون الا بعد توثيق كلمة الايمان ، وحققها .

وقد سعى كثيرون من كتاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء ، ولما كانت هذه التسمية فيما نحسب فى وقت البيعة ، انما كانت بعد ذلك لمشابتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء فى أحكامها ، وإن اختلف وقتها ، واختلف موضوعها ، فتلك كانت مع النساء ، أما هذه فكانت مع الرجال ، وهى للرجال وللنساء على سواء . وهذا نص بيعة النساء كما جاء بها القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى فى سورة الممتحنة : « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا

يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم » بيعة النساء بعد الهجرة .

### مصعب بن عمير :

٣١٣ — انصرف القوم الى يثرب تحفهم بركة الله ، ونعمة الايمان ، فبعث معهم مصعب بن عمير الذى يلتقى فى النسب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قصى بن حكيم ، فهو كما جاء فى نسبه مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى .

وقد أرسله اليهم ، ليدعو الى الله تعالى من لم يؤمن ، وليعلمهم ، ويفقههم فى الدين ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم .

ويذكر البيهقى بسنده عن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما بعث اليهم مصعبا حين كتبوا اليه أن يبعثه اليهم ، وهو الذى ذكره موسى بن عقبة (١) .

وانا نرجح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى اختار لهم مصعبا ، وأنه قرر أن يبعثه اليهم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم ، فما كان من المعقول أن يتركهم صاحب الرسالة ، وقد استجابوا لله وللرسول من غير أن يرسل اليهم من يعلمهم ، ولعلمهم قد كتبوا الى الرسول أيضا ، فالتقت رغبتهم مع ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ذهب اليهم مصعب بن عمير ، ومعه علم الاسلام ، وعلم القرآن الكريم ، فأخذ يعلمهم مبادئ الاسلام ، وعباداته ويقرئهم القرآن الكريم ، ولذلك سمي فى المدينة ( المقرئ ) .

وقد نزل عندما قدم المدينة عند أسعد بن زرارة .

وكان يؤم المسلمين بالمدينة المنورة فى الصلاة ، لأنه أعلمهم بالقرآن الكريم وبالاسلام ، اذ جاء ليعلمهم ، فهم منه بمقام التلميذ من الاستاذ ، ولأنه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٥١ .

رسول رسول الله عليه الصلاة والسلام صاحب الرسالة ، فهو نائبه ، والنائب يستمد ممن أنابه السلطان ، ويضيف للرواة سببا آخر مستمدا من العصبية الأولى ، وهو أن الأوس كرهوا أن يؤمهم خزرجي ، والخزرج كرهوا أن يؤمهم أوسى ، فكان التوافق على أن يؤمهم مصعب ، ونرى أن السببين الأولين كافيان وهما الأليق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى أنه يتبادل الامامة مع مصعب ، ابن زرارة •

### أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة :

٣١٣ — هذا عنوان أخذناه من سيرة ابن هشام ، رواه عن ابن اسحاق ، ونقول فيه • ان هذه البيعة والاتصال بقبائل يثرب كان بعد الاسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلوات الخمس ، والجمعة قائمة مقام صلاة الظهر وهى احدى الخمس • وكان لابد أن تقام الجمعة فى المدينة المنورة بعد أن فشا الاسلام ، وسارت فى الطريق ، لتكون مدينة اسلامية ، يأمن فيها المسلم على نفسه وعلى دينه ، والجمعة تقوم حيث الأمن ، واستقرار الأمور على الوجه الاسلامى الذى يبتغيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه •

لقد أخذ أسعد بن زرارة الذى نزل عنده مصعب بن عمير رضى الله عنهما وذهبا الى جبل هزم النبيت من حرة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضمات ، وكانت عدتهم يومئذ أربعين رجلا •

روى ابن اسحاق بسنده عن أبى أمامة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك حين ذهب بصره قال : كنت اذا خرجت به الى الجمعة ، فسمع الأذان صلى على أبى أمامة ، أسعد بن زرارة ، فمكثت حيناً على ذلك لا يسمع الأذان لجمعة الا صلى عليه واستغفر له ، فقلت فى نفسى ، والله ان هذا بى لعجز ، الا أسأله ماله اذا سمع أذان الجمعة صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة ، فخرجت به فى يوم جمعة ، كما كنت أخرج ، فلما سمع الأذن للجمعة صلى عليه ، واستغفر له ، فقلت : « يا أبت مالك اذا سمعت الجمعة صليت على أبى أمامة ، فقال : أى بنى كان أول من جمع بنا فى المدينة فى هزم النبيت من حرة بنى بياضة فى مكان يقال له بقيع الخضمات ، قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا (١) •

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ٤١٥ والبداية والنهاية لابن كثير ص ١٥١ ج ٣ •

ولم يكن عمل مصعب وأسعد بن زرارة من بنى النجار مقصورا على إقامة الصلوات ، بل أخذوا يدعوان الى الاسلام فى يثرب .

فقد جاء فى السيرة لابن اسحاق وفى البداية والنهاية لابن كثير . أنهما أخذوا يدعوان الى الاسلام بنى عبد الأشهل ، وبنى ظفر ، وهما من أقوى الأنصار صوتا ، وأبعدهم ذكرا . واليك ما جاء فى البداية والنهاية : كان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر . فجلسا فى الحائط ( البستان ) واجتمع اليهما رجال ممن أسلموا ، وسعد ابن معاذ ، وأسيد بن الحضير يومئذ من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه . فقال سعد لأسيد ، لا أبالك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانهما أن يأتينا دارينا . فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل اليهما . فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، قد جاءك ، فاصدق الله فيه . فوقف عليهما أسيد متشمتا ، ثم قال : ما جاء بكما الينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانى ، ان كان لكما بأنفسكما حاجة ، وقال غلام : أتيتنا فى دارنا رعيدي الغريب لتسفه ضعفاءنا بالباطل ، وتدعوهم اليه .

فقال مصعب لأسيد : أوتجلس فتسمع ، فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره . قال أنصت . ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن الكريم .

فقال مصعب وأسيد ، والله لعرفنا الاسلام فى وجهه ، فى اشراقه وتسهله ، قبل أن يتكلم .

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ، قالوا له تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى . ففعل ما طلبا اليه ، ثم قال لهما : ان ورائى رجلا ان اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله اليكما ، سعد بن معاذ :

ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديبهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى ، قال سعد ما فعلت . قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا . وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن

بنى حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ، ليحقوقك •

فقام سعد مغضبا مبادرا ، مخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة ، وأخذ الحرية فى يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا •

ثم خرج اليهما سعد ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا ، انما أراد أن يسمع منهما فوقف متشمتا ، ثم قال سعد بن زرارة والله يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ، مارمت هذا منى ، أتعسانا فى دارنا بما نكره •

قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ان يتبعك لا يتخلف منهم اثنان •

قال مصعب : أوتقعد فتسمع ، فان رضيت أمرا رغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره •

قال سعد ، أنصفت ، ثم ركز الحرية وجلس • وعرض عليه الاسلام ، وقرأ عليه القرآن الكريم ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف « حم ، والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ، وكم أرسلنا من نبي فى الأولين » فعرفنا فى وجهه الاسلام قبل أن يتكلم فى اشراقه وتسهيله •

ثم قال سعد لهما : كيف تصنعون اذا أنتم دخلتم فى هذا الدين ، قالوا تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادة الحق ، ••• وقد أخذ حريته بعد أن فعل ما أشار به ، فأقبل عائدا الى نادى قومه ، فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا تحلف بالله لقد عاد اليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، وقف داعيا للاسلام ، ويقول :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيية ، قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله (١) •

اجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ فى منزل أسعد ، وأخذوا يدعون الى الاسلام حتى فشا فى يثرب فأسلم بنو عبد الأشهل رجالا ونساء .

وقد فصلنا القول فى دعاية مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ، ونقلنا لك المجاوبة التى جرت بين الزعماء والكبراء ، فان الاستماع الى كلمات الرجال ، كما جرت على أفواههم تصور حالهم ونفوسهم .

لقد كانوا ينتهون من المجاوبة الى الاصغاء الى دعوة الحق واتباعها من غير تلكؤ ، وان هذا يدل على صفاء نفوسهم ، وحيث خلت النفوس من المنازعات بالشرف ، والمنافسة فى الفخر ، فانها تتجه الى الحق بقلب سليم ، فتسارع الى الدخول فيها ، وقد أحسوا أن فى الاتباع منجاة لهم من التفرق والنزاع الذى أدهم الى الحرب ، وعضتهم بنابها ، وفوق ذلك كانت وصلتهم ارهاصات بذكر النبوة المحمدية كان يستفتح بها اليهود عليهم .

## العقبة الثانية

٣١٤ — جاءت العقبة الأولى بعد اللقاء الأول بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والخزرج وبهم انتقل خبر الاسلام الى يثرب التى أعدها الله تعالى لتكون المدينة الفاضلة ، مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم كان فى العقبة الأولى التعريف بمبادئ الاسلام ، والبيعة بها ، على أن تكون هذه البيعة الميثاق الذى أخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية فى العقبة بعد أن فشا الاسلام ، وكانت تمهيدا للانتقال الى المدينة والهجرة ، ويظهر أنها كانت فى آخر موسم حضره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة ، والعقبة الأولى كانت فى الموسم الذى قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالايواء والنصرة ، كما يتبين ذلك .

ويظهر أن خبر اتصال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتسرب الى قريش ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم ، اذ رأوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة الى التوحيد من بين ظهرائهم الى العرب ، وانهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم .

وقد رأينا كيف يتعقبه أبو جهل وأبو لهب ، ويتناوبان .



لذلك عندما جاء مصعب من يثرب هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الأوس والخزرج ، قد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنياتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الاسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبي سلول الذي أكله بغض الاسلام والمسلمين ، حتى صار رأس النفاق فى المدينة المنورة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبنيها ، ويثيرها حيثما وجد الى ذلك سبيلا .

ولقد أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حذره من ناحيتين ، من ناحية قريش الذين احتسبوا بأن أمرا يدبر من ورائهم ، ولقد كان يرى عيونهم تثبت من حوله ، حتى ان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليقول لو قد الأوس والخزرج عندما التقى بهم فى العقبة : « ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبة ، فان عليكم من المشركين عينا ، وان يعلموا بكم يفضحوكم » .

والناحية الثانية من أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش ، وفريق المشركين الذين صحبوا وفد الايمان .

ولهذا لم يلتق فى أول حضورهم ، بل ضرب لهم موعدا فى أيام منى ، فلم يأخذ عليهم البيعة فى أول لقاء .

فروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك ، قال « خرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠٠٠ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين .

ويقول كعب فى هذه الرواية : فمنا تلك الليلة فى قومنا فى رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا ليعاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نتسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان .

هذه رواية كعب بن مالك ، وروى أنهم كانوا سبعين ، ومعهم امرأتان .

التقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى الميقات المحدود ، والمكان المعين وقد صحبه فى هذا اللقاء عمه العباس بن المطلب ، وهو على دين قومه ، وانما صحبه ليتوثق له ، ويطمئن على نصرته ، وقد قال فى هذا اللقاء ، :

« يا معشر الخزرج (١) ، ان محمدا منا ، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هم على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وانه قد أبى الا الانحياء اليكم ، والالحاق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده . »

عندئذ قال قائل الأوس والخزرج ، قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا الى الله تعالى ، ورغب في الاسلام .

وقد طلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ففعلوا .

### البيعة :

٣١٥ — هذه هي البيعة الثانية ، كما جاءت بذلك الروايات المتضافرة وقد انقسمت البيعة الى قسمين :

أحدهما - لتوثيق مبادئ الاسلام ؛ وقد روى الامام أحمد في هذا القسم : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « تبايعون على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم » .

والقسم الثاني - خاص بنصرته صلى الله تعالى عليه وسلم . وأن يمنعوه .

ويروى ابن اسحاق عن أبي أمامه أسعد بن زرارة أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا

---

(١) قال ابن هشام كانت العرب يسمون هذا الحي الخزرج ، خزرجها وأوسها ، ولعل ذلك لأنهم كانوا أكثر أو أظهر عند قريش .

من الثواب على الله وعليكم اذا فعلنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أسألكم لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لأنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا ، وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » .

وروى الامام أحمد أيضا عن عبادة بن الصامت أنه قال : انا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والمنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة .

هذه روايات متعددة فى الفاظ البيعة ومعانيها ، ولا تخالف بينها ، بل يكمل بعضها بعضا ، واذا كانت نقصت بعض العبارات من رواية ، فان الرواية الأخرى تكملها .

ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نتيجة البيعة « أخذت وأعطيت » أخذ عليهم العهد الله بالتوحيد والطاعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأعطاهم الوعد بالجنة .

ولقد أعطوا الوعد بالنصر والايواء عن بيعة من ربهم ، فقد بين بعضهم لبعض ما فى الوعد بالنصرة من تبعات ، سيتحملونها ، ولنذكر لك بعض ما تذكروه قبل أن يصفقوا بالبيعة ، أو فى عنفها .

قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى أحد بنى سالم بن عوف :

هل تدرون على من تبايعون هذا الرجل ! قالوا نعم .

قال انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم فتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، على نهكة المال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فانا نأخذنه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف .

ولقد قال البراء بن معرور أحد النقباء مجيباً قول النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم عندما طلب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم • قال  
رضي الله تعالى عنه :

نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع ، أزرنا ، فبايعنا يا رسول  
الله ، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا من كابر •

واعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : « يا رسول الله ، ان بيننا وبين  
الرجال حيالا - وأنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت ان قبلنا ذلك ،  
ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا •

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ،  
والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من  
سالمتم •

ولقد قال ابن هشام الهدم الهدم « يعنى الحرمة » ، أى ذمتى ذمتكم ،  
وحربى حربكم •

ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تمت البيعة :  
« أنتم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى ابن مريم ، وأنا كفييل على  
مدتى » •

بهذا تمت البيعة الثانية ، وكانت ايدانا بالهجرة ، وكان أساس قيامها  
ما يكون من حماية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد كانت حماسة الأنصار لهذه البيعة شديدة ، وبعضهم أراد تنفيذها ؛  
ومحاربة قريش فى عقر دارهم ، لقد قال العباس بن فضلة الذى نقلنا كلامه  
أنفا : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ؛ ان شئت لنميلن على أهل منى  
عذابا بأسيا فانا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم تؤمر بذلك ،  
ولكن أرجعوا الى رجالكم •

### علم قريش بالبيعة :

٣١٦ — كان حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلم  
المشركون بالبيعة قبل أن تتم فى موضعه ، لأنهم كانوا ييثنون العيون لمعرفة  
أخبار الخزرج والأوس ، اذ كانوا يتوجسون منهم خيفة •

لقد رجع أهل البيعة الى منازلهم فلما أضحوا عدا عليهم ناس من جلة قريش ، حتى جاءوا الى منازلهم •

فقالوا يا معشر الخزرج ، انه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله ما من حى من العرب أبغض الينا من أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم •

وقد كان من بين أهل يثرب مشركون مثلهم ، وقد اجتهد الذين مال قلبهم للإيمان وأسلموا أن يخفوا عنهم أمر البيعة وما يتصل بها ، لذلك انبعث من أولئك المشركين من يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمنا ، فصدق القرشيون مقالتهم •

وقد روى ابن اسحاق أن القرشيين أتوا عبد الله بن أبى بن سلول الذى صار من بعد رأس المنافقين ، وكان من المشركين ، فسأله عند أمر البيعة ، فقال لهم ، ان هذا الأمر جسيم ، ما كان قرمى ليتفرقوا على مثل هذا ، وما علمته ، كان الأمر بالنسبة لقريش أول الأمر ظنا ظنوه ، ولم يكونوا قد استوثقوا من صدقه ، فكان التكذيب كافيا ، لازالة الظنة ، ولكن لم يطمئنا •

لذلك أخذوا يتحرون صدق الخبر ، ليطمئنا ، فلما نفر الناس من منى ، وجدوا أن البيعة قد تمت ، أو أن ما ظنوه ظنا قد وقع •

راعهم ذلك ، فخرجوا فى طلب القوم الذين بايعوا ، فلم يلحقوا بهم ، ولكن أدركوا منهم سعد بن عباد والمندر بن عمرو ، وكان كلاهما من النقباء ، وقد استطاع المندر ألا يمكنهم منه ، فأعجزهم أتباعه •

وأما سعد بن عباد فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة المكرمة يضربونه ، ويجذبونه بجملته (١) ، وكان ذا شعر كثيف •

ولقد حكى سعد حاله ، فقال : « فوالله انى لفى أيديهم ، ان طلع على نفر من قريش فيهم رجل وضى الوجه شعشاع ، حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى ان يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلما دنا منى كلمنى كلمة شديدة ، فقلت فى نفسى : « لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله انى لفى أيديهم ، ان أدلى لى رجل ممن معهم ، فقال ويحك أما بينك وبين أحد من

---

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس من مقدمه •

قريش جوار ، ولا عهد • قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم • •  
تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، للحارث بن حرب بن أمية • • قال  
ويحك • • وخرج ذلك الرجل اليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة الشريفة ،  
فقال لهما ان رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح ، ويذكر أن بينكما وبينه جوارا ،  
قالا ومن هو ؟ قالو سعد بن عباد ، قال صدق والله ! انه كان ليحبر تجارنا ،  
ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، فجاء فخلصا سعدا •

ذكرنا هذه القصة بطولها • ليتبين أن قريشا أحقنهم ، أن استجيب طلب  
محمد عليه الصلاة والسلام أن يجد المأوى لدعوته فى يثرب وظهر غضبهم فى  
تتبع القوم وفى الأذى الذى أنزلوه بسعد بن عباد ، وهو الذى أدركوه ، وغيره  
قد اجتازوا الطريق ، ورحلوا ، قبل أن يصلوا ، ولو أدركوهم فوق السبعين  
لا يعلم الا الله تعالى كيف تكون العاقبة • ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين  
والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الاسلام ولو قليلة  
وقوة الشرك ، وإن كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف  
أوشك على نهايته ، والله ولى الصابرين •

## ابتداء الهجرة

٣١٧ — وجد المسلمون أنه صار لهم مأوى ينتقلون اليه ، وشعر  
المشركون أن الاسلام خرج نقيًا طاهرا ظاهرا قويا من أرضهم ليكيل لهم المضرية  
بمثلها ، والايذاء يدفعه ، وإن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد صار له  
قوة تناوئهم أن أرادوا به كيدا ، وأنه قد تلتف عليه قبائل العرب ، قبيلة قبيلة ،  
وما شعروا بالندم على أن حاربوه ، ولم يمكنوه من الدعوة ، بل لاقوه هو  
وصحبه بالأذى والاستهزاء ، ولكن الندم لم يعرهم ، لأنهم سادرون فى غيهم •  
وقد استولت عليهم العداوة ، ومن استولى عليه العداء ، وسيطرت البغضاء ،  
لا يرعوى ، ولا يتجه الى الرجوع عما هو فيه ، وكلما ازداد قوة ازداد حدة •  
ولا ندم مع الحدة ، لأن الندم شعور بسلطان الحق • وليس للحق سلطان فى  
قلوب المشركين الذين استمكن الشرك والتعصب فى قلوبهم ، فلا تزيدهم مظاهر  
القوة فى الحق الا عتوا واستكبارا ، ولا ننسى أن المنافسة بين العشائر ،  
والتنازع بين الشرف هى الأصل فى الأعراض ، وتشبث الكفر فى القلوب ،  
وكلما ازدادت قوة الدعوة ، حسبوا أن ذلك زيادة لشرف بنى هاشم أهل  
الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه •

ولذلك اشتد كلبهم على المسلمين الذين بين ظهرائهم ، لما رأوهم يخرجون

الى قوة يتجمعون بها ، ولم يخرجوا فارين بدينهم ، كما خرجوا فى هجرة الحبشة مرتين ، بل هم فى هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى ، وهدايته •

وذلك هو الفرق الواضح بين هجرتى الحبشة ، وهجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك لم ترعهم هجرتا الحبشة ، بل أثارت اشفاق بعض قريش كعمر بن الخطاب ، كما ذكرنا ، أما الهجرة الى يثرب ، فلقد أزعجتهم ، وأثارت غضبهم ، وان كان ثمة اشفاق ، فعلى أنفسهم لا على غيرهم •

هذا شعور المشركين من قريش عندما بايع أهل يثرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما شعور المؤمنين الصابرين فقد ابتدأوا يحسون بنصر الله تعالى لهم ، وأنهم صار لهم قوة ، تدفع عنهم وبهم ذل الاستضعاف والاستهزاء ، كما قال الله تعالى : « وتريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » •

### النبى صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة :

٣١٨ — أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد البيعة الثانية — يحرض المؤمنين على الهجرة الى يثرب • وأهل يثرب من الأوس والخزرج يدعون الى دين الله تعالى ، وينشرونه بين أهليهم وأخوانهم ، حتى صاروا كثرة كاثرة فى المدينة ، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحوا كالحواريين لعيسى عليه السلام ، بيد أن الحواريين لم يكونوا عددا كثيرا ، وكان الأنصار عددا كثيرا من بعد •

روى البخارى ومسلم بطرق مختلفة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « رأيت فى المنام أنى أهاجر الى أرض بها نخل ، وذهب وهى الى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هى يثرب » وروى الزهري عن عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يومئذ بمكة المكرمة للمسلمين : « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين » فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورجع الى المدينة من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين •

ويذكر ابن اسحاق فى سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برواياته أن الاذن بالهجرة أو الأمر بها ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالت كلماته : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا

من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » •

ونرى أن هذه الآيات الكريمات نزلت بالمدينة المنورة ، لأن سورة الحج مدنية ، ولأن الآيات تنبئ عن أنهم أخرجوا بالهجرة من ديارهم ، وان الاذن من الله بالخروج والاخراج قبل الهجرة ، والسبب مقدم على المسبب وان الأمر فيها اذن بالقتال ، وهو بعد الهجرة ، بعد أن صارت قوة متجمعة فى يثرب التى صارت مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم •

### الاذن للمؤمنين بالهجرة :

٣١٩ — أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبيّن لهم أن فى يثرب الايواء والنصرة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها » •

بعد هذا الاذن الصريح الذى يكاد يكون أمرا ، خرج المسلمون مهاجرين أرسالا ، أحادا وجماعات ، ولم يجد المهاجرون السبيل ذللا سهلا ، بل كانوا يجدون معوقين من قريش ، لأن هؤلاء بعد أن علموا بببيعة الأنصار أدركوا أن المسلمين بمكة المكرمة يتجمعون باخوانهم فى يثرب التى صارت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذوا يترصدون كل من هاجر ، فان استطاعوا منعه منعوه ، فحاولوا أن يمنعوا أم سلمة وزوجها ، وتركوه يهاجر دونها ، وهى بارادة مؤمنة صبرت وهاجرت وحدها ، حتى وجدت من أهل المروءة من عاونها على هجرتها :

وأحيانا كانوا يتحايلون على المهاجرين بالكذب حتى يردوهم ثم يعذبونهم غير موفين بعهدهم أو نذرة ، ولنضرب لذلك مثلا ، بأحد المهاجرين وهو عياش ابن أبى ربيعة •

يروى أن عياشا هذا عندما هم بالهجرة أخرج اليه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، فتبعاه ، حتى قدم المدينة المنورة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد هاجر بعد ، بل كان لايزال بمكة المكرمة وقال له : ان أملك قد نذرت ألا يمسه رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له عمر وكان معه :



« يا عياش انه والله ، ان يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو أذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فقال وهو مخدوع : أبر أمى ، ولى هناك مال فأخذه • قال له عمر : والله انك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما • فلما أبى ذلك قال عمر الرقيق الشفيق ، أما اذ فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فانها ناقة نجبية ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من أمر القوم ربب ، فانج عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أحمق ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه • قال بلى ، فأناخ وأناخها ليتحولا عليها ، فلما استتروا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة المكرمة ، ففتناه فافتتن ، وخرج من الاسلام مكرها ، وقلبه مطمئن بالايمان •

وكان صاحب عمر فى الهجرة ، ومعهما صاحب ثالث ، وهو هشام ابن العاص أدركه أهله قبل أن يصل الى المدينة المنورة ففتنوه عن دينه ففتن •

قال عمر صاحب الرواية كلها ، وكان قد صاحبهما فى الهجرة ، « كنا نقول لا يقبل الله ممن افتنن ، وفى رواية عبد الله بن عمر عن أبيه قوله « ما الله يقابل ممن افتن صدقا ولا عدلا ، ولا توبة : قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون هم لأنفسهم ذلك •

ولعل هذا الاعتقاد الذى سكن قلب عمر الفاروق ، وسكن قلوب أولئك المؤمنين الأولين ، انما هو لكى يتحملوا أقصى ما يمكن من البلاء ، وليكون صبرهم تحريضا لغيرهم ، ففوة الايمان تسرى من أقوياء النفوس الى ضعفائها ، وان الماء العالى يهبط الى السافل ، لتتوازن النفوس كالمسوائل •

لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة أنزل الله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا • انه هو الغفور الرحيم ، وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ، ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون » •

لما نزلت هذه الآية لم ينس عمر الكريم صاحبيه اللذين كانا على نية مرافقته ، ورافقه أحدهما ، ثم افتنن فى دينه وافتتن الآخر قبل أن يسافرا ، ولأنه لم ينسهما أرسل اليهما فى صحيفة هذه الآية الكريمة ، أرسلها الى هشام بن العاص الذى افتنن أولا - فلما قرأها فهمها بعد أن استعصى عليه

فهم ما يقصد عمر من كتابتها اليه ، وعرف أنها أنزلت فيه وفي أمثاله ، ممن كانوا قد قنطوا من رحمة الله تعالى .

وهنا رواية أخرى تقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالمدينة المنورة ، قال : من لى بعباش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بهما ، فخرج الى مكة المكرمة مستخفيا فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها أين تريدان يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين ( تعنيهما ) ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ ردة ( أى خنجرا ) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه ، فصل القيذان ، ثم حملهما على بعيره .

٣٢ . — من أجل هذا التتبع الشديد من المشركين ، كان المؤمنون يتسللون فى هجرتهم لوإذا استخفاء من ظلم قريش ، الذى أنبعث من خوف تجمع المؤمنين بيثرب لينقضوا عليهم ، ويمنعوهم من فتنة الناس فى دينهم ، وكان الأقوياء منهم يختارون التستر ، ليظفروا بالهجرة فى أمان من الأذى ، الا عمر بن الخطاب الذى أبى الا أن يجهر بالايمان فى كل موطن من مواطن مكة المكرمة ، وأبى الاستخفاء ، فهو فى الهجرة أيضا أبى الاستخفاء ، وخرج مجاهرا بالهجرة متحديا من يقف فى سبيله .

روى على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه فى الجنة أنه قال : « ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب ( رضى الله تعالى عنه ) فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قومه ، وانتضى فى يديه أسهما ، واختصر عززته ، ومضى قبل الكعبة الشريفة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة ، واحدة فقال : شأته الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل امرأته ، فليلقنى وراء هذا الوادى (١) .

وقد يسأل سائل ان المشهور أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه صحب فى رحلته عياش بن أبى ربيعة . وكان فى عزيمته أن يصحبهما هشام ابن العاص ، فكيف نوفق بين هذه الرواية المشهورة ورواية على كرم الله

---

(١) راجع فى هذا أشهر مشاهير الاسلام للمرحوم رفيق العظيم ، طبعة ١٩٧٢ الناشر ( دار الفكر العربى ) .

وجهه ، ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان الجمع بين الروايتين ممكن ، ومتى  
أمكن الجمع يتعين تصديق الروايتين ، ان لا ثرد احدهما الا اذا تعذر التوفيق  
بينهما •

والتوفيق ممكن وظاهر ، ان أن الصحبة كانت فى السفر ، وواضح أن  
السفر يكون بعد اعتزام النية والاصرار ، وقد كان متفقاً معهما على أن يلتقيا  
معه فى مكان يقال التناضب ، من أضاعة بنى غفار •

والواقعة التى رواها على كرم الله وجهه كانت وهو لا يزال بمكة المكرمة ،  
وقد أعلن الهجرة ، فهو قد قال ما قال معلنا هجرته ، متحديا قريشا ، ثم أخذ  
طريقه الى المكان الذى اتعدوا فيه ، فوجد عياشا ، وتخلف عنهما هشام ، ان  
افتتن فى دينه ، واستجاب لهم وقلبه مطمئن بالايمان •

كانت هجرة المهاجرين سرا ، أو على استخفاء من قريش •

وكانوا ينزلون فى مهجرهم على الأنصار ، فينزلون معهم فى بيوتهم ،  
فعمرو بن الخطاب حين انتقل الى المدينة المنورة ولحق به أهله وأخوه زيد ابن  
الخطاب ، وعمرو بن سراقه وغيرهم ، نزلوا على رفاعه بن عبد المنذور ابن  
زهير فى بنى عمرو بن عوف فى قباء •

ونزل طلحة بن عبيد ، وصهيب بن سنان ، على ضبيب بن اصاف ،  
وهكذا غيرهم نزل فى منازل الذين آووا ونصروا ، وكانوا يرحبون بهم ، وكانهم  
بين أهليهم وذويهم ، لأن الايمان الصادق جمعهم ، ومحبة الله ورسوله ( عليه  
الصلاة والسلام ) فاضت عليهم ، فجعلتهم أحبابا على مائدة الرحمن ، وقد  
علموا فضل اخوانهم المهاجرين الذين صبروا عند الصدمة الأولى ، وأوذوا فى  
أنفسهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فجعل الله تعالى من خوفهم أمنا ،  
ومن ذل ضعفائهم عزة ، ان اعتزوا بعزة الله تعالى ، وكان بهم بتوفيق الله أن  
صار كلمة الله تعالى هى العليا ، وقد قال الله تعالى فى المهاجرين والأنصار :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، يبتغون فضلا من الله  
ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا  
الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة  
مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه  
فأولئك هم المفلحون » •

ويقول الله سبحانه تعالت كلماته : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

فالسابقون الأولون هم الذين هاجروا فارين بدينهم ، مجتمعين فى ظل الله تعالى ، ولا ظل غيره ، والأنصار السذين ولوهم فى السبق ، وفتحوا لهم ديارهم ، اذ فتحوا لهم قلوبهم ، وأثروهم على أنفسهم ، أولئك لهم الفضل الأول فى السبق الى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذين دونهم اتبعوهم بإحسان ؛ فهؤلاء لهم فضل السبق ، والآخرون لهم فضل الاتباع .

## هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٣٢١ — أخذ المسلمون يهاجرون زرافات ووحدانا مستخفين ، وقليل منهم من هاجر معلنا ، كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه ، فقد أعلن هجرته وتحدثهم أن يمنعوه ، وعلى كرم الله وجهه يخص عمر بأنه الذى أعلن وتحدى ، ولعل ما انفرد به عمر رضى الله عنه هو هذا التحدى . ولا شك أن من الأقوياء من يعلن ولا يخفى ، كسيد الشهداء حمزة بن المطلب ، فما كان لمثل حمزة فى قوته وبأسه وإيمانه أن يخفى ، وفوق ذلك فان عشيرته من بنى هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب ليرضوا أن يرهقوا حمزة فى ارادته ، أو لا يوافقوه على هجرته ، وقد رضى العباس بهجرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما تدل على ذلك خطبته فى العقبة الثانية ، حيث كانت البيعة الثانية على الايواء والنصرة ، بل لو سائرنا التصور العقلى المنطقى لقلنا ان العباس كان يرحب بهجرة حمزة ليكون بجوار ابن أخيه ، ينصره مع الناصرين .

ما بقى من المؤمنين من يثبت أنهم لم يهاجروا قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا على وأبو بكر ، فأما على فهو مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ثبت أنه هاجر بعد النبى بأمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى من بعده ليرد الودائع ، أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقد كان يهم بالهجرة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستبقيه ، ويشير اليه بمعاريض القول بأنه قد يكون صاحبه ، ثانى اثنين .

لقد قال ابن اسحاق فى السيرة : « أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة المكرمة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم

يتخلف معه بمكة المكرمة أحد من المهاجرين ، الا من حبس أو فتن الا على ابن أبي طالب ، وأبو بكر بن قحافة الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيرا ما استأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تعجل لعل الله تعالى يجعل لك صاحبا ، فيقطع أبو بكر أن يكونه \*

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعد للهجرة من منذ البيعة الأولى عندما التقى بالأوس والخزرج ، بدليل هذه المبايعة ، ثم كانت البيعة الثانية بيعة الايواء والنصرة دليلا على أنه اعتزم الهجرة وأرادها ، ثم من بعدها أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أمرهم بأن يهاجروا ، فهاجروا زرافات ووحدانا \* مستخفين فى الأكثر ، معلنين فى الأقل ، فكانت الهجرة ترتيبا للدعوة ، وخروجا من موطن لا قوة للاسلام فيه الى بلد يكون للاسلام فيه قوة ، ويكون له فيها السلطان لانشاء دولة اسلامية ، فما كان من المعقول أن ينفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبادئ الاسلام فى مكة المكرمة ، وهى فى ظل الوثنية ، ويحكمها مشركون ، فالزكاة لا يمكن جمعها الا فى ظل سلطان عادل يجمعها من الأغنياء ، ويردها على الفقراء ، وتنفيذ مبادئ المساواة والاخاء ، ودعوة المسلمين الى التراحم ليكونون أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة ، لبناء دولة فاضلة ، ولا القصاص العادل ، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل ، وما كان ليحارب الربا الجاهلى ، ما كان يمكن شيء من ذلك الا فى ظل الله تعالى ، وبدولة اسلامية تنفذ أوامر الله تعالى ، وتبعد الناس عن نواهيهم ، وما كان يمكنه عليه الصلاة والسلام أن يقيم رأيا عاما فاضلا ، يقوم المنحرف ، ويرشد المسترشد ، ويكافئ المحسن الا فى ظل دولة اسلامية ، وعلى ذلك فالهجرة كانت أمرا مقorra ، ولا بد منه لتقام دعائم الاسلام ، ولتثبت أركانه ، وتعم فى الوجود الانسانى دعوته ، وليست الهجرة جاءت بسبب حادث وقع ، أو خوف لأمر متوقع \*

### ما اقترن بالهجرة المحمدية :

٣٣٢ — اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش ، فظنها كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هى سبب الهجرة ، وأن الهجرة كانت أمرا مسببا لها ، ولكن الهجرة كانت أمرا مقorra ، وتنظيما محكما \*

يقول الله تبارك وتعالى : « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » فهم يدبرون من جانبهم ،

والله تعالى يدبر أمرا ، قد وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وهو الهجرة ، والأمر الذى مكروا به وتأمرؤا عليه خلاصته ما ذكرته الآية الشريفة •

رأى المشركون أن مكة المكرمة قد خرج الذين اتبعوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، ليتجمعوا ، وليكونوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقض على المشركين ، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، فلا بد أن تكون تلك القوة عليهم ، وأن عليهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يستفحل ، وأن تتحقق المآرب •

وإذا كان الأتباع قد هاجروا ، ولم يبق الا ضعيف أو عبد ، فان محمدا عليه الصلاة والسلام لا يزال بين ظهرائهم ، وهو الرأس وغيره أتباع ، فإذا نالوا منه ، فقد تحقق مأربهم •

قال ابن اسحاق فى سيرته : « لما رأئت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، وغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم - عرفوا أنهم أصابوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحريهم •

اجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب ، وكانت مجتمع أمر قريش ، لا يقضون أمرا ذا بال الا فيها ، اجتمع فى الندوة كبراء قريش ، ودلف عليهم رجل من نجد ، حضر جمعهم ، قيل أنه ابلis ، وأن لم يكن هو فهو مثله خبثا •

تشاوروا فى أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا •

فقال قائل منهم احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذى كانوا قبله ، ومن مضى منهم من هذا الموت •

قال الشيخ النجدى : ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلا وشكوا أن يثبوا اليكم ، لينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره •

فقال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرجنا ، فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، ان غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفقنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، فوالله لو فعلتم ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم ، حتى يطاكم بهم بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، فروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام ، والله انى لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا نسييا وسيطا فتيا ، ثم نعطى كل واحد منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم ، جميعا ، فيرضوا منه بالعقل ( أى الدية ) فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدي القول ما قال هذا الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره .

انتهوا الى ذلك فأعلم الله تعالى نبيه بما دبروا ، وأمره ألا ينام الليلة على فراشه .

### تنفيذ المؤامرة :

٣٣٣ — ان القوم ائتمروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، ولكن الله تعالى أعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ولقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة كان فى ذلك الوقت ، ونزل قوله تعالى : « **وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** » وأن دخول الصدق كان بدخول المدينة المنورة ، والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة ، كما فسر قتادة ، وهكذا كان خروجه من مكة المكرمة وهى أحب أرض الله تعالى اليه لدعوة الحق ولنصرته واعزازه ، وكان دخوله المدينة المنورة صدقا ، لأنه بسبب ارادة نصره الحق ، واعلاء شأنه ، فخروجه صدق ، ودخوله صدق ، وكلاهما حق .

ان قريشا فى عثمة الليل الذى بيتوا فيه تنفيذ مؤامرتهم يقتل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أحاطوا بداره ، ليقتلوه ان يخرج اليهم ، ولم يحاولوا أن يدخلوا الى منامه ، وقال السهيلي فى تحليل ذلك • وذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقيم عليه فى الدار ، مع قصر الجدار ، وأنهم انما جاءوا لقتله ، فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله انها للسبة فى العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا سر حرمتنا ، فهذا هو الذى أقامهم بالباب ، وأصبحوا ينتظرون خروجه •

عندما أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأمرهم كان محملا إمانات من القوم ، فكانت عنده ودائع الناس ، وليس بمكة المكرمة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، وكان ذلك مع شدة العداوة والمناوأة من كبرياء المشركين •

ولذلك خلف عليا رضى الله تعالى عنه ، وكرم الله تعالى وجهه فى الجنة ، وجعله ينام فى مكان نومه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال لعلى كرم الله وجهه : نم على فراشى ، وتسبج ببردى هذا الحضرى ، فتم فيه ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم ، فنام على المؤمن المصدق لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الشجاع الجلد القوى الذى لا يهاب الموت فى سبيل الله ، وكان انذاك فى نحو الثالثة والعشرين ، أو الثانية والعشرين •

### اجتمع المشركون فى العثمة :

روى ابن اسحاق بسنده عن كعب القرظى أنهم لما اجتمعوا له عليه الصلاة والسلام ، وفيهم أبو جهل قال أبو جهل : وهم على بابي : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتوه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد نومكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وان لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلكم نارا تحرقون فيها • فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال نعم أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو : « يس والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم ، لتتذرع قوما ما أنذر آباؤهم ، فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم الى الانذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فاغشيناهم فهم لا يبصرون » •



مر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم يروه ، وقرأ عليهم هذه الآيات ، وسواء أصبحت الرواية التى تقول ، انه خاطبهم أم لم تصح ، فانها لم تغير من اللب شيئا ، بل الحقيقة أنه مر عليهم ، وتلا عليهم تلك الآيات البينات ، وحثا التراب فى وجوههم ، وانصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق •

أما المشركون المؤتمرون الذين كانوا يريدون قتل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم استمروا فى موقفهم منتظرين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرج ليقتلوه ، حتى أتاهاهم أت ممن لم يكن معهم • ويظهر أنه قد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج • فقال لهم ، ما تنتظرون ها هنا ؟ فقالوا محمدا ، فقال : خبيكم الله ، والله قد خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم مضى لحاجته ، أما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذى أتاهاهم ، فجعلوا يتطلعون ، فيرون عليا فى الفراش ، متسجيا ببرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقولون : والله ان هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك ، حتى أصبحوا ، فقام على من الفراش ، فقالوا والله لقد صدقنا الذى حدثنا •

### النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الى الهجرة وطريقهما :

٣٢٤ — كان أبو بكر يريد الهجرة ، كما هاجر أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلما هم بالهجرة • قال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعجل ، ويقول ابن اسحاق استأذن أبو بكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فقال له : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا » وقد طمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يعنى نفسه ، ولقد عظم ذلك الظن فى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما فى داره ، يعلفهما اعدادا لذلك ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى كل يوم الى بيت أبى بكر فى طرفى النهار اما بكرة ، واما عشية ، كما تروى عائشة رضى الله تعالى عنها ، وتقول حتى اذا كان اليوم الذى أذن فيه للنبى بالهجرة ، والخروج من مكة المكرمة من بين ظهرى قومه أتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر ، قال : ما أجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الساعة الا لأمر حدث ••••• قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى بكر ان الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال رسول الله الصحبة •

قالت راوية الخبر فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي ، ثم قال يا نبي الله ، ان هاتين راحلتان كنت أعددتكما لهذا ٠٠

كان هذا في الليلة التي أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما ياتمر به القوم ، وأذن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما خرج ، وقد غشى الله تعالى على أبصارهم كانت الرحلة الشاقة ، وكانت الهجرة المباركة ، وقد أخذت لها الأهبة ، وأعدت لها العدة ٠

عندما أخبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر بأذن ربه له بالهجرة ، وأخبره عليه الصلاة والسلام بالصحية تجمعهما ، قال الصديق : « يا نبي الله ان هاتين راحلتان كنت أعددتكما لهذا » ٠

وقد استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط ، وكان لا يزال على الشرك ، وأبوه من بنى بكر ، وأمه من بنى سهم بن عمرو ، قد استأجره أبو بكر ليكون دليلهما في الرحلة ، وقد دفع إليه أبو بكر الراحلتين ، فكانتا عنده بعدهما يربعاهما حتى يحل ميعاد الخروج عليهما ، ويروى أنه أهدى فضلهما لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام عن ثمنه ، فذكره ، وقال هي لك ٠

وكان الميعاد بينهما وخروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأبو بكر ، خرج من خوخة لأبى بكر في ظهر بيته ، وذلك للامعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش ، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة ، وقد اتعدا مع الدليل على أن يلقاهما في غار ثور بعد ثلاث ليال ٠

وقد دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روى ابن نعيم قائلا : « الحمد لله الذى خلقنى ، ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فأذلنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، واليك ربى فحببى ، والى الناس فلا تكلنى ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل على غضبك ، وتنزل بى سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نعمتك ، وتحول عافيتك ، لك العتبى عندى خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة الا بك » ٠

ومن قوله عليه الصلاة والسلام حين خرج من مكة المكرمة ، ونظر الى البيت « انك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجنى منك ما خرجت » وأخرجهم كان بالأذى ومنع الدعوة •

بهذا الدعاء الضارع ابتداء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رحلته المباركة التى آتت أكلها للإنسانية كلها ، لأنها كانت ابتداء عموم الدعوة •

وقد كانت فكرة الهجرة بعد العقبة الثانية وفى عامها ، فقد انتهى الحج ، وابتدأ التفكير فى الهجرة النبوية ، وقد هاجر المؤمنون قبله ، وقالوا ان هجرته عليه الصلاة والسلام لم تكن فى المحرم ولا فى صفر ، ولكن قد ابتدأت ، ولعلها ابتدأت مع ابتدائه ، وقد وصلوا الى المدينة المنورة فى الثانى عشر من ربيع الأول على أصح الروايات ، وكانت فى يوم الاثنين •

ولقد روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : « ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبيء يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين » •

### فى غار ثور :

٣٢٥ — كانت الهجرة هى النصر الأول ، بل هى أعظم النصر ، لأن النصر الذى جاء من بعدها كان ثمرة لها ، فهى باب للفتح ، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الأول ، وذكر محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه فى غار ثور هذا ، ان قال الله تعالت كلماته : « الا تنصروه فقد نصره الله ، اذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، انهما فى الغار ، ان يقول لصاحبه لا تحزن ، ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » •

خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى غار ثور ، وهو على مسافة من مكة المكرمة بأسفله ، وسار هو وصاحبه الصديق فجعل أبو بكر يكون أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقال اذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك واذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك • ويروى أنه قال اذا كنت أمامك خشيت الطلب ، واذا كنت خلفك خشيت الرصد •

وروى البيهقى عن عمر بن الخطاب قال : «لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة انطلق الى الغار ، ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين

يديه وساعة خلفه ، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : « يا أبا بكر مالك تمشى ساعة خلفى ، وساعة بين يدي ، فقال يا رسول الله اذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بكر ، لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دونى . قال نعم ، والذي بعثك بالحق ، فلما انتهى الى الغار ، قال أبو بكر مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار فدخل حتى اذا كان ذكر أنه لم يستبرئ الجحر ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ ، فدخل فاستبرأ ، ثم قال انزل يا رسول الله ، فنزل ، قال عمر : والذي نفسى بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر » (١) .

مكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مطمئنا الى وعد الله تعالى ، راضيا بالمشقة فى سبيل الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وقد رضى أن يفارق مكة المكرمة ، وهى أحب بلاد الله تعالى فى سبيل إقامة الدولة الاسلامية ، التى لم يمكنه أهلها من الدعوة ، وحاولوا قتله ، وكانت هذه المحاولة مع عنادهم ، وكفرهم ، وجودهم بالآيات سببا فى أن يخرج يريد أرضا لدولة الاسلام فى غيرها .

علم المشركون ، أو العتاة منهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ، وأن الذى نام مكانه على ، وأنهم ترصدوا عليا ، وهم يحسبون أنهم يترصدون النبي عليه الصلاة والسلام ليقتلوه ، حاولوا أن يعرفوا من على أين ذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يجدوا عنده ما يطلبون ، فأخذوا يتقصون أثره ، ويتأثرون خطاه ليعرفوا أين يكون ، وأطلقوا فى الأسواق والأماكن من يأتى به حيا أو ميتا وقد اقتفوا أثره ، وتتبعوه ، حتى وصل بهم الأمر الى جبل ثور الذى بغاره الصحابيان ، ولكن آية الله تعالى أن جعلت العنكبوت ينسج نسيجه ، وكأنه من سنين ، وأن حمامتين عششتا على بابه ، فكانت آية حسية من خوارق العادات ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحدث لاثبات نبوته الا بالقرآن الكريم ، لأنه المعجزة الكبرى الباقية الى يوم الدين . وهو حجة على الخليقة فى كل الأجيال ، ولكل الأجناس .

جاء رجال قريش يطلبون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد انتهى بهم الأثر الى الغار ، ولكنهم وجدوا ما وجدوا وقالوا اذ رأوا نسيج العنكبوت لم يدخل أحد . وهم لو ألحقوا بأنظارهم الى داخله لرأوا الرسول وصاحبه ،

ولكن صرف الله تعالى أنظارهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم آمن مطمئن ، ولذا كان قائما يصلى ، وأبو بكر يرتقب ، فلما أتم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، قال أبو بكر خائفا على النبي عليه الصلاة والسلام « ان قومك يطلبونك أما والله أنى لأتل (١) على نفسى ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تخف ان الله معنا » .

هذا ما كان من القوم ، وما كان يجرى داخل الغار ، وكان أبو بكر قد دبر الأمر بالنسبة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقد كلف ابنه عبد الله أن يأتيهما وهما فى الغار بأخبار قريش ، وما تدبر من أمرها ، وهو غلام شاب ثقف مدرك لقن ، فيدلج من عندهما فيصبح مع قريش بمكة المكرمة ، ولا يسمع أمرا يكيدون به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ، فيريحها عليهما وهما فى الغار ، وذلك فى ساعة العشاء ، فيبيتان وإرسال لبن الغنم تصل اليهما ، حتى اذا جاء الغلس ، أخذ عامر بن فهير الغنم ، وعاد الى مكة المكرمة ، فيكون من اللبن غذاء ، ويذهب سير الغنم بأثار من يجيئون الى الغار ، حاملين أخبارا ، أو حاملين طعاما .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تعد لهما سفرة من الطعام فى جراب ، ولما لم تجد ما تربط به قطعت نطاقها ، فربطت بقطعة منه على فم الجراب ، ولذلك سميت ذات النطاقين ، وكانت تذهب بالطعام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه كل يوم ، أو كلما أمكنتها الفرصة .

### سراقة والسير الى المدينة المنورة :

٣٢٦ — مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغار ثلاث ليال ، حتى يسكن طلب قريش ، ويئسوا من أن يصلوا اليه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبعدها خرجا قاصدين الى المدينة المنورة ، ومعهما دليلهما المشرك ، ولكنه كان أمينا عليهما ، غير مدلس ولا ممالئ ؛ فسلك بهما طريق الساحل ، حتى لا يتبعهم أحد من قريش ، لأنهم لا يتصورون أنه يسلك هذا

(١) هى من آل المريض أو الحزين بمعنى رفع صوته وصرخ عند نازلة

تنزل به .

الطريق وهم يتتبعونه ، ويقتفون طريقه ، وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا  
مائة ناقة كما أشرنا من قبل .

وقد طمع سراقه بن مالك بن جعشم فى أن ينالها ، وقد روى ابن اسحاق  
عنه أنه قال :

« لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة مهاجرا ،  
جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . فبينما أنا جالس فى نادى قومى ،  
أذ أقبل رجل منا ٠٠ فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفا ، انى  
لأراهم محمدا وأصحابه فأومأت اليه بعينى أن اسكت ، ثم مكث قليلا ٠٠٠ ثم  
أمرت بفرسى ٠٠ وأمريت بسلاحى ٠٠ ثم أخذت قداحى أستقسم بها ، ثم انطلقت  
فلبست لأمتى (١) ، فاستقسمت ، فخرج السهم الذى أكره ، وكنت أرجو أن  
أرده على قريش ، فأخذ مائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشد  
عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت ما هذا ، ثم أخرجت القداح فاستقسمت بها ،  
فخرج السهم الذى أكره ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره فبينما فرسى يشد  
عثر بى ، فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ،  
فركبت فى أثره ، فلمسا بدا القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى  
الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يداه من الأرض وتبعهما دخان كالأعصار ،  
فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع عنى ، وأنه ظاهر ، فناديت القوم ، فقلت أنا  
سراقه بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريكم ، ولا يأتكم منى شيء  
تكرهونه . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله ، وماذا تبغى منا ؟  
قلت تكتب كتابا يكون بينى وبينك » .

يلاحظ أنه ذكر له ما كان يسعى اليه ، ولكنه عندما رأى ما رأى ، وعلم  
اليقين فى الرسالة ، استوثق من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم منصور  
بأمر الله تعالى .

فكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا ، ثم ألقاه اليه .

وقد استمر سراقه حافظا لهذا الكتاب ، حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة  
المكرمة ، ثم فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حنين والطائف ذهب  
سراقه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتاب ، ويقول فى ذلك

---

(١) الدرر .

« دنوت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرفعت يدي بالكتاب .. »  
وقلت يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقه بن جعشم ، فقال رسول الله -  
صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا يوم وفاء » .

أعلن سراقه اسلامه ، ويظهر أنه كان مؤمنا بصدق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يوم أن رأى ما رأى ، ولذلك أراد أن يأخذ هذا الكتاب .

وقد سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن سقى الابل الضالة قائلا :  
الضالة من الابل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لابلى هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟  
قال الرسول عليه الصلاة والسلام الرحيم : نعم فى كل ذات كيد حرى أجر » .

ولقد حسن اسلامه فرجع الى قومه ، وساق الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صدقته .

### الركب يسير فى طريق وعر :

٣٢٧ — لم تكن الرحلة المباركة سهلة ، لأن الطريق فى الصحراء ،  
ليس سهلا فى ذاته ، بل هو طريق وعث تجتاز فيه الرمال والوهاد والآكام ،  
وقد اختار الدليل طريقا هو أشد طرق الصحراء وعورة ، وذلك لكيلا تتبعهم  
قريش اذا سار فى الطريق الذى ألفوا السير فيه ، وقد يكون معيدا الى حد  
مناسب للصحراء .

لقد سلك بهم طريق الساحل ، ولم يكن مألوفاً فى الوصول الى يثرب .  
منه ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فى سيرته يذكر الأماكن التى مر بها فهو  
يقول :

« لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ( أريقط ) سلك بهما أسفل  
مكة المكرمة ، ثم مضى بهما ( النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر ) على  
الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عساق ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ،  
ثم استجار بهما حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما  
من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لققا ،  
ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج (١) » . ويقال له محاج

---

(١) فى معجم البلدان لياقوت ( محاج ) .

ثم سلك بهما مرجع محاج ، ثم تبطن بهما مرجع ذى الغضوين ، ثم بطن ذى ككشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما سلم ، من بطن أعداد مدلجة تعهن ( وزن فعل ) اسم عين ماء ، ثم على العبابيد ٠٠ ثم أجاز بهما الفاحة » .

قال ابن هشام : « ثم هبط بهما العرج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما ، فحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، رجل من أسلم يقال له أوس ابن حجر ، على جمل له يقال له ابن الرداء - الى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له مسعود بن هنيذة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية الفاعن ، يمين ركوبه ، حتى هبط بهما بطن رثم ، ثم قدم بهما قباء لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل » (١) .

هذا هو البيان الذى ذكرت فيه أسماء الأماكن التى مر بها ذلك الركب المبارك ، فما ذكر كله أسماء أماكن فى الصحراء العربية ، وهى مجاهل فيها ، ما كان ليعلمها الا خبير بها ، وهو ذلك الدليل الذى كان عليما بها ، وكان أمينا على من معه مع بقائه على الشرك .

وهذا البيان يدل على مقدار صعوبة الرحلة ، حتى أجهدت الرواحل ، واضطر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى تغيير الراحلة .

ثم معيد :

٣٢٨ — هذا خبر عن امرأة نقية طاهرة مخلصة ، التقى بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القديد فى اثناء رحلته ، وقد ظهر فى لقائه بها عليه الصلاة والسلام من خوارق العادات ، مما يضاف الى خارقة خروجه عليه الصلاة والسلام ، وقد وضع الله تعالى على بصرهم غشاوة ، فلم يروه ، ويضاف نسج العنكبوت فى الغار ، والى تعشيش الحمام عليه ، والى غوص قوائم فرس سراقفة ، وعثرته عدة مرات .

فان كل هذه خوارق عادات حسية ، لا تقل عن معجزات موسى وعيسى الحسية ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحد قريشا بها ، ولم يتحد الوجود الانسانى بها ، بل تحداه بالقرآن الكريم المعجزة الكبرى .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ، ٢ ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .



والخارق الذى بدأ فى المرور على أم معبد ، هو أن اللبن در من شاة عجفاء حائل لا لبن فيها ، وسقى جميع الركب ، وتكرر السقى ، وشاركهم أهل المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واليك القصة كما رواها البيهقى بسنده عن أبى معبد الخزاعى :

« ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة هاجر من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله ابن أريقط اللبثى ، فمروا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزه جلده ، تحتبى ، وتجلس بفناء الخيمة • فسألوها هل عندها لحم أو لبن ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك ، وقالت لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وإن القوم مرملون مستنون ( أى فى سنة جدب ) •

فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا شاة فى كسر خيمتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال عليه الصلاة والسلام : فهل بها من لبن ؟ فقالت هى أجهد من ذلك • قال عليه الصلاة والسلام : تأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله تعالى ، ودعا باناء لها يريض الرهط (١) ، فتفاجت واجترت فحلب منها ثجا حتى ملأه ، وأرسله اليها ، فسقاها ، وسقى أصحابه فشربوا عللاً بعد نهل (٢) ، حتى اذا أرووا شرب ( أى عليه الصلاة والسلام ) آخرهم ، وقال ساقى القوم آخرهم ، ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا •

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلاً لانقى بهن (٣) • فلما رأى اللبن عجب ، وقال من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت ، والشاة عازب ؟ فقالت : لا ، والله انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت ، وكيت • فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صاحب قریش الذى تطلبه • فقالت ! رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة ، حسن الخلق ، مليح

(١) أى يشبع الجماعة ، وتفاجت معناها فرجت بين رجليها •

(٢) النهل الشرب الأول ، والعلل الشرب الثانى - النقى المنح •

(٣) النحلة : ضخامة البطن •

الوجه ، لم تعبته تجلة ، ولم تزر به صعلة (١) ، قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أكحل ، أزج ، أقرن ( أى سيد ) فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ، ولا هذر • كان منطق خرزات نظم يتحدثون ، أبهى الناس وأحلمهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، ربة ، لاتنساه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا لأمره ، محقود ، محسود ، لا عابس ولا مفند •

فقال بعلمها : هذا والله صاحب قریش الذى تطلب ، ولو صادفته لآلتمس من أن أصبح به ، ولأجهدن ان وجدت الى ذلك سبيلا •

هذه قصة أم معبد ، وهذه أقوالها ، وقد أشرنا الى ذلك فى صفات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمها كما جاء فى كتب السيرة عاتكة بنت خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم • وأبو معد زوجها - اسمه أكثم بن العزى ابن معبد بن ربيعة بن أضرم ، فهو من أبناء عمومتها ، وقيل انه أسلم ، وهاجر •

## خوارق أخرى :

٣٢٩ — سار الرائد الذى سلك بالنبى عليه الصلاة والسلام وصاحبه غير الطريق الجاد ، وسار فى طريق غير مطروق ، مر باماكن كثيرة وقد حدثت فى هذه الطريق خوارق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلها يتعلق بمسير السائر فى الصحراء ، وحاجته الى الزاد والماء ، فكانت الخوارق تجىء مناسبة لذلك •

وقد روى البيهقى بسند عن قيس بن النعمان قال : « لما انطلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه مستخفين ، مروا بعيد يرعى غنما ، فاستسقىاه اللبن فقال ما عندى شاة تحلب ، غير أن هناك عناقا حملت أول الشتاء وقد أخذجت (٣) ، وما بقى لها من لبن ، فقال

(١) الصعلة : صغر الرأس

(٢) اللوطف : كثرة الشعر

(٣) أى ألقت ولدها بعد أن صار تام الخلق ، ولكن نزل قبل أوانه ويقال أيضا اذا ولدته قبل تمام الحمل ناقص الخلق •

عليه الصلاة والسلام ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ، فسقى عليه الصلاة والسلام أبا بكر ، ثم حلب ، فسقى الراعى ، ثم حلب ، فشرب صلى الله تعالى عليه وسلم . أخذ العجب الراعى ، فقال من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال عليه الصلاة والسلام : « وترك تكتم على حتى أخبرك ؟ قال نعم ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال الراعى المخلص أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء !! قال أنهم ليقولون ذلك ، قال فانى أشهد أنك نبى ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت الا نبى ، وأنا متبعك ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك لا تستطيع ذلك يومك هذا فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا » .

وقد روى هذا أيضا أبو يعلى :

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «كنت غلاما يافعا ، أرعى غنما لعنتبة بن أبى معيط بمكة ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر ، وقد فرا من المشركين ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « يا غلام عندك لبن تسقينا » فقلت انى مؤثمن ، ولست بساقيكما فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها ، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الضرع ، فدعا ، فحفل الضرع ، وجاء أبو بكر بصخرة منقورة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبو بكر ، وسقيانى ، ثم قال للضرع أخلص فخلص ، فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت علمنى من هذا القول الطيب : يعنى القرآن الكريم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » .

وهذه القصة لعلماء السيرة فيها كلام ، وذلك أن ابن مسعود رضى الله عنه كان من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأوذوا فى سبيل الله ، وهاجر الى الحبشة ، والقصة توهم أنه كان اسلامه فى أثناء رحلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكلام علماء السيرة ، لا يمنع أصل القصة ، ولب الخوارق للعادة ، فان ذلك ثابت فى الصحاح ، وربما كان الكلام منصبا على السياق ، لا على أصل الواقعة وغيره ثابت بلا ريب .

وقد سقنا ذلك الكلام ، وليس فيه تطويل ، لأنه صدق ، ولا تطويل فى نقل الصادق من الأخبار •

وان هذا كله يدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء على يديه من الخوارق الحسية ما يزيد على التسع التى اختص بها موسى عليه السلام ، وليست فى دلالتها الروحية أقل من معجزات عيسى عليه السلام ، إذ أحيأ الموتى بأذن الله ، وأخرجها من قبورها بأذن الله ، واختلاف النوع لا يدل على ضعف الروحانية فى خوارق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالأسراء والمعراج خارق للعادة مادى روحى ، وغوص فرس سراقه ، ونبع اللبن بين أصابعه وتكرره يدل على قوة روحية لا تقل عن أحياء الموتى ، ومع ذلك لم يتحد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا بالقرآن الكريم « أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا » •

## وصول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى قباء

• ٣٣ — استمر الركب المبارك محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه سائرا فى طريق وعر فى وعثاء الصحراء • وقد استطال فرارا من الطلب ، وآيات الله تتبعها آيه ، وكثرت فى الطريق • وتوالت ، ليعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالواقع أن الله سبحانه وتعالى معه حيث حل وحيث ارتحل ، كما علم من قبل بعين الايمان ، إذ قال لصاحبه وهو بالغار ، لا تحزن ان الله معنا • فأراه الله تعالى الآيات فى رحلته ، كما أراه الآيات فى نبوته •

وقد انتهت شدة الرحلة بالوصول الى قباء ، حيث المنعة والنصرة ، وحيث لقاء أهل الايمان الذين كانوا يترقبون شخصه ، ويستشرقون لحلوله بينهم •

يقرر ابن اسحاق بسنده فى هذا عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة وتوقعنا قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما يبرح حتى تعلينا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ••• وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل يهودى ، وقد رأى ما كنا  
نصنع ، وأن ننظر قدوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - علينا - فصرخ  
بأعلى صوته يا بنى قبيلة ( الأنصار ) هذا جدكم قد جاء ، فخرجنا الى رسول  
الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله  
عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،  
وركبه الناس ( أى ) ازدحموا عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل .  
عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ،  
فعرفناه عند ذلك .

نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما يذكر علماء السيرة  
الطاهرة على كلثوم بن هندم ، وبعض العلماء يقول انه نزل عند سعد ابن  
خيثمة ، وقد وفق ابن اسحاق وغيره بين الخبرين ، فقال انه صلى الله تعالى  
عليه وسلم نزل عند كلثوم ، ولكنه كان اذا خرج للناس وجلسوا اليه ، كان  
ذلك فى بيت سعد .

ولقد جاءت عبارات تفيد انه كان يختار الجلوس فى بيت سعد ، لأنه  
كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل الأعزب من المهاجرين .

ونزل صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أبو بكر على  
خبيب بن أساف .

وفى قباء التقى على بن أبى طالب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .  
ان انه مكث ثلاث ليال وأيامها بمكة المكرمة بعد رسول الله صلى الله تعالى  
عليه وسلم لرد الودائع ، ثم أخذ سمته الى يثرب ، وكأنه أقام فى مكة المكرمة  
بعد الرسول عليه الصلاة والسلام المدة التى مكثها النبى وصاحبه فى الغار ،  
ان أنهما مكثا فى الغار ثلاث ليال .

ونزل على كرم الله وجهه فى المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى  
عليه وسلم ، وهو منزل كلثوم بن هند ، ويظهر أن حضوره الى قباء كان بعد  
حضور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بليلة على الأقل ، لأنه أقام بقاء ليلة  
أو ليلتين ، وقد ذكر ابن اسحاق أنه أقام فى قباء أربعة أيام بلياليها ، فذكر  
أنه أقام يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وفى هذه المدة التى أقامها  
بعباء أنشأ مسجدها ، وهو الذى أشار الله تعالى اليه فى قوله تعالى : « مسجد  
أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا » .  
والله يحب المطهرين » فهو مسجد أسس على التقوى من أول يوم أقام فيه النبى .

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جدير بأن يسمى مسجد الهجرة ، وأنه  
مسجد الذين يحبون أن يتطهروا فى عبادتهم غير مرأئين ولا منافقين .

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصل فى اليوم الثانى  
عشر من شهر ربيع الأول ، وكان يوم الاثنين ، وقيل فى اليوم التالى ، والأول  
هو الذى يرجحه الرواة .

## دخول المدينة

٣٣١ — كان دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة  
يوما مباركا على أهل المدينة المنورة ، وعلى الأخلاف ، وعلى الخليقة كلها ،  
لأنه اليوم الذى انتقل فيه الاسلام من الدعوة فى مكة المكرمة وما حولها ، غير  
معلمة بنظام ثابت مقرر عام بل كانت الدعوة فى دائرة العقيدة ، وبيانها ،  
وبيان ما يتعلق بها ، من غير أن تكون نظاما مفروضا يتبع وينفذ ، انتقل  
الاسلام من ذلك الحيز الى عموم الدعوة فعلا ، للبلاد العربية ، فى كل صقع  
من أصقاعها ، ثم تجاوز حيز العرب ، الى الدول المجاورة ، ومنها انساب الى  
ما وراءها من اقليم الى اقليم .

ولقد أحس أهل المدينة المنورة بما حباهم الله به من فضل ، وبما اختص  
المدينة من شرف ، اذ صارت موطن الايواء والنصرة أولا ، وموطن النظام  
الاسلامى ثانيا ، والمكان الذى يآزر اليه الاسلام ثالثا ، وأحست بأن الوثنية  
أذنت بأفول ، وأن اليهود فيها صاروا لا يتناولون بعلم علموه ، أو كتاب  
مسبقوهم به .

ولذا خرج الناس مهللين مكبرين بمقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم  
يستقبلون من يرون فيه الهداية فرحين واجدين فى مقدمة العزة والكرامة ،  
والاحلاس والطهر من الوثنية .

روى الشيخان البخارى ومسلم بالسند المتصل عن أبى بكر رضى الله  
تعالى عنه أنه قال : « خرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطريق ، وعلى البيوت  
والغلمان والخدم يقولون : « الله أكبر جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ،  
فلما أصبح انطلق ، وذهب حيث أمر » .

وروى البيهقي في دلائل النبوة ، وأبو بكر المقرئ في الشمائل ، والطبري في الرياض ، عن ابن عائشة ، واسمه عبيد الله بن محمد بن حفص ، وأمه عائشة بنت طلحة ، أنه صعدت ذوات الخدور تعلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا	من ثنيتات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع (١)

روى هذا الخبر في سنن الترمذي والنسائي عن السائب بن يزيد .

هذا استقبال رائع - صحبه تكبير أهل المدينة لمقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان هناك استقبال عملي أروع في معناه ، وهو تزاحم أهل كل بطن من بطون الأوس والخزرج ، في أن يأخذ بناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتكون اقامته بينهم .

جاء رجل من بنى سالم ، فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فينا العدد والعدة والمنعة ، وأخذوا بزمام الناقة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « خلوا سبيلها فانها مأمورة » .

وجاء رجال من بنى بياضة . فقالوا يا رسول الله هلم إلينا الى العدد والعدة والمنعة ، قال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا مرت بدار بنى ساعدة ،

---

(١) يقول ابن القيم ان هذا الدعاء قيل عند عودة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة تبوك ، ويحذف البيت الأخير من الأبيات الثلاثة ، والسبب في قوله أنه أرحف المرجفون في المدينة عن النبي في غزوة تبوك مما جعل المؤمنين يستبشرون ويفرحون بمجيئه ، فخرج الغلمان والنساء يقولون ، وان ثنية الوداع في مدخل المدينة من قبل الشام ، لا من قبل مكة ، ويقول في ذلك ابن القيم : لما دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساء والصبيان والولائد تعلن طلع البدر علينا . من ثنيتات الوداع ، وجب الشكر علينا . ما دعا الله داع ، وبعض الرواة يقول . انما كان ذلك عند مقدمه من مكة الى المدينة وهو وهم ظاهر لأن ثنيتات الوداع انما هي من ناحية الشام ، ولا يراها القادم من مكة الى المدينة ولا يمر بها الا اذا توجه الى الشام .

اعترضه سعد بن عبادة والمندر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه معاذ بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله ابن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج ، فقالوا يا رسول الله هلم الى اخوانك ، ومنهم أم عبد المطلب جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا هلم الى العدد ، والعدة ، والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها •

فانطلقت حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت ، وكان ذلك عند دار أبى أيوب الأنصارى ، ويقول ابن اسحاق لما بركت لم ينزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها ، فرجعت الى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ••• ثم نزل عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بنى المسجد ، وبنى له دارا •

## خطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

٣٣٢ — تدل هذه الأخبار التى سقناها ، على أن الأنصار الذين دخلوا فى الاسلام كانوا يرحبون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى بيوتهم فرادى ، وجماعات ، وأنهم بيوتا وبطونا كانوا يستعدون بعددهم ، ويعطون العهد ، على المنعة والحرب معه ، من غير تحفظ ولا شرط •

ويظهر أن ذلك كان يثير غضب المشركين فيهم ، وخصوصا الذين صاروا من بعد منافقين ، يبطنون مالا يظهرون أو يخفون مالا يبدون ، ولقد روى أنه ما مر بأهل بيت الا أعلنوا التأييد وأبدوا الترحيب الا عبد الله بن أبى الذى صار من بعد زعيم النفاق فى المدينة الطاهرة •

ولقد ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مر فى طريقه بعبد الله بن أبى بن سلول ، ينتظر أن يدعوه الى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسهم ، فقال عبد الله انظر الى الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنفر من الأنصار ،



فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد من الله تعالى علينا بك يا رسول الله وأنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ، وتملكه علينا •

اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد نزوله فى دار أبى أيوب الأنصارى الى ثلاثة أمور :

أولها : صلاة الجمعة فقد صلاها فى بنى سالم بن عمرو بن عوف ، ويظهر أنه صلاها فى أرض فضاء ، لأنه لم يكن قد بنى مسجده فيها ، ومادام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختارها لاقامة الجمعة ، فهى مسجد تقام فيه الصلوات ، وخصوصا أنه ولى أمر المسلمين •

الأمر الثانى الخطبة ، وقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطب الجمعة ، وقد روى فى نصها روايتان : احدهما - رواية ابن جرير الطبرى ، والخطبة فى هذه الرواية طويلة نسبيا ، ورواها الليهقى ، وروايته أقصر ، ولم ينص على أنها خطبة واحدة ، بل روى أخرى بعدها على أنها خطبة أخرى ، ولنذكر الخطب الثلاث ، وان كان فى بعض رواتها كلام ، ولكنها أشبه بكلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومواعظه •

### الخطبة التى رواها ابن جرير :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله • فانه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله تعالى فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى وان تقوى الله تعالى لمن عمل على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينرى بذلك الا وجه الله تعالى يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فانه يقول تعالى : « ما يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد » واتقوا الله فى عاجل أمركم ، وأجله فى السر والعلانية ، فانه من يتق

الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ،  
وان تقوى الله تعالى توقى مقتته وتوقى سخطه ، وان تقوى الله تبيض الوجه ،  
وترضى الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد  
علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين ،  
فأحسنوا كما أحسن الله تعالى اليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق  
جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من  
حيى عن بينة ، ولا قوة الا بالله ، فأكثرُوا من ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت  
فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى  
على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ، ولا يملكون منه ، الله  
أكبر ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

هذه الخطبة كما رواها ابن جرير ، ولولا ان الحافظ ابن كثير رواها  
ما أقدمنا على نقلها ، ولكن قال الحافظ : هكذا أورده ابن جرير ، وفى السند  
ارسال .

ونحن نقرر ما قررنا ان ما اشتملت عليه أشبه بمواعظ النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، ولكن نلاحظ أنها أطول من أكثر خطب النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، ونلاحظ أن فيها تكرارا لم يعهد فى خطب النبى صلى الله  
تعالى عليه وسلم ، وأن فيها آيات قرآنية من الآيات المدنية ، مما يدل على أنها  
انزلت بعد هذه الخطبة ، والله أعلم .

هذا ما نراه بالنسبة للخطبة التى رواها ابن جرير ، وقد روى البيهقى  
خطبتين .

أولاهما : ما رواه عن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أول خطبة  
خطبها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة أن قام فيهم فحمد  
الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أيها الناس قدموا لأنفسكم ، تعلمن ، والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن  
غنمه ليس لهما راع ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه  
دونه : ألم يأتك رسولى قبلك ، وأتيتك مالا فأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ،  
فينظر يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامة ، فلا يرى غير جهنم ،  
فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ، ولو بشق تمره ، فليفعل ، ومن لم يجد  
فكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنه عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ،  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

والثانية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله فى قلبه ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، فانه من يختاره الله ويصطفيه فقد سماه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكث فى عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال ابن كثير فى رواية هذه الخطبة ان طريقها مرسله الا أنها مقوية لما قبلها ، وان اختلفت الألفاظ .

كانت هذه الخطب على ما هى متن أولها من نقد ، وعلى أنها مرسله ، بيد أنها فى جملتها على منهاج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوة المؤمنين لتقوية ايمانهم ، وتغذيته بتقوى الله تعالى ، كما دلت أقوال النبى قبل الهجرة على منهاجه فى دعوة المشركين الى التوحيد .

## بناء مسجده عليه الصلاة والسلام

٣٣٣ — هذا هو الأمر الثالث الذى ابتدأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقامته فى المدينة المنورة .

لقد ابتدأ سبحانه وتعالى ببناء مسجد فى قباء ، وهو المسجد الذى ذكر الله سبحانه وقال فيه « **مسجد أسس على تقوى من الله ورضوان** » وأنه يجىء اليه الذين يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين .

ولما نزل فى بيت أبى أيوب اتجه تفكيره الى انشاء مسجد بالمدينة المنورة الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال وهى : المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس ( المسجد الأقصى ) ، وهذا المسجد ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ( مسجدى هذا ) .

روى عن ابن شهاب الزهري أنه قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى موضع مسجده ، وهو يصلى فيه رجال من المسلمين ، فكان مصلى لهم قبل أن يبنى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه مسجده .

ولقد كان ذلك الموضع الذى بركت فيه الناقة مربدا لغلّامين يتيمين فى المدينة المنورة من أولاد الأنصار ، وكان اليتيمان فى كفالة أسعد بن زرارة الذى كان أول داع للإسلام فى المدينة المنورة قبل هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليها .

ساوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغلّامين ، أو وصيهما ، أوهما بحضرة وصيهما ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أبى إلا أن يكون بالثمن ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير .

وكان قبل شراء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة والسلام جدارا لا سقف له ، وكان يصلى فيه ، ويقيم الجماعة والجمعة أسعد بن زرارة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت قبلته الى بيت المقدس ، التى كانت قبلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة .

وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل ذلك المصلى مسجده كما أشرنا .

وقد جعله صلى الله تعالى عليه وسلم بناء مربعا ، طول كل بعد من أبعاده مائة ذراع ، وقد قال ابن القيم رضى الله عنه ، جعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع ، وتم بناؤه باللبن ، وبعضهم قال أن بعضه كان بالحجر المروض .

وقد اشترك فى بنائه كل من حضر البناء من المهاجرين والأنصار ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل فى بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول راجزا .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

ولقد جعلوا يرتجزون ، وينقلون اللبن ويقول بعضهم فى رجزه مستحثا الهم .

لئن قعدنا والرسول يعمل لئذاك منا العمل المضلل

وجعل عليه الصلاة والسلام قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، بابا فى مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة ، والباب الذى يدخل منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعل عمده بالجذوع ، وذكر السهيلي أنها جندوع نخل ، وسقف بالجريد ، وجعلت قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة منضودة بعضها على بعض •

وقد نخرت عمده فى خلافة الامام عمر فجردها ، واستبدل بها ، ولما كانت خلافة عثمان ذى النورين رضى الله عنه بناها بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ، وهذه رواية واحدة ، وفى عهد عبد الملك ابن مروان أضيفت حجرات نسائه ، وكانت تسعا •

ولما كانت أيام بنى العباس ، بناء المهدي ثالث ملوكهم ، ووسعه وزاد فيه ، وذلك فى سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه عبد الله المأمون ، وأتقن بنيانه •

ونخلص من هذا الى أن سنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بناء مسجده ، ومسجد قباء كانت بأقل كلفة لتشجيع بناء المساجد •

وكما كان مسجده الطاهر الذى هو أحد المساجد التى تشد اليها الرحال كان أيضا مسكنه ، وكانت بيوته عليه الصلاة والسلام تسعا ، بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرصوفة بعضها فوق بعض ، وسقف أيضا بالجريد ، ولم يكن سقفه عاليا •

وكان سريره عليه الصلاة والسلام خشبات مشدودة بالليف ، فهل من معتبر ، فذلك نبى الخليقة ، فهل من الناس من يتسامى الى حياة كحياته !!

تم بحمد الله

المجلد الأول ويحوى الجزء الأول

ويليه المجلد الثانى

ويحوى الجزءين الثانى والثالث





تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتب والوثائق

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى

ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤

---

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار ( لاطوغلى ) القاهرة

تليفون : ٢٢٠٧٩

